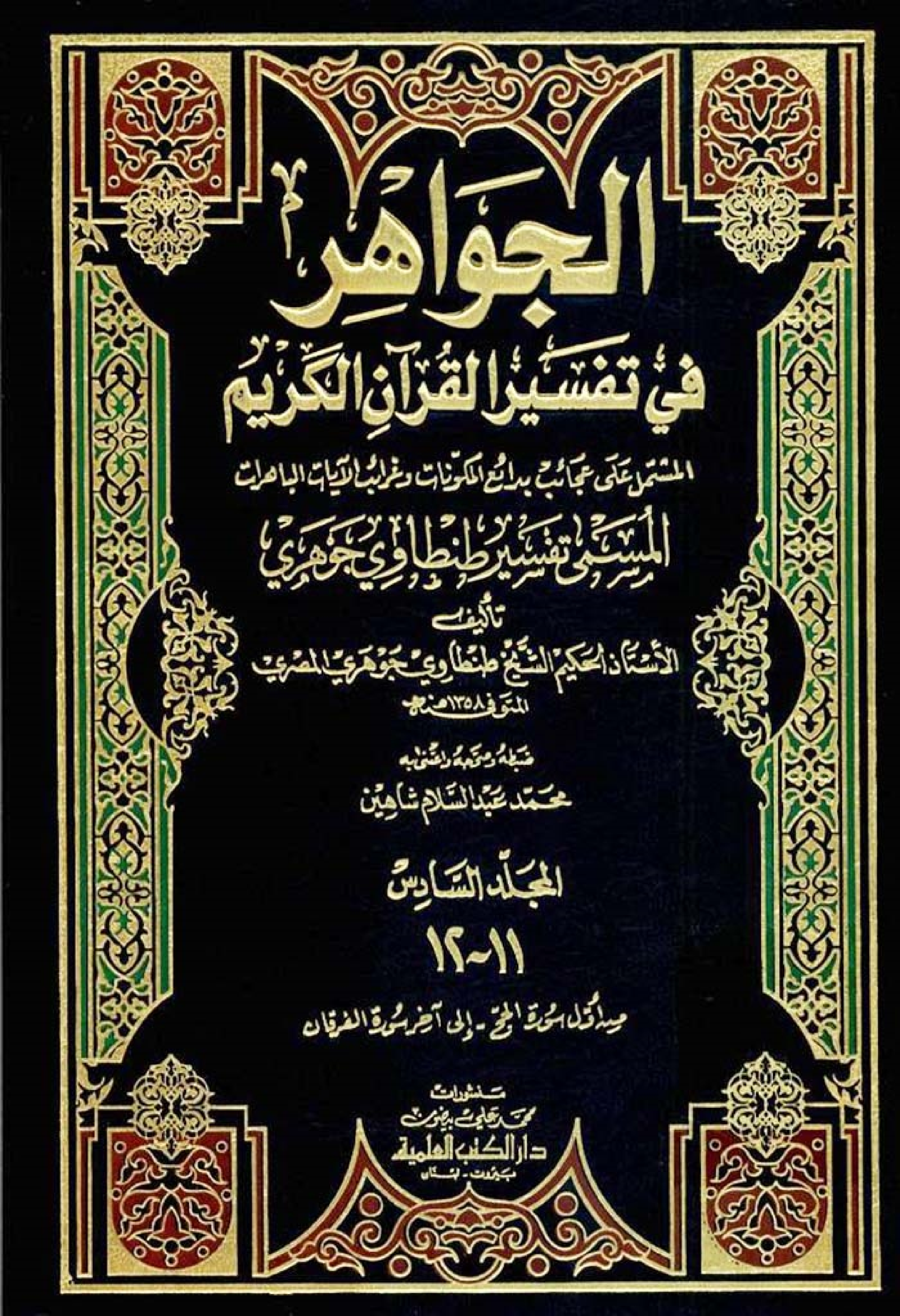

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد السادس
١١-١٢
من أول سورة الحج - إلى آخر سورة الفرقان
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

١١ - ١٢

المحتوى:

من أول سورة الحج - إلى آخر سورة الفرقان

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾
[الذاريات: ٥٥]

سورة الحج مكية غير ست آيات

من قوله: ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾[الآية: ١٩] إلى قوله: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[الآية: ٢٤]

وهي ٧٨ آية

وسنذكر مناسبتها لما قبلها عند الابتداء في تفسير القسم الثاني من السورة.

وهي ثلاثة أقسام

القسم الأول: في البعث والدليل عليه، وما يتبع ذلك، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[الآية: ٢٤].

القسم الثاني: في الحج والمسجد الحرام، من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الآية: ٢٥] إلى قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الآية: ٣٧].

القسم الثالث: في أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام هذه الدنيا على خالقها وضرب مثل بالعجز عن خلق الذباب عجزاً تاماً من قبل الأصنام المعبودة، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[الآية: ٣٨] إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ
وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ
شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ
(٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ
آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ
النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ
خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا
يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ
الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ
وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠)
وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى
الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ۞

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ ﴾ احذروا عقابه واعملوا بطاعته ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ ﴾ قيام الساعة ﴿ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ هائل ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾ أي: الساعة أو الزلزلة ﴿ تَذۡهَلُ ﴾ الذهول: الذهاب عن الشيء بدهشة ﴿ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ ﴾ أي: كل امرأة معها ولدها ترضعه عنه، والمقصود من هذا تصوير هولها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا ﴾ جنينها ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ كأنهم سكارى ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ في الواقع ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ فأرهقهم هوله بحيث طارت عقولهم وذهب تمييزهم. ولما كان النضر بن الحارث يكثر الجدال يقول: لا بعث ولا وحي، نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وما الملائكة إلا بنات الله، نزلت هذه الآيات الآتية فيه وفي غيره ممن على شاكلته إلى يوم القيامة، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ ﴾ في المجادلة وفي غيرها، ﴿ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ متجرد للفساد، ثم وصفه بأنه ﴿ كُتِبَ عَلَيۡهِ ﴾ أي: الشيطان ﴿ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ اتبعه، وضمير الهاء للشأن والحال ﴿ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ الجملة خبر لـ «من» أو جواب له. والمعنى كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال ﴿ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ لأنه يحمله على ما يؤدي إليه. ثم أخذ يذكر الحجة على ذلك بالبراهين الطبيعية فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ ﴾ أي: شك ﴿ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ بعد الموت ﴿ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ فإن أباكم آدم خلق منه وهكذا أنتم تغذيتم بالنبات وبالحيوان، والحيوان أيضاً تغذى بالنبات والنبات غذاؤه من عناصر مختلفة، وهو من التراب فأنتم أيضاً من تراب بواسطة ﴿ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ أي: المني، فالإنسان يكون جسمه مكوناً من الدم الناشئ من الغذاء المنتهي إلى التراب، وينشأ من فضل ذلك الدم النطفة ليخلق بسببها آخر ﴿ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ﴾ أي: دم جامد غليظ ﴿ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ ﴾ قطعة من اللحم، وهي في الأصل قدر ما يمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ مسواة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسواة، أو مصورة وغير مصورة ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ ﴾ بهذا التدريج حكمتنا وإبداعنا ونظامنا ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾ أي: نقره ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ هو وقت الوضع من ستة أشهر إلى أربع سنين، وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ ﴾ من الرحم ﴿ طِفۡلٗا ﴾ صغاراً، و« طفلاً » حال أجريت على تأويل كل واحد. وقرئ « ونقر ثم نخرج » بالنصب عطفاً على « نبين »، ويكون المعنى خلقناكم بالتدريج لأمرين: الأول: إيقافكم بالتعليم على هيئة تربيتنا في عملنا وحكمتنا في نظامنا. والثاني: أننا نقركم في الأرحام حتى تولدوا وتنشئوا وتبلغوا أمد التكليف. وفي هذا دلالة على أن قراءة علم الأجنة له من الشأن ما ليس لنفس الأجنة بل هو مقدم عليها، فهو سبحانه يقول: إن نظامي المتقن إنما المقصد منه أن تدرسوه، وما خلقتكم إلا لتتبينوه وتعرفوه إن معرفتكم لهذا الخلق ونظامه هي المقصودة من خلقكم، ولو لم يكن في القرآن كله سوى هذه الجملة لكفى في تبيان أن العلوم الطبيعية كلها واجبة دراستها وجوباً عاماً، أي أنها فرض كفاية يقوم بها البعض والباقون يستمدون من ذلك البعض، وكما أن القرآن يقول الله فيه إنه تبيان، هكذا يقول في الطبيعة أو أهم قسم منها إنها للتبيين، فالقرآن تبيان والطبيعة تبيين. ﴿ ثُمَّ ﴾ نربيكم ﴿ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ ﴾ كمال

عقلكم وقوتكم، جمع شدة كالنعم جمع نعمة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ عند بلوغه الأشد أو قبله ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ وهو الهرم والخرف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ أي: ليعود كهيئته الأولى سخيف العقل قليل الفهم ناسياً للعلم. فهذا دليل على إمكان البعث لأن هذه التغيرات المتابعة المتناسقة تدل على أن التغير مستمر فإذا مات أمكن أن يحيا.

عجيبة من عجائب العلم

أعلم أن هذه الحجة بعينها هي التي أدلى بها «سقراط» عند موته لما كان تلاميذه حوله وهو يودعهم في النفس الأخير. فهاك ما ترجمه الفيلسوف «ستتلانة» الطلياني والقفطي المصري. ولأكتف لك بما يناسب هذه الآية، قال: إنا نشاهد الضد يتولد عن ضده؛ فالجميل ينشأ من القبيح والعدل من الجور واليقظة من النوم والنوم من اليقظة والقوة من الضعف وبالعكس، فالأشياء يستحيل بعضها إلى بعض ثم ترجع بصفة دائرة إلى ما كانت عليه. والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان. فالوجود ينشأ من العدم والموت ينشأ من الحياة، وعلى ذلك يلزم أن تنشأ الحياة من الموت، إذ لا بد أن يكون للموت ما يناقضه وإلا فقد خالفت الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء. انتهى المقصود منه.

فانظر كيف كان استدلال «سقراط» على الحياة بعد الموت قبل القرآن بنحو تسعمائة سنة هو الطريق الذي نزل به الوحي. فالقرآن إذن بهذا يقيم للمسلمين الحجج العقلية ويفتح لهم باب الفهم، فكأنه يقول: أنا لم أرد أن أعلمكم ذلك بالوحي مجرداً، بل إني أردت أن أفتح لكم باب البراهين العقلية، وهذا بعض ما عناه بقوله: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾، فهذا من التبيين وهو الاستدلال.

ثم ذكر دليلاً آخر تسهل مشاهدته للناس فقال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ميتة يابسة، من همدت النار إذا صارت رماداً ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ وانتفخت. وقرئ «وربأت» أي: ارتفعت ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ ﴾ من كل صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن رائق ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ هذا إشارة إلى ما تقدم من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وإحياء الأرض بعد موتها، وهو مبتدأ خبره ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: ذلك حاصل بسبب أن الله هو الثابت الوجود فيصرف الموجودات في أطوارها وهو لا يتغير، ويبقى وجودكم على كل حال وإن تغيرتم في الأطوار فبقاؤكم سببه أنه هو باق. وتغيركم سببه أنه قادر وحكيم، ويكون ذلك لتربيتكم وترقيتكم لتقربوا منه في مقعد صدق، وعبر عن المعنى الثاني بقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾. فهذه الجمل الأربع تبين للمعنى الثاني. يقول الله: أنا حق ثابت باق فلذلك أبقيكم إلى ما لا يتناهى من الزمان، وأنا قادر وحكيم فلذلك خلقتكم أطواراً. هذه هي الحجج التي ذكرها من علوم الطبيعة استدلالاً على البعث.

ذم المعجبين بأنفسهم والمعاندين

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي: بلا علم كالنضر بن الحارث ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ أي: استدلال يهدي إلى المعرفة ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي: وحي حال كونه ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ أي: لاوي جنبه وعنقه متبختراً متكبراً معرضاً عما يدعى إليه من الحق. وقرئ «عطفه»

بفتح العين، أي: مانعاً تعطفه إلى غيره. يقول الله تعالى: هو يجادل ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: عن دين الله ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ هوان وذل، فإنه قتل هو وعقبة بن أبي معيط ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ المحرق. هكذا كان من اتبع هواه فطاش سهمه وقل عقله فتكبر عن العلم وأعرض عن الاستدلال تيهاً وغروراً. ومثل هذا لا يعطف على الناس لأنه لا يرى أن هناك حياة بعد الموت فتكون همته في الحياة الدنيا ويقال له: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ بل هو مجاز لهم على أعمالهم، والمبالغة في ظلام لكثرة العبيد.

ولما ذكر أن المعجبين بأنفسهم يصدون عن ذكر الله ويعرضون عن الاستدلال أعقبه بذكر من كان أمرهم كالمعلق في الدين، فلا هم آمنوا مطمئنين ولا هم من المتكبرين، بل هم كالمذبذبين وهم قوم يعبدون الله على وجه التجربة والشك وانتظار نعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمناً، وإن أصابه شر ترك الدين، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ أي: طرف من الدين فلا ثبات له؛ فمثله كمثل الذي يكون على طرف الجيش، فإن كانت غنيمة اقتسم، وإن كانت هزيمة كان أول من انهزم، وهذا قوله: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ ﴾ سكن واستقر ﴿ بِهِۦ ﴾ بالخير والدين فعبد الله ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ شر وبلاء في جسده وضيق في معيشته ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ جهته، أي: ارتد ورجع إلى الكفر حال كونه قد ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: خسران الدارين ﴿ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الظاهر فلا يخفى على أحد، وذلك منطبق على أعاريب قدموا المدينة، فإذا صح بدن أحدهم ونتجت فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله، قال: قد أصبت خيراً بالإسلام، واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب عن دينه ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بعد الردة من الأصنام ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ إن لم يعبده ﴿ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ إن عبده ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ عن الصواب ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥ ﴾ يكون معبوداً عبادة توجب القتل في الدنيا بارتداده عن الإسلام والعذاب في الآخرة ﴿ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ الذي يتوقع بعبادته وهو الشفاعة ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ الناصر ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ المصاحب، وأي عشير هذا وأي مصاحب إذا كان لا ينفع مولاه ولا ينصر من يعاشره، أما الله فهو ينفع ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فتبين من هذا أن الأصنام لا تنفع وأن الله ينصر من تولاه فيدخله الجنات، وممن تولاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو ناصره؛ ومن أكبر أسباب العذاب في جهنم والخزي فيها والافتضاح ما يداخل الإنسان من الحقد و الغيظ على النعم التي يسديها الله لعباده، فإن الله خلق الناس ليتعارفوا، فمن داخله الحقد والغيظ من نصر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فليفعل كل ما يريد وليمد حبلاً إلى سقف بيته فليقطع، أي: فليختنق، لأن المختنق يقطع نفسه بحبس المجاري. والقصد من ذلك أن جهنم تحرق من كفر ومن حنق غيظاً على الناس، بل الآخرة لمن صفت سرائرهم ولم تخبث نياتهم، وهذا قوله: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ بحبل ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ سماء بيته ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ثم ليختنق ﴿ فَلْيَنظُرْ ﴾ فليتصور في نفسه ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ ﴾ فعله ذلك الذي سمي كيداً، لأنه منتهى ما يطيقه المغتاظ من الفعل ﴿ مَا يَغِيظُ ﴾

أي : غيظه ، من نصر الله لعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كل من كره النعم التي يعطيها الله لعباده جاهلاً أن النوع الإنساني ينفع بعضه بعضاً ، فمن كره نعمة غيره فقد كره نفسه من حيث لا يعلم ، لأن الناس في الحقيقة جميعاً على سطح الأرض كالمتضامنين ، وإن لم يعرفوا ذلك فإن أمم الشرق ينفعها أمم الغرب والعكس . فهكذا محمد صلى الله عليه وسلم دينه نافع لهؤلاء الناس ، وقد صح ذلك فإن أبناء العرب اتبعوه بعد ذلك إلا قليلاً ، وقولنا : إن من كره نعم الناس فقد كره نفسه ، قد برهن عليها الحكماء في علم الفلسفة فقد قالوا : إن الناس ينفع بعضهم بعضاً ، فإن كل امرئ محتاج لسواه من سائر الناس يصل إليه خيرهم من حيث لا يدري بالمتاجرة والعلم وغيرهما ، فهؤلاء مكملون له ، ومن كره غيره فقد كره من يكمل نفسه ، ومن كره من يكمل نفسه فقد كره كمال نفسه ، ومن كره كمال نفسه فقد أحب نقصها . ومعلوم أن الإنسان طبعاً مغرم بحب كمال نفسه ، فتكون النتيجة هكذا : أحب كمال نفسه وأحب نقص نفسه ، أو أحب نفسه وكره نفسه ، وإذا كرهها فقد استحل خنقها . وهذا البرهان العجيب هو الذي كان السر في التعبير بقوله : ﴿ لْيَقْطَعْ ﴾ ، كأنه يقال : أيها الكاره لمحمد الذي جاء لإنقاذك ، إن نعم جميع الناس لا سيما الأنبياء نافعة لك ، فإذا كرهت نعم محمد فكأنك تختنق ، لأن النتيجة أنك تكره النعم لنفسك فتكره نفسك فتستبيح خنقها من حيث لا تشعر .

لا تفعل ذلك أيها المكذب محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا تجعل للغيظ محلاً من قلبك ، فإن القرآن كله آيات واضحات ولا بد من أن يعم ، فاتبعه فهو خير لك من التمادي في العداوة والغيظ ، وهذا هو قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الإنزال ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أنزلنا القرآن كله ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى ﴾ أي : ولأن الله يهدي به أو يثبت على الهدى ﴿ مَن يُرِيدُ ﴾ هدايته أو ثباته أنزله كذلك مبيناً . وهنا أخذ يجلي حقيقة العالم الإنساني كله بعد ما بين حقيقة المعاندين ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فيظهر المحق من المبطل ويجازي كلاً بما فعل ويضعه في مقامه اللائق به ، فليس الله بغائب عن أحد . فالأنبياء وأممهم والطائعون والعاصون كلهم تحت مراقبته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ عالم مراقب لأحوالهم جميعاً ، ومن ذلك مراقبة قلوب الحاسدين المغتاظين وقلوب المعاندين والكافرين وقلوب جميع المؤمنين بالأنبياء السابقين ، فإن هم استقاموا أدخلهم جناته ، وإن عصوا أو كفروا أدخلهم ناره ، ومن أشد معصيتهم أن ينكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حين عرفوا حقيقة دينه ، وهو مطلع على قلوبهم فيعذبهم ، وإن كنتم في شك من مراقبة الله لجميع العالم فانظروا كيف سجد له كل ما في السماوات والأرض من عاقل وغيره وخضع لتسخيره مع النظام الجميل ، فهل يغفل عما نظمه بعلمه وصرفه بقدرته ودبر أحقر الحشرات وأحقر الذرات ، وجعل لكل حشرة من الكمال ما جعل لكل فيل من كماله ، بل لكل كوكب وشمس من عنايته . فكيف ترون هذا وتظنون أنه غافل مع أن مراقبته واضحة لمن تأمل في الأشكال والأحوال والأخلاق والأطوار وإرضاع الأمهات لأولادها ، وهو قوله مستدلاً على أنه على كل شيء شهيد ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ غلب العاقل على غيره ، وخص بالذكر أعظم ما نراه فعطف ما يأتي ،

فقال: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾ قد سجدوا سجود عبادة مع سجود التسخير الذي اشتركوا فيه مع غيرهم من العوالم ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ ﴾ لأنهم لم يسجدوا سجود عبادة ليطابق سجود التسخير بكفرهم، ثم أعقبه بأن الفعل له وحده فقال: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ ﴾ بالشقاوة ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ ﴾ يكرمه بالسعادة، وحينئذ يقال: ما سبب هذا التمييز؟ فيجاب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ لحكم لا تدركونها في الإهانة لقوم والخفض لآخرين بما استعدوا له، كما استعدت الدودة لسكنى الطين، والهوام لسكنى التراب، والسمك لسكنى البحر. فهذا من النظام العام في العالم الجسمي والعقلي، وعقول أكثر الناس قاصرة لا تصل إلى فهم الحقيقة ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ﴾ فريقان مختصمان، فلفظ «خصم» وصف لـ «فريق» المحذوف، وقوله: ﴿ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ﴾ راجع للمعنى، فالمؤمنون فريق والكافرون فريق آخر ﴿ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ﴾ أي: جادلوا في دينه، فيقول أهل الكتاب: نحن أولى بالله منكم ونحن أقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم. وقال المسلمون لهم: نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبكتابنا، وأنتم تعرفون نبينا وصدقه ولكن كفرتم حسداً، والكلام أعم من هذين الفريقين، وهؤلاء قد فصل الله بينهم كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾، ثم قال: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾ تحيط بهم إحاطة كإحاطة الثياب حال كونهم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴾ الماء الحار حال كون الحميم ﴿ يُصۡهَرُ ﴾ يذاب ﴿ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ ﴾ من فرط الحرارة المؤثرة في ظواهرهم وجلودهم الممتدة إلى أحشائهم ﴿ وَٱلۡجُلُودُ ﴾ لأنها الملاقية لتلك الحرارة ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴾ سياط منه يجلدون بها، جمع مقمعة ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ ﴾ أي: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي: ردوا إليها بالمقامع. ويقال: إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بتلك المقامع فيهوون فيها سبعين خريفاً.

العذاب المصغر في الدنيا مقدمة العذاب في جهنم

واعلم أن نظائر هذا في الدنيا والناس يضربون الآن بمقامع معنوية وهم لا يشعرون أنهم يضربون ويزجون في العذاب. فهناك عادة شرب التبغ وهو التدخين وعادة الخمر وعادة شرب الشاي وعادة شرب القهوة وعادة الإسراف في المآتم والأفراح، وعادات كثيرة من هذا القبيل يعلم الناس أنها مهلكة لهم ولكنهم ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾. هكذا الدول في أوروبا شكلت لجنة سمتها «جمعية الأمم» للفصل بينها في القضايا. ومن أكبر دول الأرض دولة الإنجليز وهي هي التي بطشت ببلادنا المصرية بطشة الجبارين، وقد كانت نزعت السلاح من الفلاحين ومن الأمة من قبل، وأخذت منا السودان وأرجعت عسكرنا. والعالم الإنساني كله يصرخ ونفس عقلائهم يصرخون قائلين: لا سلام لا سلام في الأرض. والأمم كلها تعلم أنهم لا سعادة لهم إلا بسعادة كل منهم. ولكن مقامع الشره والحرص تردهم إلى أسفل سافلين، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾[التين: ٤] أي: من حيث نظام جسمه وبهجته ونظام عقله ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾[التين: ٥] فجعلناه يرتطم في أوحال الأكاذيب والشهوات والطمع والحرص،

فيضر المرء أخاه وتضر الأمة غيرها مع علمها أن الضرر يرجع عليها بنقص الثمرات النافعة التي كانت تجنيها من أخواتها في الإنسانية . ترى الرجل يكثر من الكلام أو الأكل أو يكثر غضبه أو حرصه على المال أو غمه عليه أو عداوته أو كبرياؤه أو عجبه أو كراهته للناس ، أو يكون جباناً أو كثير الكسل أو النوم أو الخوض في أعراض الناس ، ثم إذا سمع مثل هذا القول أو عرف الحقائق تمنى لو يرجع عن عادته ، ولكن سوء الأثر والتربية والعادة تقمعه بمقامع من حديد لا نراها ولكن أثره أشد من آثار المقامع الحديدية فيزج في جهنم ومعه الأعمال . فهذا عذاب واقع فعلاً ولكن الناس لا يفهمون أنه عذاب ، وهو مقدمة للاختباط والاختلاط والآلام بعد الموت ، وسيكون للناس هناك حسرات وزفرات وحال مزعجة . فعقولهم هنا هي عقولهم هناك . فالمقامع تكون هناك أتم والعذاب يكون هناك أخزى ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود : ١١٩] ، ويقال لهم فيها : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي : النار البالغة في الإحراق .

ولما فرغ من الكلام على أصحاب النار الذين هم ناقصو النفوس لجهالتهم أخذ يذكر الجنة لكاملي النفوس لصلاحهم فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ حلياً كائناً ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة جمع سوار ، وبين الأساور بأنها ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ وعطف على « الأساور » قوله : ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أي : ويؤتون لؤلؤاً ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ جملة اسمية أفادت أنهم اعتادوا لبس الإبريسم الذي حرم لبسه على الرجال في الدنيا . وفي حديث البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . انتهى .

فأهل النار منغمسون في آلام الأهواء والشهوات والخوف والطمع والغضب والبغض ، وأعدى أعداء الإنسانية في كل حال شيئان : البغض والخوف ومنه الجبن ، وسعادة الإنسانية الحب والشجاعة والعلم فيها يدخلون الجنة . ومن العلم الإيمان الصحيح .

ومتى ازدادت الحكمة والعلم وصفت الأخلاق رأى الناس ربهم . وكبرياء الله في الحديث هي تعاظمه أن يراه الناس إلا إذا صفت النفوس فارتقت إلى العالم الأعلى اللطيف فعرفت ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهو قولهم : « الحمد لله الذي صدقنا وعده » ، و« سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ، ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي : إلى دين الإسلام ، أي : هدوا إلى دين الله المحمود . فالطيب من القول المذكور إنما هو وقوف النفس على الحقائق إذ يحيط علماً بهذه المخلوقات على مقدار طاقته المعبر عنه بانفراد الله بالربوبية وصدور جميع النعم عنه وتنزهه عن الحوادث ، وذلك لا يكفي فيه علم التوحيد بل لا بد من دراسة نظام هذه الدنيا درساً متقناً ، وهذه الدراسة تفتح باب الحب على مصراعيه لأمرين : الأول جمال الله المنبث في هذه الدنيا . والثاني : النوع الإنساني ، فيتعشق العلم بالأول والإحسان بالثاني . فبالأول يرى الله ، وبالثاني يدخل الجنة ، لأن الجنة من يدخلها يكون سعيداً بالمحبة ، وما دامت هناك بغضاء بين أهلها فلا سعادة ولا جنة ؛ فالقلوب

المتباغضة متباعدة متفرقة، والقلوب المتحابة مقتربة كما أن النار مفرقة والجنة تجمع. ومثاله في الدنيا نار الحريق تفرق المجتمعات المختلفة كالحطب المركب من عناصر مختلفة وتجمع المؤتلفات كالطين توقد النار عليه فيتحد. فنار الحب تجمع المؤتلفات ونار البغض تفرق المختلفات، وهكذا سيكون في الآخرة نار الحريق لذوي النفوس المبغضة للناس، ومنها نفوس الكفار الذين خالفوا طريق الحق في نفع الإنسانية ونور الحب المشرق في الجنة فيجمعهم، لأن نفوسهم مؤتلفة والائتلاف بالإيمان والعلم ظاهر في الدنيا فهكذا في الأخرى. وكلما كان في الدنيا أمتن وأقوى كان في الآخرة أمكن فما هناك نهاية ما هنا. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة، وهنا أربع لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾

اعلم أن أول سورة «الحج» يناسب أول سورة «الأنبياء»، فهناك يقال: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[الأنبياء: ١]، وهنا يقال: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج: ١] فملخص افتتاحي السورتين أنها قريبة وأنها شديدة. وقد ذكرنا شيئاً من أمر قرب الساعة في أول «الأنبياء» ونذكر هنا قربها بأوضح وجه، ذلك ليعلم المسلمون بعدنا أن الأمم الإسلامية قد حل بها كتب وآراء وأحلام أدخلت الغفلة على العقول وأحلت بساحتها كثيراً من الأراجيف وأكاذيب أضرت بأخلاق الأمة.

ومما يحزنني ويوقع في نفسي أشد الأسى أن كثيرين من عظماء الأمم الإسلامية ورجالات العلم تجوز عليهم ترهات فيتبعها من بعدهم. وإني أقول ولا أخشى لومة لائم: إن الضلال الذي استحكم وانتشر في أمر الساعة وتعيين زمانها قد أثر أسوأ الأثر في أمم الإسلام، كما أضر بآبائنا وبنا أمر المهدي وظهوره. وانتشار هذه الآراء في أقطار الإسلام قد فرقهم وحط من شأنهم. ولأذكر لك الكلام على قرب الساعة هنا وعلى ظهور المهدي في هذا المقام لتعرف الرأي الصحيح، حتى إذا قرأت قوله تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] عرفت أن أمر المهدي فرقهم وقطع أوصالهم، وأن ما نذكره هنا بمناسبة أمر الساعة يقوم مقام ذكره هناك في نفس هذا المجلد، وإنما جمعناهما معاً لتشابههما وتقاربهما واتصالهما.

فلأجعل الكلام في فصلين: الفصل الأول: في الكلام على قرب الساعة.

الفصل الثاني: في الكلام على المهدي المنتظر الذي يكون قبل قيام الساعة.

الفصل الأول: في الكلام على قرب الساعة

(١) نقل السهيلي عن الطبري أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة. قال العلامة ابن خلدون: ونقص ذلك بظهور كذبه، وكان رأي الطبري مأخوذاً بطريق الحدس والتخمين. وقد كان مستنده في ذلك أنه نقل عن ابن عباس: «إن الدنيا جمعة من جمع الآخرة والجمعة أيام واليوم ألف

سنة ». وقوله صلى الله عليه وسلم: « بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى » مع قوله صلى الله عليه وسلم: « أجلكم في أجل من قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وصلاة العصر في بعض المذاهب إذا صار ظل كل شيء مثليه، وهذا على وجه التقريب نصف سبع، وهو في هذا المقام ٥٠٠ سنة، وبعد هذا التطويل والاستدلال ظهر كذب هذا الرأي. ذلك لأننا الآن في القرن الرابع عشر، فالقيامة قد مضى لها إذن تسعة قرون ونحن الآن في الآخرة لا في الدنيا وهذه من المفجعات.

(٢) وقال السهيلي أيضاً: إن حروف أوائل السور بعد حذف المكرر منها تكون هكذا: « ألم يسطع نص حق كره »، وهي ١٤ حرفاً وجملها ٧٠٣. هذا قوله وقد أخطأ في ١٠ لأن الجمل ٦٩٣، فاعتقد السهيلي أن القيامة تقوم سنة ٧٠٣ هجرية باعتبار هذا الجمل ـ بتشديد الميم ـ وقد ظهر كذبه أيضاً.

(٣) وقال شاذان البلخي وهو من المنجمين: إن الملة تنتهي إلى سنة ٣٢٠ هجرية. ومعلوم كذب هذا أيضاً.

(٤) وقال يعقوب بن إسحاق الكندي: إن مدة الملة تنتهي إلى سنة ٦٩٣ هـ. يريد عدد حروف الجمل المتقدمة على وجه التحقيق كما تقدم، وقد عرفت كذبه أيضاً.

(٥) وقال نوفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية: إن ملة الإسلام تبقى ٩٦٠ سنة. وقد كذب أيضاً.

(٦) قال جراس: اتفقوا على أن خراب العالم بعد ٩٦٠ سنة. وهو كذب أيضاً.

الفصل الثاني: في الكلام على ظهور المهدي المنتظر

اعلم أيها الذكي أني وأنا طالب بالجامع الأزهر في السنين الأولى كنت ماراً يوماً صباحاً إذ سمعت عالماً يقرأ في الحديث الشريف وهو يقول ما معناه: « سيخرج رجل من آل بيتي اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي، يملأ الدنيا نوراً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »، فلما سمعته تاقت نفسي لهذا المهدي الذي سيخرج في الأمم الإسلامية ويهديها. ولما كنت في الريف أيام العطلة ببلادنا بالشرقية كنت أسمع من العامة في سمرهم أن المهدي سيظهر ويقسم الأرض بين الناس وتكون سعادة عامة، فأصبحت فكرة المهدي عامة في المسلمين العلماء والجهال. فلما قرأت الكتب وجدت لهذا المهدي أحاديث كثيرة، وقد قام في الأمة فعلاً رجال بهذا العنوان، كالمهدي السوداني وكعبيد الله المهدي الذي كانت له ولذريته دولة الفاطميين بالمغرب ومصر وهكذا غيرهما. ولقد رأيت أعظم عالم بمصر أيام ظهور المهدي السوداني يقول: إنه هو هو المهدي، فأيقنت بأن الأمة الإسلامية تغلغلت فيها هذه الفكرة وثبتت، ولم أر عالماً في الأمة أماط اللثام عنها وشرحها شرحاً وافياً مثل العلامة ابن خلدون، فإنه هو الذي جمع الأحاديث الواردة في المهدي وأتى بجرحها، وقال: إن الجرح مقدم على التعديل كما هو معلوم عند علماء مصطلح الحديث، وأتى بكلام الصوفية، وظهر من بيانه أنه لا فرق في هذه الأمة بين رجال الحديث ورجال التصوف من حيث إن كلاً منهما تدخل عليه الغفلة مهما حذق وعلا كعبه في العلم. وعجبت لهذه الأمة المسكينة كيف ظهر فيها محققون وكيف يبقى هذا التحقيق في كتب لا تظهر لأهل العلم جميعاً.

إن هذا التحقيق في مقدمة ابن خلدون، فكان واجباً على أهل العلم أن يبينوا ذلك وأمثاله في كتب الحديث وفي مناسبات كثيرة حتى تعرف الأمة الحقائق. ولعل تلخيص هذا المقام في هذا التفسير

مما يعمم الفكرة ويزيل الضلالة والجهالة من بلاد الإسلام. فإذا كنت أنا وأفاضل شيوخي قد سرت فينا الفكرة وسرت في آفاق الإسلام فلألخص الموضوع تلخيصاً تنويراً للأذهان حتى تطرد تلك الفكرة من الأذهان في بلاد الإسلام فأقول:

(١) روى أبو بكر الإسكاف في فوائد الأخبار عن مالك بن أنس بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب»، وهكذا قال في طلوع الشمس من مغربها، وأبو بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع.

(٢) وروي: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي». وهناك روايات أخرى وكلها معتبرة من الأحاديث الحسنة الصحيحة، ولكن مع هذه الصحة قد طعن فيها بأن الحديث مروي عن عاصم وعاصم ضعيف الرواية وكثير الخطأ في حديثه وفي حديثه اضطراب.

(٣) وروي أيضاً في حديث من رواية قطن بن خليفة وهو متهم، وقال الدارقطني: لا يحتج به، وقال الجرجاني: زائغ غير ثقة.

(٤) نظر علي إلى ابنه الحسن وقال: إن ابني هذا سيد ـ كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً». وفيه روايات أخرى ومن رواته عمر بن أبي قيس وفي حديثه خطأ وله أوهام، ومن الرواة له أبو إسحاق وقد اختلط في آخر عمره، وهكذا ذكر بقية الروايات وأتى بجرحها تارة وإنكارها أخرى. وليس لي أن أذكر ذلك كله فإن ذلك إطالة في هذا التفسير الذي أردت فيه أن تكون الفائدة قريبة المأخذ، وهذه الأحاديث متشابهة ورواتها كثيراً ما يكون الحديث صحيحاً بسبب عدالتهم وشهرتهم، ولكن يطعن فيه بسبب غفلة رجل منهم أو خطئه أو نحو ذلك. فماذا تفيدنا الإطالة ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فلما أتمها قال: فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل والأقل منه، ثم روى حديثاً بنفي المهدي وتكلم في جرحه وتعديله. انتهى.

كلام رجال الصوفية

قال العلامة ابن خلدون: إن المتقدمين منهم لم يخوضوا في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من المواجيد والأحوال، وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين. ثم حدث بعد ذلك القول بالإمام المعصوم.

أقول: وقد تقدم هذا في سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الآية: ٥١]، فاقرأه إن شئت فإنه مستوفى هناك. وكثرت التآليف في مذاهبهم وجاء الإسماعيلية يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، والآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع من التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين بأحاديث المهدي التي تقدم بعضها هنا.

ثم حصل بعد ذلك عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس، وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم، وظهر أيضاً منهم القول بالقطب والأبدال، وكأنه يحكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم، ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح، ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه، بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى، وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية تفهم منها ومن غيرها دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه، وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر، وبنوا ذلك على أصول واهية وربما استدلوا بكلام المتجمين في القرانات.

قال: وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب «عنقاء مغرب» وابن قسي في كتاب «خلع النعلين» وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واطيل تلميذه في شرحه لكتاب «خلع النعلين» وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال، وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم بأن هناك نبوة فخلافة فملكاً، فيحدث تكبر وتجبر وباطل، وهنالك تكون ولاية وخلافة للولاية فملك ثم كفر، فكما كانت النبوة لها خلافة فملك فتجبر هكذا للولاية خلافة فملك ثم كفر، والولاية للفاطمي المنتظر، وسماه ابن العربي الحاتمي «خاتم الأولياء» وكنى عنه بلبنة الفضة مشيراً إلى حديث البخاري في: باب خاتم النبيين، إذ قال صلى الله عليه وسلم: «مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة»، فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان.

ويقولون: إن الولاية لها مراتب كمراتب النبوة وخاتم الأولياء كخاتم الأنبياء. فخاتم الأنبياء أكمل بنيان الأنبياء وخاتم الأولياء أكمل بنيان الأولياء، غاية الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لبنته من ذهب وخاتم الأولياء لبنته من فضة. وقال ابن العربي فيما نقل عنه ابن أبي واطيل: وهذا الإمام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة، وظهوره يكون بعد مضي «خ ف ج» من الهجرة وذلك بالجمل ٦٨٣ سنة وهي في آخر القرن السابع. ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك مقلدوهم على أن المراد بتلك المدة مولده، وأن خروجه بعد ٧١٠ يخرج من ناحية المغرب. أقول: وأنت تعلم أن ذلك لم يتم. وأطال العلامة ابن خلدون في نقل كلامهم على هذا النحو، ثم قال: والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله. قال: وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك، وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر، وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة. فإن صح ظهور المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم

ويؤلف الله بين قلوبهم في أتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها، وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبته في أهل البيت، فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة. ثم أفاض في ذلك وأبان أن ما يدعيه العامة والأغمار في ذلك من الدهماء لا يرجع إلى عقل ولا هدى ولا كتاب منير.

هذا ما أردت تلخيصه من مقدمة العلامة ابن خلدون في أمر قرب الساعة وفي أمر قيام المهدي لتستبين سبيل الرشاد ويقف المسلمون بعدنا على آراء قد انتشرت قبلنا في بلاد الإسلام وفرقتهم وزعزعتهم. فاقتراب الساعة بالمعنى المتقدم وظهور المهدي كلاهما قد أضعف عزائم الأمة وأورثها الخور. ومن أعجب العجب أن ينسب هذا للعلامة الكبير ابن العربي. ولقد اطلعت في الفتوحات المكية على هذا المعنى في مواضع منه، فإن صح هذا ولم يكن مدسوساً عليه من أهل زمانه كان ذلك دالاً على داء فتاك أصاب الأمة كلها وقطع أحشاءها، فإذا وصل الداء إلى كبار العلماء والأولياء فقد وصل إلى قلب الأمة وهذا هو الموت. يسمع المسلم بقرب قيام الساعة بالمعاني المتقدمة التي قد ظهر كذبها، فيقول: لم أعمل ولم أجدّ والناس سيموتون جميعاً، ويسمع بالمهدي المنتظر فإذا قام داع سارع إليه الجهلاء والتفوا حوله ثم يقوم آخر فيتبعه آخر وهكذا، حتى إن مشايخ الصوفية كل منهم قد اتخذ لنفسه أتباعاً وأراهم أنهم أحق بالله وبالحقائق، وغيرهم من أمم الإسلام جاهلون. ولست أذكر شيخاً خاصاً فإن هذا التفسير عام للمسلمين، ولكني أقول قولاً جامعاً:

أيها المسلمون. ويا أيها العلماء، اسمعوا، حم الأمر وقضى الله بالحق. هاهي ذه أمة الإسلام قد تفرقت شيعاً وذاق بعضها بأس بعض، ليس لكم والله ملجأ إلا الرجوع لنفس القرآن وقراءة جميع العلوم ودراسة هذه الدنيا من العلوم الفلكية والطبيعية والسياسية وهكذا. إذا درس المسلم علم الفلك نغر فقال: يا الله أنت خلقت آلاف آلاف الكواكب، وأرضنا بالنسبة لتلك المخلوقات كما تقدم لو صغرت حتى صارت جوهراً فرداً ثم صغرت العوالم على مقتضاها؛ لصارت العوالم كلها ألف مليون أرض كأرضنا هذه على حالها اليوم. هنالك يقول المسلم: فإذا كانت أرضنا هذه حالها فهي أشبه بالعدم. فمن هو هذا الذي يدعي أنه قد حل فيه الله وما الأرض ومن عليها.

ثم ينظر المسلم فيرى حكمة وإبداعاً وغرائب وعجائب في أصغر حشرة وورقة فيدهش لإبداع الله ويبتهج بالحكمة، وهنالك يقرأ المسلمون العلوم ويعرفون الصناعات. ومتى فعلوا ذلك رفعوا أممهم أما الاتكال على المهدي وأنه سيجيء فيتبعه الناس، فمعنى هذا أنهم متكلون عليه في إسعادهم ولمّ شعثهم والله عز وجل هو الذي خلق الناس وأعطاهم عقولاً وأمرهم أنهم هم الذين يجدّون ويجتهدون بأنفسهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧-٨].

سيأتي لهذا المقام بقية في سورة «المؤمنون» عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون: ٥١] إلى قوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠]. وقصارى القول هنا أن الله عز وجل ما أنزل كتاباً من السماء ولا علم علماً إلا مريداً بذلك إيقاظ الهمم. فإذا قصد المسلمون من الرافضة والشيعة والإمامية ومن تبعهم من الصوفية المتأخرين بالمهدي أن يكون سبباً في

إسعادهم وهداهم مرة واحدة فقد أخطؤوا ، وليعلموا أن الطفل لا يولد إلا بعد نموه في الرحم بالتدريج .
هكذا لا تكون الهداية والرحمة العامة التي تجعل الناس أسرة واحدة إلا بجد واجتهاد من الأمم كلها التي أهمها الأمم الإسلامية المستقبلة التي ستنتشر فيها هذه الآراء وبها يجدون في الرقي . هنالك يعقل الناس معنى التعاون العام والهداية العامة والعيش بسلام مع الأمم والروح العيسوية التي ورد ذكرها في الأحاديث الشريفة ، وقد قدمنا في هذا التفسير في غير ما موضع أن المدار على هذه الروح العامة بالجد والاجتهاد منا نحن الذين نعيش في الأرض ، هنالك لا مانع يمنع من نزول المسيح ابن مريم لأنه يجد الناس يقبلون دعوته ، وقلنا هناك : إن المدار على هذه الروح في أهل الأرض لا على رجل واحد أو رجال يسقون الناس الهدى سقياً بلا استعداد ولا هدى . واعلم أن الأمم اليوم أخذت تتقارب في السياسة وتسعى للسلام كما سيأتي في سورة « المؤمنون » . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية : في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾

اعلم أن هذا المقام قد استوفيته في أول سورة « آل عمران » وتبين لك فيه كيف كان الله مبيناً في علم الطبيعة كما كان مبيناً بالكتب السماوية مفهماً نوع الإنسان في سفر الكائنات ما لا يتحمله كتاب من الكتب ولا عقل حكيم من الحكماء . وهناك ترى كيف كان الخلاف بين« هيكل »الألماني الفيلسوف وبين بعض علماء ألمانيا في تكوين الأجنة ، وكيف كانت أدوار الجنين في بطن أمه دالة على تناسق العوالم الحيوانية وأنها درجات ، وكيف كان هذا الكتاب الذي أودعه الله بطون الأمهات مفصلاً تفصيلاً بحيث تقرأ أبوابه باباً باباً كما تقرأ كتب الديانات وكتب العلوم من الحساب والهندسة والطب ، وكيف ترى أجسامنا ونحن أجنة تفتح باب العوالم الحية فترى كأنها حيوان الماء تارة وحيوان البر تارة ، وتنزع عنه صوره مبيناً مصير الإنسان بصورة واضحة وأنه سائر إلى طريق الكمال ، وهذا كله من قوله تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[الحج : ٥] .

وهل لك أيها الذكي أن أقص عليك الآن من تفسير هذه الآية ما لم أعرفه وأنا أفسر في سورة « آل عمران » منذ نحو سنة ونصف ؟ فهناك فسرت قوله تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[الحج : ٥] . تفسيراً علمياً . أما الآن فلأفسرها تفسيراً خلقياً أدبياً لتعجب من هذه الدنيا ونظامها والتبين واختلافه ، وأن الله كما بين العلم في دروس الطبيعة بين الأخلاق فيها ، فاعلم هداك الله إلى طريق الحق واجتباك إلى سبيل الرشاد أن المضغة المسواة وغير المسواة اللتين جعلتا لتعليمنا قد شملت مواعظ جمة :

(١) ذلك أن الإنسان يرى أن من الناس من يخلقون صماً ، ومنهم العمي أو فاقدو قوة النطق أو معوجو اليدين أو الرجلين أو ضعيفو العقل أو مشوّهو الخلقة ، ومنهم من يخلقون وإنما هما توءمان ملتصقان لا ينفكان حتى يموتا . كل ذلك يكون خلقة أثناء التخلق في الرحم . وقد يطرأ بعض ما تقدم بعد الولادة وهم في طريق الحياة . تلك كتب كتبت بحروف كبيرة ، هذا كتاب كتبه الله للناس بحروف كبيرة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف : ١٨٧] .

إن الله وضع النظام على هيئة ثابتة ولكنه هو نفسه يخرق القانون ويغيره ليرشدنا أن هناك نواميس وقوانين أرقى ، فهاك نظام الأجسام الحيوانية والإنسانية ترى أن المواد الغذائية المستخلصة من

أرضنا ومائنا وهوائنا قد اقتنصت وحبست في أجسامنا فلم يفلت الهواء إلى أعلى ولا الماء إلى الأنهار ولا المواد الأرضية إلى أرضنا، وهي ما اقتنصناها من الحبوب والفواكه والخضر، فترى الإنسان والحيوان قد حكما هذه العناصر في أجسامهما، فهذا أول برهان على أن النظام الطبيعي فوقه نظام أعلى، وأن هناك قوة قاهرة قد حكمت على هذه العناصر أن تغير خلقها، وأن الإنسان يقدر أن يبدّل العادات السيئة فيه بعادات حسنة كما غيرت طبائع الذرات التي هي فيه.

(٢) نرى أن من الحيوان ما لا حواس له إلا اللمس كدود الفاكهة، والدود الذي في باطن الحيوان. ومنه ما له حاستان وثلاث وأربع فقط كبعض الفيران تعيش في الظلمة فتفقدها حاسة البصر لعدم لزومها، كل ذلك مخلوق في الطبيعة والناس يشاهدونه ويشاهدون الدود يعيش بلا حواس ما عدا اللمس؛ ومعنى هذا التبيين أن الله يقول لنا: انظروا الدود إنه حي وقد فقد الحواس الأربعة وأعطيتكموها فانظروا ماذا تصنعون بها إنها شبكات لصيد العلم لترتقوا عن هذا العالم، فعليكم أن تفكروا بهذه الحواس في هذا العالم، وإني ما أعطيت نعمة إلا وقد جعلت بجانبها نقمة، فهمومكم وغمومكم أكثر ألف مرة من غموم وهموم الدود لكثرة حواسكم، وإنّما فعلت ذلك لأضطركم إلى العمل بها واقتناص الآراء بشبكتها. فالهم الذي أحاط بكم لحثكم على الاهتداء بالعلم لتخرجوا من هذا العالم؛ كل هذا خلقته بين ظهرانيكم ولكني أعلم أن هذا الدرس لا يفهمه إلا قليل؛ لذلك أردت أن يكون الدرس من نفس الإنسان فجعلت المضغة تارة مسواة وتارة غير مسواة، لتروا العمي منكم فتعرفون نعمة ربكم، وتروا الصم وتروا البكم وتروا الزمنى ومن ضعفت أيديهم ومن فقدوا عقولهم، كل ذلك لتروا أني ما جعلت هذا فلتة أو غفلة أو عدم عناية، بل جعلت هذا لأبين لكم، فتقولون: إن أكثر الناس أصحاء العقول والحواس والأعضاء، وهؤلاء الذين خلقوا ناقصين أو حدث لهم النقص فيما بعد إنّما جاؤوا لنقرأ دروسنا عليهم ونعرف أن تلك المواهب نعمة يجب أن نقتنصها، ونعرف النعمة التي ستزول عنها كما زالت عن غيرنا فنسرع بالاستفادة منها، وإذا كنا لم نفهم نقص تلك الحواس والأعضاء في الحيوان فنحن مستعدون لفهم نقصها في الإنسان، لأن الحيوان الذي نقص شيئاً من هذا لا يؤثر فينا لشيوع ذلك النقص في نوعه كالدود ولكن النقص والتشويه في جسم الإنسان أسرع أثراً في نفوسنا وأبقى علماً وأبلغ معنى. هذه القراءة ليس يعرفنا الناس جميعاً. هي قراءة لا يعقلها إلا ذوو العقول الكبيرة، لأن حروفها وكلماتها هذه الصور الحيوانية والإنسانية وهي كبيرة، وهذه الكبيرة لا يفهمها إلا العقل الكبير، فإذا قال الله تعالى في كتبه السماوية: إن الناس سيحشرون، وكتب ذلك بالحروف الهجائية، أو سمعوه بأصوات هوائية فهموه فهماً على قدر طاقة عقولهم، ولكنه إذا مزق حجب الطبيعة بأن فتك بها وهدم كيانها وجعل عاليها سافلها في جسم الحيوان وخالف طبعها فجعل الخفيف والثقيل والمتوسط كله في شكل واحد. وإذا حرم بعض الحيوان حواس، وإذا فرق الأمراض والنقص حسناً وعقلاً وأعضاء على الناس لم يفهم هذا إلا القليل، ولهذا قال الله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[الحج: ٥]. تبييناً تعقلونه بعقولكم وتدرسونه بأنفسكم.

فهاأنت ذا أيها الذكي عرفت حكمة نقص بعض الأعضاء أو الحواس نقصاً خلقياً أو عارضاً، وأن ذلك دروس يدركها الحكماء وأنها مقصودة وإن كان ظاهر الطبيعة يفيد أنه عارض غير مقصود،

وهاك مسألة التوءمين المخلوقين المرتبطين معاً برباط تام بحيث يولدان معاً ويموتان معاً في عصرنا الحاضر، وكيف كانت حياتهما، وهذا أيضاً من مسألة المضغة غير المخلقة، ليبين الله لنا بهذا أمرين: يقول: أنعمت عليكم بأن كلاً منكم خلق مستقلاً فلم يتصل بجنين آخر، ويقول أيضاً: إن اتصال اثنين معناه الاتحاد في أمور الحياة وهذان الاثنان لما اتصلا لم يمنع ذلك كلاً منهما عن مزاولة أعماله الخاصة به وهو مع ذلك مرتبط مع الثاني أشبه بارتباط الأمة كلها وأهل الدين الواحد كلهم وأهل الأرض قاطبة فهذان التوءمان الملتحمان قد تلازما موتاً وحياة وإن اختلفا صفات كما تختلف الأمة الواحدة في أحوالها ولكن التضامن فيما بينهم يجعلهم متحدين ارتقاء وانحطاطاً وضعفاً وقوة، وهاك مسألة التوءمين:

التوءمان المتصلان

اعلم أن العالم الإنساني الآن أصبح يدرس الغرائب والعجائب أكثر من ذي قبل. أخذ يدرسها لمجرد التعجب وشاع هذا التفرج وكثر، ولماذا هذا؟ ذلك لأن السكك الحديدية والسفن البحرية والطيارات الهوائية قربت المسافات، فأخذ أصحاب العجائب يعرضونها على الناس ويتناولون دراهم والناس فرحون بما يشاهدون.

وما جعل الله الغرائب إلا للدراسة، لأن الناس لا يدرسون ولا يتفرجون غالباً إلا على ما كان نادراً، وهذا النادر كلما كان أندر كان العلم به أعجب وألذ. علم الله ذلك في الإنسان. فماذا عمل؟ خلق العمي والصم الخ كما قلت لك ليدرسها الناس، وجعل أندر من ذلك وأعجب التوءمين، وقد خلق الله في هذا العصر توائم كثيرة منها ما عرفناه ومنها ما لم نعرفه لعدم ظهوره:

(١) فمن ذلك توءمان هنديان: أحدهما يسمى «راديكا» والآخر «دوديكا» وهما بنتان عملت لهما عملية جراحية ففصلتا بعد سنة ١٩٠٠ ببضع سنين، وكانتا لا تبلغان تسع سنين وعاشتا بعد فصلهما. ثم إن اتحاد التوءمين قد يكون في الصدر أو في الرأس أو في البطن أو في الحوض.

(٢) ومن التوائم التي عاشت توءمان صينيان، وهما ذكران كانا في السابعة عشرة من العمر وعاشا بعدها وهما قويا البنية، وقد اتحدا في طوق القص أي العظم الصدري، فإنه يستطيل قليلاً ويخرج من الصدر حتى يلتقي برفيقه فيتحدان. وهذان التوءمان لم يظهر عليهما تعب من هذه المشاركة.

(٣) وهناك توءمان ساميان من بلاد «سيام»، خلقا متقابلين أحدهما اسمه «شانغ» والآخر اسمه «انغ» وأبوهما اسمه «بونكر»، وولدا في قرية «بانكوك» بسيام سنة ١٨١١، وقد اتحدا بعظم القص في أسفل الصدر بزائدة لحمية ضخمة، وفي جهة أخرى، وقد حملا إلى أوروبا وهما طفلان، وسافرا إلى أمريكا وعرضا نفسيهما للفرجة فجمعا مالاً كثيراً، وعاشا في «كارولينا» في الولايات المتحدة، واشترى كل منهما عقاراً واتحدا أن يقيم كل منهما مع الآخر في ملكه ثلاثة أعوام، وكان الناس يحترمونهما وتزوجا أختين سنة ١٨٤٣، وأحدهما وهو «شانغ» ولد له عشرة أولاد سليمي البنية إلا صبياً وصبية ولدا أصمين. وولد لثانيهما وهو «انغ» ١٢ ولدا كلهم صحيحو البنية. فلما كانت الحرب الأهلية بالممالك المتحدة خسرا كل مالهما فسافرا لأوروبا. وفي سنة ١٨٦٣ مال «شانغ» إلى الإفراط في المسكرات، وظل أخوه معتدلاً في كل شيء، فاتحدا في كل شيء واختلفا في الأخلاق. وفي سنة ١٨٧٢ أصاب «شانغ» المذكور ألم عصبي في العين اليمنى ثم انحلال في سائر بدنه ثم ضعف

جداً. وفي سنة ١٨٧٤ أصابته نزلة صدرية لم يسرع في معالجتها، وبعد مدة أفاق « انغ » وظل « شانغ » نائماً، فنادى « انغ » بعض أولاده ليوقظ عمه، فناداه الغلام: عماه عماه، وحركه إذا هو ميت، فصاح: هو ميت، فاضطرب « انغ » وقال بنغمة البائس الحزين: فإذن أنا مائت أيضاً، ثم انقطع بوله وعسر نفسه ومات بعد أخيه بساعتين وسنهما ٦٣ سنة.

(٤) توءمان متفاوتان أحدهما ضامر والآخر تام كامل ويحمل الآخر كأنه طفل. وأغرب وأشهر هذا النوع رجل هندي يسمى « لالو » ولد في « لكنو » ببلاد الهند ومعه توءم آخر متصل به في بطنه. كانا في أول الأمر متساويين في حجمهما، فلما كبرا ظل أحدهما صغيراً ولم ينم إلا قليلاً، فأصبح كأنه طفل يحمله شاب، ولما كان ذلك أمراً غريباً جعل يطوف المدن يعرض نفسه للفرجة في الأسواق. وفي آخر ما عرف عنه أنه كان في الولايات المتحدة في العقد الثاني من القرن العشرين. اهـ.

هاأنا ذا عرضت عليك ما عرضه الله على الناس في أسواقهم ومدنهم الكبيرة. إن الله وضع في الناس حب الغرائب لأنها دروسهم. فالعامة للتعجب والخاصة يقولون: كلا؛ فالتعجب أول العلم بل هو الباعث عليه، ويقولون: إن هذه التوائم وإن بدت لعين الناظر إنها رمية من غير رام أو خطل في الطبيعة، فإنا نقول: إنها مقصودة للدراسة. يرى الناس التوءمين « شانغ » و« انغ » قد عاشا معاً وماتا معاً، ولكن أحدهما قتله الخمر والآخر معتدل، وقد عاشا في هناء واشتركا في السراء والضراء. هكذا الإنسانية كلها أو الأمة كلها أو أهل الدين الواحد يعيشون ويقتسمون الأفراح والأتراح. فإذا طاش فرد أو أفراد من الأمة والتووا ولم يقوموا بواجبهم كان ذلك إضعافاً للأمة. فعلى بقية الأمة أن يقوموا المعوّج منها وإلا سرى الداء من المريض إلى الصحيح جسماً وعقلاً واقتصاداً وسياسة. وهكذا الأمم كلها متصلة اتصال التوءمين، فأي نقص حصل في أمة أثر في الأخرى، فإذا نقص محصول القمح في أمة أو محصول القطن أو غيرهما أثر في الأمم الأخرى غلاء الأسعار ونقص التجارة، وأي ضعف في أمة يتصل بالأخرى فإن هذه الضعيفة لا تستطيع استقبال صناعتها ولا تجارتها. إن العالم الإنساني كله لم يخرج عن كونه مثل « شانغ » و« انغ »، وإن أمم الشرق النائمة سقطت معاً ولا تقوم إلا معاً، فإذا لم يقوّم بعضها بعضاً ولم يساعد بعضها بعضاً التقمتها أوروبا. إن الأمة الواحدة وأهل الدين الواحد بينهم تضامن حقيقي.

إن هذا التوءم نراه بأعيننا مكتوباً بالحروف الكبيرة يفسر لنا قول النبي صلى الله عليه وسلم: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »، وتمثيل المؤمنين في الحديث بالجسد الواحد « إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ».

إن الله بين لنا بهذين الإنسانين وأمثالهما تضامن الناس، وأن علماء الشرق ينفعون أهل الغرب بطريق غير مباشر وبالعكس، وأنه خلق هذين في « سيام » وجعل قوتهما بالتفرج عليهما لينشر ذكرهما في الكرة الأرضية، وليكونا درساً للناس، وعبرة وتفسيراً لهذه الآية، ولولا حبهما المال وجمعهما له ما وصل خبرهما إلى مصر، وما جعلتهما درساً لقوله تعالى: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[الحج: ٥].

فأهل الدين الواحد، وأهل القرية الواحدة، وأهل الأمة الواحدة. وأهل الأرض الواحدة بينهم تضامن وهم يجهلون وتعارف وهم يتغافلون. إن الإنسانية لا تزال طفلة إلى الآن، والعقل الإنساني

لا يزال أمامه عقبات وعقبات ومفاوز ومفاوز حتى يصل إلى غايته المنشودة وطلبته المرغوبة وأعماله العالية وأغراضه الغالية .

إن كل امرئ كأنه مسؤول عن جميع الإنسانية ، وإن كل الإنسانية كأنها مسؤولة عن الفرد ، وإن السواس في أوروبا وثرثرتهم وقولهم الإنسانية ينطقون بألفاظ هي أصل المقصد الإنساني ولكنهم يفعلون ضدها . ذلك لأن الإنسانية اليوم لفظية ، وسيجيء يوم للنوع الإنساني يكون فيه أرقى منه الآن ، وتحقق هذه المطالب ، وتذهب عنه تلك المثالب ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف : ٢١] .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾

اعلم أن التناسل على قسمين : التناسل بطريق الذكر والأنثى . والتناسل بغير ذلك . أما القسم الثاني فإنه يشمل جميع الأحياء الدنيا كالميكروبات والديدان وبعض أنواع النبات التي لا زهر لها ، وهو على أنواع :

(١) الحي إذا بلغ أشده انقسم إلى قسمين وكل منهما ينقسمان قسمين وهكذا على التعاقب .

(٢) أن ينقسم الحيوان الواحد إلى عدة حيوانات .

(٣) إذا بلغ الحيوان أشده انفجر فخرج منه حيوانات صغيرة تنمو وتتناسل ويموت ، فنفس جسمه يقسم ويذهب ويعدم هو وتخرج حيوانات هي أجزاؤه في الأصل .

(٤) أن ينبت على جسم الحيوان شيء كأنه أصل غصن لشجرة ثم يبلغ فينفصل فيصير حيواناً مستقلاً ، ومن هذه الأنواع ما ذكره اللورد « أفبري » في كتابه « جمال الطبيعة » ، وهو من النوع الأول هنا أن بعض الحيوانات الدنيا يحدث وسطها حزّ ، ولا يزال هذا الحزّ يدق ويدق حتى ينفصل القسمان المقدم والمؤخر ، فيصير كل منهما حيواناً مستقلاً . وهنا يرد سؤال فيقال : أيهما الأول وأيهما هو الثاني ؟ إن هذين الحيوانين كانا واحداً فمن منهما هو الذي كان أباً ومن منهما هو الابن ؟ أم الواحد انقسم اثنين ؟ وإذا قلنا بالثاني وقد علمنا أن كلاً من هذين الاثنين ينقسمان ولا يزال الانقسام إلى ما لا يعلم منتهاه . أفنقول : إن هذه الحيوانات خالدة لن تموت . أم ماذا ؟ هذا من عجائب الحكمة ، والناس على هذه الأرض تائهون متحيرون . فجلّ الله الذي حيرنا وجلّ العلم الذي أشرق على القلوب . فليحيي الله العلم وليحيي الله قلوب المسلمين .

وأما القسم الأول وهو ما يكون تناسله بالزواج فإنه يكون بواسطة البيض ، فالجنين يكون في البيضة وهو على قسمين : قسم تخرج البيضة منه قبل تكوّن الجنين كالحشرات والطيور وبعض السمك ، فإن البيض يخرج منها ويتم الجنين بأعمال أخرى كحضن الطيور له إلى أمد معلوم ثم يخرج من بيضته . وقسم تبقى بيضته في الرحم حتى تفقس ويخرج الجنين حياً يتحرك ، كما نرى في ذوات الثدي ومنها الإنسان الذي كلامنا فيه في هذه الآية . واعلم أن هناك في رحم المرأة سائلاً في المبيض كمثل البيضة التي نشاهدها للدجاج فلها ما يشبه الزلال في البيضة الدجاجية ، وفي داخل ذلك المح وهو الذي تراه أصفر في بيض الدجاج ، وفي داخل ذلك المح جرثومة صغيرة منها يتكون الجنين ، والبيضة البشرية قطرها من $\frac{١}{١٠٠}$ إلى $\frac{١}{١٢٠}$ من القيراط ، والمح الذي فيها قطره $\frac{١}{٧٠٠}$ من القيراط ،

والبقعة الجرثومية قطرها $\frac{١}{٢٠٠٠}$ من القيراط، وهذه هي التي يتكون منها الجنين، والجنين يتغذى من دم الأم المنتشر في جسمها. ودورة الدم في الجنين تخالف دورته في الطفل بعد الولادة، فالشريان في الجنين يحمل دماً وريدياً والوريد يحمل دماً شريانياً فمتى ولد انعكس الأمر. فتعجب من الترتيب المحكم. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ﴾ الخ

هاهنا ترى عجائب النبات مع الحيوان. سترى ما يدهش له لبك لترى بعقلك الحكمة واضحة جلية في هذه الدنيا الجميلة عند الحكماء، القبيحة عند الجهلاء. إننا نحيا وإننا نموت ونفرح بأن نبقى ونحزن بأن نموت، ولكن إذا تأملنا هذا النظام فرحنا بإبداعه وانشرحنا لإتقانه ووجدناه عجباً.

لعلك تقول: وما العجب؟ أقول: انظر لأمرين غريبين. ثانيهما أغرب من أولهما. أما الأول فإن النبات البالغ عدده ٣٢٠ ألفاً كما تقدم عن العلامة «سبنسر» على ظهر كرتنا الأرضية مختلف في كل شيء قدراً ولوناً وطعماً ومنفعة الخ، وهذا الاختلاف ناشئ من اختلاف الأغذية، واختلاف الأغذية ناشئ من تعاطي النبات نفسه، بحيث إن كل نوع منه يجتذب من الأرض ما راق له. ألا ترى أن نوع الجير والصودا والبوتاسا وحمض الكبريتيك وحمض الفسفوريك والسلكا والكلور أدخلت في القطن وفي القمح وفي الفول وفي البطاطس وفي الذرة وفي قصب السكر بمقادير موزونة مختلفة الوزن، وباختلاف وزنها صارت ملابس أو أغذية للإنسان أو لغيره كما رأيت في البرسيم، وقد تقدم الجدول موضحاً في سورة «البقرة».

انظر كيف كان اختلاف المقادير الغذائية من الأرض والهواء سبباً في هذه المنافع والعجائب المختلفة. ثم انظر كيف كان هذا. كان هذا باجتذاب النبات لما يناسبه، وهنا يقال: كيف رتبت الفتحات الشعرية؟. كيف نظمت؟ كيف قومت بحيث لا تدخل في النبات إلا ما يناسبه؟ لا تدخل الصودا في شعر القطن إلا ٣,٦ من المائة، ولا في حب القمح إلا ٢,٦٦ من المائة، ولا في حب الشعير إلا ٤ من المائة، ولا في حب الذرة إلا ٣ من المائة وهكذا. كيف رتبت تلك الفتحات بحيث لا تقبل إلا هذه المقادير؟ ذلك هو النظام الساري في جميع النبات لا يمتص إلا ما هو لازم له.

نبات الكرنب

قال بعض أطباء الفرنجة في هذا العصر: إنه نافع غذاء ودواء، إنه يشتمل على عناصر كيمائية ذات قيمة منها الفوسفور والحديد والمانيزيا، وفيه مادة كبريتية تتضح من تصاعد رائحته عند غليه في المطبخ. ويقول: إنه طعام عسر الهضم يجب المبالغة في طبخه ليسهل هضمه، وإذن يفيد المصابين بالإمساك لأنه يسلك الأوعية الهضمية، ومع ذلك ينشأ منه أرياح فالمصابون بالتلبك المعدي يجتنبونه وجوباً، ويجب أن يضاف إليه نحو الزيت، وهو يصلح للمصابين بالالتهاب المعوي كما لا يصلح لأصحاب التلبك المعدي كما تقدم، قال: وكما أن الأطباء ينصحون باللبن الياغورتي «الزبادي» لإصلاح المعدة وتطهيرها، فإن الكرنب يقوم مقامه إذا صنع على طريق مخصوص، وعصارة الكرنب إذا تناولها الصبي بمقدار ملعقتين كبيرتين أفادته فائدة عظيمة في إبادة الدود والجراثيم من المعدة. انتهى.

ألا تنظر رعاك الله كيف دخل فيه الحديد والمانيزيا والكبريت والفوسفور . وكيف التقطت الأنابيب الشعرية ذلك من الأرض وأخذت تبحث حتى جمعت ذلك ، ثم بالله قل لي : أين هذه المواد الحديدية والفوسفورية والكبريتية والمانيزية؟ وكيف اجتمعت؟ وأين الطفل ليشرب من العصير الكرنبي المجتمع من هذا كله فيقتل دوده؟ وأين الرجل الذي أصيب بالتهاب معوي فيفيده؟ والذي أصيب بتلبك معدي فيضره؟ وما المناسبة بين الكرنب ومعدة الأطفال؟ والأمعاء التي هي ملتهبة فيخفف التهابها والمعدات المتلبكة فيزيد التهابها؟ ولماذا يكون هذا مناسباً لذاك ؟ هل كانت تلك الفتحات مقدرة بحيث لا تدخل إلا هذه المواد وقد علمت أن دخولها يكسب النبات نماء ، ثم هذا النبات يكون فيما بعد قاتلاً لدود البطن في الصبي مصلحاً للمعدة عند قوم ضاراً لها عند آخرين . ذلك هو العجب في هذه الدنيا التي هي عبارة عن دار للدراسة . هذا هو الأمر الأول الذي هو الغريب . أما الأمر الثاني وهو الأغرب والأعجب فانظر ما يأتي :

تعاون الحيوان والنبات على الحياة وهما لا يشعران

من الدلائل الدالة على أننا في عالم واحد كأنه إنسان واحد أو حيوان واحد وأن ما فيه متواصل متعاون متعاطف متبادل المنافع كما تتبادلها أعضاؤنا وهذا ما تراه في هذا المقام .

تنفس الإنسان وتنفس الحيوان

إن التنفس يكون في الحيوان وفي النبات . ففي الحيوان ظاهر كما تراه في تنفس الإنسان وذوات الأربع والطير والزحافات وهكذا السمك ، وهذا الأخير بالخياشيم . وهكذا الهوام جميعها تتنفس بآلات صغيرة جداً وهكذا النقاعيات . و هكذا ترى الدم الذي يجري في عروق الحيوان والإنسان تجري فيه كرات دموية وهذه الكرات أيضاً تتنفس ، فتأخذ الأوكسوجين من الدم الذي هي فيه سابحة وتفرزه بعدما يصلحها كما نتنفس نحن في الهواء . هذا هو تنفس الإنسان والحيوان وكرات الدم فيه . فهاك تنفس الحيوانات العليا : إن الهواء يدخل في الرئة فيتحد أوكسيجينه ببعض المواد الفاسدة فيه فيتحول إلى حامض الكربونيك ، وحامض الكربونيك المذكور هو الغاز الذي يصعد بالزفير ، فما من حيوان إلا وهو آخذ الأوكسوجين ومخرج الحامض الكربونيك ، وتراه إذا تنفست قد جعل طبقة مغطية وجه المرآة ، وما هو إلا مادة فحمية مما خرج مع الزفير .

أما النبات فإنه يتنفس بعكس الحيوان . إنه يمتص الحامض الكربونيك ويخرج الأوكسوجين عكس ما يفعله الحيوان . الحيوان يتعاطى في تنفسه الأوكسوجين والنبات يتعاطى الكربون المركب مع الأوكسوجين أي يأخذ رجيع الإنسان . فكما لا ينمو النبات إلا بالأقذار التي نبذها الإنسان والقمامات التي رمى بها خارج منازله والمواد البرازية الخارجة من جسمه وقد استقذرها ، هكذا في التنفس لا يأخذ النبات إلا ما خرج في زفير الإنسان مركباً ضاراً بصلاح جسمه فيكون فساداً للإنسان حياة للحيوان .

كيفية تنفس النبات

إن الحيوان يتنفس بالرئة أو بالخيشوم أو بجلده كما ترى في الحشرات التي يكون جلدها في الحقيقة كالمنخل أو كالغربال إذا نظرت إليها بالمنظار المعظم . فهذه كلها لا تتنفس إلا بجلدها ، ولذلك لا تسمع للزنابير ولا للذباب ولا للصراصير صوتاً تنفسياً ، بل كل هذه الأصوات المسموعة منها

أصوات أجنحتها كحركات أوتار العيدان لا كأصوات الحيوانات ذوات الرئة. أما النبات فإنه يتنفس بأوراقه، إنك ترى على ظهر كل ورقة من الأوراق النباتية إذا نظرتها بالمكرسكوب المعظم آلافاً وآلافاً من الفتحات المستطيلة، وهذه الفتحات هي التي تقابل الهواء ومنها يدخل في تجاويف ومجار أشبه بالتجاويف والمجاري التي في رئة الحيوان والإنسان، وكل تجويف قد سقف بقباب صغيرة مصفوفة صفاً منظماً بحيث تكون كل واحدة مع الأخرى كالبناء المتناسب المنسق.

مقادير ما يتنفس الإنسان والحيوان

إن الإنسان على وجه الأرض يمتص من الأكسوجين في السنة نحو ١٦٠,٠٠٠ مليون متر مكعب، ويقدر العلماء أيضاً أن الحيوانات الأخرى تمتص أربعة أمثال هذا المقدار، والإنسان يخرج في اليوم ٢٥٠ غراماً من غاز حامض الكربونيك، وفي ذلك ٧٥ غراماً من الكربون الخالص وهو الفحم. وقد حسبوا أن سكان القطر المصري وحدهم ما عدا الحيوان يخرجون ٤٠٠,٠٠٠ طن من الفحم في السنة. فانظر إلى جميع من على الأرض. فأهل القطر المصري نحو ١٤ مليوناً، وأهل الأرض نحو ١٥٠٠ مليوناً، والحساب سهل عليك. فإذا دام الإنسان والحيوان الذي هو أضعافه يخرجان فحماً على هذا المنوال فإن الجو يمتلئ سماً، لأن الحامض الكربونيك مادة سمية، وانظر ذلك في الحمام، فإن المادة الكربونية إذا حبست فيه وقد تصاعدت من الفحم قتلت من في المكان. فهكذا الجو كله يصير كالسم بسبب تصاعد الفحم من أفواه كل حيوان، فأفواه الحيوان مثل موقد الفحم والجو كالحمام والناس أشبه بمن في الحمام.

فانظر كيف قضت الحكمة أن يكون حامض الكربونيك المذكور هو الذي يصلح لتنفس النبات ويكون صلاحاً له كما كان فساداً للإنسان، فإن الكربون المذكور يدخل في النبات ليغذيه ويقوي أغصانه وفروعه وثماره، فمتى أخذ الحامض من الهواء فلله فاغتذى بالكربون وأرجع للهواء الأكسوجين كي يرجع للإنسان فيصلح دمه.

يا عجباً! أيها الناس تعجبوا، يدخل الحامض الكربونيك جرم النبات فيتقبله ويحله، ويأخذ منه الكربون أي الفحم، وهو ما به نموت في الحمام وما به تغطى المرآة بأنفسنا وما يسمم جونا، ثم يخرج من الفتحات الأكسوجين نقياً خالصاً لينظف الهواء، ويرجع الأكسوجين ثانياً إلى الإنسان فيدخل رئتيه ويصطاد الكربون أي الفحم المحترق في أجسامنا. لأن عضلاتنا مشتملة على مادة فحمية قد أخذتها من الدم الذي أخذه من النبات، فيتحد الأكسوجين بالكربون المذكور ويحمله إلى خارج أجسادنا كما يحمل الزبالون والكناسون القمامة إلى خارج المنازل، ومتى حمله الهواء سار به جارياً حتى يوصله إلى داخل الورق، والورق يتقبل تلك القمامة والكناسة، فينظف هناك ويرجع لنا الأكسوجين ثانياً.

فالهواء هو المنظف لدمنا من الكربون الحامل ذلك إلى النبات ليغتذي به، فهو كالدواب تحمل السماد إلى الزرع.

فالهواء والحيوان كلاهما ينظفان أجسامنا ومنازلنا ليصلحا الزرع الذي بصلاحه نعيش. فانظر هذه القضايا العجيبة المتقنة البهجة لذوي العقول.

جوهرة في مقال عام في قوله تعالى:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ الخ

لما اطلع على هذه الآيات أحد أصحابي من أهل الفضل قال لي: إن هذه الآيات جاءت للاستدلال بظواهر خلق الإنسان على اليوم الآخر، ولكن الإنسان إذا نظر لهذه الكائنات التي على الأرض أدهشه أن كل كائن فيها قد منح كل ما يحتاج إليه ونال من الغرائز والطباع ما يكفل صلاحه. فهل فكرت يوماً في غرائز هذا الإنسان وطباعه؟ وهل دراستها على حقيقتها تكفل له سعادة الدنيا والآخرة إذا عمل بها؟ فقلت: إن ما تقوله أيها الأخ لقول عام وذو مرام بعيدة، وليس لي بتحقيق ما قلته يدان، ولا أدري كيف يصل العقل الإنساني إلى ما تقول، وهل في قدرته ذلك وهل سيوفق له يوماً؟ أنا لا أدري. إنّما أقص عليك قصصاً مما تخيلته سابقاً، فلعل فيه سداداً من عوز وبصيصاً من العلم ومبدأ للحكمة التي تريدها:

في ذات يوم كنت جالساً خارج القاهرة في ضواحيها بين الأشجار والزروع ليلاً أتأمل النجوم والمجرة وأسرح الطرف في عجائبها وألمح من خلالها جمالاً وحسناً وبهجة، وفي أثناء ذلك أسمع غوير الأعشاب وأصوات الحشرات ونغمات الأغصان الراقصات على نغمات أوتارها والرياح تعبث بها، وكأن تلك الأغصان فرحات بمداعبة الرياح جذلات طربات بعناقها مغتبطات بعشقها وغرامها ووصالها فحرك ذلك المنظر من قلبي ما سكن، وأثار فيّ من الوجدان ما بطن، وولِه القلب وله الأغصان، وسكرت النفس لجمال النجوم والنور وبهجة الرياض ونغماتها المطربات. هنالك أخذني ما يشبه السنة، وكأني أرى أمامي نوراً بهياً نزل من السماء إلى الأرض، وأخذ يجتمع ويتكون قليلاً قليلاً بهيئة إنسانية، حتى رأيته أمام عيني إنساناً سوياً، ولكنه كان كالمهتم بأمر عظيم، فما كان إلا كلمح البصر حتى رأيته قد ظهرت أمامه بلاد واسعة ومدن شاسعة وبحار عظيمة، فما كان إلا طرفة عين حتى أمر الوفود من الأقطار فحضروا وأخذ يقلب طرفه فيهم كأنه يمتحنهم بنظراته ويدرسهم بلحظاته، فما أسرع أن انتقى أرقاهم عقلاً وأرفعهم أدباً وأشرفهم نفساً، فكان أولئك خمسة رجال لا يزيدون، ثم أمر الوفود الحاضرين الذين لا يحصيهم العد ولا يحصرهم الحساب ولا يمتد إليهم الطرف أن انصرفوا فما كادت الإشارة تبدو منه حتى خلا منهم الفضاء في أسرع من وميض البرق واختلاج العين ونبضة القلب، فلا أدري أفي الجو طاروا أم في الأرض غاروا أم رجعت أجسامهم إلى العالم الأثيري فرجعت إلى أماكنها حالاً وظهرت هناك ليقوموا بمهام الملك. ولم يبق من هؤلاء الجموع إلا الخمسة الذين هم أمام ذلك الملك ـ بكسر اللام ـ الذي نزل من السماء ملكاً ـ بفتحها ـ وهؤلاء الخمسة أمامه واقفون خاضعون خاشعون مطيعون، إذا أمرهم ائتمروا وإذا نهاهم انتهوا ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. عنت له وجوههم وخشعت له أبصارهم وظلوا له قانتين، فقال لهم: أبنائي أنتم المصطفون الأخيار من مملكتي. نثرت كنانتي فوجدتكم أصلبها مكسراً وأصعبها مراساً وأقواها بأساً. اطلعت على ما في ضمائركم فوجدتكم للحق عاملين وللفضل مجدين وعن الجهل معرضين ولأمري مطيعين. إن مملكتي واسعة الأطراف بعيدة الأكناف شاسعة المطاف لا يصلح لقيادها إلا أنتم، فلا تصلح إلا لكم ولا تصلحون إلا لها، هاأنا ذا وليتكم زمامها وأعطيتكم قيادها فاسمعوا قولي وأطيعوا

أمري . فلما سمعوا ذلك قالوا : سمعاً وطاعة ، نحن عبيدك الخاضعون وخدامك المطيعون فمرنا نطعك وقل نسمعك . فقال : إن مملكتي قسمتها ٣٦ مقاطعة وقد وليت كلاً من الأوّل والثاني ١٠ مقاطعات ، والثالث ٩ مقاطعات ، والرابع ٥ مقاطعات ، والخامس مقاطعتين . هلموا إلى ما أمرتكم وتوجهوا إلى ممالككم ، وليكن عندي علم بكل ما يحدث فيها بحيث أراه وأنظر إليه . فقالوا له : أتريد منا أن ننبئك بأنباء هذه الدول بالكتب فنشرح الحقائق ونقدمها لك؟ فقال : كلا . إن هذا عمل الجهال ملوك الأرض .

إن العالم الأرضي الذي أنتم فيه عالم متأخر ، وطرق الإفهام والاستفهام عسرة صعبة ، وليس بين الناس وبين ما يعبرون عنه علاقة . لقد كان أهل هذه الأرض قبل التاريخ يعبرون عما في نفوسهم برسم صور الأشياء تقريباً ، ثم نوعوا في التعبير والرسم واخترعوا الحروف الهجائية المعبرة عن المعاني ولا مناسبة بين حروف « ق ا م » وبين الفعل المخصوص إلا كالنسبة بين أمرين متباينين لا علاقة بينهما كالماء والحديد ، وإنّما الذي تصنعونه لي يناسب مقامي لأني من الملأ الأعلى وعالم القدس ، فلتكن اللغة التي تخاطبوني بها نفس صور الأشياء التي هي الحقائق واضحة جلية ظاهرة . فقوموا من فوركم ولتحضروا لي حالاً لوحاً عظيماً يقبل جميع الصور التي تحضرونها ، وليكن ذلك اللوح يقبل ما لا يتناهى من الصور لا تحجب صورة صورة ولا شكل شكلاً ، بحيث إذا رسمتم صورة ثم رسمتم فوقها آلافاً غيرها لا تحجب العليا منها السفلى ، بل تكون كلها حاضرة عندي . فهذه هي الكتابة التي تليق لمقامي ومركزي في السماوات العلى التي كنت فيها قبل تمثلي عندكم .

فلم يكد ينطق بهذه الجمل حتى رأيت لوحة عظيمة لا منتهى لأمدها قد مدت أمامي وهم حولها ينتظرون الأوامر ، فقال : أحضروا صور ممالككم بهيئة الخيالة « السينما » ، فما كان إلا كلمح البصر حتى رأيت ما يشبه « السينما » التي أراها في بلادنا المصرية وعددها خمسة قد نصبت أمامي كاملة تامة ، وما كان إلا كلمح البصر حتى رأيت صوراً تلوح في تلك الآلات السينمائية وأنواعها ٣٦ صورة ، وما كادت تظهر للأعين حتى رسمت الصور على تلك اللوحة ، وهكذا أخذت الصور تترادف وأنا ألاحظ الملك قد شغل بها وكلما رسمت طبقة ظهر جمال في اللوحة يعقبه جمال آخر برسم طبقة أخرى ، وهكذا طبقاً عن طبق صور فوق صور . كل ذلك لم يتجاوز من الزمان لمحات أو ثواني كما يرى الإنسان في عالم الأحلام . هنالك أخذت أفكر وأقول : من هذا الملك الذي كان ملكاً؟ ومن هؤلاء الخمسة؟ وما هي ممالكهم؟ وما هذه اللوحة؟ ثم ما هذه العجائب كلها؟ وما كاد هذا الخاطر يلوح لي حتى تبدى لي شخص كهيئة إنسان ، فقال : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر : ١٤] أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، أنا ابن بجدتها وأبو عذرتها ، فاسمع لما ألقيه إليك ولا تعجل من قبل أن أدلي إليك بما عندي . فقلت : هذه هدية من ربي أتقبلها بالشكر وآخذها بالقبول ، ونعمة أنعم الله بها علي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم . فقال : إن هذا كله صور أمامك ليلقى إليك علماً جماً فتعرف معنى كون الإنسان عالماً صغيراً ومعنى : « من عرف نفسه عرف ربه » ، ومعنى قول علي كرم الله وجهه :

دواؤك منك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فإن هذه الأبيات والجمل الحسان تسمعونها يا أهل العلم ولا تدركون مغزاها، بل أكثركم يقول حين يسمعها: أسمع عجعجة ولا أرى طحناً، فهذه ألقيت إليك لتعرف الله واليوم الآخر من نفس صورة الإنسان ويستغني الناس بما نذكره لك الآن عن البراهين الجدلية والفلسفة الوضعية والتعسفات اللفظية، ويقرأ بما أريه لك العاقل والجاحد والملحدون والشاكون إذا كانوا يعقلون.

فقلت: فاشرح لي ما وصفت وبين لي ما ذكرت.

فقال: أما هذا الملك الذي صار أحد الملوك الأرضية فهو روح الإنسان، إذ حكم عليها أن تحبس في هذا الجسد الأرضي. وأما الوزراء الخمسة فهي الحواس الخمس. وأما الممالك التي توصل أخبارها فهي للعين: النور والظلمة والقرب والبعد واللون والشكل والحجم والصغر والكبر والحركة. ولحاسة اللمس (١٠) أيضاً وهي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخشونة والنعومة والثقل والخفة واللين والقساوة. ولقوة الذوق (٩) مثل: الحلاوة والحموضة والملوحة والدسومة والمرارة والعفوصة والحرافة وطعم المز والعذوبة. وللأذن الأصوات الموسيقية الإنسانية وغير الموسيقية وأصوات الآلات الموسيقية وأصوات الحيوان والجماد. ولحاسة الشم نوعان: الخبيث من الروائح والطيب منها.

فهذه ٣٦ نوعاً هي كل هذه العوالم التي سخرت للإنسان، ولا يضبطها ويحكمها إلا بحواسه الخمس. وأما ما رأيت من اللوحة فهي مخه والقوى التي في دماغه. وهذا جعلها الله للإنسان تقوم مقام الألواح التي يكتب فيها للأطفال للدراسة والألواح الحجرية التي كان يكتب عليها قدماء المصريين والبابليين والآشوريين وأهل الهند، فهؤلاء كلهم كانوا يكتبون على ألواح حجرية تبقى آلاف السنين وعشرات الآلاف فتلقن للأبناء ما فعله الآباء، ولذلك لما أرسل موسى عليه السلام ألقيت له الألواح مشاكلة لما كان في زمانهم من إقامة الألواح والكتابة عليها. فهذه اللوحة التي تراها أمامك تصور لك هيئة لوحة دماغ الإنسان التي ترسم فيها صور الأشياء الآتية من عوالم المادة التي لا تعد، مثل الألوان التي هي من عوالم الأبصار، فهي أنواع سبعة: أحمر وأصفر وأخضر الخ، وكل لون منها يتنوع إلى ما لا حصر لها من أنواع الجمال والبهجة واختلاف الأشكال. فهذا عالم واحد من عوالم القوة الإنسانية، وعوالم الإنسان كما قلنا لك ٣٦ عالماً تحكمها حواسه. فإذا كانت الألوان عالماً واحداً يشمل ما لا حصر له من الأصباغ والألوان في الكواكب والماء والأرض والزرع والسهل والجبل والحيوان والإنسان، فكيف بما بقي من العوالم المقدرة ٣٦ عالماً. فلوح الإنسان أرقى من ألواح أهل الأرض، فألواح أهل الأرض الحجرية وغيرها ليست شيئاً مذكوراً بجانب لوحة الإنسان لأنها تسع ما لا يتناهى من العوالم مع صغرها. فلوح الإنسان واحد يشمل عوالم لا منتهى لعدها وهو أشرف من ألواح أهل الأرض وكتبهم وطواميرهم ودفاترهم، فهو أشرف الدواوين وأرقاها وأعلاها، وهو يدل الإنسان على الله وسعة علمه وأنه واحد وعلمه واحد ولوحه المحفوظ واحد يجمع ما لا يتناهى، وإذا قال الله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[البروج: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود: ٦] فإن هذا البيان يعرف الإنسان أن كتاب الله ليس ككتبكم، وإذا كان لوح عقولكم أشرف من لوح تكتبون فيه بما لا يتناهى وأنتم في الأرض التي مثلت في العلم الحديث عندكم بجوهر فرد بينها العالم حولها

يمثل بألف مليون أرض، فكيف بمن خلق هذه العوالم كلها ونفاكم في هذه الذرة الحقيرة، وقال لكم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، فلا جرم يكون لوحه المحفوظ وكتابه القديم وعلمه بالنسبة لما لاح لكم في عقولكم أكبر وأكبر من نسبة العوالم لكم في أرضكم الحقيرة، وبهذا تفهمون قول الإمام الغزالي: إن اللوح المحفوظ كالقوة المخيلة في الإنسان. فإن هذا القول منه ضرب مثل لا غير. فكما ضرب الله المثل باللوح الذي ترونه أمامكم؛ ضرب الغزالي مثلاً بلوح أشرف منه وهو القوة المخيلة في الإنسان، كلاهما ضرب مثل يقرب المعنى. ثم قال لي ذلك الهاتف: فهذه أول ثمرة من ثمرات هذا المثال الذي أمامك تعرف به معنى: من عرف نفسه عرف ربه. فملائكة الله مطيعون له طاعة الحواس للإنسان ولكن بلا تشبيه ولا تمثيل، فالملائكة عوالم مستقلة خلقها الله كما خلق الأرواح، فإياك أن تظن غير ذلك. فكما خلق الكواكب والأرض والسماء خلق الملائكة، فهم مخلوقون لله كالأجسام وهم له مطيعون.

الثمرة الثانية الإيقان باليوم الآخر وهنا بيت القصيد. انظر رحمك الله وتعجب من غرائز الإنسان وطبائعه:

(١) إنك لا ترى حيواناً ولا إنساناً و قد خلق فيه دافع يدفعه للتغذية وتناول الطعام والشراب، فالطفل بكى للطعام فوجد لبن الأم، وغير الطفل أحس بجوع يؤلمه فوجد مقتضى ذلك الألم ومطالبه وهو الطعام أشكالاً وألواناً وأنواعاً. فهذا عجب كأن الغرائز هي نبراس هذه الدنيا، وكأن هذه الأجسام الحيوانية والإنسانية نموذج هذا الوجود أحست بالجوع وأحست بالعرى فوجدت طعاماً وملبساً. هذا عجب أن تكون غريزة الجوع والعطش والاحتياج للملبس مقرونة بوجود ما يناسبها، وهذا أعجب العجب أن تكون البواطن والغرائز مخلوقات على نسبة العوالم الخارجية. ومعنى هذا أن القوى التي فيكم لم تخلق إلا ومعها مطالبها، وهذه فائدة عظيمة جداً سيكون لها شأن عظيم.

(٢) ثم هنا مسألة ثانية وهي مسألة حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل وهكذا كل ذكر وكل أنثى من كل حيوان في الأرض، فهذه كلها يهوى ذكرها أنثاها وبالعكس، أحب الذكر أنثى فوجدها، أي أن أعضاءه هيئت وغريزته الباطنة خلقت متناسبة مع وجود أنثى تكون معه، وهكذا أمر المرأة مع الرجل، فمن العجب أن كل واحد منهما وجد الآخر، فذكور الحيوان والإنسان كونت لتكون مصاحبة لأنثى، فحصل ذلك فعلمنا أن شهوة التناسل لما خلقت في كل منهما لم تعطل كما لم تعطل شهوة الغذاء وهذا عجب، ثم قال: أنا أقول لك هذا عجب ولكنكم أنتم لا تعجبون، لأن العجب إنّما يكون من الغريب وهذا أمر واقع فيكم فلا تعقلونه.

(٣) ثم إن كلاً من ذكران الحيوان والإنسان أحب أن يكون له ولد، فحصل ذلك نتيجة لما تقدم.

(٤) ثم إن الإنسان منكم يحب أن يكون له ملك وحشم فتم ذلك لكم قليلاً أو كثيراً. وخلق للأسد أنياب محددة لتأكل اللحم. فخلق له الحيوانات آكلات الحشيش. وخلق في بني آدم أناس مغرمون بالعلم وآخرون مغرمون بالملك فكان العلم وكانت الممالك.

(٥) وقد خطر للإنسان من أول تاريخه وتمنى أن يطير في الجو ليسعى إلى حبيبه ويجتمعا، حتى قال الشاعر العربي:

بكيت على سرب القطا إذ مررن بي فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير
فجاوبني من فوق غصن أراكة ألا كلنا يا مستعير نعير
وأي قطاة لم تعرك جناحها فعاشت بذل والجناح كسير

فلم يكن الإنسان في هذا الخاطر ضالاً أو غاوياً. كان الشاعر يقول ذلك وما كان ليخطر له أن الإنسان يوماً سيطير في الجو ويشارك الطير.

إذن خواطر الإنسان وأمانيه محترمة، فلقد طارت فتاة أمريكية من أمريكا إلى أوروبا في ساعات معدودات، فحركت الشركات للسير بين القارتين بالطيارات، إذن هذا الشاعر كان خاطره حقاً، فقد صارت الطيارات اليوم تجري في الساعة ٣٠٠ كيلو متراً، مع أن قطار السكة الحديدية يجري نحو ٦٠ كيلو في الساعة، وقد سار الطيارون في قارة أستراليا واخترقوها في سائر جهاتها، وقطعوا مفازة هناك مسافة ١٥٠٠ ميل بين مدينتي « برث » و« دربي » هناك، و٤٨٠ ميلاً من « اديليد » إلى « ملبورن »، و٥٠٠ ميل من « ملبورن » إلى « سدني »، و٥٠٠ ميل من « سدني » إلى « بربسين »، وهناك شيخ في السبعين من عمره قطع بالطيارة في يوم ١٢٠٠ ميل، مع أنه كان يقطع هذه المسافة في ستة أسابيع على جواده، وقد سيرت الطيارات إلى مسافات أكثر من أربعة ملايين ميل من غير أن يصيب أي راكب من ركابها أو سائق من سائقيها أو ميكانيكي بها خدش في إصبعه.

فتبين من هذا أن ما تمناه الإنسان من الطيران حصل فعلاً، ولا بد من أن حال الإنسان وأعماله ستغير في القريب العاجل، ولا يعلم إلا الله ماذا سيكون غداً وإن غداً لناظره قريب. وإلى هنا انتهى الأمر الخامس.

(٦) إن الإنسان فوق ذلك قد أحب البقاء إلى ما لا نهاية له، وعشق الكواكب وأحب البحث فيها والإطلاع على عجائبها. هذه غريزة من غرائز الإنسان، وهي غريزة مقدسة لها قيمة، بل هي أرقى مما قبلها واشتهى الطعام فوجده والزوجة وهكذا الولد والمال، وأن يطير في الهواء، فهكذا هو يشتهي أن يطوف العوالم كلها ويسير بين النجوم ويعيش إلى الأبد. هذه جبل عليها الإنسان، أحب الإنسان الإطلاع على العوالم.

ثم قال هذا الهاتف لي بعد ذلك: لقد جاء في كلامك سابقاً في سورة « الأنعام » وفي سورة « يونس » كلام عن الكواكب والمجرة والسدم جمع سديم، وهذه كلها عوالم يحب الإنسان الاطلاع عليها، فكيف تعطل هذه الغريزة ولا تعطل الغرائز التي قبلها، ولم تصدق تلك وتكذب هذه. كلا هذه غريزة صادقة لأن ما قبلها صادق كله.

إن هذا القول أقوى الأدلة على بقاء أرواحكم، واطلاع الفضلاء منكم على العوالم العلوية والمنكرون منكم بعد الاطلاع على هذا البرهان إنّما ينكرون بالاستبعاد لا غير، فكما استبعد الناس الطيران في الجو لأنهم لم يروا الناس يطيرون، هكذا هم يستبعدون بقاء الأرواح والاطلاع على العوالم العلوية لأنهم لم يروا أرواحاً تطير في الجو وتشاهد الكواكب بعد موتها. أما العقل فقد شهد بهذا البرهان، فقلت: هل تسمح لي أن أناقشك؟ قال: قل ما تشاء. قلت: أنت بنيت هذا البرهان على

الشوق والحب، وأن كل ما أحبته فطرتنا العامة لا بد من وجوده، فكما كان الغذاء والنساء والأموال والطيارات وقد طلبتها نفوسنا، هكذا ستبقى أرواحنا وتطلع على العوالم العلوية، ولكنني أقول: إني إذا خاطبت الناس بما تقول؛ ردوا عليّ قائلين: هذه الحجة مردودة لأن الشوق إلى الاطلاع على العوالم العلوية ليس عاماً في الناس، بل هو خاص بطبقة ممتازة، فكيف أدخلته في البرهان؟ فردّ علي قائلاً: ليس اختصاص غريزة الاطلاع بطبقة من الناس قادحاً في أنها غريزة. ألست ترى الأطفال لا يفرحون بجمال النساء وإنّما يفرحون بالحلواء. فما مثل الحكماء في الأمم إلا كمثل البالغين العارفين بقيمة النساء، فالناس جميعاً بالنسبة لهذه الطائفة الممتازة أشبه بالعنين ــ بكسر العين ــ الذي لا يرى وجهاً لمصاحبة النساء وزواجهن، فقلت: قد فهمت. فقال: ودونك عالم السماوات، هذا العالم البهيج. انظر ماذا ترى. إنه يظهر فيه كل يوم كشف جديد عندكم، فقد ظهر لكم في هذه الأيام أن هناك سدماً لولبية، وهذه السدم ظهر أنها عوالم مستقلة كنظام مجرتكم، وكل سديم منها سعته كسعة مجرتكم، ومجرتكم قرص عدسي الشكل طول قطره نحو مائة ألف سنة نورية، وعرضه ٢٠ ألف سنة نورية، ومعنى هذا أن النور الذي يجري من الشمس إلى الأرض في ٨ دقائق و ١٨ ثانية، وما بين الشمس والأرض يقطعه القطار في أكثر من ٣٥٠ سنة، وتقطعه قلة المدفع في ١٢ سنة. فهذا النور لا يقطع طول مجرتكم إلا في مائة ألف سنة إلى آخر ما تقدم.

ومن هذه السدم التي تعادل مجرتكم ما يقال له « غيوم مجلان »، ومنها ما يقال له « سديم المرأة المسلسلة »، ومنها ما يقال له « الشلياق الحلقي »، ومنها ما يقال له « سديم السلاقي اللولبي »، ومنها ما يقال له « سديم الجبار غير المنتظم »، ولقد وجدوا أن « سديم المرأة المسلسلة » يبعد عنكم نحو ٩٠٠ ألف سنة نورية، وهناك « سدم لولبية » تبعد عنكم أضعاف ما تقدم، وهناك سدم تبعد عنكم مائة مليون سنة من سني النور، ثم إن « سديم المرأة المسلسلة » يجري نحو مجرتكم بسرعة ٣٠٠ كيلو متر في الثانية، وأكثر السدم اللولبية تبعد بسرعة ٦٠٠ كيلو متر في الثانية، ثم إن جرم « سديم المرأة المسلسلة » يساوي جرم شمسكم ألفي مليون ضعفاً، وأن هذا السديم يستغرق ١٧ مليون سنة للدوران على نفسه مرة واحدة، وأرضكم تدور على نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة.

انظر صور هذه السدم في (الأشكال ١-٢-٣-٤).


(شكل ١) سديم السلاق اللولبي


(شكل ٢) سديم الجبار غير المنتظم


(شكل ٣) سديم المرأة المسلسلة اللولبي


(شكل ٤) سديم الشلياق الحلقي

ثم قال لي: هل تذكرت شيئاً عند اطلاعك على هذا؟ قلت: نعم تذكرت قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤]، فهو إنّما حدد هذه المدد على قدر عقولنا، وإلا فعند الله أيام كل يوم منها مائة ألف سنة أو مليون سنة، وهذا يوم مقداره ١٧ مليون سنة لا كالسنين عندنا، بل هي سنة نورية، والسنة النورية تعد سنوها المعتادة عندنا بالملايين.

فقال: أحسنت إذ فهمت. فقلت: الحمد الله رب العالمين. فقال: إن ولوعكم بهذه العجائب دليل على بقائكم بعد الموت، كما كان ولوعكم بالطعام وبالنساء وبالطيران دليلاً على حصولها وقد جاءت في الوجود.

تم البرهان على «اليوم الآخر»، والحمد لله رب العالمين. كتب في ليلة الثلاثاء ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٨م.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾

اعلم أن هذا لمن أهمل قواه ونفسه. أما ذلك الذي جعل حياته كلها نافعة علماً وعملاً فإنه إذا كبرت سنه فإن عقله يزيد لا ينقص، ولقد أحصوا المخترعين في أوروبا فوجدوا أكثرهم ممن زادوا على الستين.

ولقد رأيت المرحوم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر سابقاً قد عاش نحو ١١٥ سنة وهو قوي العقل يدير الجامع الأزهر كله بعقل منير وفكر حاضر. ومن أعجب العجب أن يكون رجال من أوروبا مثل «كلمنصو» الوزير الفرنسي يحس في نفسه في زمن الشيخوخة بأنه شاب إذا بلغ الثمانين، وهو نشط كالشباب قد أتم الصلح مع ألمانيا وذهب إلى بيته في الريف يفكر لمنفعة بلاده وهو لا يصدق أنه شيخ.

جاء له الدكتور «فورنوف» ليجري له عملية جراحية ترجع له الشباب، فقال: لست شيخاً يقرأ كتب الإغريق ليعرف علم المتقدمين، ويكتب مقالات في الصحف، ويقول: يجب أن نلقي مرساتنا ونستقر على صخر المعرفة.

ويقول: كل يوم يمر بي هو برهان لي على أني أجدد نفسي بنشاط عقلي، ولست أعرف شيئاً كثيراً ولكني أتقبل ما أعرفه بكبرياء كما أتقبل نتيجة معرفتي. ويقول للشاب: يجب أن تسمو إلى أكثر ما تستطيع حتى تحصل على أقل مما ترمي إليه. ويلعب الألعاب الرياضية في الشيخوخة كأنه شاب ولا يشرب الخمر والتبغ، ويقول: إنهما دون رجوليتي. هذا رجل إفرنجي، والله يقول لنا في القرآن: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧].

ويقول بعض العلماء عندنا: إن العالم يكون أطول عمراً من غيره. وهذا حق، فقد ثبت بالإحصاء أن رجال الدين أطول أعماراً، وأن النابغين العبقريين أطول أعماراً من الجميع، فإذا كان أهل أوروبا الذين حاد مجموعهم عن الفضائل النفسية قد ظهر فيهم أمثال هؤلاء فأولى ثم أولى نحن المسلمين، فإن ديننا يأمرنا بكل ما هو جميل. اهـ.

إيضاح الكلام على النبوغ «العبقرية» وبيان أنه يدخل في قوله تعالى:
﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧]

قد شاعت في أوروبا فكرة أن النابغين العبقريين مجانين، وأنهم يموتون ناقصي العمر، وألف «لومبروزد» كتاباً كبيراً في هذا المعنى، وتلميذه «ماكس نوردو» له كتاب أكبر منه، وقد رأيت في كتب «جوستاف لوبون» المترجمة ما يفيد أن النابغين نصف مجانين، والحقيقة التي لا مراء فيها أن النابغين لهم صفات منها:

(١) أنهم في زمن الصبا يحسون بنقص وشين يلحقهم، فيجعلون حياتهم وقفاً على العمل كي يرفعوا أنفسهم من الخزي والعار.

(٢) ثبت بالاختبار أنهم يعنون بصحتهم أشد العناية، ودليلك على ذلك ما جاء في التوراة من عناية كثير من العظماء المذكورين فيها بصحتهم، وترى الصحابة والتابعين يتجنبون اللذات ويحقرونها زهداً في الدنيا، وكان ذلك صحة لهم، وكانوا يحافظون على النظافة وعلى السواك، وللسواك اليوم القدح المعلى، وكانوا يأكلون الخبز غير منخول الدقيق زهداً، وظهر اليوم أنه أعظم وأفيد للصحة، وظهر الآن بعض سرّ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر: ٨]، وبعض سر قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ، وأن الإكثار من أكل الحلوى وأنواع اللحوم كل ذلك مقصر للأعمار مخرب للأمم مذلّ للنفوس. اقرأ هذا المقام في سورة «طه» عند قصة آدم وإبليس في آخر السورة.

وكان أفلاطون يقول: الجسم السليم يرقى بالنفس كما أن النفس السليمة ترقى بالجسم. إذن النابغة يحس بنقص في الشرف وفي الجسم، فهو أبداً يجتهد في إكمال نفسه فيهما.

(٣) وقد ثبت بالإحصاء أن هذه الطائفة تعيش طويلاً؛ فقد أحصى أحد الأمريكان عدد الذين بلغوا السبعين بين العبقريين فوجدوا أنهم خمسة أضعاف نسبتهم بين سائر الناس، فقد بلغ «تيتيان» الرسام الطلياني المائة من عمره ومات بالطاعون، ولكن كان موته أمراً مستغرباً عند أصحابه لما كانوا يعرفون فيه من القوة.

وكان «كارليل» ممعوداً فبلغ ٨٢ سنة، وكان يسير في هذه السن خمسة أميال في اليوم، وكان «فاجنر» ضعيف الجسم فعاش إلى السبعين، وكان «نابليون» مزاجه أشبه بمزاج الأنثى فقاوم نفسه حتى صار يدرس الدول دوساً. اهـ.

إذن تبين من هذا كله أن قول بعض أساتذتنا في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧] له شاهد من الواقع الحاصل في الأمم، وأن حصول الخرف والجهل بعد العلم يتأخر في هذه الطبقة أو لا يكون، وإنّما قلت هذا ليكون نموذجاً لأناس يظهرهم الله في أمة الإسلام، ويرون في أنفسهم همة عالية، فليعلموا أن الله مع المحسنين، وأن هذه القاعدة التي وضعها للناس في أنه يجعلهم مخرفين، تتأخر في هذه الطائفة النافعة للناس، لأنه خصصهم لنفع عباده، وخير الناس أنفعهم للناس، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾

(١) اعلم أن هذه السورة متصلة بما قبلها، فإن آخر سورة « الأنبياء » كان في أمر القيامة كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[الآية: ١٠٤]، وما قبلها من الآيات كقوله: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾[الآية: ٩٧] الخ. وأول هذه الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية.

(٢) أن السورة المتقدمة قد أقيمت فيها الحجج الطبيعية والنبوية على الألوهية غالباً. أما في هذه السورة فقد جعل العلم الطبيعي من براهين البعث، كما أنه من براهين وجود الله. لقد جاء ذكر العلوم الطبيعية في سورة « الحجر » على مقتضى ترتيب المواليد. وهكذا تكرر ذلك في السور بعدها. وهاهي ذه هذه السورة قد جيء فيها بعلم الأجنة استدلالاً على البعث، وكذا بنظام المواليد الثلاثة استدلالاً عاماً في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الحج: ١٨] الخ، فهاهنا سلسلة المواليد منتظمة تماماً وكواكب للإضاءة عليها وجبال وشجر ودواب والناس ثم حشرهم، وهذه هي المواليد من أولها إلى آخرها عناية بالعلوم الطبيعية.

(٣) تقدم في السورة السابقة وما قبلها ذكر الأنبياء وبراهينهم لقومهم. أما في هذه السورة فالخطاب من الله رأساً للأمم الحاضرة، وهو خطاب يسترعي السمع ويوجب علينا ولو على سبيل فرض الكفاية تفصيلاً وفرض العين إجمالاً أن نعرف جميع ما صنع الله في أرضه وسمائه وما دبر في خلق الأجنة والنبات والحيوان.

(٤) ولما تم الكلام على الاستدلال على البعث وما لحق به، شرع سبحانه يذكرنا بما يناسبه وهو أماكن الحج وأعماله، فإن الحج انتقال من حال إلى حال جديدة، ففيه يترك الإنسان وطنه وملابسه المعتادة ويصرف ماله، ويلبي دعوة ربه رافعاً صوته بالتلبية، تاركاً لبس المخيط، مهرولاً ما بين جبلين، طائفاً حول بيت الله، واقفاً والشمس فوق رأسه وهو مخبت خاشع، والناس معه كذلك ملبين لربهم خاضعين له واقفين معاً، فلا أهل ولا مال ولا ولد، راجعين إلى منازلهم تائبين من الخطايا منتظرين الموت. كل هذا أشبه بالحشر في أكثر صفاته.

لذلك ذكر الله الحج بعد البعث فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: وهم يصدون ﴿ وَ ﴾ عن ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي: الدخول فيه ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ ﴾ أي: المقيم ﴿ وَٱلْبَادِ ﴾ الطارئ، أي: جعلنا المسجد الحرام للناس مستوياً فيه العاكف والباد، فهما مرفوعان بـ« سواء » الذي هو منصوب عند حفص، وقرئ « العاكفِ » بالجر، على البدل من الناس، ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ في المسجد الحرام، أي: مراد ﴿ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ ﴾ حالان مترادفان، أي: عادلاً عن القصد ظالماً ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في الآخرة، وخبر « إن » في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مقدر تقديره نذيقهم من عذاب أليم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي: حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أي: مرجعاً ليعبد فيه ويعمره، إذ رفع البيت أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم، وأوحينا إليه ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ من الأصنام ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ من الشرك والأوثان وكل قذر ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ أي: الذين يطوفون بالبيت ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أي: المقيمين فيه ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي: المصلين ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ ﴾ ناد فيهم وأعلم. والأذان في اللغة: الإعلام، والناس: أهل القبلة ﴿ بِٱلْحَجِّ ﴾ بدعوة الحج ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ مشاة جمع راجل، كقائم وقيام ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي: ركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله ﴿ يَأْتِينَ ﴾صفة لـ« ضامر » أي: جماعة الإبل. وقرئ « يأتون » صفة لـ« رجال » ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ طريق بعيد ﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ ليحضروا ﴿ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ دينية ودنيوية كالمغفرة والتجارة ﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ هي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة وآخرها يوم النحر، وعند ابن عباس أيام عرفة والنحر وأيام التشريق، وقيل: إنها أيام النحر وثلاثة أيام بعده ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أمر إباحة (١) إذا كان الهدي تطوعاً وكذلك الأضحية. وأما الواجب فلا يأكل منه عند الشافعي. (٢) ولا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك عند ابن عمر وأحمد وإسحاق. (٣) وقال مالك مثل ذلك وزاد في التحريم فدية الأذى. (٤) وأصحاب الرأي

حرموا الأكل من كل واجب إلا دم التمتع والقران، وإنما يأكله الزمن الذي لا شيء له، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ أي: ليزيلوا أدرانهم، أي: ليخرجوا من الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب. والحاج أشعث أغبر ما دام لم يزل هذه الأوساخ ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرون من البر في حجهم ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ ﴾ طواف الركن الذي به تمام التحلل أو طواف الوداع ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس، أو الذي أعتقه الله من تسلط الجبابرة. الأمر ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أحكامه وكل ما لا يحل استباحته ومنه الحرم وتكاليف الحج والكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام، فكل هذه من حرمات الله التي لا يحل انتهاكها ﴿ فَهُوَ ﴾ أي: فالتعظيم ﴿ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ثواباً ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾ أي: أحل لكم أن تأكلوها بعد الذبح وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه فيما تقدم في سورة « المائدة » وهو ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [المائدة: ٣] الخ، ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ ﴾ أي: اتركوا الرجس الذي هو الأوثان فهي نجاسة معنوية أقبح من النجاسة الحسية ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ وهو أعم من عبادة الأوثان، كتحريم السوائب والبحائر وغيرها وكشهادة الزور. يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاثاً، وتلا هذه الآية »، والزور من الزور وهو الانحراف ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ مخلصين له ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ وهذا وما قبله حالان من « الواو » في « اجتنبوا » ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ ﴾ سقط ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى الأرض ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ أي: تسلبه وتذهب بسرعة ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ أي: تميل وتذهب به ﴿ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد. هذا تشبيه مركب وهو أبلغ التشبيهات، يقول: من أشرك بي فقد أهلك نفسه هلاكاً ليس وراءه هلاك، بأن صورت حاله بصورة حال من خر من السماء فتخطفته الطير ففرقت أجزاءه في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة. الأمر ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أي: دين الله، ومنه فرائض الحج ومواضع نسكه والهدايا، وتعظيم هذه اختيارها غالية الثمن حساناً سماناً ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب. ولا ريب أن القلب منشأ كل فجور وكل تقوى ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾ من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: إلى أن تنحر ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ ﴾ أي: وقت وجوب نحرها منتهية ﴿ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ والمراد أنها تنحر في الحرم، والحرم في حكم البيت، إذ الحرم حريم البيت. تقول: بلغت بلد العدو، وأنت إنّما اتصل مسيرك بحدوده. وأولى من هذا أن تجعل الشعائر عامة كما تقدم وتعظيمها إتمامها. والمنافع التي للناس فيها تكون بالتجارة إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ولكل أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ متعبداً، كما جعلنا لكم هذا المنسك لأنا هكذا نجمع قلوب الناس باجتماعهم في مكان العبادة ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ وحده ويجعلوا نسيكتهم لوجهه، إذ لا غرض من النسك إلا تذكر المعبود ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ عند ذبحها ﴿ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أخلصوا التقرب ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ المتواضعين المخلصين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

هيبة منه لإشراق نور جلاله عليها ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من البلاء والمرض والمصائب التي لا يقدرون على إزالتها ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ في أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يتصدقون ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وسميت بذلك لضخامتها ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ من أعلام دينه ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ منافع دينية ودنيوية ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن. وكيفية الذكر أن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك. ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت على الأرض، أي: ماتت ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر إباحة ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ ﴾ الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ﴿ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ المعترض بالسؤال. وقرئ «والمعتري» ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ مع عظمها وقوتها حتى تأخذونها وهي منقادة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ ﴾ لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول ﴿ لُحُومُهَا ﴾ المتصدق بها ﴿ وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ المهراقة بالنحر من حيث إنها دماء ولحوم ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص، وهو ما أريد به وجه الله. ثم كررها ثانياً تذكيراً للنعمة فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي: أرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجه، فتقولوا: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا، ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه. انتهى التفسير اللفظي. وهنا خمس لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[الآية: ٢٥].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾[الآية: ٢٨].

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الآية: ٣٣].

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾[الآية: ٣٤].

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾[الآية: ٣٧].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾

اعلم أن هذا المقام وهو مقام الحج قد استوفيته في سورة «البقرة» فارجع إليه إن شئت، ولنخص الكلام الآن بما في هذه الآية. واعلم أن الله عز وجل لم يخلق الخلق سدى ولم يطلقهم في أرضه سبهللاً بل أحاطهم بضروب الحوافظ التي تحفظهم، وهي المعقبات التي تمنع عنهم الأذى، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾[الرعد: ١١] وأن الله يعامل الناس معاملة الرحمة واللطف والعطف ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك جهلاً تاماً، لما أنهم مشغولون بأمور المعاش والأخلاق القاطعة للمرء عن التذكر والتفكر. ولقد تقدم لك في هذه السورة أنه جعل الهواء صلة بين النبات والحيوان بحيث يكون موصلاً لمادة الفحم من نفس الحيوان إلى النبات، وبه ينمو النبات ويتخلص الأكسوجين فيذهب إلى الحيوان، أما الكربون الذي بقي في النبات فإنه يدوم فيه حتى

يأكله الإنسان. والمقصد من هذه الجملة أن الناس والحيوان والنبات على الأرض أشبه بأعضاء جسم واحد، فالنبات يغتذي بكربون خرج من الإنسان، والإنسان يغتذي بنفس النبات وفيه الكربون، ثم هذا الكربون يذهب إلى النبات ثانياً وهكذا.

وإنما ذكرت لك هذا اتكالاً على فهمك ما تقدم قريباً في هذه السورة وليكون مقدمة إلى ما سيأتي في هذه الآية. فانظر كيف كان كل من الحيوان والنبات يرسل إلى الآخر منافع ولا يعلم كل منهما بذلك، بل هم جميعاً غافلون، فالنبات والحيوان والإنسان كل هؤلاء غافلون إلا بعض ذوي العقول الكبيرة. فانظر كيف أحاط الله الإنسان بصنوف النعم ودفع عنه النقم وهو لا يشعر. ومن دفعه النقم عنه أن خلق في الأرض جبالاً لتفصل بين الأمم ليصفو فيها الهواء، لئلا يكون التعفن فيفسد الجوّ لتلاصق العمران، ولئلا يتعدى المرض والعدوى والوباء بلدة إلى أخرى، وأيضاً ليتحصن بها من هربوا من الظلم والجور في المدن الظالمة فيهرعوا إلى جوار ربهم في أعلى الجبال ويعيشوا مع الوحوش التي فرت من ظلم الإنسان.

فالجبال إذن أمان للناس من هذا القبيل. هذا هو الأمان الطبيعي، والديانات نزلت مصداقاً لما في الطبيعة وإقراراً لما هو نافع وتحريماً لما هو ضار. فمن أبدع المنافع وأجمل المفاخر الدينية أن جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، وجعل الحرم للناس سواء العاكف فيه والباد، وجعله حرماً آمناً لا يصاد صيده ولا يقتل فيه أحد، ومن دخله فهو آمن. إليه يهرب كل مظلوم ويلجأ كل مضطهد، فقام في الدين مقام الجبال الشاهقات يكون حصناً يأوي إليه الخائفون، وهذا مقامه رفيع وفضله عظيم، ففيه يعبد الله وتشرق النفوس وتبتهل إلى ربها. وهاك آراء العلماء في الآية:

(١) يستوي في البيت العاكف فيه والبادي في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه وفضل الصلاة فيه، وهو قول مجاهد والحسن.

(٢) أو المراد من المسجد الحرام جميع الحرم، والتسوية فيه أن المقيم والبادي سواء في النزول فيه ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر، غير أنه لا يزعج أحد أحداً إذا كان قد سبق إلى منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل. ويقال: إن الحجاج كانوا إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة أحق بمنزله منهم، وأمر عمر أن لا تغلق أبوابهم في الموسم. وعلى هذا لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها والأرض إذن لا تملك، ولو ملكت لم يستو فيها العاكف والبادي. فلما استويا كان حكمها حكم المساجد، وهو قول أبي حنيفة. وعلى القول الأول يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وهو قول طاوس وعمرو بن دينار، وهو مذهب الشافعي، وقد قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ [الحج: ٤٠] فنسبها إليهم، واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم. اهـ.

فانظر كيف حرّم إبراهيم الحرم ودام تحريمه في الإسلام ليكون ذلك أمناً للناس وموطناً للعبادة وموضعاً لاجتماع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وقد امتن الله بذلك فقال في آية أخرى: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧]. يقول الله: إني جعلت البيت الحرام قياماً للناس الخ، لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في

الأرض، أي: لتنظروا أولاً في حكمة كون الحرم قياماً للناس، ثم تفكروا في بقية حكمه في السماوات والأرض التي هي من قبيل العناية والحفظ من الآفات الطارئة عليكم من السماء والأرض، فأنا أحفظكم منها ولن تقدروا على معرفتها إلا بالدراسة والعلوم، ولن يقدر الناس أن يدركوا شيئاً من عنايتنا بهم إلا بدراستها، فإذا أمنتهم في الكعبة بطريق الدين فيا حسرة على العباد لجهلهم. فكم من مصيبة عنهم رفعناها، وكم من نازلة دفعناها، وكم من قاصمة كسرناها، وكم من داهية أزلناها. فنحن نكلؤكم بالليل والنهار وأنتم لا تشعرون. فأنا حرمت الحرم ليفكر العقلاء فيه ويقولوا: إن ربنا حرمه لنأمن فيه، وهل له أفعال غير هذه؟ وإذن يدرسون نظام هذا الوجود ويقولون: نعم تحيط بالإنسان الرزايا من كل ناحية ولكن هناك عطف ولطف يمنع المصائب عنه، ومنه المسألة المتقدمة في الكربون المتواصل بين الحيوان كله والنبات.

هذا هو معنى قوله تعالى في سورة «المائدة»: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[الآية: ٩٧]. فهذه المسألة التي يظنها الناس سهلة وهي تحريم الحرم فتح باب لدراسة نظام الله في حفظنا في السماوات والأرض.

ولقد ألهم الله أهل أوروبا أن يجعلوا سويسرا ملجأ للذين يفرون من الظلم أو المجرمين السياسيين وقد اصطلحوا على ذلك. فتعجب كيف ألهم الله الناس أن يعملوا عملاً قد أنزله الله على إبراهيم بطريق الوحي. فهنا ملجأ سياسي اختاره الناس، وهناك ملجأ ديني اختاره الله. ذلك ليعلم الناس أن ربنا هو الذي يلاحظ عباده ويرحمهم في هذه الدنيا. فلما لم تكف الجبال للفارين من الظلم ألهم قوماً أن يلجؤوا إلى مكان يصطلحون عليه ليأمنوا فيه. فالجبال مأمن طبيعي إلهي، وسويسرا ملجأ سياسي، والحرم ملجأ إلهي ديني، والله يقدر الليل والنهار.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ الخ

أما اللطيفة الثانية فقد اتضحت في تفسير الكلمات فلا نعيد ما ذكرناه، وإنما نبين أن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً فأمر الله بمخالفتهم.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

وأما اللطيفة الثالثة فاعلم أن المنافع المذكورة في الآية كدرّها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها، فهذه المنافع قد اختلف فيها العلماء:

(١) إذا جعلها الإنسان هدياً وسماها لذلك لم يكن له بعد ذلك شيء من منافعها عند مجاهد وقتادة والضحاك ورواية عن ابن عباس، ومنافعها له قبل ذلك التعيين.

(٢) للمهدي تلك المنافع بعد التعيين للهدي فيركبها ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى، أي إلى أن تنحر عند عطاء.

(٣) يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها عند مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، ويجوز كذلك أن يشرب من لبنها بعدما يفضل عن ريّ ولدها.

(٤) لا يركبها إلا أن يضطر إليه وهذا لأصحاب الرأي.

(٥) والشعائر غير ذلك من المناسك منافعها بالتجارة والأسواق إلى أجل مسمى، أي: إلى الخروج من مكة وبالأجر والثواب الأخروي في أعمال مناسك الحج إلى انقضاء أيام الحج.

مسامرة في قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

حادثني رجلان قد حجا في هذا العام سنة ١٣٤٤ هجرية أحدهما ممن يجوبون الأقطار ويتبوؤون الأمصار ويعاشرون الكبراء والأمراء وأهل الحل والعقد. والثاني من العامة وأهل الصناعة، فاتحدت آراؤهما على ما يأتي:

إن الحجاج إذا حلوا منى ونصبوا خيامهم بعد الإفاضة من عرفات يتقربون إلى الله عز وجل بالهدايا والضحايا من الإبل والغنم، ويتركون أكثر تلك الهدايا على الجبال المحيطة بهم صباحاً، فلا تجيء الضحوة الكبرى إلا وقد انتشرت الروائح المنتنة الخبيثة فملكت الهواء ودخلت الأنوف واحتلت كل رئة من رئات الحجاج الذين هاجروا إلى ربهم.

وهذا التغير السريع وفساده بسبب الحرارة الشديدة من الشمس، والآن هذا الزمان يكون الحج فيه صيفاً والصيف قوي الحرارة لا سيما في الأقطار الحجازية المحرقة بالحرارة الكاوية القاتلة، فلا عجب إذا امتلأ الجو بالعفونة في بضع ساعات، فلا ترى القوم إلا أناساً مالت رؤوسهم وتقلصت شفاههم وحانت منيتهم وأودعوا حفراً. ولا سبب لهذا إلا فساد الجو بما خالطه من تلك الروائح الكريهة القاتلة من الهدايا والضحايا في العيد وفي أيام التشريق.

فلما سمعت ذلك منهما في حديث طويل، قلت لهما: أليس هناك فقراء يتناولون هذه اللحوم؟ قالوا: كلا. ثم كلا. قلت: إن هذا أمر منكر كيف يغفل المسلمون عن هذه الأمور المحزنة؟ ثم سألتهما: كم عدد الذين يموتون؟ فقالا: ما من عشرة أو ثمانية إلا مات منهم واحد أو اثنان. فقلت: كم عدد الحجاج في هذه السنة. فقالوا: يقربون من ثلاثمائة ألف. فقلت: وبكم تبلغ الهدايا التي يتقربون بها؟ فقالوا: تقدر بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه أو أقل قليلاً. فقلت: يا عجباً، إن صح هذا تكون هنا مصيبتان، بل معصيتان، وهما: هلاك أنفسنا وهلاك أموالنا. أما الأموال فهي تلك الضحايا التي جعلها الله لأهل مكة وسكان حرمه الشريف حلالاً يأكلون منها كما قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

اللهم إنك قد استجبت دعوة إبراهيم عليه السلام. وهاهي ذه القلوب تهوي إليهم، وهاهي ذه الثمرات قد رزقوها ولكنهم لم يتعاطوها. فيا عجباً لأمتنا الإسلامية. يقول الله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فهل شكر أهل الحرم على هدايا تقدم لتعطي الجو عفونة ورائحة خبيثة. هذا ما كان من أمر الهدي. أما الأنفس وهلاكها فإن هذه الضحايا والهدايا بدل أن كانت نعمة لبقاء النفوس وحياة المسلمين من أهل الحرم أصبحت وبالاً وهلاكاً للحجاج القادمين من الأقطار. فكأن هذه النعم انقلبت نقماً على أولئك الحجاج بهلاكهم وعلى نفس أهل الحرم، لأن الناس إذا عرفوا أن الوباء يحل بساحتهم في منى بسبب الضحايا وشاع ذلك وذاع ينفر العقلاء وأهل العلم عن الحج ولا يحج بعد ذلك إلا الجهلاء، فإذا فرضنا أن ٣٠٠ ألف حاج يموت منهم في «منى» عشرة آلاف أو

عشرون ألف فهذا عدد لا يستهان به وهذه مصيبة كبرى لا يحتملها دين الإسلام. فما كدت أنطق بهذا حتى ابتدرني أحد أهل العلم وكان حاضراً في المجلس فقال: ما هذه الضجة ؟ وما هذه المخاوف؟ ومن أين أتيت بهذه الأقوال؟ ومن قال لك: إن رائحة الذبائح والهدايا والضحايا تورث الموت والطاعون؟.

قلت: أسمعك كلام المؤرخين والأطباء. فتبسم قليلاً وقال: قل. فقلت: قال العلامة ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان «فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات» ما نصه:

وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرنا أو كثرة الفتن لاختلال الدولة، فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء. وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفونات والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وإن كان الفساد دون القوي والكثير يكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك، وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة. انتهى المقصود منه.

هذا كلام ابن خلدون وهو من أجلّ علماء الإسلام المطلعين على العمران، بل يقلّ نظيره في الأمم المتأخرة الإسلامية. وقد جاء في كتاب «كنوز الصحة» المؤلف حديثاً أيام عصر محمد علي باشا الكبير بمصر ما نصه في صفحة ١٧١ عند الكلام على الطاعون:

إن مرض الوباء يكون في الغالب قاتلاً، ومن أصيب به يموت سريعاً بعد ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة، وذكر العلاج ولا محل لذكره هنا. ثم قال: أغلب الأطباء يقولون بعدوى هذا الداء وأنه ينتقل من شخص لآخر بالملامسة لا سيما أطباء أوروبا، فلذا اخترعوا «الكرنتينا» وهي كلمة معناها أربعون، أعني أن الأشخاص المظنون فيهم ذلك يمكثون مدة أربعين يوماً في محل واحد لا يخالطهم أحد معرضين للهواء. انتهى.

فلما سمع جليسنا العالم ذلك ضحك واستغرق في الضحك وصار يضرب كفاً على كف، وقال: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[التوبة: ٦٥]. أبهذا تجيبنا؟ أتقول في دين الله وتستدل عليه بكلام مؤرخ تارة وطبيب تارة أخرى؟ ما لنا ولابن خلدون؟ وما لنا ولكتاب «كنوز الصحة»، أنت تقول: إن ترك الضحايا على الجبال أورث الموت لبعض الحجاج، فطلبت منك أن تبرهن على أن هذا الترك منكر، فلم تشف غليلاً. ترك الناس هداياهم التي أمرهم الله بها على الجبال بمنى والشرع لم يحرم ذلك. هذه سنة متبعة لا يسأل الله أحداً عن ذلك، ذبحنا الضحايا وتركناها، أما تعفن الجو وما أدراك ما تعفن الجو فهذا أمر لا دخل له في الدين، فمن مات من الحجاج مات بأجله، وسواء أكان سببه ما زعمته من الروائح الكريهة أو غيره فهذا شيء والهدايا والضحايا شيء آخر. المسلم لا يلزمه أكثر من ذلك، ولم نسمع من علمائنا مثل ما تقوله، وقد قال الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج: ٧٨]. ذبحنا الهدايا وتركناها ونحن لسنا مسؤولين عن شيء غير

هذا . أما قولك في الهواء الطاعون والكرنتينا فهو بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . فدعنا من هذه الأراجيف واتق الله ولا تضيع وقتك فيما لا يفيد .

فلما أتم صاحبي مقالته صدق عليه الحاجان اللذان ألقيا إلي هذا الحديث وأمنا على كلامه ، وقالا بلسان واحد : إن بعض المتنورين هناك سألوا بعض العلماء ، فقالوا لهم : هذا أمر الشرع ، فلم نفهم ، أما الآن فقد عرفنا الحقيقة . فتح الله عليك أيها الشيخ فلقد أنرت بصائرنا وشرحت صدورنا وقد كان الشيخ طنطاوي يكاد يضلنا عما وجدنا عليه علماءنا ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . فلما أتموا مقالتهم قلت لهم جميعاً : هذا بيت بنيتموه على غير أساس فلأسمعنكم ما يهدمه من أساسه ولتعلمن نبأه الآن . فقالوا : ليس في الإمكان أبدع مما كان وإلا فأت ببرهان . فقلت : قد ذكرت في سورة « الكهف » في التفسير ما قاله ابن القيم ، وهذا نصه تحت عنوان « تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والعرف » قال : هذا فصل عظيم النفع جداً ، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ، وما يعلم أن الشريعة الباهرة لا تأتي به ، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم والمصالح ، وهي عدل كلها ورحمة كلها وحكمة كلها ، وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . وقد ذكر لذلك أمثال منها أنه شرع لهذه الأمة وجوب إنكار المنكر وتغييره ، ولكن إذا كان إنكار المنكر يستدعي منكراً أشد منه فإنه لا يسوغ الإنكار في هذه الحالة الخ . انتهى المقصود من كلام ابن القيم الذي نقلته في سورة « الكهف » ، وهو صريح في أن المفسدة تجتنب في الإسلام .

فبالله أي مفسدة أكثر من ضياع ٥٠٠ ألف جنيه بلا فائدة لأهل الحرم وهلاك آلاف من حجاج بيت الله الحرام ، فقالوا بلسان واحد : أيها الأستاذ إذن أنت تريد أن تهدم نفس الإسلام ، فإن الهدايا التي ورد بها صريح القرآن تريد أنت تحريمها ، إن تلك الضحايا والهدايا منها الواجب ومنها المندوب ، فأنت بهذا التقرير قد جعلت الواجب أو المندوب حراماً . فقلت : حاشا لله فإن هذا كفر وإني أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، وإنّما الذي أبتغيه أن نسير على سنن القرآن ، والقرآن لم ينزل لما يضرنا بل نزل لما ينفعنا . وهذه الهدايا إذا صح ما قلتموه لي انقلب خيرها شراً ، وهذا لا يرضاه جاهل فضلاً عن عالم ، وهذا قول إمام من أئمة المسلمين عرف حقيقة الإسلام وفهم قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٩-٢٢٠] . فالله أمرنا بالتفكر في الدنيا قبل الآخرة .

فابن القيم رحمه الله تفكر وصرح بالحقيقة ، ومن لم يحكم أمر الدنيا فليس له في الآخرة من نصيب . إن الهدايا في « منى » مصلحة ولكن ترتبت عليها مضرة ضياع الأنفس والأموال ، وهي إنّما كانت لبقاء الأنفس لا لهلاكها . فليجدّ المسلمون للتخلص من هذا المرض والجهل العظيم والعار على أمة الإسلام .

اللهم إن هذه غفلة وعلى المسلمين أن يتخلصوا منها . فقالوا : فهل أنت عندك مخرج لذلك؟ فقلت : أنا لا أقول شيئاً فربما يوافق مذهباً ويخالف مذاهب ، ولكنني أترك الأمر لمجلس يجتمع فيقرر ذلك من علماء الأمة فيكون إجماعياً . فقالوا : إن ما ذكرته عن ابن القيم حسن وأقرب إلينا من كلام

المؤرخين والأطباء، ولكنه قول عام ونحن الآن في أمر ديني عظيم فنحن نرفض الاكتفاء به، فإن كان عندك علم فائتنا به وإلا فأرحنا من مقالك الذي أطلت به في هذا المقام. فقلت: أليس دين الإسلام يجري على مقتضى سنن الله عز وجل والعقل؟ فقالوا: يظهر أنك ليس عندك فوق ما تقدم، لأن هذا القول داخل في قول ابن القيم فدعنا منه وائتنا ببرهان وإلا فسلام عليك. فقلت: هاكم ما ورد في السنة جاء في الربع الرابع من «الإحياء» في باب التوكل صفحة ٢٦٠ ما نصه:

فإن قيل: إن من شرط التوكل أن يترك الإنسان الحجامة والفصد عند تبيغ الدم، فإنه يجب أيضاً أن يكون من شرط التوكل قياساً على ذلك أن من تلدغه عقرب أو حية لا ينحيها عن نفسه، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأي فرق بينهما؟ فإن قال قائل: وذلك أيضاً شرط التوكل، فيقال: ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة، وهذا لا قائل به، ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وأجرى بها سنته. ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون؛ فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتاً عظيماً ووباء ذريعاً، فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم: لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى: بل ندخل ونتوكل ولا نفر من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. فرجعوا إلى عمر فسألوه، فقال: نرجع ولا ندخل على الوباء. فقال له المخالفون في رأيه: أنفر من قدر الله تعالى؟ فقال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط وادياً له شعبتان إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى؟ فقالوا: نعم، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف يسأله عن رأيه وكان غائباً، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال: عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: الله أكبر، فقال عبد الرحمن: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم بالوباء بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله إذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس. فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل. اهـ.

ثم إن صاحب الإحياء بعد ذلك أخذ يبين الحكمة في نهي الناس عن الخروج من أرض الوباء، فعللها بأنهم لو خرجوا من أرض الوباء وتركوا المرض به لم يجد هؤلاء المساكين من يعول أحياءهم أو يدفن موتاهم، وضرر الباقين بالمرض بخروج الأصحاء محقق، وضرر الأصحاء غير محقق بالبقاء. فإذن في الخروج الاحتراس من ضرر مظنون والوقوع في ضرر محقق هذا ملخصه. انتهى ما قصدته من الإحياء.

ولكني أقول: إن هذا السر أظهره الله تعالى في عصرنا الحاضر، فقد أجمع أطباء الأمم أن انتقال الموبوئين من الأماكن التي بها الوباء ينشر جراثيم المرض في العالم، وهذا قام عليه البرهان وصار محققاً

من غير شك . إذن سر النبوة ظهر الآن ، وأن الدخول بأرض الوباء قاتل لنفس الداخلين ، والخروج منها قاتل للناس في الأقطار الأخرى . وهذا السر من الأسرار التي أتى بها الإسلام وظهرت حديثاً . فقالوا : لقد شفيت صدورنا وشرحت قلوبنا وأنرت بصائرنا بحسن بيانك وإنا لمسرورون ، ولكن القول يحتاج إلى مزيد بيان وإيضاح .

الله ذكر هذه الهدايا في نفس القرآن ، وأنت أتيت بكلام عمر في أمر الوباء وأنه يفر من قدر الله إلى قدر الله ، أتريد بذلك أن يفر الحجاج من « منى » أي أنهم لا يحجون؟ إن المسألة مشكلة تحتاج إلى بيان . ماذا تريد بقولك هذا؟ أتريد أن الناس لا يذبحون في « منى » لأجل هذه المفسدة؟ قلت : لقد قلت لكم سابقاً إن هذا لا يقول به مسلم جاهل أو عالم . فقالوا : ماذا تريد إذن؟ فقلت : أنا أترك المسألة لأهل الحل والعقد من علماء الإسلام فهذا شأنهم ، فقال أحدهم : لماذا لا يتحد المسلمون على حل هذه المشكلة فينتفع أهل مكة الفقراء بالهدي ويمتنع الهلاك عن أرواح حجاج بيت الله ؟ فقلت : إن الله علم هذه الحيرة قبل أن يخلق مكة والحرم وحل هذه المشكلة حلاً إجمالياً . فقالوا كلهم بلسان واحد : فتح الله عليك فأسمعنا كلام ربنا .

فقلت : قال الله تعالى في سورة « الحج » : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ وهي أيام النحر ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ .

ثم قال أيضاً : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ أي : عند ذبحها .

وقال بعد ذلك : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي : سقطت على الأرض ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ أي : الراضي والسائل ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي : إلى تسخيرها والتقرب بها :

(١) فهاهنا ذكر أنهم يذكرون اسم الله عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ، فعبر الله بأنه رازقنا وما ذبح وترك على الجبل ليس رزقاً لنا ، بل هو رزق الحيوانات التي لا ترى ولا تخرج في الهواء ، وتدخل أجسام الأحياء فيموت الحجاج .

(٢) ثم قال : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أي : من لحوم الهدايا والأضحية إذا كانت للتطوع ، وهكذا من الهدي الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بإفساد الحج وفوته ، وجزاء الصيد على خلاف في ذلك لا نطيل به .

(٣) ثم قال : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ والأمر هنا للوجوب . أوجب الله علينا أن نطعم البائس الفقير ، أما ذبح الهدي على الجبل وتركه ليقتل المسلمين فهو مضاد لكتاب الله تعالى ، والله هو الذي قال ذلك .

(٤) وقوله تعالى: ﴿ لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾، فالتعبير برزقهم يدل على أنه يراد أن تكون تلك الذبائح رزقاً لنا لا رزقاً للحيوانات الذرية التي تقتل المسلمين بالوباء.

(٥) وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ تأكيد لما تقدم في هذا المقام.

(٦) وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي: تشكرون إنعامنا عليكم كما قاله المفسرون، وأي إنعام في ترك الذبائح في الجو لتكون هلاكاً للحجاج ووباء يقتلهم، فهذه ليست نعماً لنا نشكر عليها بل هي نقم توجب الرضا والصبر، وفرق بين الشكر والصبر، فالشكر على نعمة والصبر على نقمة، فلو جعل الله هذه الأنعام نقمة لنا بحيث تكون سبباً في الوباء لقال غير هذا، فكان يقول: سخرناها لهلاك بعضكم وابتليناكم بها لعلكم تصبرون، فسنكفر عنكم سيئاتكم.

فلما سمعوا ذلك قالوا: والله إن العيون مقفلة والجهل عمّ أكثر الناس، ويظهر أن العقلاء في الأمم الإسلامية لا يريدون أن يتفكروا في هذا، والله إن هذا هو الحق المبين، والله لتنشرن هذه الفكرة بين المسلمين فليس بعد هذا بيان، فهل عندك بعد هذا بيان؟ فقلت: وليس وراء الله للمرء مطلب، هذا كلام الله وهذا كلام رسول الله وهذا كلام العلماء، فماذا يقول المسلمون بعد هذا؟ فقالوا: نظن أن الوهابية يعارضونك. فقلت: أشهد الله أن هذا الكلام إذا وقع في أيديهم وبلغتموهم ما قلته الآن وكانت الحال هناك كما وصفت فإنهم لا يخالفونه، إنهم ينصرون السنة ومتى وجدوا حقاً اتبعوه، فقالوا: وكيف تحل المشكلة؟ ليس في «منى» أحد يأخذ تلك الذبائح. فقلت: كم لهذه المسألة من حلول، فإذا اتفق علماء الإسلام على أن تجعل تلك الذبائح في منى في يد قوم عقلاء من أمم الإسلام وتصنع بصناعة لحفظ تلك الأجسام من التعفن ثم توزع على المحتاجين فيأكلونها فإن هذا حل سهل، إن أقره العلماء ووافق مذاهبهم فإني واثق أن علماء كل مذهب لا يتحولون عنه، فليحلوا هذه المشكلة بحل يوافق الجميع، وأما ما قلته فإنّما هو ضرب مثل لا حل، لأني لا أريد أن أدخل في التفصيل كما تقدم، وإنّما أختم قولي بأن أذكركم وأذكر المسلمين جميعاً بقول الله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾[المائدة: ٩٧] فالكعبة والبيت الحرام قيام للناس بالأمان من القتل مكاناً وزماناً، وما يهدى إلى الحرم يكون قياماً للناس من حيث الثواب للهدي بإطعام الفقراء، وهذا في سورة «المائدة»، فمن نصب مائدة أمن أضيافه زماناً ومكاناً وقدم لهم الطعام، ويقول في سورة «النساء»: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾[النساء: ٥] أي: لا نعطي نحو الأطفال مثلاً المال لئلا يضيعونه في غير موضعه، والمال عليه مدار حياتنا، فكيف نسلمه لمن لا يحفظه، فالمال قيام لنا أمرنا بالمحافظة عليه من سفهائنا، والهدي والقلائد قيام لنا، فإذا نحن حافظنا على المال فلا ندعه في أيدي السفهاء لأنه قيام لنا فمن باب أولى نحافظ على ما هو قيام لنا من الأنعام فلا ندعه يطيح منا فوق رؤوس الجبال ويهدينا طاعوناً وموتاً زؤاماً، أي: لا نجعل ما هو قيام لنا هلاكاً لأجسامنا، وإذا لم ندع أحد القيامين للسفهاء فهل ندع القيام الآخر يهلكنا بدل أن يكون حياة لنا.

هذا خارج عن العقل وعن الدين، فالدين يرفضه والعقل ينبذه، ألا فليفكر علماء الإسلام، فوالله إن الله يحاسب كل من اطلع على هذا ولم يفكر فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[إبراهيم: ٤٧].

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾

اعلم أنه ما من أمة خلت إلا ولها أماكن للعبادة وذلك ليجمع الناس على رأي واحد، ومكان واحد لتتحد القلوب وتجتمع المختلفات وتتفق المشارب.

إن من اطلع على هذا التفسير وأمعن فيه النظر واطلع على ما اقتطفنا فيه من ثمرات العلوم وجمال الثمرات وبهجة الحكمة يوقن أن العالم الذي نحن فيه خلق للتضامن والاتحاد. وإذا تبين لك في هذه السورة كيف كان تعاون مملكة النبات ومملكة الحيوان على الحياة وهما لا يعلمان وكيف كان الهواء جارياً بينهما ناقلاً مادة الفحم من نفس الحيوان معطيها إلى النبات وهو يغتذي بها معداً نفسه لتغذية الحيوان ثم يدور الدور.

ثم إذا نظرت في سورة «الحجر» وفي سور غيرها ترى هناك كيف كان النحل والحشرات الأخرى رسلاً بين الأزهار ملقحة الإناث من الذكران شارية العسل. وترى في سورة «الرعد» كيف كانت كل ورقة فيها قوة تمنع الصواعق، ولولا الورق والشجر لأهلكت الصواعق كثيراً من الحيوان.

وترى في سورة «البقرة» وغيرها كيف كان السحاب في بعد مخصوص فلا هو بالقريب جداً ولا هو بالبعيد جداً، وإلا لبل الثياب في الأول وعطل الحركات ولفاجأ الناس المطر في الحال الثانية من غير إنذار، فإذا رأى الناس السحاب حسبوا له ألف حساب وكانوا منه على حذر خيفة ألا يبقي ولا يذر.

وإذا نظرت في سورة «الرعد» أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[الرعد: ١١] تعلم أن كل ما حولنا من غاز وسائل وجامد يؤدي إلينا منافع على شرائط مخصوصة ولولاها لكان كل نافع ضراً علينا، إذا عرفت هذا أيقنت أن الاتحاد سار في هذا الكون، وأن كل جزء مرتبط ببقية الأجزاء بطريق مخصوص.

إذا كان هذا في العالم كله فانظر في نوع الإنسان الذي نحن بصدده، فقد جعل الله له في كل أمة مكاناً يتعبدون فيه ومنسكاً يجمعهم ليكون الاجتماع رابطة بينهم ارتباطاً عقلياً روحياً لا ارتباطاً طبيعياً كارتباط الإنسان بالحيوان والنحل بالزهر والذكور بالإناث والمطر والسحاب والبرق بالمخلوقات الحية. إن ذلك رابط طبيعي، ولكن الله عز وجل يريد ترقية الإنسان ترقية روحية، فحثه على العبادة ليتصل بربه، وحثه على الاجتماع ليرتبط بأبناء جنسه ارتباطاً قلبياً روحياً حتى إذا عرفهم في الدنيا كانوا معه بعد الموت في صفاء وهناء، فهنا مدرستنا وهناك محل عملنا، والنهايات على مقتضى البدايات والأعمى هنا أعمى هناك والمهتدي هنا مهتد هناك، والله لم يجعل الرزق بسعينا، ولا الحج والعمرة والجهاد بجدنا إلا لإثارة الحمية والنخوة وإظهار الثمرات العقلية لتكون لنا هناك نوراً مبيناً، قال تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾[التحريم: ٨]، والدين الواحد يجمع الأمم المختلفة في الأخلاق والأعمال والعادات فكأن الأرواح المختلفة كرة كوكبية ذات عناصر مختلفة وصور متقنة صنعها الخالق لمنافع هناك ستعرفها، ومن يمت يرها.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾

هذه الآية وآيات أخرى في هذا القسم أبانت مقاصد الحج، فليست ظواهر الأعمال مقصودة لذاتها.

إن ظواهر العبادات والمناسك والطواف والسعي ورمي الجمرات والوقوف بعرفات والتجرد من المخيط وغير ذلك كلها يراد بها ما يقوله الحاج: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك.

يراد بهذا كله خلوص القلوب من علائقها بهذه المادة الأرضية وحنينها إلى العالم الأعلى، على شريطة أن يكون الناس إخواناً، لأن الهناء هناك على مقدار التحابّ والارتباط وشعور الإنسان بالأخوة العامة والصداقة التامة بين الإخوان.

واعلم أن الله قد جعل بين الناس روابط طبيعية كاللغة وكالجنس وكالوطن وكالملك الجامع لأمم مختلفة، وذلك كله جعله بالصفة التي خلقها وأهداها للناس، والدين جاء لأعم من ذلك. جاء ليجمعهم كلهم على رأي واحد وهو التعاون بالمودة للخلاص من هذه الأرض ونبذ العلائق الدنيوية.

إن المدار على ما ذكرناه، فلا صلاة بنافعة إن لم يكن الله في ذكر العبد كأنه يخاطبه ويكلمه ويشافهه في الصلاة.

إن الحج لا ثمرة له ما لم يكن نتيجته إطراح هذه الحياة. إن الزكاة إن الصيام إن الصدقات، كل ذلك للتخلص من ربقة هذه الحياة، فالجوع وبذل الصدقات للتبري من العادات، والصلاة للعروج إلى عالم الجمال وخطاب الله المطلع المشرق نوره في القلوب. انتهت اللطيفة الخامسة.

القسم الثالث

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ (٤٣) وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ (٤٦) وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن

يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا
تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ
يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم
مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ
عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ
فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ
ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ
ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ
وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ
نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ
فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: يدافع غائلة المشركين عن المؤمنين. ومن هذا القبيل ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[غافر: ٥١] وإنما يدافع عنهم لأنه يحب من يؤدون الأمانات والشاكرين للنعماء ويبغض غيرهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ أي: خوان لأمانة الله كفور لنعمه، وبهذه الآية فلتستمسك أيها الذكي ولتعلم أنك إذا نشرت ما نكتب في هذا التفسير من الحقائق العلمية وأذعتها في الأمة الإسلامية بالطريق الذي سلكناه والمنهج الذي أبتناه والسبيل الذي اتبعناه فاعلم أنك منصور والله يدافع عنك، لأن الأمة في حاجة إلى التطور في أعمالها والترقي في أخلاقها والخروج من سقطاتها. وإذا قمت بما أشرت إليك فإن الله معك. ولتعلم أن أمثالك في الأقطار الإسلامية يسلكون هذا السبيل ويجددون مجد الإسلام وينشرون نحو ما أقول في هذا التفسير، فثق بوعد الله كما وثقت به، وإني لولا إيقاني بأن هذا اليوم له ما بعده وأن الأمة اليوم غيرها بالأمس وأن المسلمين سينقلون إلى أطوار أخرى وأحوال أعلى ومقام أسمى ما سطرت حرفاً. ولتعلم أن هذه السبيل وحدها هي المسرعة إلى ذلك الرقيّ، فإن ديننا فيه عناصر الرقي وقد تركت جواهرها، فهاأنت ذا بشر الناس وعلمهم وقم فيهم خطيباً، والله معك واقرأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾[الحج: ٣٨]، ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين. وذلك أن مشركي مكة كانوا يؤذون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أذى شديداً جداً حتى طفح الكيل، وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: صبراً فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية، وهي أول آية نزلت بالإذن بالقتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ وهذا وعد لهم بالنصر كما وعدهم بدفع أذى الكفار عنهم. فانظر كيف وعد الله مريدي الإصلاح بدفع الأذى عنهم، ووعدهم أيضاً بالنصر عند الحرب. فاعلم أنك أيها الذكي منصور في حربك العلمي وجهادك الإسلامي كما نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهاده هو وأصحابه الحربي.

ولقد رأيت كيف نصر الله الأنبياء في سورة « الأنبياء » السابقة ثم أتبعها بهذه السورة لتستبين السبيل فيقول الله : هاأنا ذا نصرت الأنبياء ، وأنت يا محمد تكون مثلهم فلأنصرنك على الكفار كما نصرت الأنبياء .

إن الله جمع الحج والجهاد و البعث في سورة واحدة لأنها من قبيل واحد . فالحج للخروج من المألوفات والولوع برب البريات ، والجهاد لخلاص النفس من أسر العادات والانطلاق إلى عالم الشهادات أو الرجوع بالحرية والاستقلال ، والبعث مكمل لهما لأنه انطلاق من عالمنا الأرضي إلى العالم السماوي . فالجهاد والحج بعث مصغر يتلوهما البعث المكبر . ولذلك قدم أكبرها وألحقا بها .

نصر الله الأنبياء المذكورين في السور السابقة ونصر سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه

واعلم أن الجهاد في هذه العصور هو الجهاد العلمي ، فإنه لا حرب ولا ضرب ولا سيف ولا مدفع إلا بالعلم ، والعلم يفعل اليوم ما لا تفعله أعظم المدمرات ، فهو ينبه الشعوب ويغرس في القلوب حبّ الكرامة والبحث والاتحاد و الجهاد . فإذا نشرت ما يكتب في أمثال هذا التفسير فأنت قائم بالجهاد ، بل هو الجهاد في مستقبل الزمان .

إن العقائد في مستقبل الزمان هي الملجأ الوحيد للأمم ، فانشر ما كتبناه وما يكتبه سوانا ، فسترى آثار العمل ظاهرة في الإسلام ، ولقد وعد الله بالنصر .

برهان ديني

واعلم أنك كما قال الإمام الغزالي رحمه الله : إذا أردت أن تصدق ديناً فاعمل بما فيه ، فإن كانت النتيجة كما جاء فيه فذلك دليل على صدقه . وأنا أقول : بين للناس ما في هذا وما في أمثاله مما يحبب الناس في العلوم ، وانظر ماذا يفعل الله ، وهو القائل : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾[محمد : ٧] ، والقائل : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾[الحج : ٣٩] .

إن الذي يهمك من هذه الآيات أن تتخذها نبراساً لك ، وإياك أن تتوهم أن هذا خاص بنبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، إنه لنا الآن وهو يتلى علينا ، فنحن المبشرون ــ بفتح الشين ــ به فإذا متنا بشر به من بعده ووعدوا بثمراته ، فجاهد ثم جاهد ثم جاهد وإني موقن برقي الإسلام في القريب العاجل . ثم أبدل من « الذين » قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم ﴾ بمكة ﴿ بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ، كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أي : ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم ، ومحل « أن يقولوا » جر بدلاً من « حق » ، ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود ﴿ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ ﴾ هي معابد الرهبان المتخذة في الصحراء ، ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ هي معابد النصارى في البلاد ، ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ هي كنائس اليهود وهي بالعبرانية « صلوتا » ، ﴿ وَمَسَٰجِدُ ﴾ هي مساجد المسلمين ﴿ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ يعني في المساجد ، أي : فلولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض لهدمت في شريعة كل نبي معابد أمته كالصلوات لليهود الخ ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ من ينصر دينه وقد تم ذلك فعلاً ، فقد سلط الله المهاجرين

والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم. أقول: وسيدور الزمان دورته على نحو غير الذي مضى، فينصر الله دين الإسلام، ويكون ما في هذا التفسير وأمثاله مما ألقاه الله على أفئدة المصلحين من أجلّ الأسباب التي بها ينبغ في أمة الإسلام رجال في العلوم الطبيعية والفلكية والاقتصادية بها تفتح المدارك وتقوم الدول وتنظم الشؤون، ويكون العالم السياسي المسلم داهية في السياسة، وقد كان بالليل متهجداً ذاكراً لربه مصلياً مستغفراً.

هذا الذي سيكون في المستقبل القريب. وستشيع في أمتنا العلوم التي امتازت بها أوروبا علينا، وسيصير الفحم والكهرباء والطيارات وأمثالها من أقل الأشياء علماً عند المسلمين، وتصبح كلمة «إسلام» وكلمة «شرق» أرقى من كلمة «غرب» وكلمة «أوروبيين»، ويرجع المجد كما كان أولاً، وقد وعدنا الله بالنصر، وقد وعدت أنا بذلك من أيام الشباب بأني سألقي هذا التفسير، وليس المقام مقام شرح كيف كان هذا الوعد فذلك ليس مجاله، ولكن الذي يدهشني جد الدهش أني أبشر به تبشيراً في الصغر، ثم إني أعيش إلى هذه السن وأجد الخاصة والعامة من الأمة الإسلامية تود أن أتم هذا التفسير، هذا مصداق لهذه الآية، ولينصرن الله هذا الدين بل هذا الأسلوب من الدين، وهو اجتماع العلم والدين الذي قد أنزل القرآن لأجله، وقد خبئ في القدر وبرز اليوم ظاهراً جلياً واضحاً يتلألأ في سماء الجمال وبهاء الكمال في بحبوحة المجد العلمي والشرف الإنساني. سينصر الله هذا الأسلوب من الدين. سينصرك الله أيها الذكي، فقم في المسلمين بشرهم بمستقبلهم أثر العزمات والقوى الكامنة. إن في الشرق لقوى كمنت وعقولاً نامت فأيقظها بقلمك وجاهدها بلسانك، فالأسماع أذن الله أن تكون واعية، والقلوب أذن الله أن تكون عاقلة. ولينصرنك الله وهو خير الناصرين كما نصر المسلمين في القرون الأولى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

ثم بين السبب الذي من أجله ضمن النصر لهم بأنهم مصلحون، وبأنهم هم في أنفسهم صالحون، وهذه الطائفة جديرة بالمساعدة الإلهية، فقال مبدلاً من الموصول وهو لفظ «من»: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كملت نفوسهم بإقامة الصلوات، ومناجاة الله في أكثر الأوقات، وهذه المناجاة توصل لهم روحانية خاصة بها يهتدون في دياجير الحياة، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة، وهو قوله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولا معنى للصلاة ولا فضل فيها إلا باستحضار المعبود والتوجه إليه فيها على قدر الطاقة، بحيث يجعل العبد نفسه كأنه انسلخ من البشرية وانطلق إلى حال الملكية. فهذه الصلاة هي المعبر عنها بأنها أقيمت، من قومت العود إذا عدلته، ولا معنى لاعتدال الصلاة إلا بإتمام أركانها، ولا معنى لأركانها إلا استحضار المعبود وحضور القلب عند نطق اللسان. هذه هي الصلاة التي جعلها الله من صفات من ينصرهم ويكونون خلفاءه في الأرض، وهو حين مناجاته يلهمهم الخيرات فيما بين الصلاة والصلاة. وقوله: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ليكونوا عوناً لأممهم ولا يتقيدوا بالقيود الثقيلة المالية التي تقعد النفس عن أشرف الأمور ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فهم بعد أن كملت نفوسهم بالأمور العلمية والروحية الدال عليها مناجاة الله في الصلوات وبذلوا الأموال ليخلصوا الأنفس من شحها والعقول من عقالها ولينعموا على من حولهم؛ أخذوا يكملون غيرهم كما كملوا هم، فيفيضون على الناس من علومهم كالنهر يفيض بالماء والشمس تشرق على الآفاق، ويمنعون

المفاسد الناشئة في الأمم لتزول من طريق كمالهم. هذه هي الصفات التي جعلها الله لمن تولى نصرهم، وهذا هو الذي تم فعلاً زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فقد قلبوا الأرض قلباً وزينوا وجهها بالعلم والعمل أيام الأمويين والعباسيين، فنعم العلم ونعم العلماء ونعم الدين، ونحن إن شاء الله سنخلفهم وستخلفهم أنت أيها الذكي، فإذا كانوا قد زينوا آسيا وأفريقيا وبعض أوروبا بالعلوم ثم خمدوا وركدت ريحهم وأخذت أوروبا علومهم وطردتهم من بلادهم فإن الدور سيدور، وسنأخذ دورنا في الإصلاح، وسنقيم الصلاة كما أقاموها، ونؤتي الزكاة كما أدوها، ونملأ الأرض عدلاً كما ملؤوها، ولا نتكل على أحد، فإن الهداية ستعم ربوع الإسلام ويكون الناس إخواناً، وإياك أن تقول: إن زمانه بعيد، بل هذا هو زمانه والعلم هو المرشد الأمين، ولا بد أن يكون العلم هو أول السعادة وهو آخرها. فلتكن الهداية حالة في سائر القلوب، وليعم العلم الربوع وليلهج بجمال هذا الوجود الأطفال والنساء والصبيان والشيوخ الركع، وليقم بالأمر القائمون، ولتعلمن نبأه بعد حين، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ فهي إلى حكمته راجعة.

ولما كان هذا القول ربما استبعدته العقول ونفرت منه النفوس أيام النبوة قبل حصول النصر، وهكذا أيضاً الآن عند كتابة هذا التفسير، فيقول المسلم: ويك من أين لنا النصر وأكثر بلاد الإسلام في يد الفرنجة وهم لنا غالبون؟ أقول: على رسلك هكذا كانت بلاد العرب أيام نزول هذا القرآن، فكانت بلاد العرب مرسحاً للدولة الفارسية ولدولة القياصرة وكان لهم فيها نفوذ وأي نفوذ، فلم يمنع ذلك من تحقيق هذا الوعد بعد نزول هذه الآيات.

أقول: لما كان الأمر كذلك وهذا يدعو قوماً للتكذيب وآخرين للشك أردفه الله بقوله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: أمهلتهم حتى زمن آجالهم المقدرة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً؟ هذا ما قاله الله، ونزل في زمن لم يكن للمسلمين فيه نصر، وقد ضرب لهم أمثال الأمم السالفة المذكورة في سور تقدمت. فهؤلاء الأنبياء مضت قصصهم فذكرهم لأن قصصهم معلوم للسامعين، فلم يبق إلا الاعتبار بهم.

أما نحن في هذا التفسير فإنا نقول: إذا نصر الله المسلمين بالصفات الأربعة المذكورة فإنه الآن أسرع إلينا نصراً، لأن العبرة عندنا بنفس المسلمين لأنه وعدهم ثم نصرهم كما قرأت الآن. فالمثال عندنا محسوس. فهم اعتبروا بعاد وثمود، وأن أتباع الأنبياء نصروا، وأن غيرهم خذلوا، وكانت أقرب أمة إليهم أمة اليهود، فلذلك كثر ذكرها في القرآن؛ أما نحن فأقرب الأمم إلينا أمة الإسلام أسلافنا، وأسلافنا توالت عليهم النعم أولاً والنقم آخراً. فهم في القرون الأولى كانوا يعقلون، فلما انقضى أجل النصر انقلبوا جاهلين، فحق عليهم القول في الهند في الشام في مصر في شمال أفريقيا، وهانحن الآن نعيد الكرة ونقول: إن شاهدنا من نفس أمتنا، فليكن الله أسرع نصراً لنا لأننا لسنا مكذبين ولكننا غافلون نائمون. فإيقاظ الأمم أسهل من إحيائها، وإيقاظ أهل الكهف أسهل من إحياء الأموات. إن الله ضرب المثل لآبائنا بالأمم وضرب المثل لنا بآبائنا الأولين، فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون.

ثم أخذ يفصل ما أجمله من حال هذه الأمم مبيناً مناظرها بعد هلاكها ليعتبر المسلمون وليزيلوا الظلم من الأمم شرقاً وغرباً، فقال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا ﴾ بإهلاك أهلها ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي: أهلها ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ساقطة حيطانها على سقوفها بأن سقطت السقوف وخرت من فوقها الحيطان، أو خاوية خالية مطلة على عروشها التي سقطت بينها والحيطان مائلة مشرفة عليها ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أي: وكم من بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها كانت عامرة في البوادي فهي اليوم متروكة لا يستقى منها لهلاكهم ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ أي: مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه. ومن الآبار المذكورة والقصور بئر في سفح جبل بحضر موت، وقصر مشرف على قلته، كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح، فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما، وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح لما نجوا من العذاب أتوا حضر موت ومعهم صالح، فمات في حضر موت فبنوا مدينة حاضوراء، وقعدوا على هذه البئر وأمّروا عليهم رجلاً منهم، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا، فأرسل لهم حنظلة المذكور وكان حمالاً فقتلوه في السوق فكان ما تقدم. ويقال: إن حضرموت سميت بذلك لموت صالح فيها لما استقر بها. و« كأين » منصوب بمقدر يفسره المذكور.

ولما كانت أحوال الأمم مكشوفة في خرائبها مسطرة في قصورها المخربة وآبارها المعطلة وقراها المهدمة والعقول لا تفهمها والناس لا تذكرها؛ أردفه موبخاً الأمم مقرعاً لهم فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ليروا مصارع الجاهلين ومصير الظالمين ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ ما حل بتلك الأمم إذ نسيت عقولها فأهملتها وعاشت في دعة في قصورها فخربت عليها، وإن سنة الوجود أن لا يقوم إلا بالعلم والعمل، فأما الظلم فإن مرتعه وخيم ﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ما يتلى عليهم من الوحي الذي يحضهم على التشمير لدراسة حال الدول ونظام الأمم دارسها وقائمها غائبها وحاضرها حيها وميتها ليقتبسوا من الأحياء ويعتبروا بالأموال. فالوحي هذا دأبه وهذه وجهته فهلا سمعوه بآذانهم فقاموا بالأعمال حق القيام.

ولما كان الناس جميعاً بأبصار وبآذان، قال الله: ليس كل مبصر مبصراً ولا كل حامل سيف بشجاع ولا كل راكب جواد بفارس، أردفه بقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ عن الاعتبار، فالقلب قد يعقل وإن عميت الأبصار، ويعمى وإن سلمت الأبصار. وذكر الصدر للتأكيد ونفي التجوّز، وللتذكير بأن العمى الحقيقي ليس هو المتعارف. ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ المتوعد به استهزاء، وقد شاهدوا الأمم الهالكة ولكنهم عميٌ عن الاعتبار بها، ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ فهو على صراط مستقيم ونظام ثابت، فكما فعل فيمن قبلكم يفعل فيكم، ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ لأن السنن واحدة فسيكون ما سيحل بكم مضاهياً لما حل بمن كان قبلكم، وإذا قلتم: قد طال العهد و لم يحلّ العذاب فأين العذاب؟ فإن الله حليم وألف سنة عنده كيوم عندكم، بل ليس عند ربك صباح ولا مساء، بل الصباح والمساء تحت أمره وعلى ذلك ينفذ وعده بعد أمد طويل عندكم قريب عنده، كما قال: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[المعارج: ٦-٧] لأن كل ما هو آت قريب، وذلك إشارة لعذاب الآخرة فإذا تأخر عشرين ألف سنة مثلاً فهي كعشرين

يوماً عندكم وهذا شيء قليل، ولا يكون ذلك إخلافاً للوعد. هكذا خراب الأمم فإن الأمة العربيّة حل بها الانحلال بعد أزمان النبوة بنحو ستمائة سنة فهو كنصف يوم، ونصف اليوم شيء قليل جداً، فالله تعالى يقول: سنتي لا بد من إتمامها ولا بد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين أمماً وأفراداً في الدنيا والآخرة أو أعذبهم في الآخرة فقط مع الأكدار في الدنيا وهم لا يشعرون. ثم أتم ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإن طال الأمد، فأبان أنه كم من أمم أمهلت فطال عليها الأمم، وهذا قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وكم من أهل قرية ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أمهلتهم كما أمهلتكم ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ مثلكم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب ﴿ وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وإلى حكمي يرجع الجميع.

لطيفة لتبيان ما تقدم

هل تحب أن تسمع أيها الذكي نفس هذا في أممنا الإسلامية؟. انظر كيف قام أسلافنا بالعلم والحكمة واشتغل الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين في الشرق والغرب بالعلم وقد نقلوا العلم عن الأمم ومنهم اليونان، وهناك أزهرت في الشرق علوم هي الفلسفة العربية، وهكذا امتدت الحكمة والعلم إلى أوروبا في دولة إسلامية هي الدولة العربية الأندلسية التي جمعت الحجازيين والعراقيين واليمنيين والمصريين وأمماً أخرى، واستمرت على ذلك أمداً طويلاً، ونبغ من بينهم ابن رشد الفيلسوف المشهور فأهانه المسلمون وأذلوه وطردوه إلى مراكش وشتتوا شمل تلاميذه، وأكثرهم من اليهود، وقد كانت للرجل في العالم صولة فاقرأ كتابه أيها الذكي، وانظر كيف يقول: إن علم التوحيد اليوم بين المسلمين نظريات وقواعد أصعب جداً من معرفة الله، وإنّما معرفة الله بما نشاهد من الطبيعة، وسرد على ذلك أدلة ومنها ما سيأتي في سورة «النبأ» فذكر كيف جعل الله الأرض مهاداً والجبال أوتاداً. وبالجملة دعا في مؤلفه الصغير إلى ما ندعو إليه الآن هو وأمثاله في ذلك الوقت، كأن الله يريد أن يجري على سنته، أي أنه يعزّ قوماً بعد ذلهم ويذل قوماً بعد عزهم على مقتضى سنة الوجود، فلم يرض المسلمون هذا العالم ونفوه وشتتوا تلاميذه فذهبوا إلى أوروبا وتركوا التكلم بالعربية، ونقلوا علم ابن رشد إلى العبرية، ومن هؤلاء انتقل العلم إلى أوروبا، فإن مؤلفات ابن رشد التي هي شروح على كتب «أرسطو» ترجمت إلى اللغة اللاتينية ودرست بالجامعات الأوروبية وظلت الفلسفة العربية قائمة مقام كتب «أرسطاطاليس» في البيئات الفلسفية إلى آخر القرون الوسطى بل عاشت إلى النصف الأول من القرن السابع عشر. قال «فولتير»: إن اللاهوت المسيحي قد اتخذ «أرسطاطاليس» أستاذه الوحيد، أما في الجامعات فإن العلوم حين بدأت تدب فيها الحياة في آخر القرن السادس عشر لم يزد أهل العلم على أن رجعوا إلى مبادئ «أرسطو» واتخذوها قاعدة لأعمالهم، ثم زادوا عليها إلى أن وصلت إلى الحال العجيبة الآن، وما زالت تدرس بالجامعات الأوروبية والأمريكية إلى اليوم باللغات المختلفة.

هذا مجمل العلم في العالم الإنساني، وأنت ترى من هذا أن ابن رشد في الأمة الإسلامية كان السبب في انتشار علم الفلسفة إلى نصف القرن السابع عشر، أي منذ قرنين ونصف تقريباً من تأليف هذا التفسير، فانظر يا رعاك الله. انظر وتعجب من أمة طال الأمد عليها فقست قلوبها فطردت علماءها وعصت كبراؤها، طلب القرآن البحث في كل شيء، في البئر المعطلة وفي القصر المشيد، طلب

السفر في الأرض للنظر والاعتبار ، وقد قال علماؤنا : إن السفر سفران : سفر جسمي يتبعه سفر عقلي ، فبعد أن يطوف الإنسان الأرض ويشاهد ما فيها من عامر وخراب يرجع فيفكر ويجعل لذلك فكرة علمية ينفع بها الناس ، هذا هو القصد . فالسفر الجسمي أشار له بقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾[الحج:٤٦] ، والسفر العقلي أشار له بقوله : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾[الحج:٤٦] ، ولكن المسلمين إذ ذاك كانت قد خضدت شوكتهم وأتت جهالتهم فاستمرؤوا مرعى الجهالات وأبغضوا العلماء .

نظر المسلمين في المستقبل

نظر المسلمين في المستقبل القريب سيكون في أمرين : في أمر الأمم المعاصرة لنا ، والأمم الفانية الهالكة ، فإذا رأوا أمة العرب في الأيام الأولى قد أهلكها التتار من ناحية المشرق لما استمرؤوا مرعى الجهالة ، وأمم أوروبا من جهة الغرب ، فإنهم ينظرون إلى قصر الحمراء وقصور الخلفاء في الأندلس وآثارهم المشهورة وأعمالهم العظيمة ، وينظرون إلى آثار الفراعنة في مصر وآثار الدولة العباسية في العراق والأموية في الشام ، ليرجعوا المجد الذي فقدوه وليدرسوا العلم الذي هجروه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يدرسون أمم أوروبا وأمم أمريكا وأمم اليابان ، ويكوّنون من هذا كله دروساً نافعة ، ويكوّنون لهم دروساً من ذلك في نظام مدنهم وحياتهم ، ويعتبرون بما ولده الجهل من هلاك أهل أستراليا وأهل أمريكا الأصليين وقصورهم المشيدة المهدمة وآبارهم المعطلة ، ولقد وجدوا في أمريكا أهراماً كأهرام مصر ، ولقد قرأت في الجرائد العربية منذ ١٥ سنة أنهم كشفوا هناك مدينة قديمة تحت الردم ، وتلك المدينة مسورة بسور من حجر شكله على شكل ثعبان عظيم .

هذا هو النظر اللائق بالمسلمين الذي يدعو إليه القرآن ، فليقرأ المسلمون آيات الله في الشرق والغرب وإنّما القرآن مرآة تريك أعمال الأمم ، فإذا قال الله : سيروا في الأرض فانظروا ، فهذا هو المقصود من السفر ومن النظر ، ثم قوله : ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾[الحج:٤٨] إشارة إلى ظلم الجهل وظلم الأحكام والإغارة على الناس وغير ذلك ، فليس الظلم خاصاً بالمعاصي بل إن تعطيل الأرض والقعود عما فيها من الثمرات وعما في باطنها من المعادن وأمثال ذلك أيضاً من الظلم ، وإذا كان في الأرض منافع وليس لنا فيها فائدة فلنأذن لمن يهمهم أمرها باستخراجها لمنفعة الناس ونشاركهم في الثمرات .

علوم الحكمة أيضاً في الأمم

وقد أصاب اليونان قبل العرب ما أصاب العرب في العلم ، فأول ما نعق ناعق الخراب بديارهم كان بالتبرم من فلسفة « أرسطو » ، فأعقب ذلك قانون صدر بنفي الفلاسفة جميعاً سنة ٣١٦ق . م . ثم عفت آثار الفلسفة من اليونان كلها ففقدوا استقلالهم باستيلاء الرومان عليهم ، فهذا يماثل ما حل بأمة العرب بعد ذلك بنحو ١٥٠٠ سنة ، فإن الفلسفة والعلم والحكمة طردت من بلادهم وأصبحت ديارهم مأوى للأجانب يقيمون فيها وهم ظالمون ، ولا قاعدة لاستقلال البلاد سوى علوم وحكمة ونظر ، وهل هذا سوى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الحج:٣٩] الخ؟ وهل التعقل شيء سوى علوم الحكمة والفلسفة؟ . إن هذا الدين دين الفلسفة والحكمة . ولما جهل بعض الناس العلوم الحكمية أبعدها عن القرآن فحق القول على أكثرهم لأنهم لا يعلمون . وقد تقدم ملخص رقيّ العلم

وانحطاطه في الإسلام عند قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ ﴾[الأنعام: ٩١] الخ في سورة «الأنعام».
تم الكلام على اللطيفة التي أردناها، فلنشرع في تفسير بقية القسم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: أوضح لكم ما أنذركم به ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجنة ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ مسابقين مشاقين للساعين في نشرها، والمعاجزة مغالبة، تقول: عاجزه فأعجزه وعجزه: إذا سابقه فسبقه في التعجيز، لأن كلاً منهما يطلب إعجاز الآخر عن اللحوق به ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ النار الموقدة. ولما كان أولئك الساعون في المعاجزة يكذبون بالدين إما عناداً وإما جهلاً لشبهات طرأت عليهم وأمور في الدين جعلتهم يشكون فيه فأخذوا يبنون على ذلك الشك أقوالهم ومساعيهم للحط من قيمة الدين، أفاد سبحانه أن ذلك هو ديدن الدنيا وما ينزل فيها من العلوم والديانات، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ ﴾ فالرسول من جاء بشرع جديد والنبي يعم ذلك ويعم من جاء لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ومثلهم علماء الإسلام، فهو كهؤلاء الأنبياء فكل عالم مفكر في الإسلام فهو كنبي لهذه الأمة. ولقد قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الأنبياء ١٢٤ ألفاً وإن الرسل ٣١٣»، وقوله: ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي: قرأ، كما قال حسان بن ثابت في عثمان حين قتل:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقوله: ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي: ألقى الشيطان على سامعيه ومتبعي دينه الشبهات في معاني قراءته، فيقول قوم: إنه سحر، وقوم: إنه كهانة وهكذا. ويقول آخرون بعد عهد النبوة: إن هذا الدين لا يصلح للعلوم وإنما هو للعبادات، وقارئ العلوم رجل طبيعي وهكذا. أو يقول قوم: إن محمداً صلى الله عليه وسلم يعلمه بعض الناس، وذلك قول الذين كانوا في زمانه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بأن يقيض للأمة من يزيل الخرافات أو الأحاديث المكذوبة، ومن ذلك أن هذه الآية نفسها قد جاء فيها أحاديث لم ترد في كتاب من الكتب الصحيحة، كالموطأ لمالك وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي والسنن لأبي داود والنسائي، فهذه الكتب الستة لم يرد فيها هذا الحديث الآتي الذي شغل المفسرين وجعل لهذه الآية معنى غير ما كتبناه، فإن كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» الذي جمع ما في هذه الكتب الستة لم يذكر هذا الحديث في تفسير هذه السورة، فإذن هو حديث ليس مما يستحق أن يذكر فضلاً عن أن يرد عليه أو يجاب عنه، وهو أن الشيطان وسوس إلى النبي صلى الله عليه وسلم عندما قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٠]، فجرى على لسانه أن قال: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. ثم نبهه جبريل بعد ذلك فاغتم فعزاه الله بهذه الآية، وهذا كذب صراح. وفي هذه الكلمة لفظ الغرانيق عبارة عن الأصنام شبهت ببعض طيور الماء. ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال الله تعالى مبيناً سبب تمكين الشيطان من إلقاء الشبهات: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ المشركين ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: الفريقين ﴿ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ ﴾ بالقرآن ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ بالانقياد والخشية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فيما أشكل عليهم ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو

النظر الصحيح الموصل إلى الحق ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي: في شك مما ألقى الشيطان في قلوبهم عند قراءة القرآن عليهم ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ القيامة أو أشراطها أو الموت لأنه القيامة الصغرى أو الساعة الصغرى ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر وهو يوم عقيم لا خير فيه ولا ريح ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بالمجازاة للكافرين والمؤمنين ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ ﴾ في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ الجنة ونعيمها ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فإنه يرزق بغير حساب ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ وهو الجنة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعجل بالعقوبة.

فصل في تفصيل الكلام على قوله تعالى:
﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾

اعلم أن الله عز وجل جعل نظامه في الدين كنظامه البديع في الطبيعة. تأمل فيما فعله الله في الحقول وانظر. ألست ترى أنه خلق القمح والذرة والقطن وسائر النباتات التي يحتاج إليها الناس ومع ذلك تراه خلق بجانبها نباتات أخرى تخلق في الأرض معها وتقتات من الأرض، فترى الحشائش مخضرة مع الذرة ومع القطن ومع سائر البقول والأشجار، وترى أن الفلاح لا ينام ولا يسكن حتى يزيل تلك الحشائش فيتوفر الغذاء لنفس الشجر ولنفس النبات. هذا هو الأمر الذي حصل في نفس القرآن. ترى أن الله أنزل القرآن فيقرؤه الرسول، وترى أن العرب قالوا: ساحر كاهن وهكذا، فاستبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين مصداقاً لمئات الآيات التي يقول فيها: إنه منصور.

هكذا في زماننا ترى أمم أوروبا ترسل جيوشاً من القسيسين يفتحون المدارس في الشرق وقد طردوهم من بلادهم لإضرارهم بسياساتهم فيقولون للمسلمين: إن دينكم مملوء ومحشوّ بالخرافات والأكاذيب فيشككون المسلمين في الدين. وترى المسلمين أنفسهم دخل عليهم الغش والخداع من جهلة الوعاظ وصغار العلماء، إن هذا الدين لا يعيش مع العلوم فجعلوه دين خمول. وكما نسخ الله وساوس الشيطان أيام النبوة هاهو ذا ينسخها اليوم بالعلم والعمل. أما العلم فانظر فيما يكتبه المسلمون اليوم في أقطار الأرض وانظر في هذا التفسير، ألست تجد أن هذا الدين هو دين المدنية العالية؟. أفليس هذا ناسخاً لما ألقاه الشيطان في القلوب؟.

وأما العمل فتعجب كيف ألهم أمة الترك أيام هذا التفسير أن تطرد القسيسين من بلادها مع أنها أعلنت أن صبغة حكومتها ليست دينية، بل هي صبغة دنيوية. أليس هذا نسخاً لما ألقاه الشيطان على ألسنة القسيسين من أن هذا الدين دين تأخر، ثم هم يعلنون دياناتهم في بلاد الإسلام. أوَلست ترى أن هذا معجزة ومصداق لهذا الوعد.

أفلم تر أن الله نسخ ما ألقى الشيطان. نعم إن الله نسخه وسينسخه أكثر. فلتقم أيها الذكي بنشر أمثال هذه المسائل بين الأمة المسكينة. هذا والله من معجزات القرآن. هاهو ذا نسخ ما ألقى الشيطان في العقول لما تقهقرت الأمم الإسلامية وأصبح كل من ارتقى منصباً في أمم الشرق من المسلمين إنّما يكون

من المتعلمين في مدارس المسيحيين الذين جعلهم الله فتنة واختباراً لعقول الأمة ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[الأنفال: ٤٢] .

إن حشائش الوساوس الشيطانية حول المعاني القرآنية في العقول الإسلامية أخذت تحصدها مناجل البراهين في أمثال هذا التفسير ، ويزيلها من أرض الإسلام أمثال الترك والأفغان ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[الزمر: ٢١] .

جوهرة في إيضاح تفسير قوله تعالى:
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ الخ

وذلك فيما أورده السيد أحمد بن المبارك مؤلف كتاب « الإبريز » ذلك العالم المحقق المطلع على كتب الدين وعلى كتب الحكمة المعروفة في بلاد الإسلام منذ قرنين من الزمان ، إذ سأل الشيخ عبد العزيز الدباغ ذلك الرجل الأميّ الذي كان يُسمع ـ بضم الياء ـ ذلك العالم من العلم ما يجهله جميع علماء الإسلام قاطبة ، فقد سأله ابن المبارك المذكور عن مسألة الغرانيق ، وقال له : هل الصواب مع عياض ومن تبعه في نفيها أو مع الحافظ ابن حجر فإنه أثبتها ، وقال بعد أن ذكر أسانيده عن سعيد ابن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾[النجم: ١٩-٢٠] فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى . فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا . قال : ثم ذكر تخريج البزار في القصة وكلامه عليها وما يتبع ذلك ، واعترض على أبي بكر بن العربي الذي رد هذه الرواية ، وعلى عياض كذلك إذ جعل روايات الحديث مضطربة ضعيفة .

ثم قال أحمد بن المبارك المذكور للشيخ الدباغ بعد ذلك : فما هو الصحيح عندكم في هذا وما الذي نأخذه عنكم ؟ فقال رضي الله عنه : الصواب في القصة مع ابن العربي وعياض ومن وافقهما ، لا مع ابن حجر وما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم شيء من مسألة الغرانيق ، وإني لأعجب أحياناً من كلام بعض العلماء كهذا الكلام الصادر من ابن حجر ومن وافقه ، فإنه لو وقع شيء من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لارتفعت الثقة بالشريعة وبطل حكم العصمة وصار الرسول كغيره من آحاد الناس ، حيث كان للشيطان سلاطة عليه وعلى كلامه حتى يزيد فيه ما لا يريده الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يحبه ولا يرضاه ، فأي ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم ، ولا يغني في الجواب أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته ، لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضاً ، لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحي في مسألة الغرانيق بالزيادة كذلك يجوز أن يتسلط على الوحي بزيادة هذه الآية برمتها فيه ، وحينئذ يتطرق الشك إلى جميع آيات القرآن ، والواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب في الدين ، وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط ، وأن يعتقدوا في الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجب له من كمال العصمة ، وارتفاع درجته صلى الله عليه وسلم إلى غاية ليس فوقها غاية ، ثم على ما ذكروه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[الحج: ٥٢] الآية ، يقتضي أن يكون للشيطان تسلط على وحي كل رسول رسول وكل نبي نبي زيادة على تسليطه على القرآن العزيز ، لقوله تعالى : ﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ

فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾[الحج: ٥٢]، فاقتضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه، ولا ريب في بطلان ذلك. هذا ما قاله الشيخ عبد العزيز الدباغ. ثم قال الشيخ أحمد بن المبارك بعد ذلك: ما أدق نظر الشيخ ـ يريد الشيخ عبد العزيز ـ مع كونه أمياً.

ثم أورد كلام البيضاوي الذي يفيد ما يقرب من المعنى المتقدم. ثم قال ابن المبارك أيضاً: إن العصمة من العقائد هي التي يطلب فيها اليقين. وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الخبر الذي يجب القطع بكذبه.

ورد على ابن حجر الذي يدعي صحة الحديث بأن ذلك في الأمور العملية التي يكفي فيها الظن من الحلال والحرام. أما الأمور العلمية الاعتقادية فلا يفيد خبر الواحد في ثبوتها فكيف يفيد في نفيها وهدمها.

ثم قال ابن المبارك المذكور: ثم قلت للشيخ رحمه الله: ما الصحيح عندكم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾[الحج: ٥٢]، وما هو نور الآية الذي تشير إليه؟ فقال رضي الله عنه: نورها الذي تشير إليه هو أن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحبه لهم ويرغب فيه ويحرص عليه غاية الحرص ويعالجهم عليه أشد المعالجة ومن جملتهم في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي قال له الرب سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[الكهف: ٦]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩]، إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى، ثم الأمة تختلف، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَ ﴾[البقرة: ٢٥٣] فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره، وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو من وساويس لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات. إذا تقرر هذا فمعنى «تمنى» أنه يتمنى الإيمان لأمته ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح. فهذه أمنية كل رسول وكل نبي، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساويس الموجبة لكفر بعضهم. ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقي ذلك الله عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به فخرج من هذا أن الوساويس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين.

وبعد ما ذكر هذا الشيخ ابن المبارك عن الشيخ الدباغ قال: إن هذا التفسير من أبدع ما يسمع، وأخذ يورد الطرق التي فسرت بها فوجدها كلها ضعيفة أو مخالفة للعقيدة. ولما كتبت هذا واطلع عليه أحد الإخوان الفضلاء قال: إن هذا الشيخ قد نقلت أنت عنه في سورة «الكهف» عجائب عن العلم لم نسمعها من أكثر العلماء، إذ قال هناك: إن المسلم يعبد الله لذاته بدون نظر إلى جزاء في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا مقام عال جداً. فهل تسمعنا شيئاً من تفسيره لبعض الأحاديث حتى نرى وجهته؟. فقلت: نحن الآن في تفسير القرآن. فقال: هذه مسألة عجيبة، رجل أمي يفسر القرآن ويعترض على

رجال الحديث ولا تعجبه آراء ابن حجر ويصوّب كلام عياض، ثم بعد البحث يرى الشيخ ابن المبارك العالم العظيم أن هذا حق من حيث الحديث ومن حيث علم مصطلح الحديث ومن حيث علم الأصول ومن حيث المنطق، فرجل مثل هذا نريد أن نشمّ رائحة تفسيره لأيّ حديث من الأحاديث أو بعض آيات أخرى. فقلت له: لقد سأله الشيخ ابن المبارك عن قوله صلى الله عليه وسلم: « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف »، فأجابه الشيخ الدباغ بجواب استغرق ما كتبه منه ٤٠ صفحة في النسخة المطبوعة، وجمع فيها ما بين القراءات المشهورة وما بين الأخلاق النفسية. وهنا زاد عجبي حين قرأت هذه المعاني التي ذكرها الشيخ الدباغ، فإنها ترجع إلى علم النفس وتنتهي إلى إسعادها إسعاداً تاماً بحيث يصبح الإنسان وهو في هذه الدنيا كأنه في أعلى عليين في الجنة. فهذه المعاني التي ذكرها ذلك الشيخ الأمي لو اتصف بها إنسان أصبح كأنه روح طاهرة سعيدة في الدنيا قبل الآخرة. فقال صاحبي: فأرجو ذكر بعض هذه المعاني التي ذكرها. فقلت: ذكر في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف سبعة أصناف من العلم وهي:

(١) الآيات الآمرة بالصبر والدالة على الحق والمزهدة في الدنيا.

(٢) الآيات الدالة على الدار الآخرة.

(٣) النور الذي وضعه الله في بني آدم وأقدرهم به على الكلام، وخص النبي صلى الله عليه وسلم بخصائص فيه.

(٤) الآيات المتعلقة بصفات الله تعالى.

(٥) الآيات الدالة على أحوال الخلق الماضين وهي القصص.

(٦) الآيات التي فيها الكلام على الكفار.

(٧) الآيات التي ذكر الله فيها نعمه الفائضة على خلقه.

وسمى هذه السبعة هكذا بالترتيب: حرف النبوة، وحرف الرسالة، وحرف الآدمية، وحرف الروح، وحرف العلم، وحرف القبض، وحرف البسط.

فقال صاحبي: هذه أشياء لا فائدة منها فأين العجائب التي فيها وأين البواطن؟. الرجل قسم القرآن أقساماً، وجعل لكل قسم اسماً، صفات الله وأخبار الماضين، وهكذا أعطى كل واحد منها اسماً وكفى، فأين الأسرار وما هذه إلا أشياء مكررة لما عرفه الناس في القرآن، فما هذا الذي تذكر أنه يأتي بغرائب؟.

فقلت: أنا ذكرت لك أنه أتى بالمعنى في ٤٠ صفحة، فهل هذه الكلمات هي كل ما قاله؟. فقال: ما الذي أدهشك من كلامه. فقلت: الذي أدهشني من كلامه أنه دخل من هذه الأصول السبعة إلى غوامض النفس الإنسانية. فقال: أريد أن تذكر نبذة منها. فقلت: قد قسم كل واحد من هذه السبعة إلى سبعة أخرى فجعلها ٤٩. مثلاً تجده في البسط الذي جعله دالاً على ذكر نعم الله على عباده فيما تقدم قد قسمه إلى سبعة أقسام:

فالأول منها: الفرح الكامل، وهو نور في الباطن ينفي عن صاحبه الحقد والحسد والكبر والبخل والعداوة مع الناس، لأن هذه الأوصاف ونحوها منافية للفرح، وإذا وجد نور الإيمان مع هذا الفرح في

الذات نزل عليه نزول مجانسة وموافقة، وتمكن من الذات على ما ينبغي، وكان بمثابة المطر النازل على الأرض الطيبة، فتتولد من ذلك أخلاق طيبة.

والثاني منها: سكون الخير في الذات دون الشر، وهو نور يوجب لصاحبه أن يكون الخير سجية له وطبيعة، فترى صاحبه يحب الخير ويحب أهله، ولا يجول فكره إلا في الأمور الموصلة إليه، ومن فعل معه خيراً لا ينساه أبداً، وأما من فعل معه سوءاً ووصله بأذية فإن مضى وقته نساه ولا يبقى في فكره، حتى إنك إذا اختبرته بعد ذلك وجدت قلبه فارغاً من ذلك وهو مطمئن مستبشر بمثابة من لم يقع له شيء يؤذيه فهذا من كمال البسط.

الثالث منها: فتح الحواس الظاهرة، وهو عبارة عن لذة تحصل في الحواس الظاهرة، وذلك بفتح العروق التي فيها فتتكيف تلك العروق بما أدركته الحواس، وبهذه اللذة يكمل البسط. ففي البصر لذة بها يحصل الميل إلى الصور الحسنة، وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغمات الشجية وهكذا بقية الحواس. ففي كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الإدراك، والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذي هو من أجزاء البسط وبين كمال الحواس الذي هو من أجزاء الآدمية التي هي أحد الأحرف السبعة المتقدمة أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق السابقة، فإن فتح العروق زائد على الإدراك الذي في كمال الحواس، وبذلك الفتح الحاصل في العروق والتكيف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع إلى المدرك، فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة إلى كل ما يراه، وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع، بخلاف مطلق الإدراك فإنه لا يحصل معه هذا الانقطاع، وكم من شخص يرى أموراً حسنة ولا يتأثر بها، وكم من آخر يسمع أصواتاً حسنة ولا تقع منه على بال، وبهذا الفتح والتكييف يحصل كمال البسط. انتهى ما أردت منه.

فقال صاحبي: ولماذا اقتصرت في الاختيار على هذه المسائل الثلاث دون باقيها البالغة ٤٩ مسألة مكتوبة في ٤٠ صفحة؟ وهل من هذا دهشك؟ فقلت: نعم. قال: ولماذا؟ قلت: لأنها تناسب آية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾[الحج: ٥٢] الخ، وتناسب هذا التفسير عموماً. قال: فأوضح لي ما قلت.

فقلت: إن هذا التفسير قد شرح الله صدري فيه إلى جمال هذا العالم ونظامه وبهائه وحسنه، ولولا انشراح صدري ما أمكنني أن أكتب مما كتبت حرفاً واحداً.

ألا ترى أن عجائب هذه الدنيا وبدائعها ومحاسن النجم والشمس والقمر والنهر والجبل والشجر والزهر مبذولة كلها لكل إنسان وحيوان، ولكن إدراك بني آدم أكثرهم لهذا الجمال، وإدراك الحيوان ليس يعطيهم لذة، بل أكثر الناس وجميع الحيوان يدركون هذا الجمال ولكنهم لا يحسون بالجمال فيما يشاهدون، والمختص بإدراك هذا الجمال طوائف اختصهم الله بذلك فطروا على هذا الذوق والإحساس بالجمال، وبهذا الإحساس بالجمال يثبت الإيمان الناشئ من الاطلاع على العجائب في العالم، وهؤلاء هم الذين نسخ الله ما ألقى الشيطان في قلوبهم، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾[الحج: ٥٢] الخ، أليس هذا هو الأمر الثالث في مقام البسط الذي هو من الأحرف السبعة التي أنزل لها القرآن.

إن هذا المعنى الدقيق والفكرة التي لا تخطر ببال أكثر الناس قد أوضحه هذا الأمي لنا إيضاحاً شفى الصدور، وهو عجيب جداً، وهو أمر حاضر عند النفوس، ولكنها لا تعبر عنه فعبر عنه هذا الأمي الذي فتح الله عليه، وهذا الجمال وإدراكه هو الذي قاله علماء التربية.

إن علامة النبوغ إنّما هو الإعجاب، فإذا رأينا صبياً مغرماً بالمشاهد العجيبة فهذا الغرام دليل على رقيه وقبوله للعلم وعلى قدر جمود العقل عن إدراك الجمال، وذوقه يكون ضعف ذلك المدرك، أفلا تعجب أن يكون تعبير هذا الصالح أعجب ما يصفه الواصفون في هذا المقام. ثم إن كل ما جاء في هذا التفسير وغيره من جمال هذه الدنيا مهما أطربنا حين قراءته ومهما أدهشنا جماله، أفليس مقصود ذلك كله إسعاد النفس وحليتها بالعلم والحكمة أولاً والعمل بما يمكن العمل فيه ثانياً؟ قال: بلى. قلت: فإذا كانت النفس مشغولة بالحسد بحيث يحل في القلب الحزن لما يرى من نعمة أسبغها الله على أحد أقاربه أو أصحابه مثلاً أو كانت مغتاظة حاقدة على من أساء إليها، أفليس ذلك الحقد وذلك الحسد ينغصان على النفس حياتها ويحجبانها عن الاقتداء بما انطوت عليه من جوانحها من الصور العلمية الجميلة التي أدركت جمالها وأحست ببهائها وكيف ينسخ الله ما يلقي الشيطان من قلب مغمور بالرذائل والعداوات والوساوس.

إن النور والظلام لا يجتمعان، وأي سعادة أعظم من سعادة امرئ أصبحت نفسه مشرقة بهجة بهية في نفسها ثم ازينت بالصور العلمية ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[النور: ٣٢]، فأنا أيها الأخ اخترت هذه المسائل الثلاث لهذه الحكم، ثم قلت: إذن هذا الصالح الأمي يريد بأحرف القرآن في النهاية أن تكون الروح خالصة من الشوائب بحيث تكون قريبة من ربها، والقرب كل القرب، وإنّما يكون بأمثال هذه الصفات. فما التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا الفرقان ولا كتب الحكمة اليونانية والرومانية والإسلامية والأوروبية إلا طرق لإسعاد النفس، وأجلّ سعادة لها أن تكون هذه بعض صفاتها، وأن الذي نكتبه في هذا التفسير مما يفتح أبواب السعادة لها، وسيأتي بعدنا أناس يشرحون هذه المعاني إذ تكون الأمة قد استعدت لها، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقال صاحبي: أما ما ذكرته فحسن جداً لأنك ربطت الكلام الذي استطردت به في حديث نزول القرآن على سبعة أحرف بالمعاني التي في آية الغرانيق، حتى لا يتوهم القارئ أنه ابتعد عن الموضوع، ولكن أين الثريا وأين الثرى؟ فأين سبعة الأحرف التي جعلها معاني وأذواقاً وأخلاقاً شريفة وسبعة الأحرف اللفظية، إن هذا الكلام بعيد عن ظاهر الحديث. فقلت: إن هذا قاله نفس الشيخ ابن المبارك للشيخ عبد العزيز، إذ قال له ما نصه:

إن المراد بالأحرف السبعة ما يرجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن، كقول عمر رضي الله عنه: سمعت هشام بن حكيم يقرأ القرآن على حروف لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله مصوّباً لكل من حروف عمر وحروف هشام: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه. وهذه الأحرف التي ذكرتم أوصاف باطنية وأنوار ربانية في ذاته صلى الله عليه وسلم، لا يمكن أن يختلف عمر وهشام فيها حتى يجيبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن القرآن أنزل عليهما. فقال رضي الله عنه: اختلاف التلفظات التي في أحاديث الباب فرع عن اختلاف الأنوار الباطنية،

فتسكين الحروف ورفعها ينشأ عن القبض، والنصب ينشأ عن حروف الرسالة، والخفض ينشأ عن حروف الآدمية، ولكل آية فتح خاص وذوق معلوم. فلما سمعت هذا الكلام المنوّر بادرت فقرأت عليه « الفاتحة » وصدراً من سورة « البقرة »، فسمعت منه في بيان ذلك التفريع ما يبهرني، ثم أعدت القراءة وقرأت بسبع روايات: قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو بن العلاء البصريّ وأبي عامر وعاصم وحمزة والكسائي، فسمعت في ذلك العجب العجاب ورأيت القراآت السبع تختلف باختلاف الأنوار الباطنية، فظهر لي والحمد لله وله المنة ما كنت أطلبه منذ نيف وعشرين سنة في معنى الحديث، وقد طلبه قبلي الحافظ ابن الجوزي نيفاً وثلاثين سنة فظهر له وجه في معنى الحديث، ثم ذكر أنه وقف عليه لغيره ولكنه قاصر على التلفظات واختلافها، فذلك الوجه وغيره مما قيل في الحديث: إنما تعلقوا فيه بظل الشجرة الخ. وقال الشيخ ابن المبارك قبل ذلك: إن جلال الدين السيوطي نوّع الأقوال فيه إلى أربعين قولاً، ومع وقوفي على كل ذلك لم يحصل عندي ظن بمراده صلى الله عليه وسلم بل بقيت على الشك حتى عرفت الحقيقة من شيخنا ذلك الأميّ. انتهى ملخصاً.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إذن الشيخ الدباغ ربط ظواهر الألفاظ ببواطن الأنوار، واختلاف العلماء رجع إلى الألفاظ مع الجهل بتلك الأنوار. قلت: نعم، قال: عجباً كيف يكون في العالم عقول ونفوس مشرقة إلى هذا الحد. أليست هذه النفوس أرقى من نفوسنا نحن؟ فقلت: نعم إن هذه النفوس التي تتصف بالصفات التي ذكرها الشيخ الدباغ عجيبة، فهي صفاء لا كدر معه وعلم لا جهل معه ونور لا ظلمة معه. وإذا كانت نفس الشيخ الدباغ على هذا النمط فهي من عالم أسمى من مستوانا الذي نعيش فيه، واعجب لما ذكره هو ونقلته في سورة « الكهف » من وصفه لطبقات الصوفية في الأمم الإسلامية، وشرحه مسألة ذكر الأسماء والأوراد، وأن أكثر هؤلاء لا ينالون من الفتوح قليلاً ولا كثيراً، وشرح طرق الصوفية في أدوارها الثلاثة، وكيف يقول هناك: إن أكثرهم طلاب دنيا لا طلاب آخرة. فقال: وما الحكمة في ظهور أمثال هؤلاء في أمة الإسلام؟ قلت: يظهر لي أن هؤلاء يخلقون في الأرض لأمور منها:

(١) أن الإنسان إذا فتح الله عليه بشيء فألف في العلوم يعلم أن علمه بالنسبة لغيره كالعدم، وأن هذه الظواهر ليست شيئاً بالنسبة للحقائق.

(٢) ومنها أن المسلمين اليوم أصبحوا أجهل الأمم بسبب الشيوخ الجهلاء الذين يوهمونهم أنهم عندهم علوم مكتومة عندهم، فيقال لهم: أيها الشيوخ الجهلاء انظروا لهذا الشيخ هل أفضتم علوماً على تلاميذكم كعلوم هذا الشيخ الأمي مع أنكم تجهلون ظواهر القرآن والعلوم، إذن هذه الدعاوي كاذبة، ولقد أحسن مصطفى كمال باشا في إخراجه أولئك الشيوخ من زواياهم وجعلهم مع الناس يعملون كما يعملون لأنهم لم يفيدوا الأمة شيئاً.

(٣) أن يجدّ العلماء في العلم لأنه لا ساحل له، وإذا جهل علماء الإسلام ظواهر العلوم فكيف يصلون لبواطنها، فعليهم أن يقرؤوا سائر العلوم، والله هو الذي يصطفي للحقائق من يشاء.

(٤) أن هذا الشيخ قد اطلع على بعض العلوم قبل ظهورها كما سيأتي في سورة « النور »، فسأنقل عنه هناك أنه رأى جبال الثلج في الجوّ مريداً بذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾[النور: ٣٧]. فقال: إنني شاهدت جبال الثلج في الجوّ، والبرد يصنع من ذلك الثلج بفعل الله تعالى، وهذا حقاً قد كشف بالطيارات في عصرنا الحاضر وستراه مرسوماً، فهذا عجب بل معجزة للقرآن، فكيف ينزل القرآن بذلك ولم يكن معلوماً؟ ثم كيف يأتي رجل أميّ فيخبر به قبل حصوله، والمسلمون وأهل أوروبا جميعاً كانوا يجهلون ذلك، ثم يظهر في هذه الأيام فقط وقد رسم فعلاً. أفليس هذا عجباً وهذا في زماننا ليس بدعاً، فإذا اطلعت على كتابي المسمى «الأرواح» رأيت عجباً، فإن الصبي الجاهل وقت التنويم ينطق بما يجهله أكبر فيلسوف في أرضنا، وهذه «لورا» بنت الحاكم الأمريكي نطقت بعشر لغات لم تكن لتعرفها من قبل. ولقد تقدم بعض هذه المسائل في هذا التفسير كالذي جاء في سورة «البقرة» عند مسألة السحر وبابل وهاروت وماروت وفي مواضع أخرى فيها وفي غيرها.

(٥) أن ذلك يوجب على المسلمين أن يكونوا أعلم الأمم بهذه العلوم الجوية والسماوية والأرضية.

(٦) أن هذه تحل لنا مشاكل كثيرة، فإن العقلاء في هذه الأرض يدهشون إذ يرون كواكب مشرقة وأنواراً متلألئة وحساباً منظماً وسحاباً ماطراً وأنهاراً وجبالاً وحيواناً وجماداً ونباتاً. فهل كل ذلك لأجل خدمة هذا الإنسان في الشرق والغرب، ونفوسهم على ما هي عليه من الضعف والجهل والحقد والحسد. ووجه الحل أن يقال: إن هناك أرواحاً عالية أرقى من هذه، وإن هذه الأرواح الأرضية الإنسانية اليوم لا تزال في حال الطفولة ولا ضير في ذلك، فالرجل العاقل والحكيم الفيلسوف يربون الصبيان الذين لا يدركون إلا قليلاً. إذن نفوسنا في هذه الأرض اليوم تربى بالنعم والنقم والبأساء والضراء، وهي تتخبط حتى تموت وترتقي في عوالم حتى تصير في عالم أعلى وهي فيه متحدة مع اختلافها أشبه باتحاد أضواء الشمس السبعة مع اختلافها، فإن الزرقة تخالف الحمرة وهي معها متحدة اتحاداً تاماً، وهذه الألوان اجتمعت واتحدت لرقيّ العوالم الأرضية. فإذن تزول الحيرة من نفوسنا أو تقل في هذا النوع الإنساني المصنوع أبدع صنع ثم هو في الرذائل مدفون. فإننا نقول: إذا كنا نحن الآن على هذه الحال فلا عجب، فنحن يربينا الله ويعطينا من العلم والأخلاق على مقدار طاقتنا، وبه نفهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]، فالأرواح في أحسن تقويم على حسب جبلتها كما ظهر من أحوال وأقوال الشيخ الدباغ، فهو يصف لنا صفاء النفوس وجمالها وبهاءها ولعله من الأرواح العالية التي أنزلها الله من عالم الأرواح لتعطينا حكمة وعلماً، وليست من درجتنا ولا من جبلتنا التي قد غمست في حمأة هذه الأرض. ومن عجب أنه في تفسير هذا الحديث وهو حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أتى بزبدة الرذائل والفضائل التي أدرجها الغزالي في الجزء الثالث والرابع من «الإحياء» وسماها المهلكات والمنجيات، فهذه كلها تضمنها الحديث عند هذا الشيخ العظيم الذي لم يتعلم.

ومن عجب أنه لما سأله ابن المبارك العلامة المتقدم ذكره عن الحديث المذكور أجابه بقوله: اصبر الليلة حتى أسأل النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخبره في اليوم الثاني بما سمعت بعضه هنا. إن هذه روح كبيرة أشرقت في أرضنا لتدلنا على نقصنا أولاً، ولترينا أن هذا القرآن ليس القصد منه هذه

الظواهر وحدها فالألفاظ والمعاني المتعارفة مقدمات لأمور وراءها، وهذه العلوم وهذه المعارف وراءها علوم ومعارف ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴾[ص: ١٠]، وهذا يفسر لنا ما جاء في «علم الأرواح» حديثاً. إن بعض الأرواح لما سئلت: لماذا نرى الكاملين عندنا تكذب عليهم الأرواح؟ أجابت: لا كامل في أرضكم، فالأولى أن تقولوا صالحين، ولو كنتم كاملين ما حشرتم في هذه الأرض. إذن نحن هنا في الأرض ناقصون، ونحن يربينا الله الآن ولم يصل أكثرنا للكمال ولا قاربه، وإذا كان هناك بعض الكاملين أمثال الدباغ المذكور فإننا لا نعرفهم ولا نخالطهم لعدم الملاءمة بيننا وبينهم، وغاية الأمر أن أهل الأرض الآن يتشبهون بالأرواح الكاملة في أمور، منها: أن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن في هذه السنة، أي: سنة ١٩٢٨، السلام العام بين الأمم، وقد وافقته كتابة أكثر الدول على ذلك كما ستراه موضحاً في سورة «المؤمنون» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الآية: ٥٢]. ومعلوم أن هذا كله اتحاد لفظي الآن، فهم جميعاً متحدون لفظاً ولكنهم يصنعون السلاح ليلاً ونهاراً. إذن ليسوا كألوان الشمس السبعة بل هم كالذئاب العاويات وقد لبسوا ثوب الملائكة، وعسى أن تكون هذه الظواهر مقدمات لحقائق في مستقبل الزمان. ومنها أن عمال كل حكومة يعملون لمصلحة واحدة وهم متحدون ولكن هذا اتحاد صناعي، وإنما هذا كله يفهمنا أن هذه النفوس تفعل ظواهر ما خلقت له وإن لم تصل إليه فعلاً، كما نرى الصبيان يركبون أعواداً كأنهم ركاب خيل، إذ يفعلون ما خلقوا له وهم لا يعلمون، فأهل الأرض الآن يفعلون في سياساتهم ما ظواهره تنبئ عن الحقائق، وأن هذه النفوس الإنسانية لن تنال سعادتها إلا بعد قطع عقبات في عوالم أخرى بعد الموت، وتترك قيوداً وقيوداً من الأخلاق الشائنة والأكاذيب والنفاق، وما دامت لم تصل لهذه الدرجات فهي في سجين الجهالة معذبة مضطربة في جهنم البرزخ.

ويظهر لي أن قراء هذا التفسير من الأمم الإسلامية سيكونون على رأي واحد وعلى مشرب واحد في الشرق والغرب، ذلك لأن الدين الإسلامي فيه ليس متشعباً، بل هو دين واحد ورأي واحد وفكرة واحدة ففيه ظهر أن هذه العلوم التي تدرسها الأمم كلها هي أصول دين الإسلام. فأمم الإسلام بعدنا هم الذين سيقرؤون كل علم وكل فن. إذن سيتحدون مشارب وآراء ولا يختلفون، ولا يكونون كالذين تقدمونا من أمم الإسلام المتأخرين في الزمان، الذين ظنوا أن الاختلاف في فروض الوضوء أو في مدة الحيض أو في ركعات الوتر أمر عظيم، فقراء هذا التفسير يعلمون حق العلم أن اختلاف الأئمة في الفروع لا يوجب التفريق. فإذن هؤلاء القارئون لهذا التفسير وأمثاله في عصرنا سيكونون هم الذين عليهم نظام جمهور المسلمين يقودونهم إلى إصلاحهم وسعادتهم واتحاد ممالكهم ودولهم ونظامها، والله خير حافظاً وهو الهادي إلى سواء الصراط.

هذا ما عنّ لي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾[الحج: ٥٢]، وما تبع ذلك من تفسير حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وما شاكل ذلك. والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: إذا كان الله قد خلق أناساً بيننا قد امتازوا امتيازاً عظيماً بحيث أصبحت معارفنا بالنسبة لمعارفهم شيئاً قليلاً. فإذا صح هذا كان ذلك موجباً لأمرين: أولاً: حزننا على جهلنا بالنسبة

لهم. ثانياً: أن النفس تشرئب إلى هذه المرتبة وتبقى طول حياتها مؤملة أن تنالها. ولا يخلص الإنسان من هذين الأمرين إلا إذا كان غير مطلع على مثل هذا أو اطلع عليه ونبذه وكذبه وأراح نفسه، وليس كل امرئ قرأ هذا يستطيع التكذيب، فإن الآراء التي تقال في تفسير آية أو حديث مثل ما تقدم هنا لا تدع عاقلاً يشك في تفوق قائلها. فقلت: اعلم أن المراتب التي نحن عليها والسير الذي نسيره في حياتنا هو الذي سنه الله عز وجل، وهو الأقرب لسعادة نفوسنا ورقيها في الدنيا والآخرة، وهذا هو القانون العدل والصدق والنور الإلهي. فأما ما يكون بالمصادفات والأمور النادرة فهو الذي لا يلائم حالنا، ولا يصلح لنا نظامنا الذي في هذه الدنيا. ألا ترى رعاك الله أن الجنين لا يتكوّن إلا تدريجاً، ولم تجر عادة الله أن يجعل النطفة رجلاً سوياً في يوم أو بعض يوم، ولو أن الله ألقى علينا العلوم دفعة واحدة وازدحمت في أفئدتنا وشاهدنا في هذه الدنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإن ذلك لا تحتمله عقولنا ونحن في هذه الأجسام الأرضية، فإذا حجبنا الله الآن فليس هذا لإذلالنا، كلا والله بل هو لسعادتنا، لأننا لو تحملنا ذلك لأعطاه لنا كما أتاح للجنين أن يقتحم المشيمة والرحم ويشق له طريقاً ويخرج من سجن الرحم إلى هذه الدنيا الواسعة وينظر كواكبها وشموسها وأقمارها. فإذا كان مدبر هذا العالم لم يحجب الجنين عن مشاهدة عوالم لا حصر لعدّها بعد أن استكمل مدة النمو في الرحم وهو لا يشاهد هناك شيئاً إلا أنه مسجون في الظلمة. هكذا لا يحجب صانع هذا العالم ومدبره أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية عن الاطلاع على ما وراء الحجب، لأنه لو اطلعنا عليها قبل أوانها لكان ذلك وبالاً علينا وذهاباً لعقولنا وإهلاكاً لنفوسنا. هنالك قال صاحبي: هذا القول مقبول والبرهان حق وصدق، ولكن لو أردفته بآراء من كلام هؤلاء المفتوح عليهم لنرى ماذا يقولون فإنهم إن أيدوا رأيك وطابق مقالهم برهانك هنالك تطمئن النفوس وتهدأ القلوب وتنشرح الصدور، ويقول كل امرئ منا: رضيت رضيت، وإذن يكون قارئ هذا التفسير وأمثاله منشرح الصدر لا يحزن على ما حرم من مراتب عالية علمية، ولا يندم على ما ذهب منه من تلك الثمرات العلمية. فقلت: نعم هم الذين قرروا هذه الحقائق بأوضح مما ذكرت وأبين مما شرحت. قال: إني لفي شوق لسماعه. فقلت: لقد نقل الشيخ أحمد بن المبارك المذكور عن شيخه الدباغ أنه ذكر ما يشاهده المفتوح عليهم من السماوات والأرضين وأفعال العباد في خلواتهم، ويشاهدون نار البرزخ وهي الممتدة بين السماء والأرض، وهي التي تذهب إليها الأرواح بعد خروجها من الأشباح على درجاتها، وهناك الأرواح الناقصة فيها، وهي هناك في منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعشاش، وأهلها في صعود ونزول دائماً لا يكلمك الواحد منهم كلمة واحدة حتى تهوي به هاويته. وقال: إن هذه النار غير جهنم، فجهنم وراء هذه العوالم. وهنا ذكر أن هذا المفتوح عليه يشاهد الأفلاك والنجوم وهكذا.

ثم قال: ويجب عليه أن لا يستعظم شيئاً من هذه الأمور وأن يستصغر كل ما يرى وإلا وقف به الحال وصار أمره إلى الانتكاس، لأن الذات في زمن الفتح شفافة تشفّ كل ما تستحسنه، وهذه الأشياء المشاهدة كلها ظلام، فإذا ركن إلى شيء منها وقف في الظلام وانقطع عن الله عز وجل، ولذلك كان غير المفتوح عليه في ساحة الأمن، وكان المفتوح عليه في غاية الخطر إلا من عصمه الله. وإذا كانت الذات قبل الفتح مشغولة عن الله عز وجل بنحو اللوز والزبيب والحمص فضلاً عن الدرهم والدينار والنساء

والأولاد، فكيف لا يفتن بعد الفتح بمشاهدة العالم العلوي والسفلي ومساعدة الشياطين له على ما يريد، ولا عصمة إلا بالله. قال: ومن وقف مع شيء من هذه الأمور السابقة كانت الشياطين معه يداً بيد وصار من جملة السحرة والكهان. ثم ذكر المقام الثاني وهو الكشف النوراني، فذكر أنه مقام مشاهدة الأنبياء والملائكة على حقيقتهم، ومع ذلك يحتاج أيضاً إلى عناية وضبط نفس. انتهى.

رأي الشيخ الخواص والشيخ الشعراني في هذا المقام

ولقد قال مثل ما تقدم الشيخ الخواص لتلميذه الشعراني إذ قال له: أكمل الأولياء من دخل الدنيا وعمل فيها بالأعمال الصالحة ولم يشعر بكمال نفسه ولا شعر به أحد من الخلق حتى يخرج من الدنيا وأجره وافر لم ينقص منه ذرة، قال: فقلت: وهل ينقص الولي بمعرفة الناس بكماله؟ فقال: نعم أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم: «خص بالبلاء من عرفه الناس»، فلا يزال الود يقوم له في قلوب المعتقدين إلى أن يستوفي جزاء أعماله الصالحة كلها، لأن الودّ والمحبة ما قاما في باطن الخلق إلا من ظهور كماله لهم، فأحسن أحوال من ظهر كماله للخلق أن يخرج من الدنيا مفلساً بالأعمال الصالحة سواء بسواء، قال: فقلت له: فهل يدخل الفتوح الإلهي استدراج ومكر؟ فقال: نعم يدخله المكر والاستدراج ولذلك ذكر الله الفتح في القرآن على نوعين: بركات وعذاب، حتى لا يفرح العاقل بالفتح، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى في حق قوم آخرين: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[المؤمنون: ٧٧]. وتأمل قول قوم عاد: ﴿ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[الأحقاف: ٢٤] لما حجبتهم العادة، قيل لهم: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[الأحقاف: ٢٤-٢٥]. قلت له: فما علامة فتح الخير وفتح الشر؟ فقال: كل فتح أعطاك أدباً وترقياً وذل نفس فليس هو بمكر، بل عناية من الله لك، وكل فتح أعطاك أحوالاً وكشفاً وإقبالاً من الخلق فاحذر منه نتيجة عجلت في غير موطنها فتنقاد إلى الآخرة صفر اليدين مع إساءتك في الأدب إذ طلبت ذلك، فإن كل من طلب تعجيل نتائج أعماله وأحواله في هذه الدار فقد عامل الموطن بما لا يقتضيه حقيقته. قال: فقلت له: فإذا حفظ الله العبد واستقام في عبوديته وعجل له الحق نتيجة ما أو كرامة فهل من الأدب قبولها أو ردها؟ فقال: الأدب قبولها إن كانت مطهرة من شوائب الحظوظ النفسانية. ثم ذكر أن الكمال يقابل الإنسان جميع العوالم بما يناسبها، ويعطي كل ذي حق حقه ويأخذ الأشياء بالحق ويردها بالحق. انتهى.

وبعد أن سمع صاحبي هذا، قلت له: أفلست ترى أن كلام هذين الصالحين هو عين ما قلته لك وأن استعجال الاطلاع على العوالم في الحياة الدنيا يشابه من كل وجه استعجال الأمّ إسقاط جنينها قبل موعد مولده. فانظر لهذا التحذير والتخويف، وأن المطلع على هذه العوالم معرض للخطر العظيم. ولتعلم أني أنا كنت أحب أن أقف على هذه الحقيقة من كلامهم، فاستقرت نفسي الآن وانشرح صدري ورضيت رضاء تاماً بما نحن عليه الآن من هذه الحال، فلنسر في التفسير ولينشرح صدر من يقرؤه فلا يحزن، على أنه لم يطلع على عوالم جميلة، فإن هذه قد عدوها شهوة نفسية توجب الانقطاع عن الله، وجعلنا نحن أشبه بالسقط إذا سقط من الرحم قبل تمام المدة. ثم قلت له: وإنني أيها الأخ لم أكن لأجاريك فيما سألتني عنه في هذا المقام مع خروجه عن موضوع تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[الحج: ٥٢] الخ، إلا ما أترقبه من توالي الحسرات والوساوس في قلوب الذين يقرؤون التفسير، إذ يقولون: لماذا يفتح الله على أمثال الدباغ ويتركنا؟ وهذا الحزن يضر بالقارئ ضرراً بليغاً ويعطل رقي الأمم الإسلامية، كما أنه فعل ذلك مع آبائنا وقرؤوا في كتب المتقدمين أمثال ما ذكرناه هنا، فتقطعت نفوسهم حسرات وأضاعوا الزمان في التلهف على درجة الكشف وهم في بحر لجي، أما الآن فقد حصحص الحق واستبان السبيل، واستوفينا هذا المقام عقلاً ونقلاً بحيث لا يبقى في نفس الأذكياء من قراء هذا التفسير وأمثاله حسرة أو لوعة، بل يقرؤون ويعلمون الأمة ويسيرون في رقيها محبين للعلم ولله، مرقين للشعوب الإسلامية خصوصاً والإنسانية عموماً، مريدين بذلك وجه الله.

فيا أيها الأذكياء اعملوا في هذه الدنيا كما تعمل الكواكب والشموس والأقمار تسير مطيعة لربها لا تبغي جزاء ولا شكوراً، وإياكم وأن تطلبوا حظوظ نفوسكم، بل كونوا عباداً لله مخلصين. هذا ما أرجوه لنفسي وسيكون هذا رجاء من يقرؤون هذا التفسير.

هذا ولتكن أيها الذكي مفكراً في أهل زمانك، فإن الأمم الإسلامية اليوم على ما كانت عليه منذ قرون، فإنك ترى في كل قرية شيوخاً لهم مريدون، والنادر فيهم من فتح عليه، وهم جميعاً يتغنون بهذا القول يوهمون الناس أنهم وارثون هؤلاء الأعلام، فيجب تحذير الناس منهم، فأكثرهم خطراً على الأمة الإسلامية إذ يقولون لهم: إن علم الغيب هو العلم الحق والناس محجوبون ويبغضونهم في العلوم المشهورة وهذا ضلال، فلقد تحقق أن تلك العلوم لا تحصل إلا للنادر منهم، وهي في غير أوانها وأن أكثر من فتح عليهم يصبحون سحرة وكهاناً. وبناء عليه إذا وجد المسلمون منهم من يخبر بالغيب فهذا ليس ولاية، بل قد أصبح هذا الرجل كاهناً أو ساحراً، فأما الولي الإسلامي فهو غير هذا، ولذلك يجب تطهير البلاد الإسلامية ممن يدّعون الإخبار بالغيب ولو صدقوا، أو من تظهر على أيديهم الخوارق ليظهروها للناس، فإن هؤلاء غالباً ضارون بالأمم الإسلامية، ولذلك أحسن مصطفى كمال باشا في طردهم من البلاد. فما أكثر هؤلاء إلا قوم عاطلون يأكلون من أموال الأمة ولا يعملون لها شيئاً.

هذا ولما أتممت هذا واطلع عليه صاحبي قال: والله لقد أخرجتني من مأزق صعب. ذلك أني كنت اقرأ اسمين من أسماء الله تعالى قد حسبتهما بالجمل ليطابقا اسمي في حساب الجمل، فكنت أقرؤهما كل صباح وكل مساء بمقدار عددهما، ظاناً أن الله سيفتح عليّ بهذه القراءة ويريني العجائب في الدنيا، ولكن تبين لي الآن أنني مخدوع، لأن هذا الذكر ليس لوجه الله، وأيضاً لو فرض أنني فتح عليّ وشاهدت ما في قلوب الناس لم يكن لذلك فائدة، وإني أتلهى بما أشاهده من أحوال الناس وبما في قلوبهم، واعتقد أني وصلت إلى الله، ولم أصل في الحقيقة إلا إلى شهوتي، وإلى موافقة الشيطان، فإن نتيجة ذلك على فرض حصوله أن يعتقد الناس فيّ ويقبلوا يديّ ويأتوني بالخيرات من عرق جبينهم. وأي شيطان أضل من شيطاني حينئذ، وهنالك لا يكون للناس مني فائدة إلا أني أوهمتهم بأني وقفت على علوم تقطع دونها الأعناق فيقفون متحسرين ويحقرون علوم المسلمين من تفسير القرآن وعجائب المخلوقات التي ستظهر فيهم، وتنشر بعد ظهور أمثال هذا التفسير ويبقى المسلمون في درجة الذل والانحطاط، وأوروبا تسبقهم هي وأمريكا والصين واليابان ويحيطون ببلادهم من كل

جانب، وذلك كله بسر وصولي واطلاعي على المغيبات التي لا تفيد المسلمين إلا أن يعظموني. أنا أقول هذا وأنا موقن أن الشيوخ في بلاد الإسلام هذا شأنهم قد أضلوا المسلمين وأبعدوهم عن العلوم، فساءت الحال واعتقدوا في شيوخهم أنهم أعظم العظماء، حتى إني سمعت عن بعض المسلمين في بلاد الغرب أنه قال: هل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم شرفاً من شيخنا فلان؟ وأنا لا أحب أن أذكر اسمه هنا لأن تلاميذه يملؤون الأقطار، وإنّما قال ذلك لأنهم يسمعون أنه يطير في الجوّ ويحيي الموتى ويعمل أعمالاً لم تسمع لنبي من الأنبياء. هذا قولي وأستغفر الله وللمسلمين والمسلمات.

ثم قلت: إن ما شرحته الآن هو الذي كان يجيش بنفسي لا سيما أني لما قرأت كتاب «راجا يوقا» المترجم من الهندية حديثاً إلى الإنجليزية؛ وجدت هذا الكتاب يجعل السعادة خاصة بمن يصلون إلى ما وراء الحس، ويكشف لهم عن عوالم الغيب، مع أنهم وثنيون ولهم ذكر خاص ورياضة خاصة بأن يحبسوا التنفس داخل الرئة أو خارج الفم، وإنّما يفعلون ذلك كله لأجل الكشف، والظاهر أن هذا نقل كله إلى متصوفة المسلمين المتأخرين ونوّعوا فيه، بدليل أن النقشبندية عندهم هذا التنفس عينه ويمزجونه بذكر الله، أما أولئك فيمزجونه بلفظ «اوم» وهي حروف ثلاثة تدل على الآلهة الثلاثة عندهم التي هي ثلاثة وهم واحد، فهو كدين النصارى سواء بسواء. ولما قرأت هذا المذهب عجبت كل العجب كيف يقول هؤلاء: إنهم قد كشفت لهم العلوم؟ وكيف يتبعهم قوم عندنا من المسلمين؟ وهذه حال محيرة جداً، ولعل الله ألهم الشيخ الدباغ والشيخ الخواصّ اللذين عرفا هذه الحقائق ودوّناها حتى نستأنس بها الآن في هذا التفسير، فتكون أشبه بنبراس لمن بعدنا، إذ يعلمون أن هذا الكشف هو الكشف الظلماني وأنه نوع من السحر أو الكهانة. ولقد كنت أحير في أمري وأقول: إذا كان أرباب الكشف قد ملؤوا بلاد الإسلام فلماذا نرى هذه البلاد متأخرة؟ كما أن الهند كذلك، وهل هذا الكشف قد سلخ المكشوف عليهم من الإنسانية حتى تركوا إخوانهم في المذلة ولا يساعدونهم؟ فأما الآن فقد عرفنا أن ذلك ليس مقصود الإنسانية، وأن هذه شهوات نفسية، وإننا نستعيذ بالله منها، وإنها كالمال والولد والذكر والصيت قد تغرّ الإنسان، وقد يضل بها أقوام، وقد يصيرون مشعوذين مشعبذين. فهذه الحال لا تدل على رقي نفس، فهي كالرجل المنوم ـ بفتح الواو ـ تنويماً مغناطيسياً، فليس حضور الروح به دالاً على سمو المنزلة بالأخلاق العالية والمنزلة الشريفة في العلم والحكمة والفضيلة ومنفعة العموم. وأنا أرجو أن يكون قراء هذا التفسير هم الذين يبعثون في نفوس المسلمين الحمية ويفهمونهم بما يفتح الله به عليهم. وإني أحمد الله عز وجل إذ علمنا ما لم نكن نعلم وفهمنا هذه المسألة التي لم أكن آمل أن أقف على حقيقتها، فإني كنت أقول: أنا لا أقدر أن أحكم هذا الحكم إلا إذا كنت مطلعاً على ما وراء الحجب، أما الآن فقد علمت أنا وعلم كل من قرأ هذا التفسير حقيقة الحال من غير أن نقع في خطر كشف الحجاب الذي كنا نظن أنه لا بد منه لمعرفة هذه الحقيقة، وإذن نقول ما قاله بعض كرام الصحابة: لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً. انتهى.

اللهم إن المسلمين الذين أحاطت بهم الدول من كل جانب وقفوا حيارى بين ما درسوه في كتب السادة الصوفية وبين ما يشاهدونه حولهم من أعمال الأمم النافعة لهم ولغيرهم، فهم أصبحوا عالة على الأمم ولا يبدون حراكاً، وسكت علماؤهم لأن نفس العلماء متحيرون.

فسيرى المسلمون الكهرباء والمغناطيس والبخار وغيرها قد انتفع الناس جميعاً بها، وهم لم ينفعوا الأمم اليوم بشيء مطلقاً، فهم يقرؤون كتاب «الفتوحات المكية» لابن العربي. وفي «الإحياء» للإمام الغزالي عن الفتح الرباني، وفي رسالة «أيها الولد» للغزالي أن هناك فتحاً ربانياً به يرى الإنسان ما وراء الحجب، والمسلمين بين ذلك متحيرون، هل ينقطعون عن العالم للذكر حتى يصلوا لهذا المقام؟ أو يغمضوا الأعين عن كتب أسلافهم مرة واحدة كما فعل مصطفى كمال في أمة الترك؟ أم ماذا يصنعون؟ والله لقد حرم المسلمون من أمثال «توماس» «الفا» «اديصن» الذي بلغ سن الثمانين في ١١ فبراير سنة ١٩٢٧، والذي اخترع المصباح الكهربائي والآلة الحاكية «الفونوغراف» وآلة الصور المتحركة «السينما» وغيرها.

حرم المسلمون من رجال العمل، وقد كان آباؤهم هداة العالم قاطبة. فلولاهم لم يكن أولئك المخترعون والمستنبطون كما تقدم في سورة «التوبة» وغيرها، إذن فليكن ما كتبناه في هذا التفسير وما كتبه العقلاء في أمم الإسلام نبراساً. فليعلم المسلمون في أقطار الأرض علماً ليس بالظن أن محاولة كشف الحجاب قد خاف منها رجال الصوفية وجعلوها أشد إبعاداً عن الله من المال والولد، والله يقول: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [نوح: ٢١] فالخسار هناك يكون أكثر كما تقدم. فليقم المسلم الآن بخدمة المجموع الإنساني كله إن أمكن، وإلا فأي مجموع يقدر عليه، وإذن يكون خليفة لله خالق الشموس والأقمار الطائعات لرب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

النبات والديانات

إن الله أنزلنا في هذه الأرض لإسعادنا، وليس إسعادنا أن يعطينا العلم أو الرزق ونحن ساكنون ساكتون، إن الرزق إذا أعطي بلا اجتهاد، والمال إذا أعطي بلا عمل، وكذا العلم إذا ألقي بلا كد ذهن، والدين إذا نزل إلى الأرض ولم يكن هناك فيه شبه تعترض العقول وتقف الشبهات المذكورة في طريق فهم الديانات أصبحت الأجسام معطلة و العقول كاسدة، فإن الرزق لو عم الناس أجمعهم بلا تعب لأصبحوا نباتاً، فإن النبات يحيا ويعيش على العناصر المحيطة به والناس هم الذين يأتون له بالسماد. لذلك جعل الله رزق الناس موقوفاً على عملهم، لتقوم بذلك أجسامهم وتجري دماؤهم وتصلح أحوالهم وتقوى عضلاتهم، وأكثر الناس جهال لا يفهمون أن العمل الشاق لا بد منه لصلاح أجسامهم. لذلك حرم عليهم الكسل وألزمهم العمل لتحصيل القوت كي تقوى أجسامهم وتصلح حالهم، وسلط الحشائش على زرعهم وتلك الحشائش تضعفه وتقلل ثماره. فعل ذلك كرماً منه ليكثر مادة الحيوان من تلك الحشائش والحيوان لا قدرة له على الزرع ويحوج الإنسان لإزالته، فتزيد قوته الجسمية وإدراكه العقلي في استنباط الحيل لإبادة ذلك.

حياة الحيوان والديانات

هكذا ترى الحشرات والهوامّ والحيوانات الصغيرة المسماة بالمكروبات قد سلطها الله على الحيوانات النافعة في ديارنا من الطيور التي تربى ومن حيوانات الحرث والسقي، كل ذلك ليبتلينا بالعمل لإصلاح حيواننا. فحيوانات الله التي أنزلها لإهلاك زرعنا وقتل حيواننا وكذا نباتاته التي سلطها على زرعنا وملأ به أرضنا جعلهما معاً يملأان السهل والجبل، وملأ بهما الجو وأحاطنا بها من

كل جانب وسلطها علينا، ولم يؤثر الجو فيها كما يؤثر فينا وفي أنعامنا، فجعلها أقدر على الزمهرير في الشتاء والحرور في الصيف، ونحن وحيواننا ونباتنا ضعاف أمام كل شيء. هذا من الله ليبتلينا مريداً بذلك تقوية أجسامنا بالعمل وعقولنا بالحيل. ولولا هذا لكنا مترفين منعمين منغمسين في الملاهي فيكون الفناء العاجل. هكذا الديانات لو أن الدين نزل إلى الأرض ولم يكن شبهات ولا خيالات كالدين الإسلامي وقبل الإنسان القضايا ولم يبحث فيها ولم يكن بحث ولا تنقيب، لو كان كذلك لماتت العقول ولضاعت الأمم وأصبحت الأمة كلها من العامة الجهلاء، فإن الناس ثلاثة أقسام: عامة مقلدون. وحكماء محققون. وأوساط متشككون.

فالعامة تابعون العلماء، والحكماء وقفوا على الحقائق، أما الشاكون فإنّما هم الشبان الذين ارتقت عقولهم عن طبقة العوام ولم يصلوا إلى طبقة الخواص. فهؤلاء هم الذين يبتلون بالبحث حتى يصلوا، فمن وصل إلى مرتبة الحكماء وعرف الحقائق فهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج: ٥٤]، وهو البرهان بعلم الحكمة كما تقدم. وأما القاسية قلوبهم فهم الذين حين شكوا تركوا النظر وحقروا كل شيء وناموا.

فالعامة ليس عليهم ملام، إنّما اللوم على الذين امتازوا عن العامة فعرفوا أن هناك شبهات لا بد من تمحيصها فأعرضوا عنها، وما هذه الشبه إلا باب الحكمة والعلم، فإذا تركوها بقيت في عقولهم وتراكمت عليهم.

واعلم أن هذا المقال الذي ذكرته قد رمى طيرين بحجر واحد، فإن الشبه القائمة في الديانات على نفس الأنبياء وما نزلوا به تقوم على نظام الكون وجماله، فكيف يكون الكون جميلاً منظماً وخالقه هكذا يفعل، إذ يوقع الناس في مشاكل في حقولهم وزروعهم ودياناتهم وأعمالهم، فالجواب قد عرفته في الأمرين: الدين ونظام الطبيعة؛ فالشيطان يوسوس ليشك الإنسان في النبوة قائلاً: إن القرآن ليس منزلاً لما فيه من كذا وكذا، ويوسوس قائلاً: إن هذا العالم ليس منظماً، فإذن ليس له خالق، فيجاب بما أجبنا به مؤقتاً وأن هذا باب من أبواب الحكمة، فاجتهد أن يفتح عليك وسترى من آيات الله العجب فتوجه إلى الله وهو يعلمك. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٨٢].

فصل: في أن العقاب يجب أن يكون على قدر الذنب وتمثيل ذلك بإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر

قال تعالى [في سورة الحج الآية ٦٠]: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الأمر ذلك، وقد استأنف سبحانه بعده فقال: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ ولم يزد في الاقتصاص ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة، يقول الله: إن من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله أن ينصره سواء أكان ذلك من الأمم أم من الأفراد ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿ غَفُورٌ ﴾ يستر أنواع العيوب.

وإنّما ذكر هذين الوصفين لأن من بغي عليه قد كان الأولى له أن يصبر ولا يعاقب الباغي لما جاء في القرآن من طلب العفو، كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]

وقوله: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[البقرة: ٢٣٧]، وقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[الشورى: ٤٠]. فالمنتقم قد ترك الأفضل والله قد تكفل بنصره إذا بغي عليه كرة ثانية أيضاً إذا عاقب بمثل ما عوقب به فهو عفوّ له غفور لتركه الأفضل وهو العفوّ عن الباغي منبهاً على أن العفو خير وأبقى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ النصر ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾[الحج: ٦١] أي: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن عجائب قدرته أنه يدخل ساعات الليل في النهار فيأخذ الليل في القصر والنهار في الطول وذلك في فصلي الشتاء والربيع، ويدخل ساعات النهار في الليل فيجعلها في الليل ويأخذ النهار في النقص والليل في الزيادة وذلك في فصلي الصيف والخريف، ولا يأخذ أحدهما من الآخر إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه، وذلك في بلاد مصر لا يعدو أربع ساعات؛ فأقصر نهار عندنا عشر ساعات، وأطوله ١٤ وهكذا العكس، فلا يأخذ النهار من الليل ولا يأخذ الليل من النهار إلا بحساب واحد، فلذلك جعلت الانتقام من الباغي على مقدار جرمه لا يزيد ولا ينقص، كما جعلت كل ليل لا يأخذ من كل نهار إلا ما أخذه الآخر منه:

(١) فإذا كان ذلك في مصر أربع ساعات أي أن كلاً منهما ينقص في النهاية ويزيد في النهاية عن الآخر أربع ساعات.

(٢) ففي أطراف الهند والصين يكون ساعتين.

(٣) وفي بلاد السند وبعض البلاد الفارسية أربع ساعات كالقاهرة.

(٤) وفي البحر الأسود وقرب القسطنطينية ست ساعات.

(٥) وفيما يقرب من باريس وبرلين ونحو ذلك ثمان ساعات.

(٦) وفيما يقرب من بحر الشمال وما والاه ١٠ ساعات.

(٧) وفيما وراء ذلك ١٢ ساعة و١٤ و١٦ و١٨ ساعة شمالي بحر البلطيق، وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما عن الآخر في النهاية إلى ٢٠ و ٢٢ و ٢٤ ساعة، ثم تكون الزيادة بالأشهر ويكون أطول نهار يصل إلى ستة أشهر وأطول ليل يكون ستة أشهر وهنا يتساوى الليل والنهار كما تساويا في خط الاستواء، ففي خط الاستواء كل منهما ١٢ ساعة دائماً، وفي القطبين كل منهما ستة أشهر دائماً فيما بعد جزائر «جرولنده».

هذا معنى الآية. يقول الله: إن الليل لا يأخذ من النهار ولا النهار يأخذ من الليل إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه، فانظروا حسابي في الفلك وافعلوا مثل ما فعلت ولا تنتقموا إلا على قدر الذنب، لأن هذا هو العدل وأنا العدل، وإني أسست السماوات على العدل وملكي قام على العدل، هذا هو العدل وهو المساواة والإنصاف في كل شيء، فإياكم أن تنتقموا فوق ما رسمته لكم لأنكم قد خالفتم القواعد التي رسمتها. وإياكم والحقد على من عاقبتموه ودوام الغضب، بل ارجعوا بعد ذلك للمصافاة وإلا خالفتم عدلي ونظامي، فليكن كل شيء في أعمالكم وأخلاقكم بميزان وعدل.

إنني قد جعلت المساواة في كل شيء نموذجاً للعدل عندكم، ورسمت لكم الخطة فاتبعوها، وأنا القائل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ فهذا هو الميزان ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٨-٩] فكما وزنت الزيادة والنقص في الليل والنهار

بحسابي فزنوا أعمالكم في الانتقام كما وزنت أنا، وإني لن يراني إلا الذين يسيرون على صراطي، وهذا صراطي فإياكم أن تحيدوا عنه، فأنا نصرت الذي بغي عليه كرة أخرى إذا كان عقابه الأول بمثل ما عوقب به، لأنه فعل ما فعلته في الليل والنهار من الحكمة والمساواة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع قول المعاقِب والمعاقَب ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يرى أفعالهما فلا يهمل مثقال ذرة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابت في نفسه الذي هو مبدأ لكل موجود، فإذا اختلف الليل والنهار وتقاصّ المتعاديان من الناس فهو مصدر هذه الخلائق المتداخلة، وهي تزيد وتنقص وهو ثابت لإدارة شؤونها، فالمتحركات لا بد لها من محرك فإن لم يكن ثابتاً فلا بقاء لها ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ لأن الأصنام وكل ما يعتقد فيه الألوهية غير ثابت إذ هو متغير تتناوبه الأعراض كسائر المخلوقات ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ على الأشياء ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾[الحج: ٦٢] عن أن يكون له شريك.

لطيفة في قوله تعالى:
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾[الآية: ٦١] أيضاً

لما كان القول المتقدم في شأن المحاربة والقتال وأن ذلك لازم لبقاء المساجد والكنائس وما أشبهها وقد طال المقام في منازعات أهل الأرض ومنازعهم، أراد الله سبحانه أن يفرح العقول ويخرجها من انحصارها في الأمور الجزئية الأرضية إلى باحات الجمال وساحات الجلال، ويقول: ارفعوا رؤوسكم إلى أعلى. إن قتالكم مع الكفار ونصركم عليهم وعقابكم للباغين عليكم ونصري لكم ليس هو المقصود من الدين ولا من الحياة، هب أنكم نصرتم على الباغين وعلى الكفار. فهل هذا هو المقصود من وجودكم؟ كلا هذه أمور أخلاقية، والأخلاق اعتدالها صراط مستقيم، والصراط المستقيم لا يقصد لذاته بل هو موصل لغيره، الصراط على الآخرة فوق جهنم يتوصل به إلى الجنة، ولا يمكن ذلكم لكم إلا بانتهاج الصراط السويّ في الدنيا بالأخلاق الفاضلة كالعفو أو كالانتقام على قدر البغي، وهذا كله ليس مقصوداً لذاته بل المقصود أن نفوسكم بعد هذا تتفرغ إلى ما هو أعلى؛ فالأخلاق في الدنيا بعدها الفتح بالعلوم فيها، ثم يكون صراط الآخرة، فالجنة على مقتضى الأخلاق في الدنيا والعلوم فيها، بل إن أولي الألباب من الناس في الدنيا يرون أن العلم في الدنيا والابتهاج به جنة حقيقية عجلت لهم، ويفرحون بالموت إذا أتموا ما وجب عليهم على قدر طاقتهم لعباد الله، ويقولون: إنا إذا متنا زدنا علماً، ويقرؤون ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]، ويقرؤون ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾[التحريم: ٨]، وذلك النور هو العلم الذي كسبوه في الدنيا، ويقولون معنى ما ورد: «وعليون لأولي الألباب»، أي: إن أعلى لذة للنوع الإنساني الوقوف على الحقائق. ويقولون: إن لذة الطفل بالغرائب حوله وازدياد الفرح بكل جديد عند سائر الناس مبادئ يعرف منها أن فطرنا لا سعادة لها إلا بالعلم.

فإذا ذكر الله الليل والنهار في معرض القتال والانتقام وأبان كيف يكون العدل مع أن الناس لا يشعرون عادة بالمناسبة بينهما فما ذاك إلا لأن الأمر عظيم وأن الحياة ظلمات والحكمة والوقوف على الحقائق نور، فإذا حاربنا فلتكن النهاية نصب أعيننا وهي الاغتباط بالعلم، وإذا عفونا فليكن كذلك، ولتكن وجهة الإنسانية العلم، وقد أصبح هذا العصر عصر العلم فلا دنيا إلا بالعلم، ولا مال إلا بالعلم، ولا نار إلا بالجهل، ولا فقر ولا ذل إلا بالجهل، هذا هو السبب في ذكر الليل والنهار في هذا المقام. أفليس

ذلك بعجيب؟ فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون، ويمثل هذا فلتعرف بلاغة القرآن. هنا تتضاءل الفصاحة والبلاغة المجردة من الحكمة والعرفان. هنا يذوب علم البلاغة المعروف. إن عالم البلاغة الذي لم يذق من علوم الحكمة حظاً ولا من علوم العجائب السماوية والأرضية كفلاً خلق ليكون مقدمة لمن ينظر في العوالم، فهو أشبه بصراط مستقيم يتوصل عليه إلى جنة العرفان. فالبلاغة التي يدرسها الناس في المدارس أشبه إذن بعلم الأخلاق الذي لا علم بالحقائق إلا بعد الاتصاف بمضمونه.

وإذا كان علم الأخلاق النفسي لا بد منه للوصول إلى الحقائق العلمية في السماوات والأرض هكذا يكون علم الأدب اللفظي من البلاغة، وما تحتاج إليه من العلوم كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والاشتقاق والتاريخ وما أشبه ذلك، فهي كطريق مستقيم يتوصل به المطلعون على عجائب هذا العالم إلى فهم تلك الحقائق من القرآن. فإذا سمعت قول المبتدئين في العلم القائلين: إن القرآن لا يعرف إلا بالبلاغة بالعربية، فاعلم أن تلك المعرفة هي الصراط الموصل لغيره، وليست هي نفس علم القرآن والمقصود منه، كلا، بل هي طريق يوصل لما هو المقصود وهو إدراك الحقائق مثل ما أكتب لك الآن بعضها. فبلاغة القرآن شيء ومعرفة معاني القرآن وعلومه شيء آخر، فالمقدمات غير المقاصد والمقدمات بلا مقاصد شجر بلا ثمر ولفظ بلا معنى والقانع بها مغرور، والله هو الولي الحميد. اهـ.

فصل: في ذكر عجائب الأرض بعد العجائب السماوية

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استفهام تقرير ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراج النبات فيصل علمه ولطفه إلى كل ما جلّ ودق ﴿خَبِيرٌ﴾ بكل تدبير ظاهر وباطن ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ في ذاته ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب الحمد بصفاته وأفعاله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ جعلها مذللة لكم معدة لمنافعكم ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ الجملة حال ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بمشيئته ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فترجع الأرض والسماوات رتقاً كما كانتا رتقاً وقد تقدم إيضاحه في سورة «الأنبياء» إذ تصير كرة الشمس وجميع السيارات حولها في حال كالحال الأولى مشتتة مفرقة، ثم تصير كرة نارية وهكذا، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذ جعل هذه العوالم بنظامها الحالي ولم يرجعها إلى الحالة الأولى فيفني ما عليها وتكون هي كرة نارية غازية ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً بما سبب لكم من بقاء العالم على هذه الحال ولم يبعثره فتصطك الأرض بالسماوات ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لنعم الله لأنه محفوظ محوط بأنواع النعم وهو لا يشكر عليها.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾

نرجع إلى مسألة الحرب كرة أخرى ولننظر كيف ذكر الله إنزال الماء من السماء في حيز الكلام على الانتقام، بعد أن ذكر أولاً إيلاج الليل في النهار، يقول الله: إن الانتقام من الباغي يكون بالعدل

كما عدلت وأنا خلقتكم للعلم فلتكونوا علماء، فهكذا هنا يقول: أفلم تنظروا إلى الأرض كيف أنزلنا عليها الماء من السماء فاخضرّ النبات.

اعلم أن الأمم إن لم تهذبها الحوادث ولم تؤدبها الكوارث ولم توقظها النوازل ولم تعلمها التجارب بقيت بلهاء نائمة تائهة، فالأمم كالأفراد لا يقومون من غفلاتهم ولا يستيقظون من نومتهم إلا بموقظات الأيام ومزعجات الليالي، ولعمرك لم يبعث الحرب الكبرى في أمم الغرب والشرق سنة ١٩١٤ إلا تلك الكتب التي أبرزها علماء الألمان قائلين: الأمة بلا حرب ميتة. فإذا رأينا أمة قد غفل أبناؤها وجهل شبانها وتنعموا وانغمسوا في اللذات، فلينزل عليها مطر الحرب، وليسبب لها أمطار القنابل ونيران الصواعق المرسلات من الطيارات، ولتزعجها الجيوش الجرارة والجحافل الكرارة في حنادس الظلم وفي حمارة القيظ. هنالك ينبت يبسها ويخضر شجرها وتزهر حدائقها بأفانين الحكمة وأزاهير العلم، هنالك يستيقظ الشبان من سباتهم. هنالك الأفراح والمسرات، هنالك تبتهج البلاد.

إن البلايا والمنايا رافعات الأعلام في الأمم مثيرات كوامن الأخلاق والمواهب والسجايا، لن تظهر كوامن الأخلاق وعجائب الغرائز وصنوف الفضائل إلا بإنزال ماء المحن عليها، فهنالك تهتز النفوس وتنبت من كل زوج بهيج من المكارم والسجايا والفضائل والمزايا.

هذا ملخص ما قاله علماء الألمان حتى أثاروا ثائرة الحرب الكبرى. وقد قال ذلك من قبلهم «سقراط» في كتابه إلى الإسكندر، وقد تقدم في هذا التفسير، وهو أن الأمم لا تطيق النعيم والراحة والدعة فإن ذلك يميت العزائم ويخمد الهمم، وإنما يرفعها إلى العلا إدامة الأعمال وإثارة العزائم، أقول: فما الرصاص المتهاطل ولا القذائف من القنابل إلا كالطل والوابل أصاب أرض النفوس فأنبت ريحان الهمم وأشجار الحكم فأزهرت وأثمرت وأغنت الواردين والصادرين.

ولقد جاء في علم الأرواح أنهم سئلوا عن الحروب، فأجابت إحداها قائلة: إن الحوادث العظمى في الأرض والحرب الطامة تكون لغرض إحداث تبدل عام في نظام أرضكم وتكون فيها أرواح قد جلت الأجسام الأرضية غير صالحة للارتقاء فيحل بها الفناء، وتسكن أخرى أعلى منها أرضكم بحيث يخلق الله في بطون الأمهات أرواحاً أرقى عزيمة من أرواح الموجودين، فتحل محل الذاهبين، ولذلك يكون الاختراع والتقدم دائماً بعد النوازل العظيمة كالحروب الطامة والزلازل والوباء. اهـ.

فانظر قول علماء الألمان وقول سقراط وقول الأرواح، أليس هذا عين ما في القرآن؟ أليس ذكر اخضرار الأرض بعد إنزال الماء عليها هو عين ارتقاء النوع الإنساني بعد الحروب والرصاص والوباء والزلازل والإهلاك العام في بقعة أو جهات متحدة؟ لعمرك إن هذا من أسرار القرآن، إن من يسمع القرآن وهو لم يدرس الحكمة واكتفى باللغة العربية وتوابعها وبلاغتها يظن أن ذلك تكرار وتكرار.

فالله ذكر في أول السورة أنه ينزل الماء على الأرض فتهتز وتنبت من كل زوج بهيج يستدل به على البعث، وهنا ليس لذلك ولا لغيره، بل ليدلنا على ما ذكرناه، وأن الأمم يتجدد شبابها بالحروب ويقاس عليها النوازل الكبرى كالزلازل والوباء العام.

إن من يسمع القرآن وهو لم يدرس العلوم لأشبه بمن يسمع لغة أجنبية وهو لا يفهمها، فإنه يظن أن كلماتها عبارة عن نغمة واحدة ليست مفصلة ولا مختلفة، كمن يرى الشبح من بعيد فإنه لا يعرف أعضاءه ولا ما هو.

هكذا نحن نرى الكواكب وهي لبعدها عنا لا نرى فيها إلا قطعاً لماعة كالماس ولا نرى ما فوق ذلك هكذا كل علم وكل فنّ نجهله، ومن ذلك القرآن، فذكر اخضرار النبات مرة بعد أخرى وذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل في مواضع مختلفة يجعل أكثر الناس لا يعلمون ما القصد من هذا التكرار، والعلم هو الذي يجلي الحقائق. إن القرآن لا يعرف إلا بقراءة علوم طبيعية ورياضية وفلكية وسياسية واجتماعية وروحية، والله الهادي إلى سواء الصراط. اهـ.

بهجة العلم في قوله تعالى أيضاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله على نعمة العلم والحكمة، اللهم إنا نحمدك على ما علمت وعلى ما نشرت من الحكمة في الشرق والغرب، وعلى ما ألهمتني فألفت كتاب «أين الإنسان» في نحو سنة ١٩١٠، أي: قبل كتابة هذه الأسطر بنحو ١٨ سنة، وأحمدك على أنك شرحت صدري لهذا التفسير، وأني ذكرت فيه كثيراً من الحقائق العلمية والسياسية، وقلت: إن الشرق والغرب يجب أن يكون عقلاؤهما وعلماؤهما متحدين لارتقاء نوع الإنسان، وأنهم الآن لجهلهم قد تركوا مواهب العقول مبعثرة هنا وهناك ومنافع الأرض والهواء والأضواء متروكة منبوذة، وهم هائمون في ضلالهم جادون في غواياتهم وحروبهم يأخذ زيد ما في يد عمرو من المال جهالة ونذالة، وقد ترك أضعافه وأضعاف أضعافه في خبايا الأرض وخفيات الطبيعة، ونسي السوّاس وعظماء الأمم في كل أمة من الأمم أرضاً منبوذة لا تزرع ومنافع مهجورة لا تعرف ذلك للجهل العام في هذا العالم.

فالأرض الصالحة للزرع في الأمم المنبوذة المهجورة تنادي بلسان فصيح قارئة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج: ٦٣]. الماء ينزل من السماء ويملأ الأنهار، والأنهار تجري على اليابسة وتمر والناس غافلون عن إتمام نظامها. هذا نهر النيل ببلادنا يجري إلى البحر الأبيض المتوسط.

ويقولون: إن البلاد بها نحو مليون وسبعمائة ألف فدان تصلح للزرع ويريدون أن يدبروا الماء الواجب لها حتى تخرج للناس رزقاً. هذا مثل واحد من أمثال كثيرة. فالناس لشرههم في الشرق والغرب يتركون أمثال هذا أضعافاً مضاعفة في كل أمة، وتمتد أعينهم إلى ما في أيدي إخوانهم جهالة قديمة العهد توارثتها الأمم كابراً عن كابر، لأن العقول لم تكن مهيأة لأن تعقل، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج: ٦٣]، فليس الرزق خاصاً بانتهاب ما في أيدي الناس قاصراً عليه، بل هنا رزق أوسع وهو أن الأرض تخضر بإنزال الماء عليها.

إن الأمم لم تكن عندها مواصلات كما في عصرنا ولم تكن العقول وصلت إلى هذا النموّ، وعلى قدر اختلاط الأمم واتصالها يكون التفاهم والتعقل، وسيعرف الناس قيمة الأرض وزرعها ومنفعتها ومنافع الاشتراك العام في الثمرات.

إن الأرض لله، والناس كلهم أمة واحدة كما سيأتي في سورة «المؤمنون»، وكل أمة قصرت في تعليم أبنائها أو في نظام أرضها أو في استخراج منافعها العامة، فالأمم كلها يجب عليها أن تشاركها في استخراج تلك المنافع طوعاً أو كرهاً، وتلزمها بذلك وتأمرها بتعليم جميع من فيها. إن في كل أرض من المنافع ما ليس في غيرها، وفيها من الخواص ما ينفع المجموع في الكرة كلها، وتفويت خواص أرض في أمة من أمم الأرض أو خواص عقل من عقول أبنائها حرمان لأهل الأرض كلهم من تلك الخواص في الحالين. فلكل الأمم الحق في مطالبة كل أمة بإبراز ما لديها من المواهب العقلية والخواص الأرضية وغير الأرضية. هذا هو الذي كتبت معناه في كتاب «أين الإنسان» وعرفه أهل أوروبا وكتبوا فيه. وأنا أزيد عليه الآن ما لم أكن أعلمه إذ ذاك من العلم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦].

هل كان يخطر لأهل العلم أن النبات كالإنسان سواء بسواء؟. هل كان يخيل لنا ونحن ندرس في الفلسفة القديمة ونقرأ فيها أن النبات يحس بالضوء وبالجهات، بدليل أنه يميل إلى جهة النور إذا نفذ من نافذة وينحرف عن الظلمة، وأنه يسير على حبل نصب له بين حائطين ولا يميل عنه، وأنه يميل إلى الرطوبة ويتجافى عن اليبوسة بعروقه الضارية في الأرض. وبالجملة له إحساس بما يلائمه إحساساً مبهماً. أقول: هل كان يخطر لنا ونحن نقرأ تلك الفلسفة ثم نكتبها في هذا التفسير في سورة «الرعد» ونحن نوازن هناك بين القديم والحديث، إذ رسمنا هناك بالتصوير الشمسي أنواعاً من النبات الذي يصطاد الحشرات ويهضمها، وقد رسم بعضه وهو قابض على الحشرة ليبتلعها، وقد زود وقوي بالعسل وبالشكل الجميل وبالدهاليز المسواة المنمقة الملساء التي تغري الذباب بالولوج، حتى إذا دخل المكان فرحا بعسله وجماله ونعومته انقضّ النبات عليه فافترسه افتراس الآساد للغزلان والنمور للبقر الوحشي. أقول: هل كان يخطر لنا إذ ذاك أن عالماً نباتياً يظهر في الهند في أيامنا هذه ويقابل الوزير المصري أثناء طبع هذه السورة تقريباً في أوروبا ويدعوه الوزير المصري إلى مصر ويحضر إليها ويلقي محاضرة في دار «الجمعية الجغرافية» يوم الاثنين ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٨م.

إن هذا العالم المسمى «جاجاديس بوز» الهندي قد برع في هذا العلم حتى اخترع ما لم يخترعه أحد في أوروبا ولا في اليابان ولا في أمريكا، إذ وصل علمه إلى أن النبات كالإنسان سواء بسواء، فهو يحس وهو يتحرك، وله دورة عصارية، أي: بعصارة النبات، كالدورة الدموية للإنسان، وله إحساس بألياف جعلته يحس أسرع من إحساس الإنسان، وهو يمرض ويتأثر بالسم ويشفى من المرض بعقاقير طبية. وبالجملة أصبح النبات كالإنسان سواء بسواء في كل أحواله، وكأنه نطق بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾[نوح: ١٧]. فاعجب كيف جعل الله الإنسان نباتاً.

وهذا العالم «جاجاديس بوز» يقول كذلك، بل إنك سترى في نص خطبته وتجربته أن الشرارة الكهربائية أثرت في النبات قبل أن تؤثر في الإنسان كما ستراه قريباً، أفلا ترى أن هذه نعمة أنعم الله بها علينا إذ أرسل هذا العالم الخطيب إلى مصر أثناء طبع هذه السورة لنجعلها درساً وشرحاً لما في هذا التفسير من العلم ومن نظام الأمم العام، ومن عجب أن القرآن أكثر من التمثيل بالنبات في أطوار كثيرة، فإن زهد في الدنيا قال: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[يونس: ٢٤] الخ، وإن استدل على البعث قال: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا

ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾[الحج: ٥] وهكذا، والعلماء يقولون: إن الإنسان نبات مقلوب أغصانه يداه ورجلاه ورأسه هي جذر النبات.

إذا عرفت هذا فلأذكر لك خطبة هذا العالم الذي قام دليلاً على ما قلته في كتاب «أين الإنسان» من أن عالم الشرق ينفع الغرب وبالعكس، وأن جهل الأمم بمنع العلم عن بعض أمم الشرق إضعاف للأمم كلها، ومنها تلك الأمم المستعمرة لغيرها، لأن ثمرات العقول في الأمم المغلوبة قد ضاعت على الناس جميعاً وعلى هذه الأمة القاهرة. ذلك العالم الذي أدخلته النمسا في المجمع العلمي لديها، وزاره ملك «بلجيكا» في معهد العلمي بكلكتا، ذلك العالم الذي أدهش نوع الإنسان باختراعه، فقد كان الناس قد اخترعوا «الميكرسكوب» الذي يجسم الأشياء ألفي مرة، ولكنه هو اخترع «كرسيكوغراف» يكبر الأحجام خمسين مليون مرة، وهذا أمر عظيم، وبهذا أظهر لنا سرّ النبات الذي يحس أكثر من الإنسان، وقبل أن أنقل إليك الخطة بحذافيرها أضرب لك مثلاً في إحساس الإنسان وحركاته، لأن إحساس الإنسان ـ وإن كنا نعرف ظواهره ـ فيه خفايا وغرائب تحتاج إلى ضرب الأمثال.

طرق البريد وطرق المواصلات في يد الإنسان

سترى في سورة «المؤمنون» في نفس هذا المجلد عند ذكر الإنسان ونموه أني سأشرح لك نظام اليد الإنسانية مقتصراً عليها لتكون نموذجاً لمعرفة غرائب جسم الإنسان. فسترى هناك أن اليد الواحدة من يدي الإنسان قد وجدوا لها ١٢ طبقة. ولما كان هذا الشرح ستراه هناك عدلت هنا إلى ضرب مثل ليكون تنويعاً في الشرح مع سهولة في التعبير لمناسبة ما هنا، حتى نقيس عليه عجائب النبات، حتى إذا قرأت خطبة العالم الهندي فهمت معنى ألياف الحس وقوة الحركة في النبات، فلأمثل لك اليد بمدينة عظيمة، وهذه المدينة عليها سور من الخارج يحفظها، ومتى دخلنا من باب السور وجدنا «إدارة البريد البرقي»، أي: التلغراف الذي له سلك، والذي وراءها «إدارة الطرق والمواصلات»، ووراء هذين أنابيب المياه لسقي أهل المدينة.

هذا كله حاصل في يد الإنسان من جهة ظاهرها، وحاصل نظيره فيها من جهة باطنها، وتفصيله كما ستراه هناك موضحاً بعضه بالتصوير الشمسيّ. إن ظهر يد الإنسان عليها جلد فهو أشبه بسور المدينة وتحت الجلد مباشرة أعصاب الحس، أي: التي توصل ما يقع على الجلد من إحساس بمكروه ومحبوب إلى المخ، ولولا هذه الأعصاب الموصلات لم يحس الإنسان بحرق يده أو بقطعها فيضرب أو يحرق وهو لا يحس بألم، فهذا الإحساس مركزه في الدماغ وفي داخل الفقار، أي: في الجهاز العصبي، فهذه الأعصاب عليها مدار الحياة إذ لو لم تكن لهلك الناس والحيوان عن آخرهم وهم لا يشعرون، ثم وراء هذه الطبقة طبقة أخرى يشرحها علماء الطب بأيديهم مستقلة فيها أعصاب الحركة، ومعنى هذا أن أعصاب الحس حينما توصل الخبر بالضار أو النافع وبالمؤلم أو السارّ من الجلد إلى المخ تأمر القوة الحاكمة في المخ بأسرع من لمح البصر أعصاب الحركة، أي: التي في الطبقة التي تحت هذه الأعصاب التي سميناها «إدارة المواصلات» كالطرق الحديدية والطيارات وأنواع السيارات، فهذه الأعصاب أي: أعصاب الحركة تقبض اليد مثلاً أو تبسطها أو نحو ذلك من الأعمال المختلفة، فإن كانت تلك الأعصاب من جهة ظاهر اليد بسطت، وبالعكس إن كانت في باطنها، فإن أمرت القوة العاقلة في المخ

أعصاب الحركة بقبض اليد مثلاً؛ هيأت أعصاب الحركة التي في جهة باطن اليد فقبضت اليد، وإن أمرتها بالبسط هيأت أعصاب الحركة التي في جهة ظاهر اليد فبسطت اليد. فللبسط أعصاب وللقبض أعصاب، والمخ هو الآمر لكل حال بما يناسبها.

إذا فهمنا هذا في أمر اليد فهمنا ما معنى الإحساس في الحيوان وما معنى الحركة. وإذا عرفنا أن وراء أعصاب الحس في اليد وأعصاب الحركة الأوردة والشرايين التي تغذي الجسم بالدم فهمنا معنى قول هذا العالم الهندي: إن في النبات عصارة تفعل فعل الدورة الدموية في الإنسان.

فملخص ما يأتي في أمر اليد أن هناك سوراً يحيط باليد، ووراء السور طرق البريد بجميع أنواعه ووراء البريد طرق الحركة والأعمال بجميع أنواعها، ووراء هذه الطبقة الأنهار والترع والخلجان، وهذا الترتيب عجيب، فإن وضع الطرق البريدية والبرق «التلغراف الذي له سلك أو لا سلك له» وراء الجلد الذي سميناه سور المدينة، لأجل أن تصل الأخبار حالاً إلى المخ، ولو لم يكن هذا الوضع على هذا النظام لاختل أمر الحياة، لأن الجلد إذن لا يحس بما ينتابه من قطع أو حرق فيهلك الإنسان لعدم الإحساس، لأن الإحساس قد وضع بعيداً عن هذه الطبقة، وهذا سر عجيب وحكمة منظمة غريبة. ومعلوم أنه ما بعد العلم إلا العمل، والعلم مقدم على العمل، والعلم هنا يكون بأعصاب الحس، فوجب أن تكون أعصاب الحركة تالية لها ليكون العمل. لذلك كانت أعصاب الحركة تحت أعصاب الحس، كما نرى سلوك التلغراف في بلادنا المصرية فوق الأعمدة المنصوبة. ونرى القضب المنصوبة أسفل منها على الجسور وعليها القطرات تمر. ولا جرم أن هذه تقابل أعصاب الحركة في اليد؛ ثم إننا نشاهد على جوانب الجسور التي عليها قضبان السكة الحديدية ترعاً جانبية تسقي الحقول. فهنا أسلاك التلغراف تحتها قطار السير في الأرض وتحتهما الأنهار لسقي الأرض، وهنا كذلك سواء بسواء؛ فأعصاب الحس في مقابلة أسلاك التلغراف، وأعصاب الحركة تحتها في مقابلة قطار السكة الحديدية، والشرايين تحت ذلك في مقابلة الترع التي بجانبي الجسر الذي عليه تجري القطرات. فجلّ الله الذي شرح لنا ما في أجسامنا بإظهار نظيره في الخارج وأصبحنا نرى الأعمال في المدن تضارع أعماله هو في أجسامنا وأجسام حيواننا وأجسام نباتنا. اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم، وعلى نعمة الإيضاح ونعمة الفهم، إذ فسرت لنا بهذه الأعمال قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠-٢١].

يقدم الله الآيات التي في الأرض على الآيات التي في الجسم. لماذا؟ لأننا لا نفهم الآيات والعجائب التي في نفوسنا إلا بعد أن ندرس العجائب التي في الأرض كما رأيت الآن، إذ صارت طرق سكة الحديد والترع بجوانبها والتلغراف من فوقها هي عينها نفس ما في أيدينا وما في أجسامنا وما في حيواننا وما في نباتنا من الترتيب والنظام البديع. هذا ما أردت أن أقدمه لفهم محاضرة الأستاذ «جاجاديس بوز» الهندي فهاك نصها:

قام السر «جاجاديس» فصفق له الحاضرون وبدأ بالكلام على الرابطة بين الشرق وبعضه، وقال: إن العلم لا وطن له ولا دخل للدين في البحث العلمي. وقد قوبلت هذه الكلمات بالارتياح والاستحسان، وعمل السر «جاجاديس» تجربة دلل بها على أن النبات يحس أكثر من الإنسان. فقد

أوصل شرارة كهربائية إلى بعض الأشخاص ثم أوصلها للنبات، ولم تحدث الشرارة تأثيراً في الشخص ولكنها على العكس أحدثت اهتزازاً في النبات، ثم سلط بعد ذلك شرارة قوية على النبات فأماتته، ثم امتحن النبات على أثر الحادث بجهاز يميز الحياة من عدمها، فأثبتت أن النبات قد مات. وأجرى تجربة أخرى فوضع مقداراً كبيراً من السم على النبات فحدثت به اهتزازات تدل على الفناء. ثم أخذ المحاضر مقداراً من مستخرج نباتي خاص وألقاه على النبات فعادت إليه الحياة. وكانت كل هذه الأعمال موضع الاهتمام من الحاضرين، واستخدم الفانوس السحري أثناء إلقائه المحاضرة، وقد ظل يلقيها ساعة ونصف ساعة، وهذا تعريبها:

ليس في تاريخ الجنس البشري حوادث ذات مغزى مثل قيام المدينتين العظيمتين على ضفاف نهري النيل والكنج. وقد كان هناك اتصال فكري منذ ٢٢ قرناً مضت بين البلدين العظيمين مصر والهند عندما أرسل ملكنا العظيم «اسوكا» رسله إلى هذا القطر، وأوصاهم أن يقدموا معارفهم وأن يتحدوا بالشعب ويرتبطوا به برابطة الإخاء. فلما جاءتني الدعوة التي وجهتموها إليّ أحييت في نفسي ذكرى الماضي. ولقد لقيت من الوزراء دعوة الشرق الحارة، ورأيت من الشعب ما جعلني أشعر بأنني واحد منكم، فقبلت ما اقترحتموه عليّ وهو أن أتخذ بعض الطلبة منكم تلاميذاً لي، لأطلعهم على الطرق الحديثة التي تميط اللثام عن السر العظيم الذي تكنه الحياة. ومع أن العلم ليس متاعاً خاصاً بالشرق أو بالغرب وهو عام يشمل جميع الأمم والشعوب، فإن الشرق يصلح لتقديم مساعدات كبيرة لترقية العلم بفضل عقليته ومواهبه الموروثة التي تلقاها من جيل إلى جيل. أما التصورات الشرقية المتقدة التي تستطيع أن تستخلص من مجموعة الحقائق المتناقضة في الظاهر نظاماً جديداً ففي الوسع ضبطها وكبح جماحها بقوة التركيز والعادة التي جرينا عليها في حصر الفكر. وهذا الضابط هو الذي يمنحنا القوة التي تساعدنا على استقصاء الحقيقة بصبر لا حد له. ولما كان العالم أجمع يعتمد بعضه على بعض فقد زاد تراث الجنس البشري ونما بفضل المجرى الفكري المستمر الذي يفيض علينا جيلاً بعد جيل، ولا ريب أن الاعتراف بهذا الاعتماد المتبادل هو الذي ربط الشعوب البشرية العظيمة وقيدها معاً ضمن استمرار المدنية ودوامها.

حياة النبات والحيوان

إن الرأي المتفق عليه إجمالاً هو أن حركة الحياة الميكانيكية تختلف في الحيوان عنها في النبات اختلافاً كبيراً.

فالحيوان يحس ويتأثر بهزة كهربائية سريعة. أما النبات فيعد إجمالاً بأنه لا يحس بضربات متوالية، وللحيوان أنسجة نابضة لدورة الدم المغذي، بخلاف النبات فإن المزعوم أنه لا يشتمل على أنسجة نابضة، وأعضاء الحواس في الحيوان تلتقط رسائل الحوادث الخارجية وتنقل اختلاجاتها بواسطة الأعصاب فتحدث حركات عكسية، أما النبات فالمزعوم أنه خلو من مثل هذه الأنسجة الناقلة.

وعلى هذا فالمظنون أن هناك مجريين للحياة يجريان جنباً إلى جنب دون أن تكون لأحدهما علاقة بالآخر، ولكن هذا الرأي خطأ في خطأ، وكان من جراء النظريات الفاسدة وما أحدثته من أثر أن عرقل تقدم العلوم والمعارف. والعقبة الحقيقية التي عرقلت سير البحث في حياة النبات هي الحقيقة

الواقعة، وهي أن تفاعل الحياة يقع داخل الشجر المظلم الذي لا تستطيع عيوننا اختراقه والوصول إليه، فكان لا بد لنا والحالة هذه من اختراع آلات غاية في الدقة والحساسية تستطيع الوصول إلى أصغر وحدة من وحدات الحياة لتدوين نبضها وهزاتها. وقد اخترع «الميكرسكوب» الذي يجسم الأشياء ألفي مرة عهداً جديداً في تقدم علم الحياة. أما جهازي المعروف باسم «كرسيكوغراف» الذي يكبر الأحجام تكبيراً هائلاً يبلغ خمسين مليون مرة فقد أخذ الآن يميط اللثام عن غرائب عالم جديد، فبدأ النبات نفسه يكشف عن أسرار حياته الخفية. وقد صنع هذا الجهاز هنود ميكانيكيون تدربوا في معهدي. ومعلوم أن التقدم الاقتصادي في أية بلاد يتوقف على التقدم في الاكتشاف والاختراع. ومن هذه الوجهة يستطيع العقل الشرقي إظهار ما فيه من قوى كامنة. وقد كانت النتائج الجديدة التي حصلنا عليها في معهدي فيما يتعلق بتأثير العقاقير الطبية في الحيوان والنباتات ذات شأن عظيم في ترقية الطب. وقد كان لمراقبات النمو التي سجلها جهازي المجهر الفائق فضل في جعل تفاعيل النمو من المرئيات، وتسنى بواسطته تحديد ناموس النمو، ومعرفة هذا الناموس من الأمور الجوهرية للتقدم في الزراعة العملية التي يتوقف عليها إعداد المواد الغذائية للعالم.

النبات أشد إحساساً من الناس

ما كان الناس يظنون أن النباتات العادية حساسة، أما الآن فقد عرف ذلك بالاختبار العجيب بواسطة الجهاز الذي يسجل أدنى حركات التقلص.

نزع الموت في النبات

وضعت نباتة في الكرسي الكهربائي بعد بلها قليلاً لتسهيل سير الكهرباء فيها، وقد ظلت النباتة هادئة هنيهة كما تبين ذلك من ثبات خط الضوء المنعكس من الجهاز المجسم، ثم أدير مفتاح كهربائي فسمع دويّ كالرعد في الجهاز، فأحدث ذلك تقلصاً من النباتة، واندفع خط الضوء بعنف إلى اليسار، ولكن النباتة لم تكن قد ماتت بعد، ثم سمعت دمدمة التيار الكهربائي المهلك أعقبه تقلص آخر شديد وانحرف خط الضوء مباشرة نحو إشارة الموت الذي لا رجوع بعده إلى الحياة، وقد سلط تيار آخر على النباتة ذاتها فلم تتأثر بل سكنت سكون الموت.

دورة العصارة

إن الدورة الدموية في الحيوان يسببها دفعات الأنسجة النابضة التي تتخذ في الحيوانات الدنيا شكل أنبوبة مستطيلة، وهذه الدفعات تسير إلى اتجاه خاص بواسطة حركة دودية في النبات أيضاً، وبها تقوم الدورة العصارية في النبات. وأعجب من ذلك ما للعقاقير من التأثير نفسه في ضربات النبض في الحيوان والنبات سواء. وقد بلغت دهشة الحاضرين أشدها عندما عرض السر «جاجاديس بوز» أمامهم تأثير السم وترياقه في ضربات بعض النبات، فإن استعمال السم جعل النبض يضعف شيئاً فشيئاً، على حين كان ضغط العصارة الذي هو بمثابة ضغط الدم في الحيوان ينخفض باطراد حتى كاد يتلاشى، وكانت النباتة في هذه اللحظة تختلج بحيث لو مالت قليلاً شطر الموت لوقف دولاب حياتها، ثم استعملت كمية من خلاصة نبات هندي فشاهد الحاضرون إذ ذاك النضال بين الحياة والموت، إلى أن تغلب فعل الترياق في النهاية فاستطاعت النباتة الإفلات من مخالب الموت، وعلى هذا المنوال اكتشف

تأثير عدد كبير من النباتات الهندية وخاصياتها الطبية التي لم تكن معروفة قبلاً، وفائدة بعض هذه النبات هي أعظم جداً من أية عقاقير أخرى معروفة في عالم الطب، وقد وقع فعلاً أن استعملت خلاصة إحدى هذه النباتات في ضفدع سكن قلبه كلية فعادت إليه الحياة. ولا ريب أن هذا البحث سيؤدي إلى وضع « فرما كوبنا » جديدة تضاف إليها من العقاقير لتخفيف آلام الإنسانية وأوصابها.

تدرج الحياة من النبات إلى الحيوان

يمكننا أن نتتبع مدارج سلم الحياة الطويل ونرى أن النبات هو أقرب إلينا كثيراً مما كنا نظن، وندرك أنه ليس نمواً نباتياً فحسب بل إن أليافه الدقيقة كلها إحساس، وقد تبين لنا أن النبات يتأثر بالصدمات الخارجية بحركة تقلص تبدو منه، وأن جسم النباتة يرتبط بعضه إلى بعض بخيوط موصلة، حتى إن الهياج الذي يحدث في أي جزء منه يسري فيه كله، وقد تسنى لنا أن نسجل ضربات نبض حياة النبات ونجد أنها تقوى وتضعف بحسب درجة قوة الحياة فيه وأنها تسكن عند موت النباتة، ونرى من هذه الحال وغيرها من الأحوال الكثيرة أن تفاعيل الحياة في النبات والإنسان متشابهة، وأنه بالاختبارات التي يمكن أن نجريها في النبات يتسنى لنا أن نخفف آلام الناس وأوجاعهم. انتهت الخطبة.

هذه هي الخطبة التي خطبها ذلك الضيف الهندي النابغة في علم الحيوان، وبه صح ما طالما قلته في هذا التفسير كما سيأتي في سورة « المؤمنون » عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[الآية: ٥٢]. وإن الناس جميعاً يساعد بعضهم بعضاً في العلم، وإن الإنسانية اليوم لا تزال طفلة جاهلة، فما العلماء في الأمم إلا كالملائكة، وما السوّاس في الأمم إلا كملائكة ظاهراً وكذئاب ووحوش باطناً، فهم ذئاب يلبسون لباس الملائكة، هذا هو العالم الأرضي الآن وربما يأتي زمان يصبح الناس في هذه الأرض كلهم متساوين، فهم إذن يسعدون سعادة لم يحلم بها نوع الإنسان، ولكن إياك أن تظن أن أهل الأرض مهما نالوا من الاتحاد والعلوم يصلون إلى منتهى السعادة في هذه الأرض بل ينالون سعادة نسبية، ألا ترى أن أهل الأرض اليوم محبوسون فيها لا يستطيعون الصعود لعالم الأفلاك و هم في هذه الأرض، ولا يقدرون على الصعود في جوّ أرضنا إلا بطيارة لها شرائط مخصوصة، فإذا اختل شرط منها أحرقتها النار وأحرقت من فيها، كما قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ٣٣-٣٤]. وإنما لم يكن لهم سلطان على ذلك لأن الأرض اليوم تجذبنا إليها بشيء يقال له الجاذبية، وما هذه الجاذبية إلا نوع من المقامع المذكورة في أول السورة، لأن أرضنا من عالم المادة الغليظة، فلها بجهنم نوع شبه، فعندنا مقماع يقعدنا في الأرض ويبعدنا عن الجو، ومقماع يؤلمنا بالجوع، وآخر يؤلمنا بالعطش ثم بالشبق ثم بالغضب ثم بالطمع ثم بالحسد الخ، فعندنا الآن مقامع تعد بالعشرات كلها تؤذينا وتقهرنا على الأعمال للضر والنفع والجلب والدفع فهي كالمقامع الحديدية في جهنم، فهانحن أولاء نحس بدافع يدفعنا عن الارتفاع في الجو نسميه الجاذبية، والهواء الجوي يضغط على أجسامنا بعشرات القناطير لحفظها، كما تقدم في سورة « النحل » عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾[الآية: ٩٠] الخ.

نحن هنا أجسامنا غليظة لا نقدر أن نطالع الأفلاك ولا أن نسيح في المشتري أو المريخ فضلاً عن الشمس والجوزاء وما أشبه ذلك، أهل الأرض جميعاً محبوسون فيها قد منعوا من أقطار السماوات العلى لغلظ أجسامهم، لأن أرواحهم لا تزال طفلة، فإذا ارتفعت وخفت ساحوا في أقطارها وعرفوا أخبارها، إن الله حبسنا هنا وجعل حبسنا مرقياً للمحبوسين، بدليل أنه جعل محل الحبس دار أعمال فأتى لهم بجميع ما يحتاجون إليه في أعمالهم من أعمال الكسوة والغذاء والزينة، فهاهو ذا زرع الأرض وشق أنهارها وزانها بكل جمال وكمال، وقال لهم: هذه أرضي فهي وإن كانت سجناً لم أجعلها محل عقاب، بل دار تعليم فمن لم يتعلم أو لم يتهذّب فأنا له بالمرصاد. وعلى ذلك تكون هذه الدنيا مهما ارتقى أصحابها لا يبلغون الكمال المطلق، لأن الكمال المطلق في عوالم الجنات. والحمد لله رب العالمين.

فصل: في ذكر أن كل أمة لها شريعة ونحو ذلك

قال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي: لكل أهل دين جعلنا شريعة تعبدوا بها ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ عاملون به ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ في أمر الدين ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق إلى الحق سوي ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحجة ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من المجادلة الباطلة ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بالثواب والعقاب كما يفصل بينهم في الدنيا بالحجج والآيات ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي: إن الإحاطة وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ حجة على جواز عبادته ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ حصل لهم بالاستدلال ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ الذين ارتكبوا هذا الظلم ﴿ مِن نَّصِيرٍ ﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ لأن القرآن يبين ما يحتاج إليه في الدين، وفيه دلائل العقائد الحقة ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ الإنكار لغيظهم ولما جمدوا عليه من المذاهب الباطلة ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ ﴾ يبطشون ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم هو ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ النار.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾

لما جاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣] وبين به كيف تتجدد الأمم بأهوال الحروب ويصلح الناس وتنشأ شعوب أرقى مما قبلها كما ينشأ في الأرض بسبب ما هطل من المطر فيها نبات على آثار النبات الهشيم الذي كان فوق الأرض؛ أعقبه بتبيان بعض ذلك كأنه مثال له، فقال: هانحن أولاء أرسلنا أنبياء وخلقنا أمماً وقد طال الأمد عليها فقست القلوب، فأردنا أن نجدد ملكنا ونحيي ما درس من درس الإصلاح الأخلاقي والعلمي، فأرسلناك وأمرناك أن تمزق الأغشية التي غشت على العيون، والأباطيل التي ربطت على القلوب والحجب التي نصبت بين الخلق وبين الحق تارة بالقول وتلاوة القرآن، وتارة بالحرب وسجال الطعان،

حتى نخرج أمة للناس وشريعة جديدة تجدد ما اندرس وتحيي ما مات من فضائلنا في خلقنا وإصلاحنا لشؤونهم فجعلنا لك شريعة غير شرائعهم حديثة النشأة أوجبها الجهاد العلمي والحربي، كما ينبت نبات جديد أثر المطر فتخضر الأرض لما لنا من اللطف في الجليل الصغير. فكما وصلنا إلى دقائق النبات وجليل الشجر مواهب ومحاسن وجليناهما للناظرين، هكذا أبدعنا شريعتك وجعلناها قائمة مقام الشرائع الدارسة والديانات المائتة لنحيي الآمال ونجدد الأمم كما نجدد النبات بعد النبات والشجر بعد الشجر، فكيف يجادلونك في أمر نحن قدرناه أو ينازعونك فيما اخترناه. إنا نحن قدرنا أن نجعل هذا العالم في ارتقاء كما نجدد ما اندرس ونحيي الموات فهكذا نحيي الأمم. إن الأمم من الأرض فلهم شأنها فإنا نحن المنزلون مطراً والموحون علماً، نحن المزجون السحب المرسلون الرسل والزارعون النبات والمجددون الأمم بشرائعها، إذ لا ثبات لأمة إلا بشريعتها ولا شريعة باقية ولا كتاب إلا مع رسول، فكيف يجادلونك وقد ظهر الحق وأصبح البرهان واضحاً على مقتضى سنن الكون المشاهد لهم وهم لا يفقهون، فأجبهم إن جادلوك بأن الله بأعمالهم عليم، وهل يخلف وعده ويخرم سننه ويقف حركة الأمم الأرضية المستقبلة لأناس لا يعقلون؟. إن الحق غالب والباطل زاهق. فلتغلبنّ في الدنيا وليحكمن عليكم بالعقاب في الآخرة، فإن الله يعلم ما تفعلون، وكيف لا يكون ذلك وهو يعلم ما في السماوات والأرض قد كتبه في اللوح المحفوظ؟.

بدائع القرآن

من تأمل في هذه الآيات عجب من أسلوب الكتاب العزيز، فبينما نحن في حرب وجدال مع أعداء الدين، إذا نحن بين الكواكب المشرقات وبدائع السماوات وأضوائها المشرقات والأنوار والظلمات ثم انتقلنا إلى الرياض النضرات والمزارع الخضرات والأزهار الجميلات والأثمار النضرات، ثم انتقلنا إلى فلك في البحر جاريات ونظرة سامية إلى السماوات وابتهاج بحفظها وهي سائرات.

فهذا معرض تجلت فيه صور جميع المواليد الثلاث والإنسان والنبات والحيوان، فالحيوان مما سخر لنا في الأرض.

ففي هذه السورة ذكرت المواليد مرتين: مرة في أولها، ومرة في أواخرها، حثاً على النظر في الموجودات، وتنبيهاً أن الحرب والقتال ممهد لدرس العلوم، فطرد العدو من البلاد وحفظ الثغور وإقامة الحدود سبيل لإقامة الأمن وحفظ البلاد من الاضطراب. هنالك يتفرغ العقلاء للنظر في هذه المبدعات والتحلي بهذه المكرمات.

وإني أحمد الله عز وجل إذ جعل أول حياتي في الحقول فدرستها درساً سطحياً قبل أن أعرف تفسير القرآن، وعجبت من بديع الإتقان وصنع الرحمن، ولما اطلعت على العلوم الحديثة ودرست الفلسفة القديمة رأيت أن القرآن ينحو نحو الحكمة ودراستها، والحقول وفهمها، والجنات وعلمها، والأشجار وأنوارها، والأزهار ولقاحها، والثمرات ومنافعها، والعيون وجريانها.

فلتكن الحقول درس المسلمين، ولتكن السماوات منار المتعلمين ودرس المفكرين، والشموس والكواكب محور تعليم المتعلمين ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[الصافات: ٦١]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦].

بهجة العلم ومسامرة في قوله تعالى:

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾

إن الله عز وجل جعل المناسك مختلفات، ولكنها تصبح كأنها عادات عند الأمم، ودين الإسلام هو الهادي إلى خير المناسك. إن من ينظر ديانات الأمم وعاداتها يجد اختلافاً كاختلاف الألوان واللغات والأطعمة وهكذا. تذكر ما تقدم في أول سورة « طه » إذ ذكرت لك هناك قوماً من السودان عند ساحل الذهب بأفريقيا في مملكة « إشانتي » وكيف كان دينهم وعاداتهم من أشق العادات والديانات، وترقب ما يأتي في أول سورة « الفرقان » عند قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الآية: ١]، إذ ترى هناك قوماً على نهر « نيجر » قد أسلموا وتبدلت عاداتهم بالنظافة والصلاة والعدل بعد أكل الرمم والظلم وقبيح العادات. فالله يقول: أيها الناس أنتم مختلفون في أحوالكم، وهذا الدين هو الهدى فاتبعوه. فهل لك أن أحادثك بما جاء به المستر « ممسون » العالم الأمريكي الرحالة الشهير ذكره حين رجوعه من رحلة في أواسط أفريقيا، حيث قضى خمسة أعوام مقيماً بين القبائل هناك. وقد نشر بعض الأخبار عما شاهده في هذه الأقاليم، وإلى القارئ تعريب إحداها وهي خاصة بالمرأة.

الزواج

قال: مررت بقبائل عديدة من العبيد، منهم رحالة يتنقلون من جهة إلى أخرى كما يفعل العربان في البادية، ومنهم مقيم في قرى صغيرة يبنون بيوتها من القش والطين. والمرأة عند جميعهم تقوم بأعمال شاقة قلما يقدم عليها رجل، حتى إنني مررت بقبيلة لا عمل للرجل فيها إلا إعداد الطعام والقيام بالأعمال البسيطة، فالمرأة هي التي تخرج إلى الصيد والقنص، فتعود بالطيور والحيوانات إلى زوجها وتلقيها بين يديه ليعدها للأكل، بينما تستمر هي في العناء والتعب. أما إذا هوجمت القبيلة واعتدى عليها عدو ما فإن الرجال تهب حينذاك مع النساء للدفاع عن الوطن المشترك، فيتناول كل واحد قوسه ونباله. على أن النساء يتولين بأنفسهن القيادة. ورأيت قبيلة أخرى تعيش فيها المرأة بعكس ما ذكرت، فهي لا تعد إنساناً في نظر الرجال بل حيواناً داجناً ترسله الأرواح العالية، كما يسمون آلهتهم لخدمة الرجال، فإذا ما وضعت المرأة طفلاً يدخل الوالد عليها ويسأل من يحيط بها من النساء: ذكر أم أنثى؟ فإذا أجابوه: ذكر، هلل ورقص وتقدم من زوجته ووضع على عنقها قبلة، والقبلة في عرفهم أن يعض بأسنانه عنق زوجته، ثم يأخذها بيده ويوقفها ويخرج بها إلى الهواء الطلق، حيث ينادي جيرانه من أبناء القبيلة ويطلعهم على الخبر السار مفاخراً بزوجته. أما إذا أجابوه: أنثى، فإنه يغطي وجهه بيديه، ويلعن امرأته وساعة زواجه بها، ويخرج غاضباً ولا يعود إلى مواجهتها إلا بعد أن يكبر الطفل ويستطيع السير على قدميه. هذه هي العادة المرعية عندهم. ومن أفظع ما رأيت أن الأخ يتزوج بأخته، وأن الرجل الواحد كثيراً ما يتعاقد مع رجل آخر على أن يزوجه بناته جميعهن أياً كان عددهن. أما الزواج فيتم عند تلك القبيلة بالطريقة الآتية: يوجد على مقربة منهم في إحدى الغابات الكثيفة حيوان صغير نادر الوجود جداً يسمى « غوى » وهو من نوع الغزلان لا يزيد حجم جسمه على جسم الخروف الصغير، فيجب على الرجل الذي يرغب الزواج من إحدى الفتيات أن يقدم لها

هدية غزالاً من تلك الغزلان، فيخرج الرجل بعد الاتفاق مع والد الفتاة ولا يعود إلى القبيلة إلا حاملاً الحيوان المطلوب. أما إذا لم يوفق إلى صيده وحمله إلى عروسه فإنه لا يعود إلى القبيلة، بل يرحل عن تلك البقعة ويبحث عن مكان آخر يعيش فيه. وإذا ساعده الحظ وعاد بفريسته فإنه يقدمها إلى الفتاة التي تصبح بعد ذلك ملكاً له يفعل بها ما يشاء ويملك عليها حتى الموت والحياة. ومررت بقبيلة أخرى من عادة النساء فيها أن ينزعن عنهن الشعر سواء كان من الرأس أو من الجسم، فإذا نظرت إلى امرأة منهن لا تجد على جسمها كلّه من رأسها إلى قدمها شعرة واحدة. أما الرجل فإنه يترك شعره ينمو، وكثيراً ما يلجأ إلى دهن جسمه بمركب نباتي يستعمله القوم لإنماء الشعر، فترى الرجل وهو أشبه بالقرود كثير الشعر كثيفه والمرأة هناك تمتاز عن أخواتها بكبر شفتيها وضخامتها، فالمرأة الجميلة هي التي تكون شفتاها أضخم من شفتي غيرها من نساء القبيلة، فتراها والحالة هذه تستعمل طرقاً غريبة وتستنبط الحيل لتضخيم شفتيها، كما يستعمل الرجل طرقاً أخرى لإنماء شعره. ومن أغرب ما رأيت قبيلة لا يطلب فيها رجل امرأة للزواج بل المرأة هي التي تختار زوجها وتطلبه من أمه، فإذا رضيت الأم تم العقد بين الفريقين، ولا رأي للرجل في ذلك، وإذا كان لا يرضى بالمرأة التي طلبته لزواجه فإن الزواج يعقد بالرغم منه وليس عليه إلا الطاعة العمياء. ورأيت أيضاً قبيلة من العار فيها أن تكون المرأة نحيلة الجسم، كما أنه من العار فيها أن يكون الرجل ضخم الجسم، بل يجب أن تكون المرأة ضخمة والرجل نحيلاً، والمرأة النحيلة الجسم لا تجد من يرضى بها زوجة، كما أن الرجل الضخم لا يجد من ترضى به زوجاً، ولله في خلقه شؤون.

هذه بعض ما يختلف الناس فيه من العادات والأديان، والله يقول: ﴿فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]. اهـ.

كيف كان مبدأ اشتغالي بالعلم

لقد ساقني لذكر هذا الموضوع تكرار الآيات القرآنية للعلوم الفلكية والطبيعية، فآثرت أن أذكر لك أيها الذكي ما شاقني إلى هذا وما أثر في النفس في أول حياتي لترى كيف أنعم الله عليك وساق لك العلم سهلاً شهياً حلواً جنياً، فأقول إيضاحاً لما رمزت إليه آنفاً ما يأتي:

لقد كتبت هذا الموضوع في أول كتاب «التاج المرصع» الذي نشر منذ ٢٠ سنة، فلأذكر هنا ما أذكره في النفس من تلك الأحوال فأقول:

كنت في أول أمري مجاوراً بالجامع الأزهر، ثم قامت الحوادث العرابية ودخل الإنجليز بلادنا فانقطعت ثلاث سنين عن العلم، وكنت في أثناء ذلك أزاول الأعمال الزراعية بيدي مع من يزرعون، وقد اعتراني مرض طويل في المعدة لازمني، وقد كان والدي في مرض أيضاً، وفوق ذلك كله كنت أفكر في هذه الدنيا، وأقول: يا ليت شعري ألها خالق؟. وهل الأنبياء كلموه؟ إني لا أصدق إلا إذا عرفت أنا بنفسي ولا أتكل على أحد. إن هذه الطرق الحديدية تجري عليها القطرات وليست من صنع المسلمين.

فيا ليت شعري ماذا يقول الفرنجة الذين صنعوها؟. هل لهذا العالم إله؟ أنا لا أصدق إلا إذا عرف عقلي. إن هذا العالم ليس فيه شيء من النظام. إنه مبعثر. إنه مختل معتل. إنني أرى هذه البقرات وهؤلاء الرجال والنساء وهذه الحبات من الذرة توضع في الأرض، وهذا الماء الجاري فيها

وهذه المحاريث التي تشق الأرض، كل ذلك غير متناسب ولا منتظم، فالمرأة واقفة والرجل كذلك، والمحراث ممتد مستطيل من الأرض إلى أعلى كأنه زاوية، والثوران رؤوسهما إلى الأمام، والرجال والنساء رؤوسهم إلى أعلى، والماء يجري على الأرض لا يرفع رأسه مثلهما. فهذه الدنيا مضطربة مرتبكة مختلة لا أرى فيها نظاماً ولا إحكاماً، وإذا فقد النظام والإحكام فلا إله خالق، إن هي إلا أحوال متغيرة وأمور مبعثرة ولدها الاتفاق وأظهرتها المصادفات.

فلما أحسست بهذه الخواطر رجعت إلى نفسي، وقلت: إن العلماء في الدين يقولون: إننا ننظر للعالم العلوي والسفلي، فهاأنا ذا نظرت فلم أجد إلا خللاً ولم أزدد إلا شكاً، فلم يبق عندي أمل إلا في أمر واحد وهو أن أوجه قلبي إلى من صنعني، فإن كان موجوداً أجابني، وهذا هو الأمر الذي أجعله نصب عيني، حينئذ شمرت عن ساعد الجد وأخذت أصوم بعض الأيام وأصلي بعض الليالي، فكنت أجد في ذلك لذة وسروراً وتوجهت إليه سائلاً بقلب محترق، ولكم قلت: يا خالق هذه الدنيا، أنا لم أخلق نفسي بل وجدت أني هكذا، وإني أوجه قلبي إلى ذلك الموجود الذي خلقني، وإذا كان خالقاً لي فهو عظيم وكبير ورحيم، وأن لي جسماً وروحاً، فلتتوجه الروح إليه ولتسأله أن أقف على الحقيقة.

يا الله أنت خلقتني فعلمني. أواه. ومن لي بأن أقف على هذا الوجود وسره فأكتب ما أقف عليه لمن بعدنا، حتى إذا وجد في الدنيا من احترق فؤاده لمعرفة هذه الدنيا رأى أمامه ما جربت من الأعمال وما قاسيت من الأحوال فيهتدي ولا يجد هذا العناء. وصرت أطلب ذلك في الحقول وعلى شطوط الأنهار. ولكم دعوت في الخلوات وناجيت في الصلوات في المنزل وعلى شطوط الأنهار. وتارة أحضر تفسير القرآن للجلالين وأقرأ تفسير الألفاظ الذي كتب هناك، فأقول: يا رب هذه الظواهر لم أقف على سرها، أما اللفظ ففهمته فأين عجائب الدنيا. وبينما أنا كذلك إذ وقع في يدي كتاب جاء فيه حديث «لقد أنزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الخ»، فقلت: هذا حسن، أمن هذا الباب كان دخول الأنبياء؟ فصرت أقف على شواطئ الأنهار وفي الحقول وأنظر إلى السحاب وأفكر فيه، وهذا ابتداء العجب. وتارة كنت أجلس على شاطئ نهر يسمى «أبا الأخضر» ومعي كتاب «الجلالين» وكتاب ابن عقيل في النحو وأطالع في هذا وفي هذا، وأقول: يا سبحان الله إن القوم حولي في الحقول لا يسمعون لابن عقيل ولا لغيره فكيف أقرأ هذه الأشياء ولا شأن لها في بلاد الفلاحين؟ ولكن كان الوجدان يسوقني والفكر يشوقني. وتارة أبحث على حشرات بين الأعشاب عسى أن أجد فيها ما يشم منه رائحة النظام والإحكام.

وأذكر أني مرة عثرت على حشرة صغيرة مستطيلة الشكل قد خطت عليها خطوط بيض ناصعات وأخرى حمر قانيات، وقد كان منظر الخطوط جميلاً بهياً وقد رسمت الخطوط بهيئة نظامية وإن لم أكن أعرف إذ ذاك شيئاً من الهندسة، فقلت: إن صانع هذا الكون قد جعل في هذه الحشرات نظاماً، فلأبحث عن النظام وعن الإحكام فعسى أن أوفق، وتذكرت ما كنت أسمعه من الأشياخ أن العلم كله أصله فارسي، لأن الأزهر إذ ذاك لم يكن كهيئته اليوم، وما كنت لأظن أن أحداً في الدنيا يعرف شيئاً من هذه الكائنات، وأن الذين عرفوها قد ماتوا أيام تدهور المسلمون، مع أن المدارس في

مصر كانت زاخرة بتلك العلوم وأوروبا مشحونة بها ، ولكن التلميذ يتبع ما يلقى إليه ، اتباع الولد لأمه ، والمسيحي للقسيس ، والمسلم للشيخ ، والولد لأبيه ، والناس جميعاً محبوسون فيما يعلمون يجهلون ما وراءه بل ينكرونه ، ثم أخذت أطالع تفسير القرآن كل يوم ربعاً ، وكان الجزء يتم في ثمانية أيام ، وكنت أحفظ التفسير عن ظهر قلب حفظاً عقلياً ظناً مني أن فهمه حرام كما يقال ، إلا بتوقيف من الشيخ ، ثم أخذت أدرس ذلك أشهراً قليلة وأنا أدعو الله ، فاستجاب الدعاء ووصلت إلى الأزهر ثانياً ، وزال خطر الانقطاع منه ، وأتممت العلوم التي كانت فيه على وجه التقريب ، ثم دخلت إلى مدرسة « دار العلوم » وكانت زاخرة بكل ما أريده ، ووجدت فيها كل ما كنت أصبو إليه وأنا في الحقول ، وكنت أتعجب أن يكون هذا في بلادنا وأنا عنه محجوب ، فوجدت أن النفوس الإنسانية قد بحثت وفكرت ، ولقد كنت أعتقد أن الدروس التي أقرؤها عبادات وأنها خير العبادات ، حتى فن الرسم فكنت أرسم في الدرس وأنا معتقد أنه عبادة ، لأنه مشحذ للذهن مقو للعلم معلم للنظام الذي كنت أبحث عنه في الحقل فلا أجده . كل ذلك بعد ما درست القرآن في الأزهر الشريف على جلة الشيوخ الكبار ، ثم صرت مدرساً في المدارس المصرية الابتدائية والتجهيزية والعالية وكذا الجامعة المصرية أيضاً في قليل من الزمن . وفي أثناء ذلك كنت أختلس من الوقت ما أقدر عليه وأؤلف كتباً ، فبلغت الرسائل والكتب ما يقرب من أربعين . ونشرت بين المسلمين وذلك لأني بعهدي الذي عاهدت الله عليه ، ولم يكن في شيء من ذلك مني تكلف ، بل كان الوجدان هو الذي يسوقني ، وهناك تجلت في النفس أحوال تدعو إلى النشر بين المسلمين لا محل لذكرها الآن .

وهاأنا ذا أكتب في هذا التفسير ما يفتح به علي . أقول : وإني الآن أحمد الله عز وجل إذ وصلت في التفسير إلى هذه السورة ، وما كان ذلك من الميسور ولا بعضه ، ولكن الله هو الذي أعانني وهو الذي سهل ذلك لي ، وإن أقصى ما أردته في هذه الحياة أن أتم هذا التفسير وأن ينشر ، وعند ذلك أعتقد أني أديت ما أعتقد أنه واجب علي ديناً ووجداناً ، وهناك هناك أشعر بإتمام المطلوب ، وأن ولوعي بنشر هذه الآراء كولوعي بمعرفتها ، فأنا اليوم كنفسي من قبل يوم أن كنت صغيراً ، هنالك الاهتمام بالتعلم ، وهنا الاهتمام بالنشر ، وهما في النفس سواء ، بل إني أجد القلب شديد الاهتمام بثانيهما أكثر منه بأولهما . وهاهو ذا أمانة في يديك أيها الذكي ، وستقرأ فيما كتبه الكاتبون من الأمة الإسلامية في الشرق والغرب فاجعل نصب عينيك هداية المسلمين ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

أمة الإسلام والعلوم

هذا هو الدين الإسلامي ، وهاهو ذا القرآن يذكر المواليد الثلاثة في سورة « الحجر » وما بعدها إلى هذه السورة نحو ست مرات ، منها مرتان في « النحل » ، وما بعدها إلى هنا . وهذه أوروبا المسيحية ، فإني لما قرأت اللغة الإنجليزية واطلعت فيها وفيما ترجم من لغات أخرى ألفيت العلوم هناك زاخرة ، وألفيت صلاتهم ليس فيها شيء إلا ما يقرب من قولهم : ربنا آتنا خبزنا يوماً بيوم الخ ، ووجدت أمة الإسلام هذا شأنها ودينها غني بالمباحث في العالم كله وهي غافلة نائمة . ومن عجب أن المسلم لم يدعه إلى العلوم كلها القرآن فحسب ، بل ترى أنه في صلاته يقرأ كل صباح ومساء : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، والحمد هنا على التربية العامة للعالم كله ويكون الحمد على مقدار ما عرف

الإنسان من النعم، ولا معرفة للنعم إلا بالعلم. وترى المسلم في ركوعه يقول مخاطباً لربه: « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين »، فكيف يقرأ السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وهو يجهلها؟ وربما مات المسلم وهو لا يدري ما عصبه ولا ما هي وظيفته. والأقرب من ذلك قول المسلم في السجود: « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »، فكيف يعرف أنه أحسن الخالقين وهو يجهل تشريح العين وطبقاتها السبع ورطوباتها الثلاث؟ ويجهل طبلات الأذن وما فيها من العجائب.

أما العامة فهم مشغولون فكيف ينام الخاصة. وكيف ينام الأذكياء؟. وكيف تكون صلاة المسلم حائلة له على علم التشريح وعلى علم وظائف الأعضاء وعلى علم الحس والمحسوس وهو لا يحس بهذا كله؟. أنا لا أقول: إن الجهل بهذا يخرج عن الدين. كلا، فإن رحمة الله واسعة وليست تسع المسلم وحده بل تسع جميع الناس والحيوان وكل مخلوق، ولكن المقام مقام ارتقاء العقول والشعوب بقدر الإمكان. يقول المسلم عند الرفع من السجود: « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد »، وهذا هو كل العلوم، فالعالم كله ليس شيئاً سوى هذه الأربعة، فهذا حث على تعليم هذه الدنيا.

إن الدين الإسلامي دين حكمة وشريعة. دين يأمر بجميع العلوم. وهاأنا ذا أديت ما علي من النصح وتركت الأمر لمن بعدنا، وسنفارق الدنيا وسيقوم بهذا رجال ذوو عقول كبيرة ونفوذ وشوكة بين المسلمين وسيقلبون نظام الدنيا ويملؤونها حكماً وعدلاً ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨].

فصل: في ضرب المثل بالذباب والأصنام

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بين لكم حال مستغربة أو قصة رائقة ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ لبيانه وأنتم متفكرون فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ لا يقدرون على خلقه مع صغره وضعفه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: لخلقه، وإذا كانت هذه الأصنام تعجز مع اجتماعها عن خلق أضعف المخلوقات فكيف تعبد؟ وهل يعبد إلا الخالق؟ ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ من الطيب الذي كان العرب يضعونه على الأصنام أو الطعام الذي يضعونه بين يدي الأصنام فيقع الذباب عليه فيأكل منه ويسلبه ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يستنقذوا ما يختطفه من طيبها ومن الطعام الذي بين أيديها، فهي لم تعجز عن خلق الذباب فحسب بل الذباب سطا عليها فسلب ما تجملت به، فعجزت عن دفع أضعف مخلوق ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذباب والأصنام، فالذباب طالب لما سلب من الطيب الذي على الصنم، والمطلوب هو الصنم للاستلاب منه وهو عاجز ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ إذ أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب الذي هو أضعف الخلق، ونظير هذا قول الشاعر:

فلو أني بليت بهاشمي　　خؤولته بنو عبد المدان
لهان عليّ ما ألقى ولكن　　تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق كل ممكن ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء، أما الأصنام فإنها لا تقدر على خلق أضعف الأشياء، وهي من الذلة بحيث يغلبها أضعف المخلوقات، فلا قوة لها

إن الله قوي عزيز فلم يكن لمخلوق أن يكلمه، وكيف يتسنى للمخلوق التكلم مع الخالق عظيم القوة رفيع الجانب إلا إذا تحلى بالفضائل وتناهى في الكمالات، فهناك يستعد للأخذ عنه والتلقي منه كالملائكة والأنبياء، فالأولون رسل للآخرين لأن العلم لله وهو منزه عن المادة وهو يلقيه إلى الملائكة والملائكة يوصلونه إلى الناس بإذن الله تعالى. فهذا تقرير لقدر الله وعظمته وأن الكفار ما قدروه حق قدره، لذلك قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ليدعوا سائر الناس إلى الحق والاستقامة والارتقاء، وهؤلاء يقتدي بهم الناس ليخرجوا من الجهالة إلى أعلى الدرجات في العلم لا هذه الأصنام التي زعمتم أنها شافعة لهم عند الله. فالأصنام حجرية والملائكة أجسام نورانية أقرب إلى الله من أكثر البشر، وهم يعلمون الأنبياء الذين هم صفوة الخلق، وبهذه الوسيلة ينشر الدين وهناك تكون الشفاعة بعد انتهاج خطة العلم، فأين الثريا وأين الثرى وأين الأجسام الكثيفة من الأرواح الشريفة؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ يدرك سائر الأشياء ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما قدموا ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وما خلفوا وما عملوا وما هم عاملون ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ في الآخرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ ﴾ أي: صلوا ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ وحدوه وأخلصوا له ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ صلوا الأرحام، وتحلوا بمكارم الأخلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي: من أجله أعداء دينه ممن يسطون على المؤمنين من الأمم ومن الشهوات الكامنة في النفوس والجهالة التي تحصر الدين فيما لا يؤدي إلى سعادة المؤمنين ﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ أي: استفراغ الطاقة فيه. قال ابن عباس: لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد. وقال أكثر المفسرين: أن يكون بنية صادقة خالصة ولتكون كلمة الله هي العليا، واستدلوا بحديث الصحيحين: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

ولما كان جهاد النفس أحد الجهادين بل هو الجهاد الأكبر، لأنه لا جهاد لعدو ممن لم يتصف بصفة الشجاعة والشهامة وهذه لا تكون إلا بأخلاق راقية، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته ولنصرته ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي: ضيق ففتح باب التوبة لمن أذنب برد المظالم للمظلومين والاستغفار، ورخص في المضائق لهم وشرع الكفارات والديات في حقوق العباد إن الله وسع دينكم توسعة، ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وإنما كان أبانا لأنه أبو نبينا صلى الله عليه وسلم، والنبي أب لأمته لأنه أحياهم حياة روحية ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل القرآن في أيامه ﴿ وَفِى هَٰذَا ﴾ القرآن لأنه جاء فيه قول إبراهيم: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، فهذه التسمية التي ذكرها من قبل جاءت في نفس القرآن بسبب تسميته قديماً، وقوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ بأنه قد بلغكم ﴿ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ الخ، وما بينهما اعتراض. وقد تقدم في سورة «البقرة» أن ذلك يلزم المسلمين أن يكونوا أمة أرقى الأمم أخلاقاً ومعارف وعلوماً وحكمة وعدلاً ونظاماً حتى يكونوا شهداء على الناس، والشاهد عالم بما عند المشهود عليه مطلع على أحواله حتى يفصح عن شهادته ويقدمها.

وهذه الأمة الإسلامية قد أخذت دوراً مهماً من تلك الشهادة وسيرجع لها دورها أوفر مما كان ويقوم فيها حكماء وعلماء يدرسون الأمم ويعرفون دخائلها ويكونون مصلحين لما اعوج من أخلاقها سواء دخلت تلك الأمم الإسلام أم لا ، وشهادتهم عند الله يوم القيامة يسبقها العلم في الدنيا بالمشهود عليه والعلم لا بد أن يكون عن حقيقة ، فنحن شهداء على الأمم والنبي شهيد علينا ، ليكون شهيداً على الأمم طبعاً ، والله شهيد على النبي وعلينا وعلى الأمم . فالله شهيد والنبي شهيد ونحن شهداء . فانظر إلى هذه الصفة العجيبة . وصف الله في القرآن أنه شهيد ، فالله شهيد على ما يفعل جميع الناس مطلع عليهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم شهيد على أفعالنا ، ونحن على أفعال الأمم . هذا هو الذي ينتج من جهاد المسلمين فهم يجاهدون جهاداً علمياً وجهاداً عملياً وجهاداً خلقياً ليكونوا متخلقين بأخلاق الله ، أي مرشدين للأمم نافعين للعباد ليرشدوهم إذا رأوا منهم تقصيراً كالأنبياء للأمم وكما يفعل الله مع الأنبياء .

ولقد كان المسلمون فيما مضى سبب انتشار العلوم العقلية في الأمم وهم السبب في إسقاط هيبة وسلطان رؤساء الدين على الأمم حتى أذلوهم ، فلهذا نشطت المدنية ، فهذا مما جاء من لوازم الشهادة لأن الشهادة عن علم . ولما علم المسلمون سابقاً أحوال الأمم في دينها أخذوا يذكرون لهم بطلان تقاليدهم فزال كثير منها ، وعسى أن يكون في الأمة بعد حين أمم أعلى من معاصريها ، فيكون درسهم لأحوال تلك الأمم ونقدهم لعقائدها ونظاماتها ومعاملاتها مع بعضها بمثابة تحمل الشهادة الذي يسبق أداؤها عادة ، وبهذا ينمو في تلك الأمم شرف المقاصد وجلال الأعمال .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لما خصكم به من أنواع الفضل والشرف ، فمن حق من أشرف على قوم أن يكون خيرهم ، وأنتم جعلكم الله أشرف الأمم فليس من اللائق أن تكون أوروبا المسيحية هي المشرفة على العالم الإنساني ، كلا بل يجب أن تكون الأمم الإسلامية في الأرض هي التي تشرف على العالم الإنساني بالحكمة والعلم والأخلاق والعناية بالأمم وتكميلها وإرشادها وإسعادها والوصاية عليها ، فإن الرسول شفيق بأمته التي هو شهيد عليها ، فلتكن أمته التي هي شهيدة على الناس ذات علم وشفقة على العالم الإنساني تعلمه ، وتحمي الأمم المظلومة ، سواء أكانت على دينها أم على غير دينها ، لأن رسولنا شهيد علينا وهو بنا شفيق رحيم ، فلنكن نحن شهداء على الناس ونحن لهم مصلحون معلمون مرقون مهذبون أكثر مما فعل آباؤنا الأولون . ولما كان ذلك قد يكون فيه ريب فيقال : كيف نكون شهداء على الناس وقد مر على المسلمين زمان ضعفت فيه شوكتهم ؟ ذكر ما يزيل ذلك الشك فقال : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ وثقوا به في مجامع أموركم ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ناصركم ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ فلا مثل له في الولاية والنصر بل لا مولى ولا ناصر سواه ، وفي ذكر إبراهيم في هذا المقام وأنه سمانا المسلمين ، وأنا نكون شهداء على الناس ، تذكير بما جاء في سورة « البقرة » إذ جاء فيها : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة : ١٤٣] ، وإذا قرأت ما كتبناه هناك علمت كيف كان عليه الصلاة والسلام مشغوفاً بالعلوم الفلكية والطبيعية ، ففي ذكر إبراهيم هنا إشعار بذلك ، فهو سمانا مسلمين وهو نفسه كان مغرماً بالعلوم الطبيعية والفلكية ، فإذا سرنا على منواله سعدت بنا الأمم وكنا شهداء عليها . انظره في سورة « البقرة » .

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ الخ

ربما يظن المسلمون أن هذا المثل للكفار وحدهم، وأن الله يقول لهم: أنتم عبدتم الأصنام والأصنام في غاية الضعف، وأحقر مخلوقاتي كالذباب سلب منها طيبها وطعامها، والصنم لا يقدر على دفعها عنه، وعلى ذلك أنتم تعبدون أضعف شيء، فليس بقادر على أن يخلق أضعف مخلوق، بل أضعف خلقي يسلبه وهو لا حراك له بل لا يحس ولا يعقل. يقرأ المسلم هذه الآية ويظن أنه خرج منها لا له ولا عليه. كلا إن المسلم واقع في شرك هذه الآية مخاطب بها كما خوطب الكافر بالله، يقول الله: هذا الذباب أضعف مخلوقاتي وقد اختطف من الأصنام طيبها ومآكلها وهي ضعيفة، والعاقل يفكر فيجد هذا المثل فتح باب علم الحيوان، فتح باب الحكمة. ألم تر كيف كان الذباب مسلطاً علينا كما هو مسلط على الأصنام، أليس الذباب يسلبنا بعض ما نملك كما يفعل بالأصنام؟ ألسنا نحن ضعافاً أمام هذا الذباب؟ أليس هذا الذباب إذا أحس فينا بقذر في أعيننا أو رأى رطوبة في منازلنا أو طعاماً بين أيدينا انقض على أعيننا فوضع فيها بيضه فأفرخ البيض دوداً والدود يعمي العيون أو يضعفها؟ أليس الذباب ينقض على طعامنا فيضع فيه بيضه فيكون أذى للآكلين؟ وفيه مادة سمية من ذلك الذباب لأن الله خلقه من المواد القذرة التي تراكمت في المدن ليصلح الهواء. أليس ذلك داعياً لدراسة علم الذباب وعلم الحشرات وعلم الحيوان لنعرف ما فيه من المضار والمنافع لنحترس من الضار ونأخذ النافع، إن الله لم يذكر هذا المثل اعتباطاً بل ضربه لتعليم المسلمين.

إن القرآن يقرأ لنا الآن ونحن نسمعه فلسنا مشركين بالله كلا، ولكنا جاهلون بنعمته والجاهل بالشيء محروم منه مبعد عنه، وأوروبا سبقتنا بهذه العلوم فسلطها الله علينا فلندرس تلك العلوم.

درس من كتاب إنجليزي مترجم عن الفرنسية على الذباب

هذا هو الدرس الذي يلقيه المعلمون في العالم الغربي على تلاميذهم، وبعض المسلمين لاهون ساهون نائمون لا يعلمون أن ديننا يأمرنا بدرس هذه المواليد، من كتاب «العلوم الطبيعية» تأليف «بول بيرت»، المطبوع سنة ١٨٩٠م. يشرع الأستاذ معلماً لتلاميذه صفحة ٩ من الكتاب وما بعدها، خاطب الأستاذ تلميذاً قائلاً له: أي فرق بين الذبابة والحصان؟ فأجابه: الحصان كبير والذبابة صغيرة، فقال الأستاذ: حسن، ولكن ليس المدار على الحجم صغراً وكبراً، فقد نرى الحصان صغيراً والذباب كبيراً عند الاستعانة بالمناظير المكبرة وتسليطها على الذباب فيرى أنه أكبر من الحصان وأمثاله، فأجاب تلميذ آخر: كلا إن الذبابة لها جناحان والحصان لا جناح له؟ فقال الأستاذ: لو قطع الجناحان والذبابة حية أفليس الحصان إذن كالذبابة؟ فما الفرق؟ فقال تلميذ آخر: كلا بل الذباب لا شعر له والحصان له شعر، فقال الأستاذ: أواثق أنت بما تقول؟ أمسك بالذبابة وانظر إليها بهذه الزجاجة، انظر الشعر عليها فلها شعر كالحصان، فقال آخر: إن الذبابة لها ستة أرجل والحصان له أربع أرجل، فقال الأستاذ: هذه ملاحظة مهمة، ولكن أليس يجوز أن تكون الذبابة قد فقدت رجلين كما فقدت الجناحين، فأي فرق إذن بينها وبين الحصان؟ حينئذ جاء دور الأستاذ فقال: اضغطوا على الذبابة، فضغطوا عليها فلم يبق إلا الجلد والأرجل والجناحان، قال لهم: فأما الحصان فإنه لو وقع البيت عليه فتهشم فإنا نجد أن الحصان فيه مواد باقية صلبة فأما الذبابة فلم نجد من هذه شيئاً فيها، وهذه المواد الصلبة هي العظام، إذن

يكون الحصان وأمثاله حيوانات ذات عظام ولها هيكل عظمي يحفظ البدن، ولها مادة ملونة وهو الدم، ذلك لأن الذبابة لم نجد فيها تلك المادة الملونة، فتكون النتيجة هكذا: إما أن تكون الحيوانات فقرية لها هيكل عظمي، وإما أن لا تكون كذلك، فذات العظام يلاحظ أن لها دماً والتي لا عظام لها لا دم لها، ومن هذا الدرس السهل قسم جميع الحيوانات، أي: من تشريح الذبابة وتشريح الحصان، واستمر الأستاذ يلقي الدروس حتى شرح الحيوانات كلها، ولألخص لك الكتاب كله في موجز من اللفظ لترى عجائب القرآن ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦] من الجاهلين الذين لا استعداد عنهم ﴿ وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦] من العلماء والمفكرين.

أقسام الحيوان أربعة

القسم الأول: الحيوانات الفقرية وهي التي ذكرناها الآن وهذه تشمل:

(١) الإنسان. (٢) وذوات الأربع. (٣) والطيور. (٤) والزواحف. (٥) والسمك.

فهذه الخمس هي أقسام الحيوان الذي اشتمل على هيكل عظمي وفقرات ودم؛ فالإنسان والبهائم من الخيل والبغال والحمير، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والسباع كالذئب والكلب، والطيور الجارحة وغير الجارحة، والزواحف كالحيات والعقارب، والسمك في البحر وهو معروف. كل هذه لها عظام ودم ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة.

القسم الثاني: الحيوانات الحلقية أي التي تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمات يكون منها جسم هذا الحيوان. وهذا القسم أنواع وهي:

(١) الحشرات. (٢) والعناكب. (٣) وذوات الأرجل الكثيرة. (٤) والحيوانات القشرية. (٥) والدود.

أما الحشرات فهي ما كانت لها ستة أرجل ولها: إما جناحان كالذباب الذي هو أصل الدرس، وإما أربعة أجنحة كأبي دقيق الذي يعيش في بلادنا المصرية، ويكون منه الدود الذي يفسد شجر القطن، وهذا سلبنا قطننا فلذلك يدرسه الناس الآن في مصر بعض الدراسة، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الإفرنجي «دراكوفلاي». وأما العناكب جمع عنكبوت فهي ما لها ثمانية أرجل ضعف ما لذوات الأربع، وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهي ما قد تصل أرجلها إلى عشرين زوجاً من كل ناحية عشرون رجلاً، ويقال لها في بلادنا المصرية «أم أربعة وأربعين». وأما الحيوانات القشرية فهي تشمل قرآض الخشب وحيواناً يسمى «كرايفش» باللسان الإفرنجي وهو مركب من حلقات مدمجة قوية، وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق وهذان رؤوسهما متصلة بجسمهما، وليس لهما أرجل وليس جلدهما صلباً قشرياً كجلد «كرايفش».

القسم الثالث: من الحيوانات الهلامية التي جسمها أشبه بالفالوذج الذي هو نوع من الأطعمة، ومن هذا حيوان يسمى القوقعة، وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام. وقد أعطي وقاية من المحار تقيه العاديات والمهلكات وهي محدة كمنزل تسكن فيه. ومنه حيوان يسمى باللسان الإفرنجي «ميوزل» وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لا عظم له، فليس من ذوات الفقرات، ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات، فهو إذن حيوان هلامي.


شكل٥
صورة السمك النجمي

القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية ، وهذه منها ما هو على شواطئ البحار المسمى سمك النجم ، ومنها ما هو في البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة ، ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية وقد تتكون منها جزائر ، فترى هذين النوعين يختصان بأمرين : الأول : أن لهما فماً مركزياً يشاهد في الوسط . الثاني : أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أو المدخل ، ثم إن مشاهدة صورتها تدخل في النفس عجباً ، فإن سمك النجم تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها ، وتلك الفروع كأنها أصابع الإنسان وذلك الوسط كالكف وكل إصبع من هذه الأصابع محلى بأهداب تغطيه ، وفي أصول تلك الأهداب تشاهد نقطاً مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع ، وهذه صورته (شكل ٥) .


شكل ٦
بوليبا

وهناك أيضاً الحيوان المسمى باللسان الإفرنجي « بوليبا » ، فإنك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعاً كما في سمك النجم بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لا حصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جميلات ذات شعاع جميل ، وهذه صورته (شكل ٦) .


(شكل ٧)
صورة المرجان

أما الحيوانات التي تتكون كهيئة مستعمرات وتكون في وسط البحار فهي حيوانات جسمها مكون من كتلة هلامية ليس لها أعضاء متميزة ، وتفرز رواسب حجرية تأخذ شكل نباتات ، ولذا تسمى الحيوانات النباتية ، وتسكن قاع البحار وأشكالها مختلفة ، وبعضها يستعمل في الصنائع وذلك كالمرجان والإسفنج ، فالمرجان حيوان معروف يستعمل حلياً وتفرزه حيوانات أخطبوطية لتسكن فيه ، وهو يشبه شجرة عديمة الأوراق ، وهو كثير الوجود في البحر الأبيض والأحمر مثبتاً على الصخور وتكون الحيوانات على المرجان كأزهار ، وهذا هو الذي حمل العلماء قديماً أن يعتبروه نباتاً زمناً طويلاً وهذه صورته (شكل ٧) .

هذه أقسام الحيوانات التي خلقها الله وبثها في الأرض وجعلها درساً لنا ، وقد نقلت لك عن الفيلسوف « اسبنسر » أنها تبلغ نحو مليونين ، أعني ألفي ألف ، وهذا العدد هو المقسم على هذه الأنواع ، فمنه ذوات الهيكل العظمي وهي الحيوانات الفقرية ولها دم وهي : الإنسان وذوات الأربع والطيور والزواحف والأسماك ، ومنه ذوات الحلقات وهي : الحشرات والعناكب وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود ، ومنه الحيوان الهلامي كالقواقع التي على شواطئ البحار ، ومنه الحيوان الشعاعي الذي ترى أطرافه لامعة حتى سمي سمك النجم ، فهذا مجمل هذه المخلوقات .

انظر كيف ذكر الله هذا المثل ونادى الناس جميعاً والمسلمون من الناس طبعاً ، فنحن من الناس وإذن هذا النداء لنا . يقول الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾[الحج : ٧٣] يا عجباً ! هل الله يقول : استمعوا له ، إلا إذا كان المثل عجيباً وفيه علم كثير ، قال الله في هذا المثل : ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ ،

وقال في القرآن: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾[الأعراف: ١٩٦]، فكأن الله أمرنا باستماع القرآن كله وأمرنا باستماع هذا المثل على الخصوص، ثم أورد هذا المثل. نحن نسمع القرآن لنقرأ فيه علماً، وهانحن أولاء قد سمعناه وسمعه آباؤنا فكونوا ممالك عظيمة وهي الدولة العباسية والأموية وغيرهما قديماً، وهكذا الدولة الأفغانية والفارسية حديثاً، وعسى أن يلحق بهما بقية الإسلام، ومن استماع القرآن كان علم الفقه الذي تشعبت مذاهبه، فإذا استمعنا لهذا المثل فماذا نصنع به؟ ندرس الحشرات ودرس الحشرات يستلزم دراسة الحيوان كله ودراسة الحيوان فيها سر الربوبية وعجائبها وحكمها والمواهب التي أسديت إليها وبها ارتقاء العقول وبها ارتقاء الدولة.

كل ذلك من دراسة الذباب، الذباب الذي ألف كتاب الحيوان كله على التمثيل به، والله مثل به ليقول: انظروا خلقي، فكأنه لما ذكر المواليد مراراً وكررها في هذه السورة مرتين أتى هنا للحيوان بمثال، وهو الذباب النشط ذو الأرجل الستة والجناحين.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا ﴾ [الآية: ٧٣] أيضاً

كيف يسلب الذباب منا ومن الأصنام طعامنا كالعسل وغيره وهو صغير؟ وكيف ترى عيناه تلك الدقائق فتخطفها؟ لأن الخطف لا يكون إلا بعد العلم وعلمها بنظرها، فهل تقدر على ذلك النظر؟ ثم إن الذبابة شديدة الحرص فمن أين أقبلنا عليها لنذبها عنا طارت حالاً، فكيف كان ذلك مع الإنسان منا لا يرى إلا ما أمامه؟ وستأتي الإجابة على هذا السؤال قريباً هنا، وذكر الذبابة هنا وهي من نوع الحشرات مقدمة لذكر أمثالها، كالنمل الذي سيأتي ذكره قريباً، والعنكبوت الذي سيذكر بعده، فالنحل والذباب والنمل المذكورة في القرآن من الحشرات وقد عرفتها، والعنكبوت نوع آخر ليس من الحشرات بل هو مستقل، ولذلك ذكر بعد ذكرها مستقلاً.

أما بقية الحيوان فأكثرها مذكور في القرآن إجمالاً، وما لم يذكر فهو في قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٨]. ثم أمرنا باقتفاء آثار العلماء لنتعلم الأشياء فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦].

روضات الجنات ومناهج الحكمة في قوله تعالى أيضاً:

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾

اللهم أنت المحمود على نعمة العلم والحكمة التي عشقناها وتمتعنا بها في هذه الأرض إذ هي رياض غناء لأولي الألباب، أينما أدرنا العين ووجهنا وجوهنا نرى إحكاماً وهندسة وبهجة وجمالاً. اللهم لست أقول هذا تقليداً ولا تزويقاً، ولكني أقول الآن والفؤاد مفعم بالبهجة والحكمة. يرى أكثر الناس الجمال في الورد والزهر والثمر وأنواع الحدائق الغناء ولا يتعدى نظرهم الجمال الظاهري، وهانحن أولاء نراه في كل مكان، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١١٥]، نراه في المواضع التي يأنف الإنسان أن ينظر إليها وفي الذباب والحشرات الطائرات. تلك الحشرات التي خلقتها لتطهير الأرض من الرطوبات وأنواع العفونات حتى لا يعم الطاعون والوباء والأمراض القتالة

فخلقت تلك الحشرات وجعلتها ملطفة للجوّ مبعدة للمرض ، إذ تستحيل تلك المواد العفنة إلى أجسامها الحية فينقلب الضرر نفعاً والموت حياة ، ولكن جاء في الحديث : « كل أم يتبعها ولدها » ، فهذه العفونات والرطوبات مع أنها استحالت إلى أجسام تلك الحشرات حفظت ما كانت عليه من الأضرار إذ لا معطل في الوجود ، فتحول ضررها العام ووباؤها في تلك الحشرات إلى ما فطرت عليه تلك الحشرات من أنها تنقل المرض من زيد إلى عمرو ، فتعمي الأبصار وتورث الوباء والطاعون وأنواع الأمراض المختلفة الأخرى . ذلك شأن الحشرات كالذباب المذكور في الآية ، فهي نعمة تدفع الأذى ولكنها تكون رسلاً بين المريض والصحيح وسفراء بين الأحياء ، فتنقل الأمراض وتعطي العدوى وتعممها . هذه وظيفة الحشرات فإذا كانت هي مخلوقات من القاذورات متغذية بها عاكفة عليها فهي صالحة لحفظ خواصها وهي الإهلاك والإبادة ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، وهي من عناصر اختصت بالإهلاك وإحداث المرض فهي تكون قيمة على ما خلقت منه قائمة بشأنه مساعدة لإبادة الأحياء فوق هذه الأرض ، وتشارك الحيات ونحوها الحشرات في أنها مخلوقة من القاذورات والرطوبات ، فهي تكون سامة إذا كانت أمكنتها قذرة ضارة ، وتكون غير سامة إذا كانت أمكنتها التي تعيش فيها غير قذرة ولا رطوبة فيها ، وهذا عجب فإنها إن تغذت بأصول نظيفة زال منها السم ، وإن تغذت بأغذية قذرة منتنة تضر بالصحة كان في جسمها السم وأضرت بالناس . إذن ليست كل حية سامة . فالسم نتيجة الأغذية ، إذن الأغذية هي التي تنتج النتائج التي تضر والتي تنفع . فلما كان الذباب كله ضاراً كان سببه أن غذاءه كله من العفونات والرطوبات كالحيات السامة لا غير .

بيان أوصاف الذباب والحشرات
وكيف كثرت وكيف سلط الله عليها مهلكاتها

الحشرات كلها لها ستة أرجل وأجنحة وأنبوبتان ممتدتان عند رأسها بها تتفاهم مع غيرها ، ولكل من هذه الحشرات رأس وبطن وصندوق ، وهي تبيض كما يبيض الطير ، ولكن الفرق بينهما أمور منها :

(١) أن الطير تحضن بيضها وتعتني بأطفالها . أما هذه الحشرات ومنها الذباب الذي نحن بصدد الكلام عليه منه ما يعتني ببيضه كالطيور وذلك كالنحل والنمل ، ومنها ما لا يعتني ببيضه بل يتركه ولا يعرف أين تفقس ذريته كالذباب والجراد . فهذان النوعان وأمثالهما يتركان بيضهما ولا يلزمان بحفظه بل تقوم بحفظه العناية الإلهية في البر والبحر .

(٢) ومن الفرق بين الطيور والحشرات أن الطيور يخرج جنينها من البيضة مباشرة تام الخلقة والأعضاء ، مثل ما نرى في الدجاج والحمام والعصافير ، فهذه تخرج ذريتها من البيضة تامة كما كانت آباؤها .

أما الحشرات كالزنابير والذباب والنحل والنمل فهي على غير هذا النمط . وذلك أنها تخرج من البيض أشبه بدود صغير جداً ، وهذا الدود يتنحى من جلده مرات متعددة ويكون ذا أطوار في خلقه ، ويأكل أكلاً بشراهة ، وينتهي ذلك بأن ينسج على نفسه نسجاً حريرياً قليلاً كأكثر الحشرات أو كثيراً كدود القز ، وتنام تلك الدودة مدة ثم تخترق تلك الكرة التي نسجتها على نفسها وتخرج حشرة تامة كأمها . هذه هي الحيوانات وهذه درجاتها في خلق ذريتها .

ادخار الحشرات وعدم ادخارها

وهنالك تخرج الذرية في الجو ومنها ذرية الذباب، فتأكل من هذه المائدة التي نصبها الله لها وهي المواد الرطبة كما قدمنا والعفونات في كل مكان. فالرزق لها موفر والغذاء حاضر لا يكلفها نصباً ولا مشقة. وليس للذباب عناية بخزن أوراقها ولا تحمل مؤنة لها ولا تفعل ما يفعله النحل والنمل، فهذان فطرهما الله على حب الادخار كالإنسان. ذلك أن الذبابة والجرادة والناموسة وأمثالها لا تعيش للعام المقبل فلم يضع الله في فطرتها الادخار. أما النحل والنمل والناموس فإنها تعيش للعام المقبل، فإنها إن سلمت من المهلكات لها الآكلات لأجسامها لم تسلم من برد الشتاء المهلك لأجسامها المريح لأهل الأرض من إيذائها وحملها الأمراض وتوزيعها على الناس ومساعدتها على إهلاك الأحياء على هذه الأرض. ثم إن الذباب والجراد والناموس وأمثالها قد امتلأت الأرض بأرزاقها فلا حاجة للادخار. فهذان سببان من أسباب عدم ادخار الذباب وأمثاله للقوت.

تباركت يا الله. إنك لم تعط إلا بقدر. أعطيت النمل غريزة الادخار ولم تعطها الذباب. فالإعطاء بحكمة والمنع بحكمة، ولكنك ملأت بهذه الحشرات البر والبحر والسهل والجبل ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

العنكبوت والطيور والنبات الحيواني

تباركت يا الله. أكثرت من الذباب وأمثاله من الحشرات وجعلته ملطفاً للرطوبات مقللاً لها، ثم إنك لم تذره يفسد في الأرض بما بقي في طبعه مما استمد من غذائه، بل خلقت الطيور وأنواع العنكبوت والنبات الحيواني، وأمرتهن أن يتغذين من هذه الحشرات الطائرات تخفيفاً للمرض وتقليلاً للألم. عجباً يا الله خلقت العنكبوت كما سيأتي شرحه قريباً عند قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾[النور: ٦٢] في سورة «الفرقان»، وأمرتها أن تنصب خيامها وتنسج نسيجها، وقلت لها: أيتها العنكبوت اصطادي من الذباب ما تشائين وكليه في بيوتك، إنك ذات صناعة، والذباب لا صناعة له ولا حيلة فكليه هنيئاً مريئاً، ولقد خلقت أيضاً النبات الحيواني المتقدم شرحه ورسم صوره المتعددة العجيبة في سورة «الرعد» عند قوله تعالى: ﴿ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ ﴾[الرعد: ١]، فهناك أنواع من النبات مرسومة مشروحة مبين في شرحها أنها لا تخلق إلا في المستنقعات والبرك والأماكن القذرة، وقد جعلت مهيأة لصيد الذباب، ذلك الذباب الطائر القوي الذي أعطى الله كل واحد منه أربعة آلاف عين صغيرة، كل عين منها مستقلة، بحيث لو نظرها الإنسان بالمنظار المعظم لرآها كهيئة عيون الغربال كثيرة تبلغ هذه الآلاف، فالعين الواحدة مقسمة عيوناً على هذا النمط.

فهذه الحشرة مع قوتها وعيونها وأجنحتها يصطادها العنكبوت التي لا أجنحة لها، والنبات الصياد الذي لا حول له ولا قوة، وإنما أمده الله بالعسل في داخله وفتح فيه نوافذ أشبه بالمقاصير والقصور، وجعلها مسواة مهندمة مصقولة تنزلق الأرجل إذا لامستها، وفيها من الداخل مواد سامة حتى إذا جاءت الذبابة وقد رأت ظواهر النبات جميلة الأشكال حسنة بهية ذات رائحة جميلة تقدمت إليها ودخلت في دهاليزها لتشرب عسلها الذي رأت منه بعضه على أبواب تلك الحجرات، فلا تمشي

بعض خطوات حتى تنزلق أرجلها وتغمس في سائل يغمر جسمها، فيقتنصها النبات ويهشمها ويهضمها بالمادة الهاضمة التي وجدوها فيه تشبه المادة الهاضمة في معدة الإنسان.

فيا عجباً. نبات ثابت في مكانه يصطاد ذباباً سميعاً بصيراً طائراً في الجو، وعنكبوت لا جناح له جعل طعامه من الذباب الطائر رحمة بالبلاد والعباد. هذه قصة الذباب المذكور في الآية إذ يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣] أما الطالب فهو الذباب، وأما ضعفه فهو مع ما أعطي من الأعين والقوة والأجنحة ووفرة الرزق في الدنيا ورغد العيش قد التقطه الطير وأكله العنكبوت التي بيتها أوهن البيوت. فالعنكبوت ذات الثمانية الأرجل أكلت الذباب ذا الستة الأرجل والأجنحة، فهو أخف حركة من العنكبوت، ومع ذلك صار طعاماً لها. وهكذا النبات الحيواني الذي جعله الله خاصاً بأكل الحشرات لتنظيف الأرض من الذباب وأمثاله، الذباب ضعيف لأن الذي بيته أوهن البيوت اصطاده والنبات الذي لا قوة له اصطاده، وأي ضعف بعد ذلك؟ فهذا الذباب مع هذا الضعف كله غلب الأصنام فأكل ما عليها من الطيب وذلك بحدة بصره ونفوذه. فالله يقول: من ذا يقدر أن يخلق هذا الذباب الضعيف؟ ومن ذا الذي يقدر أن يحكم النظام فيجعل تلك الحشرات مخلوقة بقدر بحيث تكون لغاية وهي تقليل الرطوبات، ثم هو يصير طعاماً لغيره، ويكون بيضه بقدر وقد أعطي غريزة هو وأمثاله كالناموس والجراد أنه لا يضع البيض إلا في مكان يصلح لأن تعيش فيه ذريته متى فقست، فهو وإن لم يرب الذرية قد حرص عليها قبل وجودها فوضع البيض في الأماكن التي منها تغتذي بعد فقسها، فمن هذا الذي يقدر أن يعلم هذا كله؟ ويخلق هذه الخلائق ويعطيها آلاف العيون التي لا تدركها الأبصار وهي تدرك ما دق من المواد الصغار؟ فهل تخلقها هذه الأصنام التي لا سمع لها ولا بصر ولا أجنحة ولا حياة؟.

هذه يا الله عجائب الذباب الذي خلقته ونشرته في الأرض ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ بالأمراض منه ﴿ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ ﴾ بالعلم والمعرفة والدرس ﴿ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[الأنفال: ٤٢]. فالأول بتقصيره والثاني بتشميره وجده، والله هو السميع العليم.

خلقت يا الله هذا الذباب منذ خلقت الدنيا وأعطيته هذه القوة وزوقته بالأجنحة والأعين ولكن أكثر أهل الأرض ما كانوا يعلمون، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن العلوم والحكمة غافلون. ذلك أرسلت لهم أنبياء فعلموهم، وقالوا لهم: إلهكم إله واحد فانظروا في عجائب الخلق في البر والبحر، فسمع ذلك أقوام وضل آخرون، ويتوالي الزمان ضل أكثرهم. فماذا يفعل الكهنة ورجال الدين؟ نصبوا لهم الأصنام والمعابد وشرحوا لهم أوصاف تلك المعبودات وأعظموها لأنها أقرب لعقولهم وأدنى من متناولهم ولم يقدر أكثر الناس على فهم هذه العجائب التي ذكرناها في خلق الله، فترى الأصنام شاخصة في كل مكان في مصر في العراق في الهند في الصين. وسترى وصف آلهة الصين في أول سورة «الفرقان» وأنهم وضعوها فوق الجبال الشاهقة المرتفعة فوق سطح البحر ٥٠٠٠ درجة، والدرجات التي توصل إليها عددها ٧٠٠٠ قدم والذاهب إليها يحجها يجد نصباً وتعباً، فيحمله قوم إلى المعبد فوق الجبل، ذلك فعل الناس من قديم الزمان.

إن كهانهم لما رأوا قصور عقولهم مثلوا لهم القدرة الإلهية والدوام والثبات والحكمة والرفعة والعلو بأصنام هائلة صخرية ثابتة مصنوعة صنعاً متقناً مرتفعة فوق الجبال، يراها الابن كما يراها الأب جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، فيتحدث بها الأب ويلقي أحاديثه للابن لأنها ثابتة موطدة فوق الجبل، كما أن الله العلي ثابت لا يموت رفيع عليّ عظيم حكيم.

فهذه الأصنام وضعها الناس قديماً لتكون مثالاً لجلال الله وعظمته، أو مثالاً للنجوم الزاهرات كزحل والمشتري التي كانوا يعتبرونها آلهة عند كثير من الأمم وهي الكواكب السيارة التي تديرها الملائكة، والملائكة عباد الله المكرمون. هذه عبادة المتقدمين. هذه يا الله عبادة الأمم القديمة، وديننا لم يقل إن قوماً يعبدون الأصنام ولم يرسل لهم نبي قبل الإسلام يدخلون النار. كلا. بل هم يحاسبون على حسب اعتقادهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

هذه هي الأصنام وهذا سبب عبادتها، وهذا هو الذباب، وهذا المتقدم عند الكلام عليه سبب ضعفه ومع ضعفه غلب الأصنام وسرق ما عليها. إذن لتكن الأمم الحاضرة أطول باعاً وأرقى همة من الأمم السابقة. سبحانك اللهم فلتكن عبادة الأمم الحاضرة في الشرق والغرب لخالق الذباب المبدع العجيب الصنع الحكيم الفعل. فلئن عجز السابقون عن فهم هذا الوجود وجهلوا بدائع الإتقان في أصغر المخلوقات كالذباب لن يقصر باع الأمم الحاضرة عن معرفة عجائب الحكمة، فليرتقوا في العلم وليدخلوا حظائر الحكمة وليدرسوا كل شيء ومنه الحشرات والذباب الذي غلب الأصنام.

إن الأمم في مستقبل الزمان حين يطلع فجر الحكمة وتشرق شمس العلم في الأرض لن يقدروا أن يعبدوا الأصنام، بل هم يدرسون ما هو أعجب من الأصنام وذلك هو هذه الدنيا والمواليد الثلاثة التي رمز لها هنا بالذباب. إن هذه الحشرات وأمثالها لها شأن عظيم في العالم، لذلك خصها الله بالذكر ولم يقتصر على أنه قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. كلا. بل قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] راداً على المشركين إذ لم يعجبهم ذكر الذباب وذكر العنكبوت في القرآن. إن الله مهد بالإسلام للأمم دراسة العلوم، وأشار إلى أن العقول اليوم ستفقه هذا الوجود وتستبدل معرفة الصانع في الحيوان والحشرات بالأصنام والشيوخ والمقابر ومن يعش يره، والسلام.

اعتراض على المؤلف في مسألة أعين الذبابة التي تعد بالآلاف وذكر ما دار بينه وبين مدرسي المعارف

هاهنا لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه بعض الفضلاء قال: لقد ظهر هنا عجائب الذباب والعنكبوت، وأن الثاني يصطاد الأول الذي هو ضعيف، وأن الطيور والعنكبوت تطارد الذباب، وأن الأضعف طعمة للأقوى، وأن العيش الرغد للذباب ليس دالاً على رفعة القدر، بل عيشة النصب عند العنكبوت أكسبته شرفاً وجاهاً. وهاهنا سؤالان أبديهما: أولهما: إذا كانت العنكبوت نافعة بأكل الحشرات وكذلك الطيور إذن يجب المحافظة عليهما في الحقول والحدائق. فقلت: نعم، قال العلماء في عصرنا الحاضر: يجب على صاحب البستان وعلى الفلاح أن يحافظا على العنكبوت لأنها تأكل آلافاً من الحشرات فهي نعمة على الفلاح. وعلى الطير كذلك. ولقد تقدم هذا الثاني في سورة «يوسف»

وهناك صور الطيور الممنوع صيدها بمصر ، وهناك في سورة « طه » طيور أخرى وجدوها نافعة للزرع وجب حفظها . فقال : هذا عجب أن تكون العنكبوت مما تجب المحافظة عليها كأن الله سماها في القرآن مشيراً للمحافظة عليها . فقلت : إن هذه الحقائق غير منتشرة اليوم في بلاد الشرق انتشاراً تاماً ، فقال : كيف لا تكون منتشرة وهذه المعارف تدرس لصغار الطلبة . فقلت له : ولكنها تدرس بغير تشويق ، وإنّما يقرأ الأساتذة الدروس في أمثال هذا في التعليم الابتدائي والثانوي لمجرد المطالعة اللفظية والإعراب وتحليل الجمل وصرفها ، ويصدون التلاميذ عن معانيها لعلمهم أنهم لا يمتحنون فيها .

ومما كان يؤلمني أني وجدت رؤساء المدارس بمصر أيام اشتغالي بالتعليم فيها لا يأبهون لمثل هذه الأمور ، وقد كنت يوماً في بهو مدرسة « دار العلوم » وأنا واقف أمام دوحة صغيرة فيها نسيج عنكبوت ، وذلك النسيج واضح ، فجاء حين ذلك ناظر المدرسة فرأى مني التفاتاً إلى ذلك النسيج وهو بيت العنكبوت ، فقال : وماذا أعجبك منه . قلت : إن شكله محفوظ على حاله والأولى بقاؤه لينظر إليه التلاميذ فيعرفوا شكله للدراسة وتوجيه النظر . فقال : هذا أمر لا قيمة له ولولا أنه بعيد عن الأنظار لأزلته ، وما فائدة هذا ، وأي علم فيه أو حكمة ؟ هذا أمر لا قيمة له . فعجبت كل العجب وعرفت ما اشتهر عن أهل أوروبا أنهم إذا احتلوا أمة من أمم الشرق شرعوا يميتون النفوس المتعلمة فيلقون العلم إليهم قشوراً ولا يحببونهم فيه خيفة أن تنبعث النفوس إلى الحكمة فيفلتون من أيديهم .

اللهم إني أحمدك ، إنك ألهمتني أن أؤلف هذا التفسير حتى يكون نموذجاً تقرؤه الأمم الإسلامية التي حكم عليها بالاستعمار فلا تحرم مما يحببها في العلم على الوجه الصحيح ، فيكون ذلك سبيلاً لرقيهم واستقلالهم ، ويقرؤه الذين هم مستقلون في بلادهم فيزيدهم شوقاً إلى العلم والحكمة ويجدونه موافقاً لما يدرسون من علوم هذه الدنيا التي هي علوم القرآن الذي هو كلام الله ، والعالم فعله والفعل والقول متلازمان . فقال صاحبي : هذا هو السؤال الأول قد استوفيناه . السؤال الثاني إنك قلت : إن الذبابة لها أربعة آلاف عين ، فهل هذا القول تقبله العقول ؟ اللهم لا ، ومن ذا الذي يظن أن للذبابة ثلاثة عيون فضلاً عن ١٠ فضلاً عن الألف بل الآلاف ؟ إن هذا خارج عن العقول والمنطق ، فأي منطق هذا وأي عقل يقبله ؟ والله إن كتاب « ألف ليلة وليلة » وكتب الخرافات لم تجرؤ أن تقول مثل هذا القول ، بل كتب الخرافات لأصحابها عذر فيها ، فإن الناس لعلمهم أن صاحبها وضعها على سبيل الرواية لا يزدرون كلامه ، أما هنا فإن جملة مثل هذه يسمعها القارئ لهذا التفسير فينصرف قلبه ويقول : يظهر أن هذا المؤلف ينقل الكلام بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فما هو إلا أن يقرأ كتاباً إفرنجياً مثلاً فيعتقد أنه كتنزيل من حكيم حميد ، والإفرنج فيهم المخرفون كغيرهم . فإذا قلت لنا : إن الذبابة لها أربعة آلاف عين ، فمعناه أننا قوم لا عقول لنا . فقلت : أتم كلامك . قال : نعم . فقلت : أذكرك بما مضى في هذا التفسير وأن قطرة الماء فيها مئات الألوف من الحشرات وكل حشرة لها عينان وسمع ، فكيف وسعت هذا كله ؟ وأذكرك أيضاً بأن قطرة الماء تحتوي على ذرات بحيث تعد بعدد ٥ وعلى يمينه ١٨ صفراً .

وأذكرك بأن كل جسم من الأجسام فيه مسامّ ، وهذه المسام بينها فتحات عظيمة جداً بالنسبة للذرات المتلاصقة ، فهل تستبعد أن يكون للذبابة أربعة آلاف عين ، وماذا تقول إذا أخبرتك أن هناك

حشرة تعيش على العليق كبيرة الحجم تكون عيناها مشتملة على عيون صغيرة تبلغ ٢٧ ألف عين. فقال: هذا كله زيادة في الاستغراب وأن ما ذكرته لا يفيد إلا إمكان الحصول، وفرق بين الممكن حصوله وبين الموجود الحاصل فعلاً. فقلت: هل لك أن أقص عليك قصصاً يناسب حديثي معك الآن، ومنه يتضح المقام ويصير الغائب عنا الآن كالعيان. قال: حباً وكرامة. فقلت:

محاورات بين المؤلف وبين بعض المدرسين بوزارة المعارف أيام الامتحان

لقد كنت يوماً جالساً مع بعض الرفاق بعد العصر أيام الامتحان بقصر درب الجماميز وذلك كان في امتحان آخر السنة لإعطاء التلاميذ الشهادة الابتدائية والثانوية كالمعتاد كل سنة. فقال لي قائل منهم وذلك في سنة ١٩١٥ تقريباً: انظر إلى هذا الغصن وأوراقه البديعة المنمقة الحسنة الشكل. إن بعض الإخوان يقول إن نظامه أجمل من نظام النمل الفارسي لحسن الإتقان. أقول: ولقد كنت قبل ذلك ألفت كتباً وكتبت في بعضها أن عين النملة مركبة من مائتي عين لأني كنت رأيتها في كتاب صغير من الكتب الإنجليزية التي يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية. ولقد كان هو وبعض الإخوان اطلعوا عليه فأرسلوا هذا ليحادثني هذا الحديث، حتى أذكر ذلك فيكون سبباً في الأخذ والرد والقدح فيما أقول كما هي العادة في كل الأمم في أمثال هذا الشأن. فلما قال ذلك أجبته: كلا يا صاح. فقال: وما البرهان؟ فقلت: أولاً: إن الحيوان أرقى من النبات، ثانياً: إن عين النملة مركبة من مائتي عين. فقال: أيها الإخوان من منكم يعرف أن عين النملة مركبة من مائتي عين؟ فقالوا جميعاً: كلا لا نعرف ذلك. فقلت: أنا قرأتها في كتاب إنجليزي. فقال: يا فلان يا فلان هل قرأتها وأنت في إنكلترا. فقال: كلا ثم كلا، وهذا غير معقول، وصارت هذه حديث القوم في ناديهم وسمرهم وطاروا بها فرحاً يتغنون بها ويفخرون ويفرحون إذ أظهروا خطأ في بعض هذه الكتب. فقلت لهم: يقول الله تعالى: ﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤] فتوجهت إلى أكبر مدرس في مدرسة الزراعة بحلوان، فأحضر عين النملة ووضعها تحت المنظار ورأيت بعيني رأسي تلك العين عبارة عن أعين أشبه بأعين الغربال أقل عدد لها مئتا عين، ثم قرأ أمامي ما كتبه علماء النمسا والألمان في القرن العشرين وأنهم حللوا كل عين تحليلاً تاماً وشرحوها فوجدوها عيوناً مستقلة تامة الاستقلال. إذن تكون النملة لها ٤٠٠ عين على الأقل، فلما تم ذلك ألفته في رسالة اسمها «رسالة عين النملة» وستقرؤها في سورة «النمل» مع قصتها المذكورة بهيئة أدبية، وترى هناك شرحاً لها وافياً، ونشرت هذه الرسالة في الجرائد وقرئت أمام محفل المدرسين فسكنوا للحقيقة أجمعين. وأذكر أن أرفعهم مقاماً وعلماً ـ وقد تعلم في ألمانيا ـ قد كان خاطبني قبل ذلك منكراً هذا الرأي، فقلت له: هو في الكتب الألمانية والنمساوية والإنجليزية؟ فقال: كذب الأوروبيون، فقلت: هلم معي إلى «حلوان» فإن مدرس العلم مستعد لمقابلتنا هناك، وهو يريك عين النملة، فهنالك سكت واعتذر، وبعد ذلك ألفت الرسالة وقرأها واحد منهم عليهم أجمعين كما تقدم.

فقال صاحبي: هذا عجب ولكني أريد أن أعرف في أي كتاب رأيت أن عين الذبابة مركبة من أربعة آلاف عين؟ فقلت: هي تقرأ الآن في مدارس الشرق والغرب لا جدال فيها، وهي الآن تدرس في

مدارسنا في الكتب المنشورة بين أيدي تلاميذ المدارس باللغة الإنكليزية في كتاب الإنشاء . فقال : يا عجباً كل العجب وكيف يعرفها التلاميذ ويجهلها المدرسون؟ . فقلت : إن المدرسين صرفت أبصارهم عن أمثال هذا ، فهي في الكتاب أمامهم ولكنهم يحقرون النظر إليها والتفكر فيها . ألم تر أن المسلمين يقرؤون صباح مساء ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس : ١٠١] وهكذا ، حتى إن شيوخ الصوفية قد أمروا تلاميذهم بقراءة آيات دالة على أمثال هذا النظر مثل قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾[آل عمران : ٢٦] الخ ، ونحو : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[آل عمران : ١٨] ، ومثل قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[البقرة : ١٦٤] الخ .

هم يأمرون تلاميذهم بذلك ومع ذلك لا هم ولا تلاميذهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض . فقراءة الكتاب وحفظه غير حب العلم وعشقه . ألم تر إلى ما تقدم في قول الشيخ الدباغ : ليس المدار على أن ترى الجمال وإنّما المدار على أن قوتك الإدراكية تذوق الجمال . فالنظر للجمال شيء ، وذوق الجمال شيء آخر ، فكثير من أمم الشرق اليوم حجبوا عن إدراك الجمال ، أي : ذوقه ، وذلك لأسباب طارئة وعوارض حاجبة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[الإسراء : ٤٥] ، فهذا حجاب مستور مسدول على هذه العقول ، وهي متى أزيلت حجبها المسدولة عليها أدركت الجمال وارتقت إلى حال الكمال . فقال : إذن كأنك تقول إن هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[الحج : ٧٣] تدخل فيها هذه المعاني كلها ، وأن الله أنزلها ليوقظ الأمم لقراءة الذباب والحشرات وكل حيوان ونبات . فقلت : نعم ، أنا أقول ذلك والله عز وجل لما أنزل الآية أراد هذه المعاني وأراد معاني لم نصل نحن إليها الآن ، وهذا فتح باب لرقي الأمم التي تقرأ هذا الكتاب المقدس ، لأنهم متى علموا أن عناية الله بذكر هذه الحشرة موجهة لهم هم أخذوا يتنافسون ويجدون في العلوم والحكمة ويستلذون بقراءتها ويفرحون بدراستها ، وأن الأمم التي حولنا في الشرق والغرب جميعاً يقولون : إن الرجل لا يكون رجلاً نافعاً لأمته فاضلاً إلا إذا درس هذه العوالم وأشرب قلبه حب حكمتها وأدرك بدائعها . فهنالك يسمو بفكره إلى النظام العام في العالم ويرقي أمته ، لأن عقله قد أشرب النظام والجمال فصار الجمال من طبعه بما اكتسبه من النظر في العجائب ، هنالك يشرق من قلبه ولسانه ويده نور العرفان والعدل وإسعاد أمته . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبي : وما مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[الأنعام : ٩١] في مسألة الذباب والأصنام؟ فقلت : هذا ظاهر واضح لأن قدر الله إنّما يعرف بصنعه لا بصنع البشر أصناماً ، وليس الذباب أعجب شيء في صنعه ، وإذا كان الأدنى من صنعه فيه عجائب كثيرة فكيف بالأعلى؟ فإذن الناس لا يعرفون قدر الله ولا عظمته ما داموا يجهلون صنعه وإبداع نظامه . انتهى .

الدود والجنادب والذباب والحشرات والأصنام

لقد اعتاد الناس في القرى ببلادنا المصرية أن يضعوا على اللبن ملحاً ويسمونه « مش » ويبقونه في القدور أسابيع وقد سدوها سداً محكماً وقد وضعوا مع هذا المش جبناً ، فإذا فتحوها وجدوا هناك

ذباباً كبيراً في جو القدر ودوداً في نفس المش ، فلا يفكرون في ذلك الدود ولا في الذباب من أين جاء . وإذا سألتهم : من أين جاء الدود؟ قالوا لك بلسان واحد : « دود المش منه فيه » ، وهذا مثل جرى على ألسنتهم وهو خرافة لا حقيقة لها ، وهكذا يجد الناس اللحم المنتن فيه دود فيظنون أنه كالمش أيضاً ودوده منه وهكذا .

واعلم أن الله عز وجل أكثر من هذا الذباب وجعله كأنه سياط يضرب به أهل الأرض ليستيقظوا من الجهالة لا سيما المسلمين . إن هذا الدود هو الذي فقس من البيض الذي وضعه الذباب في المش المذكور وفي اللحم وفي كل منتن من الطعام ، ثم يصير هذا الدود جندباً أو شرنقة ثم تصير ذبابة تامة . (انظر صورتها في شكل ٨) .

(شكل ٨)

(١) الحشرة التامة . (٢) والشرنقة التي تراها كأنها محنطة ملفوفة في كفنها . (٣) الدودة تتغذى وتنمو لعل المصريين القدماء اقتبسوا تحنيط الجثث من هذه الحشرات .

إن الله عز وجل أرسل هذه الحشرات بين أيدينا ومن خلفنا تنغص علينا العيش وتذيقنا الأمراض الوبيلة لندرس هذه الدنيا ، كأنه يقول لنا : أيها الناس هذه الحشرات خلقتها في الرمم وألهمتها أن تضع بيضها في طعامكم وشرابكم ، تشاهدونها كل حين فتعلمون أن القاذورات التي تعافونها وتأبون النظر إليها قد خلقت منها حشرات طائفات عليكم تعطيكم الدروس ، وهي ذات ألوان زاهية باهرة : ما بين أزرق زاهر وأبيض يقق وأخضر ناضر وأصفر فاقع وأحمر قان وذهبي اللون وعقيقية وبنفسجية . أفلا يبهر عقولكم أيها الناس هذا الجمال؟ أنا اشتققته من الرمم البالية والقاذورات المنبوذة الكريهة الرائحة والطعم واللون ، وهذه الحشرات عوالم أعداد أنواعها أكثر من مجموع أنواع الحيوان ، وأنتم لم تعرفوا منها الآن إلا نحو ٢٠٠٠٠٠ ، وربما تكشفون في المستقبل ألف ألف نوع ، وكلها تتقلب في الأدوار الثلاثة السابقة . فبينما ترونها دودة لدنة الملمس تنسل بين التراب والأعشاب إذا هي جندب صلب القشر يثب وثباً فإذا هي فراشة ذات أجنحة ذات لون بهيج ، والدود قد يأكل التراب ويهضمه ، ولكن الجندب والحشرات لا تهضم إلا الأعشاب ، ومثل الذباب في نشأته بين القاذورات الجعلان والعناكب والخنافس والنحل ، وقد قدروا أنواع الخنافس وحدها ٨٠٠٠٠ نوع .

ولما كان أمر هذه المخلوقات عجيباً بديعاً رأى قدماء المصريين تقديس الجعلان ـ جمع جعل ـ لهذا ولما لها من مزايا أخرى كأن تضع بيضها في كرة وتدحرجها مرات حتى تكمل العمل فيها ومنها يخرج صغارها وقد جعلوها رمزاً للخصب ورسموها في كتاباتهم على « البابيروس » ونقشوها على الهياكل وصنعوا لها التماثيل وكانوا يصلون لها . إذن كان المصريون أولاً يجعلونها دلالة على جمال الحكيم المبدع وقدرته ثم تناسوا ذلك وعبدوها هي ، إذن هناك مناسبة بين ذكر الذباب الذي يعيش في

الرمم البالية وبين الجعل الذي هذا وصفه، فكلاهما دلالة على مبدع هذا الوجود حتى عبده قوم، ولا جرم أن الحشرات ومنها الذباب المذكور في الآية أبدع من الأصنام وأرقى منها، وكلاهما بالضعف موصوف ولكن أحدهما أضعف من الآخر فكيف عبدوا أضعف الضعيفين، إذن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أكثر سخافة ممن عبدوا الجعلان، وهؤلاء وهؤلاء في الجهالات سيان، فلتقرأ الأمم جميعها نظام الخليقة وبدائع الخلقة ليعرفوا الصانع بصنعه والحكيم بفعله ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. ولقد اطلعت على جملة في عجائب الحشرات فرأيتها توضح ما نحن بصدده أيضاً من كتاب «علم الدين» فأحببت ذكرها لجمالها وحسن نسقها، وهاهي ذه:

إن الحيوان يخلق أولاً في صورة ثم يتغير وينقلب إلى صورة ثانية إلى ثالثة، وليس التغير خاصاً بالصورة بل يعتري الطباع والأحوال أيضاً حتى لا يبقى فيه شيء من أحواله وطباعه الأولى، فتراه يكون في أول مرة كدودة قذرة قبيحة المنظر راسبة في قاع البحر مستورة بما في قراره من الوحل والطين، فإذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة وأراد الانخراط في سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته، فعند ذلك يتخلى عن ثوب الديدان ويتحلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الألوان ذات أجنحة كاللؤلؤ والمرجان، فيطير بها في الهواء إلى حيث يشاء.

فانظر كيف خرجت هذه الدودة المائية عن ذاتها الأولية إلى صفة الحيوانات الهوائية، وبتغير صورتها كما ذكر تتغير جميع طباعها وأحوال معيشتها واحتياجاتها وسائر حالاتها، وبعد أن كان غذاؤها مما في قاع البحر من الحشيش ترعاه دائماً ولا تمله ولا تستغني عنه صارت لا تهواه ولا تقربه، كما أنها بعد أن قضت مدة حياتها الأولية تحت الماء في الطين صارت لا تحب إلا فضاء الجو ونسيم الهواء تمرح فيه وتعيش به، ولا تألف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه، حتى لو كلفت أن تقيم تحته لحظة لهلكت في الحال، فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الأولية وكذلك أمثالها من الحيوانات التي تتغير طباعها وأشكالها، فإن الحيوان ذا الأجنحة الزمردية التي تسميه العوام بـ «الجعران» وكان المصريون يعظمونه، أصله من دودة تدب في بطن الأرض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه، وكان الأقدمون يجهلون ذلك إلى زمن «أرسطو» وهو أول من فتح باب البحث في هذه المسألة إلا أنه تكلم فيها بالظن والحدس، واستمر الأمر على ذلك إلى هذه القرون الأخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين، فظهر أن الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجرداً عن الأجنحة في هيئة دودة صغيرة، ثم يأخذ في الكبر وازدياد الحجم يأكل بعض الحشيش وغيره من المواد الأرضية، حتى إذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وصار في مقره كأنه قد مات ودفن في قبره، فيبقى كذلك مدة تنعدم فيها جميع الأحوال الدودية بتدبير إلهي لا علم لأحد به.

ثم يظهر بعد ذلك في صورة أخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عند العامة بـ «فرقع لوز» وقد شوهد أن الدودة في حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين ملتفة في مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرمم الموتى التي ترى في قبور الأقدمين من المصريين، فإذا جاء الوقت المعين خرقت هذا الكفن وخرجت منه وصارت في الصورة الجديدة، ومن الغريب أن هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذي صار قبراً له من غير أن يحصل لأعضائه الدقيقة أدنى خلل، وكثيراً ما يكون هذا القبر

مركباً من ثلاث طبقات : الأولى : مركبة من مواد موضوعية بحيث ينزلق المطر من فوقها . والثانية : من مواد ألطف من الأولى شديدة الامتزاج ببعضها وهي لوقاية الجسم من العوارض الجوية . والثالثة : هي الثوب أو الكفن الذي تقدم ذكره . ومن نظر في الحيوان المعروف بأبي دقيق وتتبع أحواله وأشكاله وجده يتغير ثلاث مرات ينقلب فيها إلى ثلاث حالات ليس بين واحدة منها وبين الأخرى مشابهة البتة ، حتى يظن أنه يموت ويحيا ثلاث مرات مع أنه في الواقع ونفس الأمر ليس كذلك ، وإنما يعتريه سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلاتها الخفية بالانتقال من الصورة الحالية إلى الصورة الجديدة ، فالدودة من أصل خلقتها مشتملة على جميع ما يلزم للصور التي تتحول لها وتنقلب إليها ، فكأنما هي في ثلاثة أثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق الواحد منها وتخرج منها فتظهر بهيئة ما تحته فتبقى فيه ما شاء الله ثم تخرج منه وهكذا حتى تظهر في الهيئة الأخيرة فتبقى عليها إلى أن تموت بها ، وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغير صورته ما قدمنا ذكره من السكون وترك الحركة ، ولا تعتريه كل التغييرات والتبديلات ، وإنّما ينتقل من صورة إلى غيرها بتمدد أعضائه وكبرها مع التقدم في السن ، وبعضها ينتقل إلى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير أن تظهر عليه حالة السكون المذكورة ، وإنّما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الأجنحة وذلك كالحيوان المعروف بالبق . ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من القاذورات ورمم الأسماك ، فإذا تحول إلى الصورة الأخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش إلا زمناً قليلاً لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد أن تبيض الأنثى منه بيضتها ، فمن تأمل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها ؛ أو رآها وهي مستورة بكفنها في قبرها ؛ ونظر تعدد أشكالها وألوانها وصورها واختلافها في كبرها وصغرها ؛ وأنعم النظر فيما تظهر به وتنجلي فيه من المنظر البهيج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برونق الدرر والجواهر من النقوش الغريبة بالألوان العجيبة ، أذعن بالربوبية لخالقها ومبدعها القادر العظيم المدبر الحكيم ، وخضع لجلال عزه وعظمته وتبرأ من علمه وحوله وقوته ، فما معلومات الإنسان ولو امتد به الزمان بالنسبة لمعلومات الله سبحانه إلا كنسبة المعدوم إلى الموجود ، فكيف يطلع على كنه هذه الأسرار أو يستخرج جوهر هاتيك البحار ؟ إلا إن أمده الله بإعانته وشمله بحسن عنايته . انتهى ما نقلته من كتاب « علم الدين » .

محاضرة على هذه السورة في قوله تعالى:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ الخ

في هذا اليوم وهو الثالث من جمادى الثانية سنة ١٣٤٣ هجرية ـ أي بعد إتمام السورة بيوم واحد ـ قابلني أحد علماء الأزهر فسمع بعض هذه الأقوال في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾[الحج:٧٣] ، فقال : إنني أريد مناسبة بين المثل وبين ما ذكرته من العلم ، وكأنك جعلت ذكر الذبابة موضوعاً وكتبت عليه ، وإلا فالآية ليس فيها إلا شيء واحد ، وهو احتقار الأصنام التي كان أحقر المخلوقات يسلبها . وكانت تلك المحاضرة بجوار الجامع الأزهر بحضور الطلبة الجاويين ، فقلت له : إن فيما كتبته ما يقنع بأن ذلك مناسب للآية ، وإن أردت إلا الزيادة عليه فهاك ما به يتضح المقام :

(١) قد قدمت هنا أن الله قال: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾[الحج: ٧٣] فاستمعنا وقلنا: لا بد أن تكون هناك أمور وراء المثل المشهور، وهذا كاف في البحث في الذبابة وما تبعها.

(٢) أننا إذا سمعنا المثل فلنبحث في جميع أطرافه وهي هنا الأصنام والذباب، وصفت الأصنام بالقوة والذباب بالضعف، فلما بحثنا عن الذباب الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾[الحج: ٧٣] دعانا ذلك إلى البحث في تشريح الذباب وقوته وعيونه التي سيأتي ذكرها في سورة «النمل» وفي مهاراتها في ذلك، ثم في مضارها للإنسانية ومنافعها، وليس ذلك بدعاً فإنا نقول: إن عادة العرب أن يسترسلوا في موضوع كهذا، ألم تر إلى امرئ القيس في معلقته كيف وصف القفر الذي قطعه بأن فيه ذئباً، وذكر في الذئب بيتين ونصف بيت، فقال إنه يعوي وإنه لما عوى قال له امرؤ القيس: أنا وأنت شأننا قليل الغنى وكل منا إذا نال شيئاً أفاته.

ثم ذكر الحصان ووصفه بصفات بلغت نحو ١٧ بيتاً، وترى طرفة بن العبد وصف ناقته في ٢٩ بيتاً في معلقته، وما هي الناقة؟ يقول: إني أمضي الهم عند احتضاره بركوبها ثم استمر يصفها، وترى لبيد بن ربيعة العامري في معلقته يصف الناقة التي يركبها بنحو ١٤ بيتاً. ثم يوازن ما بينها وبين البقرة الوحشية بنحو ١٧ بيتاً، فهذه كلها ٣١ بيتاً كلها مذكورة لأجل الناقة.

وعمرو بن كلثوم يصف محبوبته في نحو عشرة أبيات وهكذا مما لا حصر له، فإذا كنا نرى العربي القح صاحب اللسان الفصيح يذكر الذئب في عرض الكلام فيصفه ويذكر الناقة وهي ليست محبوبته ولا مقصودة فيصفها وصفاً عجيباً وأكثره خيالي مبالغ فيه، ويصف البقرة الوحشية التي جعل ناقته أفضل منها جرياً وأكثر في شرحها لماذا؟ لأن لها علاقة بناقته من حيث إن الناقة أفضل منها ومتى كان المفضل عليه أشرف كان المفضل أكثر شرفاً وهكذا، فإذا كنا نجد اللسان على هذا المنوال وقد وصفوا ما جاء في عرض الكلام وأطنبوا وصفاً ليس له فائدة إلا تسلية العقول وحسن القول وإذاعة الفصاحة، وأن يقال: إن الشاعر بارع وبراعته في اختراع المعاني الدالة على اطلاعه على أمور كثيرة أفلا يسوغ لنا أن نصف الذبابة التي ذكرها الله وصفاً لا مبالغة فيه وهو حقائق صادقة، وليس المقام مقام بلاغة فحسب بل المقام مقام أمم ترتقي وتعيش وتأخذ حظها من الوجود.

فإذا كان أهل اللسان وهم أجدادنا هكذا يفعلون لمجرد التسلية ووصف الشاعر بالبلاغة وتحدث الناس في مجالسهم ليكون تسلية لهم ومضيعة لوقتهم؛ فوالله لنحن أحق بأن نعطر المجالس بعبير الرحمة الإلهية التي تفيض على من يقرأ هذا الكتاب وينظر فيرى آثار رحمة الله، وليس يكون ذلك تسلية لمجالسهم فحسب، كلا بل هو إنعاش لمدنيتهم وترقية لأممهم وإخراجهم من الذل إلى العز.

علم الله قبل نزول القرآن أن أمم العرب من شأنهم في قولهم هذا، فأنزل القرآن وضرب الأمثال وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[المدثر: ٤٨]، فلعمرك إن هذا من بيان القرآن فلنصف الذبابة كما وصف امرؤ القيس ومن على شاكلته دوابهم لأدنى مناسبة، ثم قلت بعد ذلك: على أنه لو لم يكن ذلك فرضاً فليكن من الفكرة العامة في القرآن وهو التفكر في كل شيء كما قدمنا في هذا التفسير، فالذبابة لم تخرج عن كونها مما أمر الله بالنظر فيه. أليست مما في الأرض. لهذا ننظر ونفكر.

نمط آخر في المحاضرة

ثم قلت: وإذا كنا نرى الذبابة تستلبنا ما علينا وما بين أيدينا، وتجعل الطعام الذي أمامنا قذراً، وتضع بيوضها في عيون أبنائنا وفي لبننا الذي نضعه في الجرار، وهذا اللبن إذا غطيناه مدة أشهر ورفعنا الغطاء عنه لنأكله كما هي عادة بعض الفلاحين في مصرنا ويسمونه «مش»، فإنا إذ ذاك نجد ذباباً كبيراً يعيش في جو هذه الجرة، وهو لم يسمع عن الدنيا ولا نظرها، وما هذا الذباب إلا الذي أفرخ في هذا اللبن، وأصله كان دوداً، والدود كان أصله بيضاً، والبيض كان من الذباب، والذباب كان ينزل على اللبن لتفريط الناس في متاعهم، وإنما أنزل على اللبن أو على أعين أولادنا لأن الله هو الذي علمه. علمه أنه لا يضع البيض إلا في مكان صالح، والمكان الصالح هو الذي فيه غذاء له، فتخرج أولاده في اطمئنان وسلام في بيوتنا ومنازلنا أكثر من اطمئناننا نحن على أبنائنا، فإنا لا ندري ماذا تعمل الفرنجة فيهم غداً ولا ندري ماذا يراد بهم، ولم نعمل ما عملته الذبابة ولم نحافظ عليهم.

هذه هي القراءة التي يقرؤها المسلم في الذباب، ويقرأ المسلم أيضاً فوق ذلك فيقول: إن «أبا دقيق» المتقدم ذكره والنمل والنحل والزنابير لها صفات ولها منافع ولها أحوال، وهكذا بقية الحيوانات وكذلك الحيوانات الدقيقة المسماة بـ«المكروب» التي تسطو علينا فتقتلنا وتمرضنا، وتمرض أبناءنا بالحمى والجدري وهي التي لم يعرفها الناس إلا في هذا الزمان، فكل هذه حكمها حكم الذباب لها منافع ولها مضار.

فيا الله ويا لله ويا للعجب! يا رسول الله انظر أمتك. انظر أمتك يا رسول الله بعد ألف وثلاثمائة سنة من الذي ينظر في شؤونهم؟ تنظر في شؤونهم أهل أوروبا. فهم والله الذين يدرسون علم «المكروبات» وعلوم الأمراض ويقولون: الطاعون له دواء كذا. ويحللون تلك الأمراض. ولقد جاء رجل ألماني إلى مصر قبل الحرب وهو الذي نشر هذه العلوم فيها انتشاراً مضيقاً عليه لسيطرة الأجانب على البلاد، فهل يجوز في شرعة الإنصاف أن يجهل المسلمون هذه المضار؟ أليس الذباب وغير الذباب يعبث بحياتنا؟ ويقتل المكروب أي الحيوانات الدقيقة التي لا ترى إلا بالمكرسكوب آلافاً وآلافاً من أبنائنا؟ ونحن لا نعرف بل لا نصدق أن العلم ينفع وأوروبا تفوقنا، وبالله ما الفرق بين الأصنام وبين الأمم النائمة التي سلطت عليها الهوام والحيوانات الدنيئة؟ لم يسلط علينا الذباب فقط بل سلط ما هو أنقص من الذباب ونحن لا ندري أن الله خلق شيئاً من ذلك. لا لا بل سلط علينا الحيوان ونوع الإنسان فنحن تحت تأثير الحيوانات ولا ندري أنها تؤذينا بل لا ندري أنها خلقت، ولا ندري أن الجدري والحصباء والطاعون والحمى كل ذلك بجنود يرسلها الله من الحيوانات التي عرفها الناس والمسلمون نائمون. حيوانات حية تعيش وتلد وتموت ويا ليتها تسلبنا الطيب كما سلبت الأصنام، ولكنها تسلبنا أبناءنا وزرعنا. ولما ضعفنا وجهلنا سلط الله علينا أوروبا لتقوم بأمرنا وتأخذ الثمن أن تستعبدنا، فهذا هو ما فهمته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الحج: ٧٣]، وحاشا لله أن أقول: إن معنى الآية هذا، ولكن أقول: إن هذه المعاني رمزية، ولا غضاضة في ذلك. فالكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، فالمعنى في الآية على حاله، ولكن يجاء بالمعنى الآخر تبعاً ويكون هو المقصود، والحمد لله الذي جعل في الأمة علم البيان ليرجع إليه من لم يكفه ما نقول.

فإذا بقي المسلمون مستسلمين لليأس وقعدوا عن العلم والعمل فهم ـ والعياذ بالله ـ باقون على التقليد، وتكون آراؤهم الضيقة المحصورة كأنها معبودة لهم لعدم انحرافهم عنها.

ولعمري ما ذمت الأصنام إلا لأنها قيد للأفكار. ولقد تقدم القول أن عبادة غير الله عبادة للأهواء فتكون النتيجة أن من اتبع هواه فكأنه عابد له، فعبادة الأصنام ترجع لعبادة الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فإذن المسلمون هم الذين قيدوا الدين وهم إذا سمعوا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]؛ قالوا: هذا حق، وإذا قيل لهم: انظروا في بقية المنافع فإن الله سخر لكم وما في الأرض جميعاً، ولما علم أن علمنا قليل قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] يريد بذلك أن نعلم ما نجهل، ويدل عليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. إذا قيل لهم ذلك يقولون: لا لا هذا حرام هذا خارج عن الدين لا يبحث القرآن عنه وأشياخنا وكتبنا لم تقل ذلك. فلنقل لهؤلاء: أيها الناس إن الأمم إذا طال عليها الأمد قست قلوبها، والأمة الإسلامية المسكينة حصل لها اليوم ما حصل للأمم السالفة.

إن القسيسين في أوروبا كانوا يتحكمون تحكماً أدى إلى التهلكة، والقرآن ضربهم ضربة دوخت رؤساء الدين وشتت شمل تلك العقائد والتحكم في الأعراض والأشخاص والملوك، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وأمتنا المسكينة محبة لدينها ولكن طرأ عليها ملوك وأمم أذلوها من بنيها ومن خارجها، وذلك في نحو سبعمائة سنة، وهاهي ذه تريد أن ترجع مجدها، ورجوع مجدها بالإسلام أسرع من رجوع مجد أوروبا الذي ظهر في نحو ثلاثمائة سنة، ونحن لا يعوزنا هذا الزمن كله، وسيكون رقي المسلمين في نفس هذا القرن لأنهم أقرب إلى الرقي. فقال أحد الحاضرين: أوضح ما ذكرته من علم الحيوان في أواخر السورة بمناسبة الذباب. فقلت: إني قد ظهر لي العجب في هذه الآيات بعد تمام تفسير الآية. فقالوا: وما هو العجب؟ قلت: أرأيتم قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢]. قالوا: هذه أول آية نزلت قلت: انظروا وتعجبوا. ألستم تعلمون فيما ذكرته أن العلقة إحدى الحيوانات التي تقدم شرحها؟ قالوا: بلى. قلت: أولستم تعلمون أن الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. قالوا: بلى. قلت: أولستم تعلمون أن العلم الحديث جاء فيه أن جميع حيوانات البر على ما يظنون كانت في البحر ثم انتقلت إلى البر، وإن كانوا لا يحسنون أن يعللوا كيفية ذلك. قالوا: بلى قد فهمناها الآن. قلت: نعم إن الضفادع تخلق في الماء وتعيش فيه في صغرها، فإذا كبرت خلق الله لها رئة وجعلها من ذوات الدم البارد وأخرجها إلى البر، وتنزل الماء في بعض الأوقات إذا أحست بأدنى خطر وربما اختفت فيه نحو ساعة لا غير ولا تتحمل أكثر من ذلك وقد تكون فيه أمداً طويلاً إذا صارت خامدة في زمن الشتاء شبه الميتة، فإذا جاء الربيع حييت. قالوا: وما تقصد بهذا؟ قلت: أقصد أن حيوان البر على ما يقوله الطبيعيون كان في البحر، فيكون قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] أي: أنه كله كان من الماء وهو أشبه بالضفادع، والضفادع تكون لنا مثلاً ضربه الله لنا ليعرفنا أنها كلها كانت في الماء، ولكن هناك نواميس لا نعلمها قد عملها لتلك الدواب فأخرجها إلى البر كما أخرج

الضفدعة . قالوا : حسن هذا ولكن ماذا تريد بهذا القول الآن؟ قلت : أريد أن أقول إن العلق من الحيوانات الأرضية الطينية ، وقد خلق الله الإنسان من علق ، فهو في أول نشأته يشابه نشأة الحيوانات في البحر في قديم الزمان ، لأن جميع الأرحام مائية كأنها حفظت أصل الخلق وأنه كان من ماء . قالوا : ثم ماذا بعد ذلك؟ قلت : قال العلامة « فون باير » : حفظت جنينين صغيرين في الكحول ونسيت أن أكتب اسم كل واحد منهما عليه ، واليوم يتعذر علي أن أعرف من أي صنف هما ، أمن القواضم أم الطيور أم ذوات الثدي؟ نعم إن أطرافهما لم تكن تكونت ، وهب أنها كانت فوجودها في أول تكونها لا يفيد شيئاً ، لأن أطراف القواضم وذوات الثدي وأجنحة الطيور وأرجلها متشابهة حينئذ ولا تختلف إلا بعد ذلك ، كما يرى في مقابلة صور جنين الإنسان والكلب والدجاجة والسلحفاة .

ويقول علماء العصر الحاضر : إن كل جنين صادر أولاً من بيضة أو بذرة لا يختلف بناؤها الجوهري ولا يختلف بعضها عن بعض إلا في الحجم والشكل ، وهذه الخلية تنمو بالانقسام ، وأجنة الحيوان التي تنشأ من هذه البيضة تكون متشابهة في الأطوار الأولى يصعب تميز أجنة ذوات الثدي من أجنة الطيور وسائر أجنة الحيوان الفقرية .

ويقولون أيضاً : إن أصل الماهية العضوية في نشوء الإنسان علقة نووية مستديرة الشكل يبلغ قطرها ١ من ١٢٥ من القيراط ، فإذا ألقيت عليها نظرة بعين مجردة رأيتها نقطة صغيرة جداً ، وإنّما تتكون الخلية الأولى في حال نتاج البيضة أو في حال اختلاطها بمعنى الذكورة الخ .

فانظر رعاك الله إلى قول علماء العصر الحاضر : إن الإنسان في أصله علقة صغيرة وهذه العلقة تطورت أطواراً شتى فانتقلت من حال العلق إلى حال ذوات الفقار متنقلاً في أحواله من حال إلى حال أرقى حتى يصل إلى حال الإنسانية . وقد تقدم في سورة « آل عمران » أن الفيلسوف « هيكل » الألماني حاول جمع جميع الصور الحيوانية المتتابعة من أدناها إلى أعلاها كما قدمناها لك ، فوجد أكثرها في صور الجنين ولم يجد باقيها وادّعى أنه وجدها كلها فأسقطه القوم . والمقام الآن هو أن الجنين يتطور في بطن أمه من أدنى حيوان كالعلق متنقلاً في صور حيوانات أعلى من العلق إلى أن يصل إلى الإنسان ، وإن كان هذا لم يتم كشفه ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[العلق : ٢] ، فما ذكره الله منذ ألف وثلاثمائة سنة ذكر اليوم بنصه وفصه ، وقد علمت أن العلق يكون مبدأ لذوات الحلقات وتلك هي الحشرات وذوات الأرجل الكثيرة والعنكبوت . وهذا الخلق وارتقاء الصورة عن أصلها العلقي إلى الصورة الإنسانية هو الذي سماه الله كرماً إذ قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار : ٦-٨] .

عجباً للقرآن . يقول : إن ربك أيها الإنسان كريم ، لماذا ؟ لأنه : ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار : ٦-٨] ، فالتسوية وتنظيم الهيكل الجسمي كرم من الله ، فالله كريم ، لماذا؟ لأنه سوّى صورنا لما خلقها في الرحم وجعلها متناسبة وقاسها بمقياس عجيب كما تقدم في هذا التفسير فهذا هو الكرم . ثم نرجع إلى سورة « العلق » فنراه يقول فيها بعد أن ذكر خلق الإنسان من علق : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾[العلق : ٣] .

عجب، هو هناك كريم، كريم لأنه خلق الإنسان من علق فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه ولكنه هو أكرم. لماذا؟ لأنه ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ٤-٥]، فالله كريم لأنه خلق الصورة الإنسانية وخلصنا من الحيوانية التي مرّت عليها العلقة التي لا تصل إلى الإنسانية إلا بعد مرورها على صور شتى من الحيوانات، وهو أكرم لأنه يعلمنا ويفتح المدارس ويفهمنا نظام الكون ويرفعنا إلى أفق الملائكة. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾[العلق: ٣]، فهو كريم لإخراجنا من الصورة الحيوانية، وهو أكرم لإخراجنا إلى الصورة الملكية بالعلوم والكتب.

ملخص المحاضرة

(١) سؤال من أحد علماء الأزهر: ما مناسبة علم الحيوان لمسألة الذباب؟.

(٢) الإجابة: إن المناسبة تقدمت في السورة وافية.

(٣) وأيضاً أن ذكر المثل يستلزم البحث في صفات المثل به فلنبحث في صفات الذبابة ومنها أعضاؤها وقواها وعيونها.

(٤) ونذكر ما يناسبها من الحيوان كما فعل شعراء الجاهلية في معلقاتهم.

(٥) بل نحن أولى لأنهم كانوا يصفون لمجرد الخيال وللهو بالقول والتفاخر به ولا ينفعهم في سعادتهم.

(٦) وأيضاً الذبابة تسلبنا هي وحيوانات أخرى ما عندنا من الصحة وتورثنا أمراضاً كالجدري والحصبة وذلك بالمكروب. فهل نكون معها كالأصنام ونحن عقلاء؟.

(٧) إن ذلك يقصد بطريق الكناية، والكناية من علم البيان وهو يدرس في جميع المدارس في مصر وغيرها.

(٨) والمسلمون إذا امتنعوا عن البحث في هذا فقد قيدوا الدين.

(٩) والتقييد بالتقليد أشبه بعبادة الهوى، وحاشا لله أن أقول: إننا كفار، ولكن أقول: إننا نتبع الأهواء، وكفى بهذا ضلالاً فإننا عبدنا أهواءنا وذلك فيه على الأقل كفر النعمة.

(١٠) وكفر النعمة قبيح جداً من المسلم.

(١١) إن في مسألة تشريح الذبابة واستخراج أنواع الحيوان منها سراً، وذلك السر أن علماء الطبيعة يقولون: إن الإنسان خلق من علقة، وتلك العلقة التي نطقوا بها وكشفوها تساوي $\frac{١}{١٢٠}$ من القيراط، وليس من المعقول أن أحداً من البشر شاهد هذه العلقة، وكونه عدلها وسواها في أي صورة هو انتقالها إلى الإنسانية في الرحم.

(١٢) إن التعبير بالكرم في جانب تسوية الجسم. وبالإكرام في جانب الإنعام بالتعليم بالقلم باب واسع لارتقاء الأمة المحمدية وغيرها. يقول الله: خلقتكم في صور مختلفة مرتقية في الرحم فلأرفعكم في صور روحية مختلفة في حال الحياة الدنيا بالعلم والمعرفة لتخرجوا من هذه الأرض كاملين وهذا أشرف.

ولما أتممت هذا القول سأل أحد طلبة بلاد الجاوة قائلاً: فهل ترى أن العلم في الإسلام اليوم لا يكفي وهل علم الفقه لا يكفي المسلمين وعلم التوحيد؟ قلت: اعلم أن علم الفقه قد نفع الإسلام

وحفظه للآن ولولا البيوع والميراث والهبة والدعاوي وما أشبهها وكذا الصلاة والزكاة الخ لم يكن للمسلمين جامعة ولكن هذه محافظة على الموجود. فقال: ما معنى هذا؟ قلت: يسمع الفقيه قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾[النساء: ١١] الخ، فيؤلف فيه علم الميراث وقد أحسنوا صنعاً. ويسمع آية الدين فيؤلف فيه ويستوفيه. ويسمع ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ ﴾[البقرة: ٢٧٥] الخ فيؤلف في الربا والبيع. ويسمع ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾[البقرة: ٢٢٩] فيؤلف. ويسمع قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾[البقرة: ٢٣٨] الخ فيؤلف. حسن كل هذا ولكن هذا محافظة على الموجود. ومعنى هذا أن المال الذي تصادف أن الناس جمعوه تكون عليه القضايا، ومنه قسم التركات ومنه الصدقات ومنه بناء المساجد ومنه الدفاع عن البلاد الخ. ولكن إذا قيل لبعض العلماء لا كلهم لأن علماء الإسلام اليوم غيرهم بالأمس بل لم يبق من تلك الطبقة إلا القليل: اقرأ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾[البقرة: ٢٩]، أو قيل له: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٣]، وإذا قيل له: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴾[الزخرف: ١٢] الخ، وإذا قيل له: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾[النحل: ٨١]، وإذا قيل له: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴾[الأنبياء: ٨٠] أي: أن الله علم داود عليه السلام صنعة الدروع وهو يأمرنا بالشكر عليها لأنها تحصننا من الحرب، وهذا يلزمنا أن نبحث في كل ما يحصننا من بأسنا. إذا سمع هذا قال: هذه أمور ليست في علم الفقه ولا تدخل في أحكامه وهذه ليس فيها شيء فهي تقرأ للتعبد وبها نعرف الله ومعرفة الله حاصلة عندنا. ونسي هؤلاء أن هذه الآيات تحتاج إلى علوم تشرحها ويعمل بها. وبالبحث في العالم المشاهد تزيد ثروة المسلمين، وبزيادة الثروة تكون التركات والصدقات والزكاة وما أشبه ذلك. فالذي يحكم في الشيء وهو قليل هو الذي يحكم فيه وهو كثير، والحكم على الشيء فرع عن وجوده. فالمتعلمون في الإسلام أيام سقوط الدول الإسلامية أذلهم الملوك حتى لزموا علوماً خاصة واكتفوا بالفقه والتوحيد وتركوا الأمة حبلها على غاربها، فحفظوا مائة وخمسين آية لأجل الأحكام ونسوا بقية القرآن الذي به العبرة لازدياد الثروة وارتقاء الشعوب وحفظ الأمم الإسلامية. فليكن بعض علماء الدين علماء نبات وبعضهم علماء حيوان وبعضهم أطباء وبعضهم علماء السياسة وبعضهم علماء اقتصاد، مع إلمام كل واحد بالعلوم التي في الدنيا الآن ومنها علوم الدين. وليجعل العلماء الأبحاث العميقة في هذه المقاصد لا في المقدمات كالعلوم العربية، فإنه من العار أن يضيع التلميذ زهرة حياته في مباحث وفي علل لا تنفع ويترك المسلمين أذلاء بين الأمم. هذا هو الذي سيخلقه الله في الأمم الإسلامية في المستقبل، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقال أحد التلاميذ: إني أريد أن أعرف إيضاح عبادة الهوى بطريق مختصر فإني لم أفهمها. فقلت: الأصنام عبدت بالهوى والنبي صلى الله عليه وسلم قال لما قيل له حين قرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣١] يا رسول الله ما كنا نعبدهم، إنهم كانوا يشرعون لكم فتتبعون شرعهم فجعل اتباعهم عبادة لهم، وهذا بطريق المجاز فالمعبود على كل حال الهوى. والمسلم إذا اتبع هواه وقد دله هذا الهوى على

ترك ما في البحار من اللؤلؤ والمرجان وما على سطحها من السفن العظيمة وما على ظهر الأرض من المواليد الثلاثة وما في باطنها من المعادن وقد أحاطت به نذر الأمراض بصغار الحيوان فكان الطاعون والتيفوس والتيفود الخ . وفوق ذلك الأمم القوية تفتك بالمسلم و هواه يقول له لا يهم ذلك .

أفليس المسلم إذ ذاك كأنه عبد الهوى . فالهوى كالصنم والذباب وغير الذباب من العاقل وغير العاقل المؤذيات له كالذباب في مسألة الأصنام وما عنده من الأغذية والأموال كالطعام والطيب عند الأصنام . فهذا المثل منطبق تمام الانطباق . فالهوى في أنفسنا لا يدفع ما يطرأ علينا من المصائب . فكل ما يؤذينا فهو ذبابنا . وكل ما يقعد بنا عن المنافع فهو معبودنا ، والهوى مطلع على ما نزل بنا وهو لا يبدي حراكاً كالأصنام فصار معبودنا العملي لأننا مؤمنون بالله ورسوله وندخل الجنة إذا كنا صالحين وهو الهوى . يرى الحرب في ديارنا فيوحي إلينا أن توكلوا . ويرى خسارتنا فيقول : لا يهم ذلك ، فلا يستحق الهوى الاتباع بل العبادة تكون لله وهو الذي يلهم العقول فتدفع الأذى عن الناس بالعلم . فكما أمر الكفار بنبذ الأصنام أمرنا بنبذ الهوى والتقليد الأعمى . وكما أن الأصنام لا تقدر على دفع الأذى فهكذا آراؤنا التقليدية لا تدفع عنا الأذى . وكما أن الكفار يجب أن يؤمنوا بالله ورسوله هكذا نحن يجب أن نوجه عقولنا للفهم من القرآن ، والقرآن يقول الله فيه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾[الفلق : ١] الخ ، فنستعيذ بالله من شر خلقه ، وإذا استعذنا به واتجهنا إلى فهم القرآن بعقولنا علمنا العلوم ، ومتى علمنا عملنا فأزال الله عنا شراً وباد شر الحيوان وشر أنفسنا كما بيناه .

فبهذا انطبق المثل تمام الانطباق من حيث جوهر المعنى ، وهذا هو المعنى المهم الذي نزله له هذا المثل وهو وأمثاله السبب في قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾[الحج : ٧٣] ، فالهوى عندنا يقول : يا مسلمون لا يهمكم شيء ، وعلماء الفرنجة يقولون : يهمنا كل شيء . ألم تر إلى العالم الفرنسي « بول برت » المذكور سابقاً في كتابه المسمى « العلوم الطبيعية » الذي ترجمته زوجته إلى اللغة الإنجليزية حيث قال في أوله : إنك أيها القارئ سيسرك هذا التاريخ الطبيعي وستعلم بأي طريق تفيدنا تلك الحيوانات وبأي طريق تضرنا وتحدث فينا خطراً ، وليس الأمر قاصراً على المضار والمنافع بل إنك تعلم أننا نحن باعتبارات كثيرة نشبه الحيوانات ، لا سيما إذا لاحظنا تركيبنا الداخلي ، فإننا نعلم أن لنا قلباً له ضربات في صدورنا ورئتين بهما نتنفس ومعدة وحواس كالأعين التي بها نبصر والآذان التي بها نسمع . وإذا صادف أنك نظرت إلى مشرحة الجزار أو رأيت مصادفة أرنباً مذبوحاً مثلاً فإنك ترى أن الثور والخروف والخنزير والأرنب في نظامها وترتيبها الداخلي بينها وبين الإنسان مشابهة قليلة وكثيرة ، وعلى ذلك إذا نحن درسنا الحيوان بتتابع ونظام فما درسنا إلا أنفسنا ، وكلكم تعلمون كيف يكون ذلك لذيذاً وساراً . انتهى .

هذا كلام العالم « بول برت » ، فقال بعض التلاميذ : هذا كلام إفرنجي وزوجته المترجمة للكتاب بالإنجليزية . قلت : نعم . قال : فمتى يكون المسلمون على هذا النمط ؟ . قلت : فلينشر في الإسلام أمثال ما يكتب في هذا التفسير وغيره بطرق مناسبة ، فقال آخر : هذا القول هو عين قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات : ٢١] ، وكأن قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾[النحل : ٥] الخ إذا درسناه فقد درسنا أنفسنا ، قلت : نعم فدراسة هذه العلوم لدفع

المضار ولجلب المنافع ولدراسة علم التشريح لأجسامنا. هذا ملخص ما مضى، حتى إن دراسة الذبابة المتقدمة دراسة لأنفسنا؛ وأنا بصفتي مسلماً أقول: وهناك أمر رابع وهو: حب الله والارتقاء والوصول إليه بالطريق العلمي وعلم التوحيد فيكون لنا أربع منافع بل خمس، والخامس: أن تترقى العقول الإسلامية كما تترقى عقول البشر بهذه العلوم، ولذلك لما دخل الفرنجة بلادنا المصرية منذ ٤٥ سنة منعوا هذه العلوم عن المصريين ليحصروها في الجهالة، وقد كانت قبل ذلك في مدارسنا حين كنا مستقلين، لأن علماءهم أفهموهم أن تعليم الأمم المحكومة يجعلها مدركة الحقائق فتطرد المستعمرين، وهذا شأن الغاصب مع صاحب البلاد، وإني أنصح المسلمين جميعاً أن يعرفوا هذه العلوم ويقرؤوها لينفعوا أممهم ويطردوا عدوهم ويرضوا ربهم، والحمد لله رب العالمين. انتهت المحاضرة وبها تم تفسير سورة «الحج».

تذكرة

قد اطلع بعض الفضلاء على جملة في هذه السورة تحت عنوان: مسامرة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا ﴾[الحج: ٣٦] الخ، فقال: إن القول فيها قد طال جداً وكثر الأخذ والرد فماذا تقصد؟ فقلت: إن القول هناك تام. قال: ولكن في الاعتراض عليك أظهرت الحماسة وفي ردّ الاعتراض لم تظهر مثلها. قلت: إن ملخصها أن بعض الحجاج أخبرني أنهم في أيام منى يذبحون القربان ولا يعطونه للفقراء، وبهذا يكون المرض فالموت فقلت لهم ما ملخصه: إن هذا حرام في ديننا بدليل أن الله يقول: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾[الحج: ٣٦]. إذن المقصود من القربان الإطعام لا أنه يرمى فوق الجبل ويعفن الجو، وبدليل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الحج: ٣٦]، وكيف يكون الشكر على رمم تؤذينا وسماها الله رزقاً فهل الرزق هو الرمم الملقاة؟ وقال أيضاً: ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[الحج: ٢٨] فأمر سبحانه مرتين بالإطعام والأمر للوجوب، إذن تركه على الجبل بدون إطعام الفقير منه حرام بنص الآية، فقال: الآن فهمت. اهـ.

وقد بلغنا من بعض حجاج سنة ١٣٤٦ أن الحكومة الحجازية منعت هذا الضرر فالحمد لله.

وبهذا تم الكلام على سورة «الحج».

سورة المؤمنون مكية
وهي مائة وثماني عشرة آية

سنذكر مناسبتها لما قبلها في لطائف المقصد الثاني منها.

وهي ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[الآية: ٢٢]، وهو في خلق الإنسان ونظام هيكله والنبات والحيوان.

المقصد الثاني: من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[الآية: ٢٣] إلى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[الآية: ٥٠]، وهو قصص بعض الأنبياء.

المقصد الثالث: من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾[الآية: ٥١] إلى آخر السورة، وهو خطاب عام للرسل ونتائج الرسالة وأدلة ونصائح مختلفة.

المقصد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد نجا وفاز وسعد الموحدون المصدقون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ مخبتون متواضعون لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ولا يرفعون أيديهم في الصلاة وهم يجمعون الهمة ويعرضون عما سوى الله بقلوبهم ويتدبرون فيما يجري على ألسنتهم من القراءة والذكر، فهم على ذلك لا يفرقعون أصابعهم ولا يعبثون فيها. ومن لوازم جمع الهمة وتدبر القراءة أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ عن الباطل والحلف وعن كل ما لا يعنيهم وعن كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل منصرفون. ذلك لأن لهؤلاء من الجد ما يشغلهم فهم في صلاتهم معرضون عن كل شيء إلا عن الخالق، وفي خارج الصلاة معرضون عن كل ما لا فائدة فيه متجهون للجد والعمل الصالح، فكأنهم أخذوا من جمع همتهم في الصلاة درساً بعدها وتخلقوا بأخلاق الله في النفع العام والآداب العامة التي هي تخلق باسمه تعالى القدّوس ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ مؤدون مداومون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ الفرج اسم لسوءة الرجل والمرأة، وحفظه : التعفف عن الحرام، فهم لا يبذلونها وهم يلامون على كل مباشرة ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي : إلا على ما أجيز لهم ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ عليه. وقال الفراء : إلا من أزواجهم أي زوجاتهم أو سرياتهم فتكون « على » متعلقة بـ « حافظين »، ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ المستثنى ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ الكاملون في العدوان ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق عليه ﴿ رَٰعُونَ ﴾ حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه ويفون بالعقود التي عاقدوا الناس عليها. فالأمانات إما للحق كالعبادات وإما للخلق كالودائع ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ تفسيرها ظاهر ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أي : أهل هذه الصفة ﴿ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ فهم يرثون الأرض في الدنيا ويرثون الجنة في الآخرة. أما إرثهم الأرض في الدنيا فإصلاحهم لها كما تقدم في سورة « الأنبياء » أن الله كتب في جنس الكتب السماوية بعد كتابة اللوح المحفوظ ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠٥] لها. فالدنيا بقيامهم بما يوجب حفظها ونموّ خيراتها والقيام بنظامها إلى آخر ما تقدم. ولا جرم أن هذه الصفات من رعاية الأمانة وما معها من أهم صفات الأمم التي يثبت سلطانها وتعمر مدنها.

ولما كانت الآخرة نتيجة للعمل في الدنيا ذكرها هنا فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ أي : البستان، وهو هنا أعلى الجنة، وهي مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش العظيم، هكذا ورد في حديث الترمذي، ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون ولا يموتون.

ولما كانت الصفات المتقدمة صفات خلقية بها يتحلى المرء فيصلح لما يلقي إليه من الأعمال صدرت بها السورة التي عنوانها الفلاح. فالفلاح للمؤمنين متوقف على هذه الصفات، وهذه الصفات جليلة القدر عظيمة الأثر. ألا ترى إلى ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان رسول

الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فأنزل الله عليه يوماً فمكث ساعة ثم سرّي عنه، فقرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى عشر آيات من أولها، وقال: من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا. اللهم أرضنا وارض عنا». ولقد كان ذكر الآيات الآتية من العلوم النفسية والتشريحية والمواليد والجمال السماوي من الزيادة التي طلبها النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذه العلوم الآتية من تلك الزيادة، فكأنه يقول صلى الله عليه وسلم أنزلت علينا علوم الأخلاق النفسية والمعاملات الإنسانية والعبادات الربانية، فزدنا من العلوم التي نقف بها على مصنوعاتك وبديع مخلوقاتك، فإن النفوس المتحلية بالصفات الخلقية مستعدة للاطلاع على جمال هذا العالم، ولا جرم أن هذه العلوم الآتية زائدة على المتقدمة في السورة من الصفات الإنسانية. ويؤيد هذا أن الله أمره صلى الله عليه وسلم في سورة «طه» أن يقول: ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[الآية: ١١٤]، فالزيادة هنا هي الزيادة في العلم أو تشمل الزيادة في العلم، وهذا قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ آدم ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ خلاصة سلت من بين الكدر ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ فتلك الخلاصة المسلولة من طين هي الصفوة المجعولة آدم، ولا علم للناس بما كان من التطور الذي حصل لتلك الخلاصة الطينية، وهل كان أول خلقه تحت خط الاستواء كما جاء في كتب قدمائنا أن أصل هذه الحيوانات الكبيرة قد خلقت عند خط الاستواء لأنه هو المكان المستعد للتخلق للخصوبة وللحرارة، وقد خلقت أوائل الحيوانات هناك ومن ذلك الإنسان، وأن أصل الآدميين خلق هناك. ثم إن الحيوانات حفظت في أرحامها تلك الحرارة التي تولد آباؤها فيها فبقيت على ما هي عليه عند خط الاستواء بحيث تكون تلك الأرحام حافظة لتلك الدرجة ليتولد فيها الذرية إلى آخر الزمان. أم كان أصل التولد في البحر لكل حيوان ثم ارتقت تلك الحيوانات من بحرية إلى برية ومنها الإنسان فارتقى إلى ما هو عليه؟. لا يعلم أحد ذلك وإنّما الذي تعلمه أن الإنسان يأكل الثمرات والحبوب واللحم فيصير ذلك دماً ومنه تكون النطفة فيخلق منها الذرية الإنسانية في الإنسان والحيوانية في الحيوان، فالمعلوم عندنا خلق نسل آدم كنسل الحيوان لا أصل آدم ولا أصل الحيوان وهذا هو قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: جعلنا نسله ﴿ نُطْفَةً ﴾ وهي المني ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ حريز، وهو الرحم، وإنّما سمي مكيناً لاستقرار النطفة فيه إلى وقت الولادة في درجة حرارة خاصة، وربما كان ذلك الاستقرار في الآية مشيراً إلى ما يقوله قدماؤنا من الفلاسفة: إن تلك الحرارة حفظت وبقيت منذ كان الأصل في خط الاستواء، وسترى ما يشير لذلك قريباً من المنقول على النقوش اللوحية المترجمة من الآثار الهندية، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي: صيرنا النطفة قطعة دم جامد ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي: جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ بأن ميزنا ما بينهما، فما كان من العناصر الداخلة فيها مواد للعظم جعلناه عظاماً، وما كان مواد للحم جعلناه لحماً، فإن المواد الغذائية شاملة لذلك كله، وهي بعينها منبثة في الدم وهو قوله: ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ وهناك ينمو الجنين نماء مطرداً وهو قوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ بأن نفخنا فيه الروح وجعلناه حيواناً بعدما كان أشبه بالجماد ناطقاً، لا أبكم، سميعاً بصيراً، وأودعنا فيه

من الغرائب ظاهراً وباطناً ما لا يحصى ، وجميع أعضائه مقسمات تقسيماً حسناً مقيسة بشبره ، بحيث يكون طوله ثمانية أشبار بقياسه ، وإذا مد يديه إلى أعلى كان عشرة أشبار بشبره هو ، وإذا مد يديه إلى الجهتين كان طولهما كطوله على السواء . وقد تقدم في هذا التفسير عجائب خلقته في مواضع مختلفة ، وفيها يظهر لك أن الجميل وغير الجميل من النسبة القياسية الشبرية ، فالشبر كان الأساس الذي وضعه الله لقياس بدن الإنسان . ولذلك لما كان قدماء المصريين يعلمون علوماً يجهلها الناس الآن جعلوا أصل المقياس الشبر . ألا ترى أن الهرم الأكبر للجيزة طول كل ضلع من أضلاعه ألف شبر بشبر الإنسان ، وهذا الهرم مقيس على حسب مدار الشمس السنوي وطوله ومنسوب إليه ، ومن هذا الهرم وحسابه يكون الأردب والويبة والكيلة ، وكذلك الرطل والأوقية والدرهم وما أشبهها . كل ذلك مبني على الهرم ومقياسه وكذلك الفدّان المقيس عندهم بمقياس غير القصبة الحالية ، وهو موضوع في الهرم الأكبر . وعسى أن يذكرني الله ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن : ٧-٨] ، كما ذكرني بذلك في سورة « يونس » ووضحته ، فإذا وفق الله لذلك ووصلت إلى سورة « الرحمن » شرحت هذا المقام إن شاء الله لتعجب من علوم الأمم وفقهها في نظام الدنيا ، وكيف جعلوا شبر الإنسان أصل المقاييس ، وكيف نكيل ونزن ونبيع ونشتري في أسواقنا ولا علم لنا أننا نقيس ونزن ونكيل بما هو من نتائج أشبارنا التي قدرها الله لنا في الأرحام وجعلها في مضمون هذه الآية ، إذ أنشأنا الله خلقاً آخر فيجعل الطفل مستهلاً ثم قاعداً ثم قائماً ثم ماشياً ثم يفطم ويأكل ويشرب ويبلغ الحلم ويتقلب في البلاد ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ استحق التعظيم والثناء في الأزل وفيما لا يزال ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ المصورين والمقدرين ، ويقال : إن الناس يخلقون ، أي : يقدرون الأشياء ، كما قيل :

فلأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

أي : أنت تقدر الأمور وتقطعها ، وغيرك يقدر ولا يقطع ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ لصائرون إلى الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ للمحاسبة والمجازاة ، وليس خلقكم على هذا النظام وبعثكم بلا أسباب استوجبته فكما خلقناكم من ماء مهين والأسباب والمسببات متلاحقة منتظمة بحساب ونظام لا بالمصادفة والاتفاق ، هكذا كانت الأسباب السابقة على خلقكم ، فأول الأسباب عالم الملائكة والعقول التي تهيمن على عالمكم ، ويلي هؤلاء عالم السماوات ومنها الطرائق السبع التي هي أقرب إليكم من غيرها ، جمع طريقة ، وهي طرق الكواكب المعروفة عند البشر في هذه الأرض وهي سبعة ، وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثاً ، وقد مر الكلام على ذلك في سورة « البقرة » فالموضوع هناك مستوفى وكذا في سور أخرى . فهذه الطرق السبعة تسير فيها الكواكب بحساب منظم متقن لا خلل فيها ، وهذا قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ ﴾ أي : المخلوق ، وهي تلك الطرق وغيرها من جميع المخلوقات ﴿ غَٰفِلِينَ ﴾ مهملين أمرها ، وكيف نهملها ولو أنا أهملناها لحظة لاختلت الموازنة بأن يسير كوكب في غير مداره أو يزل نجم عن سنن سيره فيختل النظام العام . وبسير الكواكب ومنها الشمس تنتقل الحرارة في الأقطار الأرضية ، وهذه الحرارة تكون أوفر في خط الاستواء ، وينشأ منها بخار يعلو إلى طبقات الجو فيبرد تارة في خط الاستواء فيهطل

هناك وتارة في المنطقتين المعتدلتين. وبتنوع الرياح من موسمية وتجارية وتجارية ضدية ودورية تتنوع الأمطار وتهطل في أماكن مختلفة، فالجو في أعلاه بارد، وحرارة الشمس تؤثر في سطح الأرض فيرتفع البخار وتتموج الرياح، فإذا سارت من المنطقتين المعتدلتين إلى الدائرتين القطبيتين قابلت هناك جواً بارداً فأمطرت. فالأقطار الباردة والجو الأعلى سيان في البرودة فهناك تكون الأمطار وتنزل على الأقطار. ومتى قابلت الريح الباردة جواً حاراً وفيها بخار تفرق ذلك البخار، فإن الحرارة تفرق والبرودة تجمع وتضم ـ وقد تقدم تفصيل الكلام في التفسير ـ وهذا المطر ينزل على الجبال وعلى السهول فيخزن في الجبال ويصير فوقها ثلجاً، فإذا سلطت عليه حرارة الشمس ذاب الثلج من فوق الجبال قليلاً قليلاً فنزل على اليابسة ليمد الأنهار، والأنهار تسير لتسقي المزارع، وهكذا باطن الجبل يبرد الماء فيه فيكبر حجمه عند صيرورته ثلجاً فيكسر ما فوقه من الأحجار فتتفجر الينابيع فيجري الماء فتزيد الأنهار. فالجبال مخازن خزن الله فيها الماء لينزل في زمن لا ينزل فيه المطر، وهذه المعاني هي التي في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير يكثر نفعه ويقل ضرره، كما رأيت من إحكام الجبال وإتقان عنصر الماء بحيث يكبر حجمه إذا برد، وجميع السوائل ليست على هذه الشاكلة، وخص الماء بهذا الوصف ليكون كبر الحجم مفتاحاً تفتح به خزائن الرحمة وبدائع الحكمة ويكون درساً للمسلمين ونبراساً للشبان ليفتحوا به خزائن الحكمة كما فتح به خزائن الماء المخزون في داخل الجبل المنصب من أعلاه في المغارات والكهوف والأماكن الواسعة في جوف الجبال، ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: جعلناه ثابتاً فيها، فمنه ما في الجبال، ومنه ما يكون في مجاري تجري من خط الاستواء مارة بباطن الأرض القريب والبعيد، ويمر على معادن مختلفة فيتشكل بشكلها ويتصف بصفاتها، فمنه النوشادري ومنه الكبريتي ومنه الملحي وهكذا من أنواع المياه، وهذه المياه هي القريبة من سطح الأرض، وهناك مياه بعيدة الغور بعيدة العمق يقال لها المياه الارتوازية، وهذه مياه في بلادنا المصرية صافية نقية جميلة خالصة لا تأثير لشيء عليها صالحة للشرب تبعد عشرات الأمتار عن سطح الأرض، بل هو نيل آخر غير النيل الذي على وجه الأرض يأتي من جبال القمر التي منها ينبع نيل مصر ويمر كما يمر نيلنا من هناك إلى البحر الأبيض المتوسط، وهذا النهر لا يتوصل إليه إلا بمشقة لشدة بعده، والماء الذي يخرج منه يكون مرتفعاً جداً لأن منبعه من خط الاستواء في علو شاهق، ومن عجب أن ذلك النيل الباطني صالح للشرب، والنيل الظاهر صالح للزراعة ولا يصلح للشرب في أيام النيل إلا بعد غليه وتصفيته مما فيه من المواد الغريبة، لأن هذا الماء فيه حيوانات ضارة فغليه يقتلها فليكن صافياً من المواد وليكن مغلياً، فهذه المياه كلها في ظاهر الأرض وباطنها من ماء المطر النازل من السماء الذي كان بخاراً من البحر الملح وغيره ثم صار سحاباً فأجرته الرياح، وكل ذلك بسبب الشمس التي تجري في طريقة من الطرائق المذكورة، فإذا كان هذا كله بتقديرنا فإنا قادرون أن نغير الأسباب فنغير مجرى الشمس عن المدار فيختل ذلك كله فلا مطر ولا ماء ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ أي: على إزالته بإفساده بأن نجعل الماء كله ملحاً بحيث نجعل الملح صاعداً من البحر مع البخار بطرق أخرى، أو بأن نزيد الحرارة على أنهاركم فيصير الماء بخاراً، أو نفتح في الأرض فتحات عظيمة فيغور

ذلك الماء وغير ذلك، لم نفعل ذلك بل أبقيناه ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ بالماء ﴿ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في الجنات ﴿ فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ تتفكهون بها ﴿ وَمِنْهَا ﴾ ومن الجنات ثمارها وزرعها ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ ترتزقون وتحصلون معايشكم ﴿ وَشَجَرَةً ﴾ عطف على جنات ﴿ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وهو طور سينين. يقول الله: وأنشأنا لكم به شجرة وهي الزيتون تخرج من طور سيناء، وسيناء اسم للمكان الذي فيه الجبل المذكور ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ أي: ملتبسة بالدهن ومصطحبة به ﴿ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ معطوف على الدهن فهي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به ويسرج منه وكونه إداماً يصبغ به الخبز، أي: يغمس فيه للائتدام به.

واعلم أن زيت الزيتون له مزايا فلأذكر منها ما يهم فأقول: تعلم أيها الذكي أن الطاعون قد يحل بالبلاد أثر الحوادث الحربية والوقائع العظيمة وغير ذلك. ولقد كتب طبيب مصري في الجرائد المصرية يقول: إن العلماء بحثوا في أهم الأدوية لتجنب الطاعون، وما الطاعون إلا مرض والأمراض لها أدوية علمها من علمها وجهلها من جهلها. ولقد عرف الناس اليوم أن المعامل التي فيها يعمل الزيت المستخرج من الزيتون لا يستضر العاملون فيها بالطاعون بل يمر عليهم ولا يؤثر فيهم. هكذا الذين يعملون في الزيوت الأخرى، ولكن أهمها زيت الزيتون، ولقد شرح ذلك شرحاً وافياً على صفحات الجرائد، فأردت ذكره هنا ليعلمه الناس ويدرسوه؛ ولقد وصف ذلك الطبيب وغيره وصفاً مؤقتاً لمن لم يعتد شرب الزيت أو الائتدام به، فحتم على المطعون أن يستكن في حجرة ويدلك له جسمه كله بصفات خاصة فيكون ذلك دواء له، ولكن الذي يهمنا أن الآكلين له المؤتدمين به لا يغشاهم الطاعون، وهذا من سر قوله تعالى: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾[النور: ٣٥] فهذه الشجرة مباركة، ومن بركتها النجاة من الطاعون لمن أكل زيتها بل كل من اعتادوا أكل أنواع الزيوت الأخرى يتجنبهم الطاعون، ولكن زيت الزيتون أهم منها وهذا لم يعرفوه إلا بالتجربة وبالمصادفة، إن في ذكر الزيتون وحده واختصاصه بالذكر لمزيات ومنها ما ذكرناه.

إن أنواع الفواكه إما سكرية وإما مائية وإما حمضية وإما عطرية وإما زيتية، فالأولى كالتمر والعنب، والثانية كالخيار والقثاء، والثالثة كالليمون، والرابعة كالتفاح، والخامسة كالزيتون. فالفواكه يدخل فيها هذه الأقسام، فلم اختص الزيتون وحده بالذكر؟ إن الزيتون يضيء ويؤتدم به ويمنع الطاعون لمن أدام أكله، ولما كان فيه مزية الإشراق والإضاءة جاء ذكره بعد هذه السورة في التمثيل بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[النور: ٣٥] الخ، فليس في التمر ولا في العنب ولا في بقية الفواكه المعروفة ما يستضاء به، فأفردها بالذكر وكأنه يقول لقارئ هذه السورة: تأمل في شجرة الزيتون فقد أفردتها بالذكر، وتنبه لها فإن أهم ما في حياتكم الدنيا أن تكون نفوسكم مشرقة ولا فائدة في نخلكم ولا عنبكم ولا بقية الفواكه ولا نجاتكم من الطاعون، فكل هذا قليل في جانب إشراق قلوبكم وخلوصكم من هذه الأرض المملوءة من الظلمة والرجس والخبث، فتنبه أيها القارئ لكتابتي لهذه الشجرة، فإنها ستأتي في المثل الذي ضربناه في سورة «النور» بعد هذه، وسميت السورة كلها بالاسم الذي جيء به من الضوء الذي يوقد من الشجرة المباركة التي ذكرناها هنا وحدها وأفردناها بالذكر وذكرناها في سورة «التين».

ولما كان الماء به يخرج الشجر والنبات، وهما مقدمتان لخلق الحيوان كما هو مقرر في الحكمة وكان هذا كله مقدمة لخلق الإنسان، شرع يذكر خلق الحيوان كما تقدم في السور السابقة: «الحجر» و«النحل» و«طه» و«الأنبياء» و«الحج»، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ أي: إن لكم في الأنعام آية تعتبرون بها، وذلك أن اللبن يكون خلاصته من الدم المستخلص من الغذاء كالتبن وأوراق الشجر والحب الذي يزدرده الحيوان فيهضم فيكون كيموساً ثم كيلوساً ثم ينقلب دماً، وما بقي بعد الخلاصة التي تكون دماً يصير فرثاً يخرج من منفذه، وما زاد من الماء يفرز فيخرج من منفذه. فالفرث والدم كلاهما في جسم الحيوان. الأول في الأمعاء الغلاظ والدقاق، والثاني في العروق بقسميها، وهي الشرايين والأوردة، ومع ذلك لا يختلط الفرث بمجاري اللبن ولا الدم، ولو شاء الله لغير الوضع فلم يخلص لكم اللبن، كما لو شاء لغير وضع الكواكب والرياح، فلم يكن الماء على الأوضاع المتقدمة فشربتموه، ثم قال: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها وغير ذلك مما يعرف بالبحث ومتى تركتم البحث فيها وفي غيرها من منافع خلقي حرمتكم منها وسلطت عليكم غيركم، لأني لا أعطي النعمة إلا لمن يشكرها، أيضاً جميع العلوم فرض كفاية. فليقم فيكم من يعرفون ويخصص لكل علم طائفة. ثم قال: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فتنتفعون بأعيانها ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي: وعلى الأنعام التي منها الإبل تحملون، والإبل سفائن البرّ. قال ذو الرمة:

* سفينة برّ تحت خدي زمامها *

يقول الله: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي: سفن البحر ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ فأنتم تحملون في البر وفي البحر. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الأول، وفيه ثلاث لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[الآية: ١٢].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾[الآية: ١٧].

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾[الآية: ٢١] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾

قد قلت لك: إن قدماءنا كعلماء كتاب «إخوان الصفا» كانوا يقولون: إن أصل الحيوان تولد في خط الاستواء، ومن عجب أن يكون لهذا القول شبه دليل وإن كانت الحقيقة لا تزال خافية. فانظر كيف جاء في جرائدنا المصرية في يوم الاثنين ٩ مارس سنة ١٩٢٤م في أثناء تفسير هذه السورة ما نصه:

رأي جديد في مهد البشرية وحضارة ما قبل التاريخ

كتب الكولونيل «جيمس شيرشوار» الضابط بالجيش الإنجليزي ومن المشتغلين بعلم الآثار يقول: إنه عثر في الهند على ١٢٥ لوحة عليها كتابات قديمة، وإنه ترجم هذه الكتابات بمساعدة كثيرين من علماء البوذيين، واستخلص مما حوته أن مهد البشرية لم يكن في العراق ولا في الأناضول، بل في قارة كانت قائمة على خط الاستواء اسمها «مو» قارة في الأوقيانوس الباسفيكي قبل ١٥ ألف سنة، وزاد على ذلك أن الكتابات التي عثر عليها تشير إلى أن جنة عدن كانت في هذه القارة قبل ١٣ ألف سنة. ومما قاله الكولونيل «جيمس شيرشوار» في مقالاته المفصلة عن هذا الاكتشاف أن حضارة

سلطنة « مو » كانت أعظم من جميع الحضارات التي عرفها البشر فيما بعد، فقد كانت لأجدادنا قبل ١٣ ألف سنة اختراعات ذهب سرها مع الزمن، وكانت جيوش سلطنة « مو » مجهزة بطيارات كبيرة تسع الواحدة منها ٢٠ جندياً وتسير بمحركات بسيطة مستخدمة لقوى الطبيعة التي يسعى العلم الآن إلى الاستفادة منها في هذه الأيام. وقد جاء في الكتابة المكتشفة أخيراً أن قائداً اسمه « رمنسدر » من قواد سلطنة « مو » طار من عاصمة سيلان إلى الهند الشمالية دفعة واحدة، وأن جنوده كانت مجهزة بأسلحة نارية، وأن البارود كان معروفاً في ذلك الحين، ولكن وقعت زلزلتان قبل ١٣ ألف سنة دمرتا قارة « مو » فابتلعت مياه الأوقيانوس سكانها وقصورها ومدنها وآثارها. أما أسباب الزلزلة فقد وصفت في الكتابات القديمة التي كشفها الكولونيل « جيمس شيرشوار » كما يلي:

كانت قارة « مو » تحتوي على تجاويف مملوءة غازاً، وحدث أن ظهر بركان فيها فانفجرت النار في هذه التجاويف ونسف القارة إلا بعض أنحاء منها تعرف اليوم باسم جزر « هاواي ». انتهى.

واعلم أن هذا القول يشهد لما يقوله علماء الهند ونقله « إخوان الصفا » أن العالم يحصل له انقلاب في كل ٣٦ ألف سنة، فيصير البرّ بحراً والبحر براً والخراب عامراً والعامر خراباً، فإذا صح هذا النبأ يكون ما يكون ما يقوله القوم له آثار لأنه منقول عن علماء البوذيين، وهذه المدة تسمى مدة تقدم الاعتدالين، وقد حسبها علماء العصر الحاضر فوجدوها ٢٥ ألف سنة والله أعلم بالحقيقة.

والذي يهمنا في هذا المقام أنهم ذكروا أن هناك جنة عدن، وأن القارة تحت خط الاستواء، وجعلوها منشأ الجنس البشري، وهذا القول بعينه هو المنقول في « إخوان الصفا » عن الهنود، والله يعلم، والناس يتعلمون.

هداية نجمت من هذه الآيات

أيها العلماء، أيها الأذكياء في الأمة الإسلامية. انظروا إلى هذه الآيات كيف ابتدأ الله بخلقنا من طين وأخذ يتدرّج في الخلق طبقاً عن طبق وحالاً بعد حال إلى أن انتهى إلى إنشائنا خلقاً آخر ثم أماتنا ثم بعثنا، أليس هذا هو التاريخ الطبيعي للإنسان؟ طين ارتقى فصار حياً ثم ارتقى فصار روحاً تقابل ربها. يظن صغار العلماء وجميع الجهلاء أن هذه مسألة قاصرة على خلق الإنسان وعلى ظواهر القول. كلا. إن القرآن نزل هداية للناس. يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٢-٥٣]، ويقول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل: ١٢٥]، ويقول: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦] الخ، ويقول: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]، ويقول: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأنعام: ١٢٦]. فهاهو ذا هنا سبحانه قد فصل لنا آيات الخلق الإنساني وأرانا سبيله وطريقته في نظام التعليم الإنساني وكيف نسير فيه. يقول الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فسبيل الله وسبيل النبي صلى الله عليه وسلم هي أننا نقرأ تاريخ العلوم. فكما أنه مرّ على أدوار الإنسان من النطفة إلى العلقة إلى أن كبر ومات وقابل ربه، هكذا نفعل في جميع العلوم، أي أنه يستحسن أن نسلك فيها هذا المسلك بعينه، فإذا أردنا تلقين علم من العلوم كالنحو والصرف

والبلاغة وعلم الهندسة والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم النفس وعلم الفلك وعلم الموسيقى وهكذا ؛ وجب علينا أن نجمع تاريخ هذا العلم من مبدئه إلى منتهاه، فإذا درسنا علم الفقه فلنورد للطالب تاريخ الفقه مختصراً وكيف كان أصله من الأصول الأربعة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ونتدرّج ونسير معه من عصر الصحابة إلى الأئمة المجتهدين إلى من بعدهم من العلماء إلى وقتنا الحاضر ونستخلص الزبدة ليكون القارئ على بصيرة . وهكذا إذا درسنا علم النبات نبحث في أصل تكوينه من الخلية الصغيرة وتكاثرها ثم أنواع النبات من أدناه إلى أعلاه . وهكذا ندرس تاريخ علمه من حيث المباحث النظرية من مبدأ التاريخ المعروف إلى الآن، والإشارة إلى أهم الكتب وأهم العلماء الذين ألفوا فيه . هذه هي الطريقة والسبيل الوحيد الذي به يكون في الإسلام رجال مثقفون عقلاء علماً وحكمة .

وما مثل العلماء في ذلك إلا كمثل الفلاحين لا ينالون حظاً من حقولهم ولا يكسبون غلة من زروعهم إلا إذا حرثوا الأرض حرثاً جيداً وقلبوها قلباً تاماً، فمتى وضعوا الحب ونزل عليه الماء نبت وازدهى وترعرع، هكذا الطالب لا تبزغ شمس معارفه ولا تزهر إلا إذا بحثنا له عن تاريخ العلوم وفتشناها وآثرنا ما كمن فيها، فهناك يكون نبوغه وظهوره لأنه نبت في أرض العلم الصالحة للإنبات المتخلخلة الأجزاء، فيتوغل فيها بعقله ويدرسها ويمتد في أعماقها بعقله فيزكو فرعه ويزهو زهره ويجود ثمره فيكون خيراً لأمته .

هذه سبيل الله في التعليم وهذا هو الصراط المستقيم . وإذا كنا نرى الإمام الشافعي مثلاً رضي الله عنه يدقق في مسألة الوضوء ويأمر أن تغسل الوجوه أولاً كما ذكرها الله أولاً ويجعل اتباع ترتيبه واجباً : فأغسل وجهي ثم يدي ثم أمسح رأسي ثم أغسل رجلي . لماذا هذا؟ لأن الله ذكرها هكذا مرتبة . إذا كان هذا رأي أكابر الأمة في مسألة الوضوء الذي لا يضر فيه أن نؤخر وجهاً عن يد ولا أن نقدم رجلاً على رأس فإن المقصود من النظافة حاصل على كل حال . فكيف تكون حالنا في العلوم التي هي واجبة وجوباً كفائياً على القادرين من الأمة؟ أقول : كيف تكون حالنا فيها؟ أفلا ننهج النهج الذي سنه الله ونرجع دائماً إلى تاريخ كل العلوم فندرسها لأبنائنا أولاً حتى يكونوا قد اطلعوا على ملخص تاريخها ليكونوا أقرب إلى الحقائق وأكثر استعداداً للاجتهاد .

هذه هي الحياة الإسلامية، وهذه سبيل ربك، وهذا هو الصراط المستقيم صراط الله . يأمرنا الشافعي رحمه الله أن نبدأ بما بدأ الله به .

أفلا يجب علينا أو على الأقل ينبغي لنا أن ننهج ما نهجه الله في تعليمنا فنلخص تاريخ العلوم كما لخص الله تاريخ خلق الإنسان . ولقد قام بنوع من هذا العمل صاحب «كشف الظنون» التركي المتوفى في القرن الحادي عشر الهجري، فإنه ذكر تاريخ العلوم وذكر الكتب المؤلفة في كل علم . وهذه طريقة أوروبا في تعليم العلوم جميعها، ولذلك نسمعهم يقولون : التاريخ الطبيعي . التاريخ البشري . التاريخ الأثري . التاريخ الرياضي وهكذا .

بهذا فاقونا وازدروا بالشرقيين لجهالتهم ونومهم العميق . أوروبا نهجت نهج القرآن واتبعت سبيله في التعليم، ولكن لا تظن أني أقول : إنها اتبعته فعلاً . كلا، لأنها تجهله، وإنما هي سارت على

السبيل الذي في القرآن وإن لم يعلموه، فلما اطلعنا على طريقتهم رأيناها هي التي يرشد لها القرآن. فعلى المسلمين أن يسلكوا نفس هذه السبيل.

إنك أيها الذكي سواء أكنت من ذوي المال أو الجاه أو العلم مسؤول عما أكتبه الآن، فكن خير هاد ومرشد للعلماء وللطلبة، وجاهد في ذلك حق الجهاد، واحذر أن تضن بموهبتك فالله سائلك كما أني مسؤول وقد قدمت لك ما أقدر عليه، فلتقم بما وجب عليك شكراً لربك وتعليماً لأمتك وازدياداً لعقلك وعلواً لشرفك وعظمة لقدرك، فسعيك لرقي أمتك نافع لك في الدارين. اهـ.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

اعلم أن الله عز وجل لم يكرر خلق الإنسان في مواضع من القرآن إلا لما فيه من العجائب والبدائع وإتقان الصنع وإبداع التركيب. ولقد تقدم في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٦] بدائع من تركيب جسم الإنسان وبيان طبقات العين والأذن ورسمهما وعجائب نظامهما، وكيف كان في الأذن تعاريج في الداخل مشروحة هناك بعد رسمها، وكيف كان هناك ما يسميه علماء الطب الحديث «عصي كورتي» جمع عصاة، وهي عبارة عن شعرات دقيقات لا ترى بالعين، وإنما ترى بالآلات المصورات، ووظيفتها على ما يظن اليوم أنها تؤدي صور الأصوات المختلفات بحيث توصل كل واحدة منهن نوعاً من الصوت إلى القوة الحاكمة في الدماغ: فمنها ما توصل صوت الإبرة مثلاً عند وقوعها، ومنها ما توصل صوت قلة المدفع عند انطلاقها، ومنها ما توصل الصوت الهادي، ومنها ما توصل الصوت المرتفع، وهكذا مما لا يمكن إحصاؤه وتلك الشعرات قد خلقت في مادة سائلة في الأذن الداخلة وهذه وظيفتها فارجع إلى ما هناك تجد شرحاً وافياً. وهكذا ترى العين ووظائف طبقاتها طبقة طبقة، وكيف كانت سبع طبقات وثلاث رطوبات وما وظيفة كل منها. وهناك أيضاً تجد أجهزة الجسم الإنساني مفصلة موضحة مبدعة أيما إبداع بحيث تجد بينها وبين ما في المدن من الصناعات موافقة تامة. فكما أن في المدن من يصنعون اللبن ويحرقونه فيصير آجراً هكذا جسم الإنسان فيه قوى أودع مبدع الكون الحكيم بها ما يصور من المادة الدموية عظاماً صلبة. فهاهي ذه العظام المتينة قام بها الجسم الإنساني كما يقوم البيت بالآجر إذا بني به، ولكن آجر البيت قد صنعناه بطرق معروفة مشاهدة، فإننا خلطنا التبن بالتراب ومزجناهما بالماء ووضعناهما في قالب خاص، ثم جففنا ذلك في الشمس فصار لبناً جمع لبنة، ثم وضعنا ذلك اللبن بعضه على بعض بهيئة خاصة وأوقدنا عليه النار أياماً وليالي حتى احترق ثم بنينا به المنزل. أما العظام في جسم الإنسان فإننا ألفيناها صلبة بلا عمل منا ولا نار أوقدناها، بل الأمر فيها عجيب فإنها صارت صلبة منظمة مرة واحدة فهي لبن فآجر مبني منظم. ففي المنازل نرى الأعمال يتبع بعضها بعضاً ونرى الصناع كذلك. أما هنا فإنا لا نرى من يضرب اللبن ولا من يجعله آجراً ولا من يبنيه ولا من يهندس البناء. ومع أننا لا نرى العمال التي فعلت ذلك نجد أن هذه الصناعات كلها تصنع في آن واحد، فيكون البناء مصاحباً صنع آلاته بنظام تام وإتقان في العمل. وأيضاً كما أننا نرى في المدن الكناسين والزبالين

نجد في الجسم الإنساني أجهزة لإخراج ما في الجسم من بقايا الأطعمة التي إذا بقيت فيه أضرّت به، مثال ذلك: الكليتان والحالبان والمثانة ومجرى البول. فهذه وضعت لإخراج الفضلة المائية وهكذا وضعت الأمعاء وما يليها لإخراج الفضلات الغليظة. وأيضاً كما أن في المدن من ينسجون الحرير والرقيق من الثياب، هكذا نجد في الجسم الإنساني تلك الطبقات الرقيقة والأعمال الدقيقة في العين التي لو خلقت خشنة لأضرّت بحاسة الإبصار. وإن أردت استيفاء هذا المقام فاقرأه هناك فإنك تجد جدولاً فيه صناعات المدن موازية بالعجائب التي في جسم الإنسان بهيئة منظمة، وعدد تلك الموازنات ٢٣ نوعاً، وقد شرحت هناك نظام العقل الإنساني بعد نظام الجسم ليكون العاقل على بصيرة من أمر جسمه وأمر عقله وإن كان ذلك بطريق إجماليّ.

هذا ما ذكرته هناك فاقرأه إن شئت، ثم اسمع ما أتلوه عليك الآن من عجائب صنع الله وبدائع حكمه في أجسامنا فوق ما تقدم. ولعمر الله إني حينما قرأت ما ستسمعه الآن خطر لي خاطران متباينان: خاطر العظمة والمجد والشرف والعلو، لأني رأيت هذا الجسم الإنساني متقناً إتقاناً لا حد لجماله ولا نهاية لكماله كما ستراه وهو مسكن أرواحنا. وقد اعتنى صانعه به عناية تفوق العناية بتركيب الماء والهواء والمعدن والنبات وكل حيوان، فأجسامنا مبدعة إبداعاً غريباً بديعاً عجيباً.

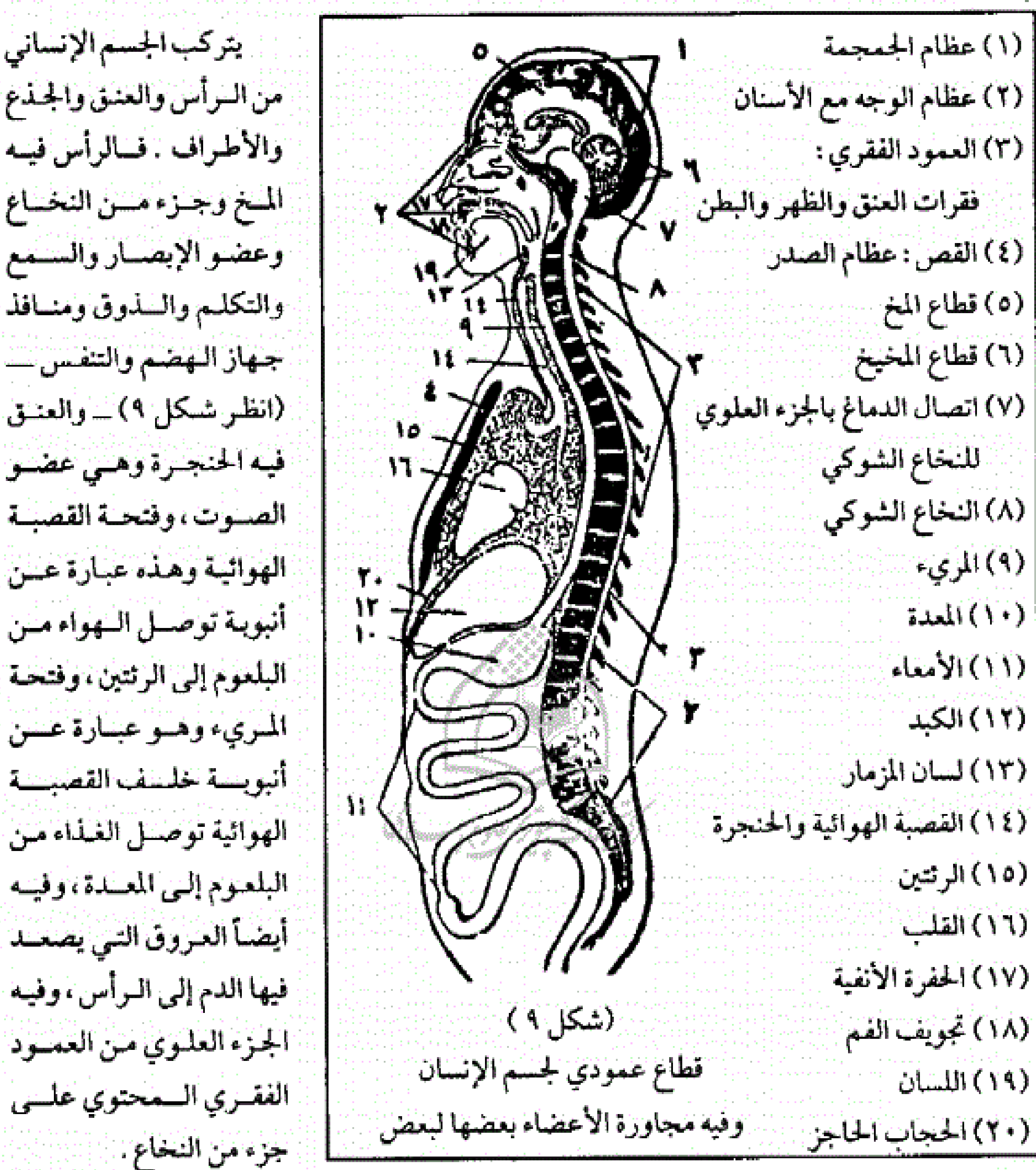
فمن هذا الوجه قلت في نفسي: نحن معاشر بني آدم فوق متناول الوصف وأرواحنا بهية جميلة بديعة، ودليلي على ذلك هذه المساكن التي أعدت لها قبل هبوطها إلى عالمنا الأرضي. إني قد خطر لنفسي هذا الخاطر وصار ثابتاً قوياً، وما أشبه هذه الروح الإنسانية إلا بملك عظيم الشأن رفيع المنزلة أراد أن يزور قرية من القرى أو مدينة من المدن فأعدوا له منزلاً شريفاً ومقاماً كريماً على مقدار منزلته، ولقد رأينا من طبع هذا النوع الإنساني أن يعد للقادمين من الإكرام ما يوافق منازلهم ويناسب مقاماتهم. فعلى هذا القياس إذا قرأت ما سأكتبه لك الآن مفصلاً ورأيت أن روحك قد حلت في هذه المدينة البديعة المنظمة التي لا نظير لها في مدن الأرض وهي جسمك، أيقنت لا محالة أن أرواحنا عالية الشأن، وعلو شأنها على مقدار إتقان أجسامنا. هذا هو الخاطر الأول.

أما الخاطر الثاني فهو يناقض الأول على خط مستقيم. ذلك أني قد خجلت واعتراني الأسف والأسى. ذلك أن هذا النوع الإنساني كله إلا قليلاً يعيشون ويموتون وهم يجهلون هذا الهيكل كما يجهلون نظام أرواحهم، وأنا واحد منهم، فنحن نعيش ونموت ونحن نجهل بدائع التركيب في أجسامنا، ولا جرم أن هذا مما يخجل له الإنسان، فكيف تعيش روحي في هذا الجسم وتستعمله وهو مركب تركيباً أبدع من كل تركيب في أرضنا وهي لا تعقل منه شيئاً؟ وإذا عقلت شيئاً كالذي ستقرؤه في نظام اليد الإنسانية أيقنت أن ما جهلته هو كل شيء، وأن ما علمته هو لا شيء، فالإنسان كله غافل عن نفسه يعيش ويموت وهو ظلوم كفار.

ولعلك تقول: ما الذي تريد ذكره الآن مما أثار فيك هذين الخاطرين من تشريح جسم الإنسان؟ أقول لك بعض ما جاء في كتاب «قانون الصحة المنزلي» تأليف الدكتور «جون سايكس» الذي عربه قلم صحة المعارف المصرية المطبوع سنة ١٩٢٤م، وهذا نصه:

الفصل الثاني : في تركيب جسم الإنسان . يجب معرفة تركيب الجسم بالاختصار ليسهل معرفة وظائفه .

يتركب الجسم الإنساني من الرأس والعنق والجذع والأطراف . فالرأس فيه المخ وجزء من النخاع وعضو الإبصار والسمع والتكلم والذوق ومنافذ جهاز الهضم والتنفس — (انظر شكل ٩) — والعنق فيه الحنجرة وهي عضو الصوت ، وفتحة القصبة الهوائية وهذه عبارة عن أنبوبة توصل الهواء من البلعوم إلى الرئتين ، وفتحة المريء وهو عبارة عن أنبوبة خلف القصبة الهوائية توصل الغذاء من البلعوم إلى المعدة ، وفيه أيضاً العروق التي يصعد فيها الدم إلى الرأس ، وفيه الجزء العلوي من العمود الفقري المحتوي على جزء من النخاع .



(شكل ٩)
قطاع عمودي لجسم الإنسان
وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض

والجذع مركب من جزأين علوي وسفلي ، فالعلوي هو الصدر وهو تجويف مخروطي الشكل محدود من الخلف بالعمود الفقري ، ومن الجانبين والأمام بالأضلاع وعظام القص ، والصدر يحتوي في الجهة اليسرى المقدمة على القلب والشرايين الكبيرة وعلى الرئتين . وينتهي الصدر من الأسفل بالحجاب الحاجز الفاصل بين جزأي الجذع ؛ ويخترق هذا الحجاب شريان عظيم « الأورطي » والمريء والوريد الأجوف السفلي والقناة الليمفاوية . والسفلي هو البطن المكون من الأمام والجانبين من عضلات ، ومن الخلف منها ومن العمود الفقري ، وينتهي من أعلاه بالحجاب الحاجز ومن أسفل بعظام الحوض ، ويحتوي على الأعضاء الآتية ، وهي : الكبد والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والبنكرياس والطحال والكليتان والمثانة .

فالكبد يشغل الجهة اليمنى العليا من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة، والمعدة معظمها في الجهة اليسرى العليا. والأمعاء الدقيقة تملأ الفراغ أمام المعدة وأسفلها، وطولها نحو ستة أمتار. والغليظة تبتدئ من أسفل الجانب الأيمن للبطن ثم تصعد نحو الكبد ثم تتجه إلى الشمال مارة أسفل المعدة ثم إلى الأسفل مخترقة الحوض وتنتهي بالمستقيم، وطولها نحو متر وثمانية سنتيمترات. والبنكرياس محله خلف المعدة. والطحال محله في الجانب الأيسر تحت الحجاب الحاجز. والكليتان مجاورتان للعمود الفقري، واليمنى تحت الكبد واليسرى تحت الطحال. والمثانة موجودة في أسفل البطن أمام المستقيم، والأطراف أربعة: الذراعان والطرفان السفليان، ولا حاجة لشرح أجزائهما، وأجهزة الجسم هي:

(١) جهاز الحركة: ويدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الإرادية وأوتارها.

(٢) الجهاز الدوري: وأعضاؤه ثلاثة: القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية.

(٣) الجهاز التنفسي: وأعضاؤه أربعة: الحنجرة والقصبة والشعب والرئتان.

(٤) الجهاز الهضمي: وأعضاؤه تسعة: الفم والأسنان وغدد اللعاب والبلعوم والمريء والمعدة والبنكرياس والكبد والأمعاء.

(٥) الجهاز الليمفاوي: وأعضاؤه: عروق الدم الأبيض والأوعية اللبنية والطحال وبعض الغدد.

(٦) الجهاز البولي: وأعضاؤه: الكلى والحالبان والمثانة ومجرى البول.

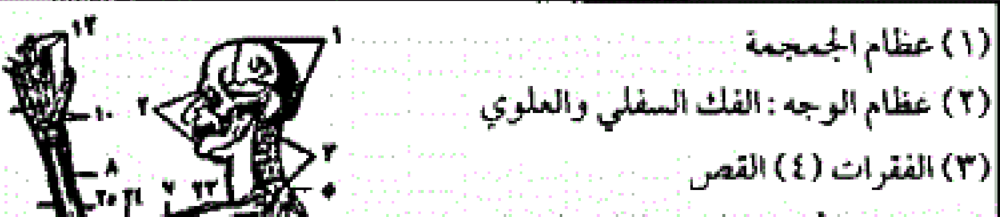
(٧) الجهاز الجلدي: وأعضاؤه: غدد العرق والغدد الدهنية والشعر والأظافر وطبقات الجلد.

(٨) الجهاز العصبي: وأعضاؤه: المخ والنخاع والأعصاب بأنواعها وأعصاب الحواس الخمس.

جهاز الحركة

يتكون هذا الجهاز من الهيكل العظمي الذي تتصل عظامه بعضها ببعض بواسطة المفاصل، ومن العضلات التي تحركها وتحرك العظام.

الأطراف السفلى تحمل الحوض الذي يتصل بها، وتحمل العمود الفقري الذي يحمل من أعلاه الجمجمة ويتصل به في جزئه الخلفي اثنا عشر زوجاً من الأضلاع، وبذلك يتكون الصدر المتصلة به الأطراف العليا.



(شكل ١٠)

ولما نقلت ما تقدم من الكتاب المذكور واطلع عليه أحد الفضلاء، قال لي: هذا كلام الأطباء، وهو مقال مجمل والإجمال غير التفصيل، فاذكر لنا مثلاً يبين تلك الأجهزة وعجائبها، ثم بعد ذلك اذكر أبدع ما تراه في هذا المقام. فقلت: سأجعل ذلك في فصلين: الفصل الأول في عجائب تلك الأجهزة بضرب مثل. الفصل الثاني في أبدع ما رأيته في هذا المقام.

الفصل الأول: في ضرب مثل لعجائب هذه الحكم في جسم الإنسان

تصور أيها الذكي أنك في حديقة فيها من كل فاكهة زوجان، ورأيت ضروب الثمار تحيط بك، ونظرت عينك تلك الأنواع فاخترت منها فاكهة التفاح، فماذا حصل؟ اقتطفت منها تفاحة وقشرتها وأكلتها. فهذا هو المثل الذي أضربه لك، وبيانه أننا نرى أن في بيوتنا أزراراً كهربائية وتلك الأزرار متصلة بسلك الكهرباء واصلة إلى داخل بيوتنا منتهية بأجراس، فإذا ضغط الزائر على الزر الكهربائي سمع أهل البيت صلصلة الجرس فأرسلوا خادماً يفتح الباب ويدخل الزائر في المنزل. وهكذا يحصل في أجسامنا. ألا ترى أن أعيننا لما رأت التفاح وصلت الصورة المرسومة على شبكية العين إلى أعصاب الحس، وعرفتها القوة الحاكمة في الدماغ فأوعزت إلى أعصاب الحركة فحركت اليدين فاقتطفنا هذه التفاحة، فالزائر في مثال المنزل أشبه بنفس التفاحة هنا، وإرسال صورة التفاحة من شبكة العين إلى القوة الحاكمة في الدماغ أشبه بمرور التيار الكهربائي عند الضغط على الزر الكهربائي، ونفس العين أشبه بنفس الزر الكهربائي، وأهل المنزل في الداخل أشبه بالقوة الحاكمة في الدماغ، وإرسال الخادم لفتح الباب أشبه بما تفعله القوة الحاكمة في الدماغ من تحريك أعصاب الحركة، فتحرك اليد لأخذ التفاحة ووضع التفاحة في الفم وأكلها أشبه بدخول القادم منازلنا، هذا أول عمل من أعمالنا في هذه التفاحة، ولقد تم هذا العمل بقوة الجهاز العصبي والجهاز المعد للحركة. أما الجهاز العصبي فإن العين لما رأت التفاحة وعرضتها على القوة الحاكمة لم تجد لها سبيلاً إلا أعصاب الحس، وأعصاب الحس متصلة من العين وبقية الحواس بالنخاع والمخ. فلولا هذا الجهاز وأعصابه ما أمكننا أن نعرف لون التفاحة وشكلها ووصفها ولا طعمها، بل كنا لا نفرق بين اللبن والآجر والتفاح والحجر، فالجهاز العصبي المذكور به أدركنا مزية تلك التفاحة. اللهم إنك أدهشتنا بصنعك في أجسامنا وأخجلتنا بجهلنا العظيم، حتى إن كثيراً من الأطباء يا الله لا يعجبون من ذلك لعدم إحساسهم ببهجة الجمال وإن كانوا يبصرون نظامه.

أما الجهاز المعد للحركة، وهو الذي تقدم أنه يدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الإرادية وأوتارها فإن عمله في التفاحة لا يكون إلا بعد تمام عمل الجهاز العصبي، ألا ترى رعاك الله أن صورة التفاحة لما وصلت إلى القوة الحاكمة في الدماغ أسرعت القوة إلى تحريك أعصاب الحركة المتصلة بالعضلات وأوتارها في اليد فاقتطفتها، فأعصاب الحس وظيفتها علمية وأعصاب الحركة وظيفتها عملية. سبحانك اللهم قد جعلت عمل أعصاب الحس مقدماً على عمل أعصاب الحركة، كما جعلت قراءة العلم مقدمة على العمل. فلا عمل إلا بعد علم، كما لا اقتطاف للتفاحة إلا بعد إحساس بها، ووظيفة هذا التفسير علمية كوظيفة أعصاب الحس، وسيكون العمل بعد العلم كما كان اقتطاف التفاحة بعد العلم بمنفعتها. فتعجب من صنع الله. واعلم أن لهذا التفسير رجالاً سيقومون برقي هذه

الأمة، فهم كأعصاب الحس ويتبعهم رجال العمل كأعصاب الحركة، فهذان جهازان من الأجهزة الثمانية المتقدمة قد استبانت أعمالهما في هذه التفاحة، هنالك يأتي عمل الجهاز الثالث وهو الجهاز الهضمي؛ فالفم يتلقاها والأسنان تمضغها وغدد اللعاب تفتتها وتهضمها والبلعوم يدحرجها والمريء يزلقها والمعدة تطبخها والبنكرياس يزيد هضمها كما فعل اللعاب في الفم، والكبد والأمعاء يقتسمان مواد هذه التفاحة، فالكبد تأخذ الخلاصة الغذائية التي صارت دماً، والأمعاء تأخذ الفضلة التي لا تصلح للغذاء لتقذفها إلى الخارج بعد تمام دورتها، هنالك يأتي عمل الجهاز الرابع وهو الدورة الدموية وعمل الجهاز الخامس وهو الدورة التنفسية، فنرى القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية التي تحمل الدم الوريدي وهو الأسود والدم الشرياني وهو الأحمر تقوم بإدارة الدم في الجسم، وما هذا الدم إلا خلاصة تلك التفاحة، فتعطي تلك العروق الشريانية لكل عضو من أعضاء الجسم قسطه وحظه وما يناسبه من خلاصة تلك التفاحة. وأما الدورة التنفسية التي تقبل الهواء الجوي في الحنجرة وفي القصبة الهوائية وفي الشعب وفي الرئتين فإنها هي التي بها يطهر الدم الذي يديره الجهاز الدموي فإن الهواء حينما يصل إلى الرئتين تلتقطان منه الأكسوجين وتعطيانه المواد السامة للجسم المسودة للدم التي هي أشبه بالفحم المسماة المادة الكربونية، فيأخذها الهواء ويحملها إلى الخارج بطريق الزفير، فجهاز التنفس مساعد للجهاز الهضمي. أما الجهاز الليمفاوي فهو أشبه بتابع لجهاز الدورة الدموية، وهو الجهاز السادس، فإذا رأينا لبن إناث الحيوان ولبن المرأة التي أكلت هذه التفاحة فإنا نقول: إن هذا الجهاز الليمفاوي قد قلب الدم إلى مادة لبنية، وهكذا المواد التي في الطحال وبعض الغدد، فهذه كلها من العوامل التي تعمل في الدم وتصنع منه مواد تغاير الدم لمنافع خاصة، وأما الجهاز البولي المتقدم فهو الذي يأخذ من الدم المادة المائية الضارة بجسم الحيوان ويقذفها إلى الخارج بطريق الحالبين والمثانة ومجرى البول وذلك فيه الماء الباقي من ماء التفاحة الذي لا يلائم تركيب الدم. وهناك الجهاز الثامن وهو الجهاز الجلدي فإن ما فيه من الغدد الدهنية والشعر والأظافر وكذا الطبقات المختلفة يأخذ كل منها حظه من خلاصة التفاحة الجارية في العروق الشريانية. هذا هو المثل الذي طلبته أيها الذكي وجعلت له الفصل الأول من الفصلين اللذين أردت ذكرهما في هذا المقام.

الفصل الثاني: في أبدع ما رأيته في هذا المقام

اعلم أيها الذكي أني في هذه الأيام أي في شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ قد أحاطت بي عوائق وموانع منزلية وخارجية، فكادت تحول بيني وبين الأفكار الجميلة البهجة التي أضعها في هذا التفسير، فلما رأيتها قد أحاطت بي رفعت طرفي إلى السماء ليلاً ورأيت المجرة السماوية التي يقول علماء عصرنا في آخر كشف كشفوه: إن عرضها عشرون مليون سنة نورية وطولها مائة مليون سنة نورية، فأخذت أسأل مبدع هذا النظام المدهش، ذلك الذي جعل عيني وأنا في هذه الأرض الصغيرة ترى وتدرك إدراكاً سطحياً لا حد لمداه، تلك المجرة يقول علماؤنا: إن هذه المجرة فيها مئات الملايين من النجوم وتلك النجوم أكثرها أكبر من شمسنا ولكل منها سيارات وأرضون وللسيارات أقمار. وإذا كان عرضها ٢٠ مليون سنة نورية فمعناه أن اتساعها يخرج عن دائرة الفكر الإنساني، فما بالك بالطول وما بالك بالمجرات الأخرى؟.

فكرت في هذا كله ليلاً وشكوت إلى الله ما أخافه من انقطاع الفكر الذي أنشره في هذا التفسير. فانظر ماذا جرى. اللهم إنك أنت اللطيف الرحيم الرؤوف، فماذا حصل؟ قمت صباحاً يوم السبت أي يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ متوجهاً إلى عملي الدنيوي، وقابلت لأجل هذا العمل صديقاً لي بضواحي القاهرة وكان ابنه قادماً من أوروبا وهو يتعلم علم الطب، ففرح إذ رآني، فدار بيننا الحديث على الطب والتشريح، فتذكرت في نفسي ما كان يخطر لي كثيراً في فترات من الزمان في أمر تركيب اليد ونظامها وعجائبها، «انظر نمرة ١٠ و١١ و١٢ في شكل ١٠ المتقدم»، وتذكرت أنه يخيل للناس أن أمر اليد سهل، وأن تحريكها بالحركات المختلفة ليس يعوزه أكثر من أن ي كون هناك عظم وعلى العظم عصب ولحم وعروق وأوتار وهذه الأوتار تفعل كل ما يطلب منها، ومعنى هذا أن العضلات والأوتار الموضوعة في أيدينا تفعل القبض والبسط وجميع أنواع الحركات الكثيرة، وهي هي بعينها في الجميع، ولكن ظهر أن الأمر على خلاف ذلك، وأن كل حركة مهما صغرت ودقت لها أعصاب غير أعصاب جميع الحركات؛ ومعلوم أن عظام اليد تبلغ ٢٧ عظماً منها ٨ في الرسغ وهي صفان، و٥ في راحة اليد و١٤ في الأصابع في كل إصبع ثلاث، وفي الإبهام عظمان: أحدهما أكبر، والثاني أصغر، فتكون العظام ٢٧، وهنا يخيل لأكثر الناس أن الحركات بهذه العظام أمر لا يحتاج إلى عناية أكثر من إرادة الإنسان، ولكن هذا خطأ، فإن هذه العظام مرتبطة بعضلات في الذراع، وهذه العضلات متصلة بأعصاب توصلها إلى المركز العصبي، وهو المخ والعمود الفقري، فمتى أراد الإنسان تحريك إبهامه أو إصبع من أصابعه أو جميعها أو اثنين أو أكثر، مجتمعة أو منفردة، قبضاً أو بسطاً، أو يميناً أو شمالاً، أو أوقف أصابعه بهيئة زاوية قائمة، أو ضغط عليها إلى الخلف، أو أوقف يده فجعل إبهامه أعلى والخنصر أسفل، أو بالعكس، أو جعل يده أشبه بالملعقة أو المجرفة ليشرب الماء مثلاً، أو ضمها ضماً مصمتاً جامعاً الأصابع للوكز بها، أو ضمها ولها فراغ من الداخل بحيث يمكنه تخبئة شيء فيها، أو جعلها بهيئة بحيث يمكنه أن يكتب بها، أو جعل الإبهام مع السبابة بهيئة حلقة، وهكذا مع بقية الأصابع، فهذه هيئات تعد بالعشرات بل ربما تصل المئات، لأن الهيئات المذكورة كثيرة جداً، فانظر ماذا يقول علماء التشريح.

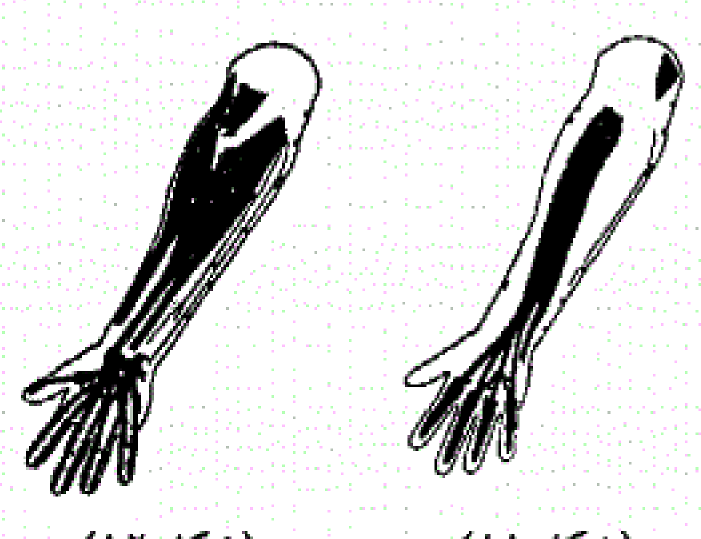
هاأنا ذا الآن أنظر أمامي للعضلات التي في الذراع التي بها تتم هذه الحركات المختلفة أنواعها، والرسوم التي أراها الآن أمامي التي رسمها الأستاذ «تشيزمان» وأراها لي هذا الشاب تبلغ ١٢ رسماً، أولها رسم الجلد أي جلد اليد، وقد وضع على ورق شفاف، ثم رفع هذا الرسم فظهر تحته رسم ما تحت الجلد مباشرة، وفيه الدهن وفيه الأعصاب الجلدية مباشرة والأوردة، وهذه الطبقة وظيفتها إعطاء الإحساس بحيث يصل ما يحس به الإنسان إلى دماغه. فإذن هذه الطبقة الثانية لمساعدة الجلد، والطبقة الثالثة تحت الأولى وفيها عضلتان بهما يقدر الإنسان أن يثني يده من عند رسغه، وكذلك عضلات لثني الأصابع كلها مجتمعة أو منفردة بواسطة أوتار تفعل ذلك، فلكل إصبع عصب محرك يحركه إلى الأمام بوتره كما قلنا فيما تقدم، والرابعة تحتها فيها الشرايين المغذية وهي تغذي هذه العضلات والجلد فوظيفتها للتغذية العامة في اليد وفيها أعصاب تصل إلى ما فوقها وإلى ما تحتها، والخامسة تحت الرابعة وفيها الأعصاب الواصلة لعضلات أخرى غير المتقدمة وهي العضلات العميقة الغائرة، وهي تساعد على القبض بأنواعه المتقدمة كلها، والسادسة الهيكل العظمي المتقدم ذكره.

ثم ننقل الكلام إلى الناحية الثانية وهي جلد ظهر اليد وأظافره وشعره وهي الطبقة الثانية عشرة، ثم الطبقة الحادية عشرة فيها أعصاب الحس والعروق الوريدية كالمتقدم، وفائدتها مساعدة الجلد على الحس كما تقدم في الناحية الأخرى، والطبقة العاشرة العضلات التي فيها هذه لحركة البسط، كما أن الثالثة فيما تقدم لحركة القبض، وتنوع الحركات هنا كتنوعها هناك، ولكن تلك للقبض وهذه للبسط، وتحتها الطبقة التاسعة وفيها الشرايين المغذية، والرابعة كالتاسعة والخامسة كالثامنة. وأما السابعة فهي نفس الهيكل العظمي المتقدم من ناحية ظهر اليد.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لا تزال طبقات اليد غامضة غير واضحة. فقلت: إن جميع العقلاء من المسلمين وغير المسلمين يعيشون ويموتون وهم يجهلون خواص جسم الإنسان كله إلا قليلاً، وهذه اليد مثل من أمثاله، والمسلم لا يعرف من أمر اليد إلا أنها تقطع في السرقة وأنه يأكل بها ويدافع العدو، ولكن التفكر في عجائبها قليل، والله يقول: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، ويقول: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

فإذا نظرنا إلى اليد نظراً علمياً كالذي نظرته الآن في هذه الصور التي رأيتها أمامي وهي ١٢ صورة، رأينا هنا ست طبقات من جهة باطن اليد، وستاً من جهة ظاهرها، وطبقتان من هذه الست في الوسط وهي عظم الساعد، فالعظم له وجهان: وجه يلي باطن اليد، ووجه يلي ظاهرها، فهذان وجهان من الأوجه الاثني عشر. وهناك جلد على باطن اليد وجلد على ظاهرها، وهذه يسمونها في الطب بالناحية الأنسية والناحية الوحشية، فهاتان طبقتان أيضاً، فبقي أربع طبقات من جهة الباطن وأربع طبقات من جهة ظاهر اليد. فمنها طبقتان كل واحدة منهما في جهة من الجهتين هما تحت الجلدين المذكورين، وهاتان الطبقتان فيهما قوة الحس، ولولاهما لم نحس بما يمس جلودنا من نفع أو ضر، وهناك طبقتان أخريان في كل ناحية: طبقة تحت السابقتين بهما جهاز الحركة كما تقدم في أمر التفاحة، فالحس أولاً والحركة ثانياً، فهكذا هنا حس فحركة، والحس أولاً والحركة ثانياً، وتحتهما طبقتان في الناحيتين أيضاً للتغذية بواسطة الجهاز الدموي، ثم طبقتان في الناحيتين فيهما عضلات أخرى غير العليا للحركة أيضاً.

هذا ملخص ما رأيته في الصور الاثني عشر المذكورة. ولقد اصطفيت من هذه الصور صورتين اثنتين وهما الصورتان اللتان فيهما عضلات الحركات التي للقبض والحركات التي للبسط، فالأولى موضعها من جهة باطن اليد والثانية موضعها من جهة ظاهرها، فأما التي للقبض فانظر صورتها (شكل ١١)، وأما التي للبسط فانظر صورتها (شكل ١٢).



(شكل ١١) (شكل ١٢)

(شكل١١ ـ صورة العضلات التي للقبض من جهة باطن اليد، وهذه طبقة من طبقات ست)

(شكل١٢ ـ صورة العضلات التي هي طبقة من الطبقات الست من ظاهر اليد وهي للبسط بجميع أنواعه)

ولقد تقدم قريباً في سورة «الحج» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الآية: ٦٣] الخ؛ إيضاح أجمل لهذا المقام، فاقرأه هناك إن شئت.

فقال صاحبي: الآن فهمت الفصل الثاني وعجبت من الصنع كما عجبت أنت، ولكني أريد كلاماً عاماً على ما تقدم ليستبين جمال الله عز وجل وبدائع حكمته. فقلت: إن الأجهزة الثمانية في الجسم الإنساني السابقة قد اتحدت على العمل، فجهاز الحس وجهاز الحركة وجهاز الهضم وجهاز التنفس وجهاز البول وغيرها مما تقدم كلها متعاونات متحدات متحابات. فاعجب لدورة دموية متحدة مع دورة تنفسية، فإحداهما تنظف الأخرى مما علق بها من المضار وثانيتهما تعين الأخرى وتغذي أعضاءها، فهذه تغذي، وهذه تنظف، وهما متجاورتان متحابتان، وقد ظهر أثر تلك الأجهزة في كل عضو ومنها اليد، فإننا نرى جهاز الحس وصل إلى ما تحت الجلد في الناحيتين، وجهاز الحركة وصل أثره إلى ما تحت جهاز الحس في طبقات اليد. إن دوائر هذا الجسم الإنساني متحدات متعاونات عاملات كلها تحت إشراف مسيطر واحد، هو المدبر العام للجسم الذي نسميه روحاً.

هذا النظام العجيب المدهش قد وضح في جسم الإنسان. يظن الإنسان من أي طبقة كان أن عضلات القبض عين عضلات البسط، فوجدنا في الصورتين المتقدمتين أن عضلات القبض من جهة الباطن وعضلات البسط من جهة الخارج، ومعنى هذا أن لكل حركة عضلات خاصة، وقس على ذلك جميع الحركات في اليد صغيرة وكبيرة، وما مثل اليد إلا كمثل الفسطاط المثبت بالأوتاد قد ربطت فيها الأطناب المشدودة المثبتة، ولكن لكل ناحية أوتاد وأطناب غير الناحية الأخرى، فهكذا اليد لها أوتار وعضلات في كل من الناحيتين، هذه للقبض وهذه للبسط، ثم إن هذا الإنسان الذي أنعم الله عليه بهذا الجسم المنظم المحكم هو الذي سكن هذه الأرض، ولم نر من أعماله ما يدل على كماله الخلقي المشابه لكماله الجسمي.

فيا ليت شعري أين المناسبة بين نظام هذا الجسم والنظام المحكم في طبقاته وبين نظام كثير من نوع هذا الإنسان؟ انظر ما تقدم في أول سورة «طه» من ذكر الأمة التي تعيش بالقرب من ساحل الذهب التي ذكرناها عند قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، فانظر لنظام تلك الأمم الذي كله قلق واضطراب وإهلاك وتدمير وعيوب نظامية اجتماعية فيا ليت شعري أين نظام العمران ونظام جسم الإنسان؟. يظهر لي أن هذا العالم الذي نسميه إنساناً لا ينال الدرجة الرفيعة والسعادة الحقة إلا إذا تعاونوا جميعاً، بحيث تكون هيئة نفوسهم في تعاونها كهيئة انتظام جهاز الحس وجهاز الحركة وجهاز الهضم وجهاز التنفس وهكذا، فهي تعمل منتظمة متبادلة المنافع. يعجبني ما قاله بعض الأرواح التي أحضروها في أوروبا، وهذا نصه: إن الأرواح العالية تكون آراؤها كلها واحدة فلا يخطر لأحدها إلا ما يخطر للجميع فالرأي واحد، ويجب عليكم في الأرض أن تعرفوا هذا من الآن.

وهذا القول عجيب فهو المطابق لنظام جسم الإنسان وهو المطابق لقول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾ [الحجر: ٣٢]، فهم إذن أشبه بالأجهزة المتعاونة في الجسم الإنساني، ألست بهذا تعرف معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وأي تقويم

أحسن مما رأينا في هذا المقام؟ ثم أعقبه بقوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ [التين: ٥] وهذا حق، لأنه إذا كان جسمه على أحسن نظام فإن نظامه المدني على أسوأ نظام.

ويظهر لي حقاً أن النوع الإنساني في مدنيته كلما كان أقرب في التعاون إلى تعاون الأجهزة الجسمية كان أقرب إلى السعادة، وكلما كان مفكك العرى غير منظم في هيئة حكومته كان أبعد من السعادة التي توجب على هذا الإنسان أن يكون جميع طوائفه في الشرق والغرب أشبه بنظام جسم الإنسان بحيث لا يكون في صدورهم حرج من النظام العام الذي يعيشون فيه، والله هو العليم الحكيم.

فعلى أمم الإسلام بعدنا، وعلى قراء هذا التفسير خصوصاً أن يجدّوا في رقي أممهم، وأن يقتبسوا كل علم وكل فنّ، بحيث تتشعب الأسلاك البرقية والبريدية والطرق الحديدية في جميع أنحاء المملكة، كما رأينا أعصاب الحس والحركة متشعبة في جميع أعضاء الجسم، وعليهم أن يربوا الشعب كله تربية إجبارية بحيث يعرفون المنافع والمضار كلها، ويكون منهم نواب للأمم يتعاونون تعاون الأجهزة المنتشرة في أقطار الجسم، هذا أمر واجب على المسلمين فعليهم قراءة علوم الأمم ثم الازدياد فيها، فبهذا يفهمون قوله تعالى: ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم، وعلى أنك لم تجعل العوائق المادية مانعة من ازدياد العلم بل أنعمت علي بالعلم والفهم أثناء هموم الحياة وأوصابها، والحمد لله رب العالمين.

نور على نور في قوله تعالى:
﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ إلى قوله:
﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾

اعلم أن هذا الإنسان علم أشياء كثيرة، ونسي نفسه. يفرح الناس بكشف الكهرباء والمغناطيس والجاذبية وقوة البخار وأشعة الراديوم والطيارات الطائرات في الجو، يفرحون بذلك وفاتهم جميعاً أن ذلك أشبه بفرح الفارس بقوة فرسه وكره وفره وحسن طاعته وهو خلو في نفسه من الكمال. وأي فرق بين الفرس الفاره وبين هذه القوى التي كشفت حديثاً لراحة الإنسان. كل هذه القوى والعوالم خارجة عن نفس الإنسان. يفرح الناس بذلك، وهم غافلون عن أنفسهم إلا قليلاً. يجلس الإنسان في خلوته ساعة ويتفكر في نفسه ويحصر فكره في وجهة خاصة أو ناحية من الأرض فيجد الفكر بأسرع من لمح البصر انتقل من الغرب إلى الشمال ثم إلى الجنوب ثم إلى الشرق ثم إلى أعلى الأفلاك ثم إلى مداب السمك ثم إلى داخل الأرض وما تحت البحار ثم يطير في الجو ثانية. يعرف الإنسان ذلك من نفسه فلا يحرك له ساكناً ولا يلقي له بالاً. ينظر المرء في نفسه فيجدها أسرع من جري القطار بل من الكهرباء في الأسلاك ولمع البرق الخاطف، فلا يهيجه ولا يحركه ويظن أن ذلك كله أمور لا قيمة لها، وإنّما كانت لا قيمة لها لأنها حاضرة عنده لم يتجشم المشاق في تحصيلها كأن ما لا سعي له منبوذ وما لا تعب فيه مطروح، فهذه القوة لما لازمت الإنسان من صغره عدّها من سقط المتاع ولم يعرها التفاتاً مع أنها قبس من الأنوار ونور من عوالم الجمال وشهاب ثاقب. النفس بسرعة حركة خواطرها تجري حثيثاً إلى عوالم الكواكب وتسرع في خطاها إلى الملأ الأعلى وتود لو تعرف كل كوكب دخل في حسبان علماء

الفلك، وتطلع ـ بتشديد اللام ـ إلى أن ترى سكانها وتفرح بالعروج إليهم والاطلاع عليهم. النفس تجري لا مستقرّ لها إلا إذا استوعبت العوالم عالماً عالماً وعرفت عجائبها. هنالك يقول شاعرها:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

الإنسان خلق من الأرض وربي بالنور الواصل من الكواكب والهواء المحيط بالأرض، فهو إذن ربيب العوالم العلوية والسفلية وهو مركب من جسم وروح، فجسمه أشبه الأجرام الفلكية والكواكب الدائرة ومنها الأرض. تلك الكواكب تتحرك في دورانها جميع الحركات الممكنة في الدوران.

هكذا الإنسان يحرّك إلى أعلى وإلى أسفل وإلى الجهات الأربع وذلك في صناعاته المختلفة، فيحرك الإنسان يده إلى أعلى وأسفل وإلى الجهات الأربع مشاكلة للكواكب وللأرض في إتمام سائر الحركات الممكنة. هكذا نجد نفوسنا لها حركات فكرية إلى هذه الجهات عينها، وتزيد على ذلك بأنها تودّ استيعاب جميع العلوم ومعرفة العوالم كلها. إذن النفس من عالم له هذا السلطان وهو المسمى «النفس الكلية» التي استمدت منها نفوسنا.

إن شوق نفوسنا إلى معرفة كل شيء دليل على أن النفس التي استمدت منها نفوسنا تعلم كل شيء ولها الإحاطة والتصرف. ولولا ما فيها من هذه القوة العلمية والعملية ما اشتاقت نفوسنا إلى حوز جميع العلوم وجميع النعم. فإذا قال قائل: من هذا الإنسان، وما هي الأرض التي يسكنها. لقد ثبت أن هذه الأرض بالنسبة للعوالم التي نعيش فيها أشبه بجوهر فرد بالنسبة لألف مليون أرض، فلو صغر العالم كله بحيث صار ألف مليون أرض كأرضنا كانت أرضنا جوهراً فرداً. ومعلوم أن هذا لا تمكن رؤيته فكيف يكون سكانها أمثالنا لهم قدرة على الاطلاع على العوالم كلها وهم والعدم سواء؟ وكيف يشتاقون لما لا يصلون إليه؟ فإذا قال قائل هذا قلنا حقاً إننا من عوالم ضعيفة، ونحن بهذا المقدار بالنسبة للعوالم، ولكن هذا العالم الذي نعيش فيه مملوء رحمة مشمول بالحكمة، فإنك ترى الجوهر المادي إذا أطلق ما فيه من القوى والكهرباء إلى الخارج اشتعلت الأرض كلها ناراً. وأيضاً إن الجواهر الصغيرة مركبات من ذرات كهربائية يدور بعضها على بعض كدوران السيارات حول الشمس، إذن عالمنا الذي نعيش فيه جعلت صغائره فيها ما في عظائمه من القوى كل بقدرة، فالجوهر الفرد فيه نور وحركات سريعة كنور الكواكب وحركاتها.

فإذا كان هذا في العوالم المادية فليس بعجيب أن تكون أرواحنا مستمدة من عوالم نسبة أرواحنا إلى تلك العوالم كنسبة الجواهر الفردة للكواكب. فإذا كانت النفوس العالية مطلعة على عوالم عظيمة واقفة على أسرارها فهل كان بدعاً أن تحذو أرواحنا حذو تلك الأرواح العالية فتشتاق إلى ما ملكت تلك وتقلدها.

هذا هو السر في ولوع نفوسنا بالعوالم والاطلاع عليها فهي أبداً لا تهدأ ولا تسكن مشرقة مغربة متجهة شمالاً وجنوباً باحثة بالفكر عن العوالم علويها وسفليها. اتجهت الذّرات الجسمية في العوالم إلى ما اتجهت إليه كواكبها من الحركات واتصفت بما اتصفت به من الأنوار. هكذا اتجهت أرواحنا إلى ما اتجهت إليه النفوس العالية المحيطة بعالمنا فقلدتها بالفطرة في إشراقها والولوع بمعرفة العوالم كلها. هذه هي فطرة الإنسان المستقرة فيه.

وليس ما أقوله لك الآن مجرد رأي رأيته أو خاطر خطر لي. كلا، فما من أمة من الأمم أو جيل من الأجيال إلا سمع بحوادث تدل على ما أقوله لك، بحيث تكون حركات النفس الفكرية التي يحسّ بها كل امرئ ـ وإنه بينما يفكر في بقعة في الشرق إذا فكره قد انتقل أسرع من البرق إلى بقعة بينها وبين الأخرى ألف ميل غرب الأولى ـ تصبح حركات فعلية لا مجرد خاطر خطر أو فكر عرض وذلك في علم الأرواح، وإن فيما نقلته في هذا الكتاب من علم الأرواح لدليلاً ساطعاً وبرهاناً قاطعاً، ولكن أذكر حادثة تلك الفتاة التي نوّمها العلامة «شاردل»، فقالت له: إنك نائم وأنا يقظانة، فإنك ترى الأشياء خشنة غليظة وأنا أرى باطنها، وأسمع ما لا تسمع وأبصر ما لا تبصر وأدرك ما لا تدرك وأسمع من يتكلم من بلدة أخرى. وقال المعلم ذاته: إن ابنة كان يحصل لها في السبات الطبيعي نوع من الانخطاف، فقالت: إنها كانت تحس بأن جسمها يتمدد شيئاً فشيئاً إلى أن تفارقه وتراه بعيداً بارداً كأنه ميت، ثم قالت: وأرى نفسي كبخار نوراني أرى وأدرك ما لا أقوى على إدراكه في أية حالة كنت عليها، ولا تبقى في هذا الحال إلا بضع دقائق وقد تصل إلى ربع ساعة، ثم يجيء الجسم البخاري إلى الجسم الغليظ فأفقد الشعور ويزول عني الانخطاف. وهناك أناس انتقلوا إلى محال بعيدة بفعل أرواحهم، وهذا ليس مطلب النفوس الإنسانية.

إن مطلب النفوس الإنسانية إدراك كل شيء والإحاطة بالعوالم كلها، وهؤلاء الذين انتقلوا في لمح البصر إلى أماكن بعيدة إنّما انتقلت أرواحهم بأجسامهم الروحية الأثيرية، وفي قدرة كل امرئ هذا الانتقال متى وجه نفسه وجهة خاصة، ولكن ليس هذا دالاً على سموّ هذه النفوس فسموّ النفوس شيء، وطبعها العام شيء آخر، وهذا المذكور من طبعها العام، لا من سموّها. وأنا أذكر حادثة أيام تعلمي بالجامع الأزهر، وهاهي ذه:

كنا منصرفين من الجامع الأزهر إلى قرانا لنرجع إلى أهلنا وركبنا سفناً شراعية، فقمت ليلاً من المركب لأطلع إلى البر وقت الفجر، فوقعت في البحر بين السفينة والشاطئ، وكان البرد شديداً، فلما وصلت إلى قريتنا فاجأتني والدتي قائلة: يا بني رأيتك وقت الفجر في لجة البحر مرتعداً، فقمت من فوري فزعة، فأخبرتها الخبر فتعجب الناس من ذلك. وهذه حاصلة في كل زمان ومكان، ولكن الناس لا يعبؤون بما تكنه نفوسهم احتقاراً لشأنها وجهلاً بعلمها. وقصارى القول وحماداه أن النفوس الإنسانية مقبلة على مستقبل علمي عظيم في العوالم الروحية، وهذا المستقبل يدل عليه أحوالها الحاضرة من حب استطلاعها وكشفها ومن سرعة خاطرها وجولانها الفكري في كل زمان ومكان وفيما لا يتناهى من العوالم ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾[البروج: ٢٠]، والحمد لله رب العالمين.

بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾

اعلم أيها الذكي أن هذه السورة مبتدأة بفلاح المؤمنين المتصفين بما يأتي:

(١) يصلون. (٢) يخشعون في الصلاة. (٣) يعرضون عن اللغو في الأقوال والأفعال. (٤) يعرضون عن اللغو في المال بإخراج ما فضل عن الحاجة إلى المستحقين، وعلى الأقل الزكاة. (٥) وعن الشهوة الأخرى في النوع الإنساني. (٦) يعيشون بأمان مع الناس بإيفاء العهد الخ. (٧) يحافظون على صلاتهم. (٨) ونتيجة ذلك أنهم يرثون الجنة. (٩) وعقب ذلك بذكر العلوم التي

هي مفتاح الجنة ، فذكر خلق الإنسان وتطوره ثم خلق السماوات . (١٠) ثم ذكر عدم الغفلة عن هذه المخلوقات .

هاهنا يتبدى للعقل ما المناسبة بين تلك الفضائل وهذه العلوم ، ولماذا كررت الصلاة مرتين مرة مع الخشوع وأخرى مع المحافظة عليها .

اعلم أن الإنسان لا يستقيم له علم إلا بصرف الشواغل ، والذي يشغل الإنسان بطنه ولسانه وفرجه وأمور عامة ؛ فالزكاة للأول وترك اللغو للثاني وحفظ الفرج للثالث وإيفاء العهد ونحوه للرابع ، فإذا كمل الإنسان في هذه فعليه إذن أن يتعلم ضبط النفس ، وضبط النفس لتوجيهها إلى المطلوب ، فإن المطالب العلمية إن لم يتوجه لها الإنسان توجهاً تاماً لم يدركها ، وهذا الضبط جعلت له الصلاة . إن المسلم حين يخشع في الصلاة ويوجه همته كلها للمعبود ينال أمرين : الأول : الاعتياد على حفظ الخواطر فيوجهها لأمر واحد . الثاني : توارد العلوم على قلبه . فهاأنا ذا أذكر ما ورد على قلبي في صلاة في يوم من الأيام . ذلك أن المصلي يقول : الله أكبر ، في أول الصلاة ، وهذا التكبير مع التسليم قد شرحت الكلام عليهما في سورة « الإسراء » عند ذكر المعراج ، وهاهنا أقول ما انشرح له الصدر في مقام هذه الآية وهي : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٧] فأقول :

الله أكبر . جل العلم وجل الله الذي علم وألهم ووفق وأحسن . يكبر المسلم في أول الصلاة فلا يقول : الله كبير . كلا ، بل يقول : إنه أكبر . فإذن كل ما علمناه من علم وحكمة فإن الله أكبر مما علمنا وعليه نزيد في الرقي والتعلم ، وكلما ازددنا علماً قلنا : الله أكبر . فإذن العلم لا نهاية له لأن الله بعد ما علمناه أكبر من هذا كله ، الخلاء لا يتناهى والمخلوقات جهل الناس نهايتها . أفليس الله إذن يكون لا نهاية له فمهما ارتقينا فالله لا نهاية له بعد ما نعلمه :

(١) يوجه المسلم وجهه للذي فطر السماوات والأرض ، فيقال : هناك ما هو أعظم لأن الله أكبر .

(٢) يحمد الله لأنه ربى العوالم المعروفة ، فيقال له : الله أكبر من هذا كله فهناك عوالم ستكشف .

(٣) يقول المسلم : نحن نعبدك ، فيقال له : وهناك عبادة أعظم لأن الله أكبر .

(٤) يستعين المسلم بربه في أموره ، فيقال له : وهناك مواهب أعظم فيعينك فيما تطلب فوق هذا لأن الله أكبر .

(٥) يهدي الله المسلم الصراط المستقيم ، فيقال له : وهناك هداية أعظم لأن درجات الرقي لا حصر لها فإن الله أكبر .

إذا علمت هذا فانظر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٧] . هذه الآية تدخل في العلوم كلها وكلما ازددنا علماً ازددنا طلباً . فهل نفكر في نبات أم في حيوان أم في معدن أم في كوكب . حفظ الله لهذه العوالم ليس يعرف البتة إلا بالعلوم ودراستها .

إن عدم غفلة الله عن خلقه لن تدرك حق إدراكها إلا بالنظر في كل علم ، وهذا أمر لا آخر له ، وكلما ازددنا علماً يقال لنا : الله أكبر . إن هذا التفسير قد مزجت فيه العلوم المعروفة وفصلت تفصيلاً . إن فيه من كل علم زهراته ومن كل فن ثمراته ، فاقتطف تلك الثمرات فيما تقدم ، ولكن يقول المسلم : الله أكبر ، ويقول الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، فهاك ما

رأيته وأشرت إليه في سورة « هود » إني اطلعت على عجائب لا تخطر بالبال في كتاب يسمى « علوم للجميع » باللغة الإنجليزية لمؤلفه الأستاذ « روبرت براون » فقد جاء في صفحة ١٢٨ وما بعدها من المجلد الثاني ما ملخصه تحت عنوان « الألوان الحافظة للحيوان »:

(١) أن المفكر العادي يرى أن ألوان الحيوانات وزعت عليها بلا منفعة ولا علم وإنّما هي مصادفات عمياء. إن كل شيء في المناطق الحارة بهيج لونه حسن شكله حيواناً كان أم نباتاً.

(٢) إن أكثر الناس لا يدرون لماذا كان هذا الحيوان أبيض وهذا أسود، ولماذا تكون دودة الفراشة خضراء تارة وسمراء أخرى وآونة ذات خطوط وبقع من ألوان مختلفة موضوعة بلا نظام، إن أكثر الناس لا يرون أن هذه المباحث عقيمة النتائج قليلة الثمرات، بل هي عندهم وهم باطل.

(٣) وسنذكر هنا أن حيوانات كثيرة ألوانها نافعة لها بل كثير منها لا تعيش إلا بحماية ألوانها الخفيفة.

الحيوان قسمان

قسم يعيش على غيره وقسم يأكله غيره. وبعبارة أخرى: آكل ومأكول، والقسم الثاني لا بد له من الهرب من عدوه وإلا لمات، وهذا الهرب (أ) إما بسرعة الطيران. (ب) وإما بقوة الملاحظة. (ج) وإما بأن يخفي نفسه عن الناظرين. (د) وإما بأن لا يظهر ليلاً. (هـ) وإما أن يختفي تحت الأرض. (و) أو تحت الأوراق. (ز) أو قشور الأشجار. (ح) أو الأحجار. فبهذا كله يفر من الموت.

أما القسم الأول وهو الحيوانات المفترسة فإنها أيضاً إن لم تكن مختفية عن أعين فرائسها حل بها البلاء. فإذا كانت الأولى يعتريها العطب إذا لم تكن مختفية فهذه أيضاً يقتلها الجوع إذا رأتها فرائسها ففرت منها، إذن الألوان التي تتصف بها الفريسة يجب أن تكون غير واضحة حتى تربي أولادها وتحصل قوتها باختفائها عن الحيوان المفترس، وهكذا الحيوان المفترس يجب أن لا يكون له لون ظاهر وإلا لهلك، وتكون النتيجة هكذا: كل لون ظاهر في الحيوان مهلك له آكلاً كان أو مأكولاً. فاللون إذن يجب أن لا يكون واضحاً بل يجب أن لا يكون له وجود البتة مع أن اللون شائع وجوده في الحيوان فضلاً عن مجرد وجوده، حتى يصح القول أن الزائد و الناقص يتماحيان في علم الحساب. إذن لا معنى للون يحمي الحيوان.

الجواب عن ذلك

هناك أجاب المؤلف قائلاً: إن امتحانات عظيمة جليلة أظهرت أن الألوان حتى ما كان منها أظهر وأبهج وأنضر حامية للحيوان حافظة لحياته:

(١) إن الأرض والسماء والأوراق والأزهار كلها براقة مؤثرات في حياة الحيوان حامية له.

(٢) إن جمال الحيوان وبريقه قد يكونان إنذاراً للحيوانات الأخرى بما يحمله الحيوان من سلاح أو ما في طعمه من كراهة. وفي أحوال أخرى توجد حيوانات كثيرة تحمي أنفسها بدون الاختفاء وهذه تصحبها الألوان وتلازمها. فلنلاحظ هذا الموضوع ولنفكر فيه فهاهنا مزرعة واسعة فيها ظهور الألوان وجمالها وبهجتها من وجه، ومن وجه آخر هناك ألوان خفيفة وجدت كلها لتحمي الحيوان على حسب بيئة الحيوان وعادته وغرائزه.

أمثلة الألوان التي تحمي الحيوان

المثال الأول: حديقتي التي اعتراها نوع من الحشرات المسمى « سلاق » بسبب رقة الشتاء سنة ١٨٧٧ ورطوبة الربيع بعده، ففي مساء ليلة أخذت أنحي تلك الحشرات عن أحسن النبات بالمبراة لأسقطه في جرة فيها ماء ملح شديد الملوحة، وحين أفعل ذلك كثير منها تتقلص وتقع على الأرض، وهي مع أنها تقع على الأرض أمامي أراها تصير شبيهة بالحصباء التي تكثر في تلك الأرض، وهي مختلفة الألوان: أبيض تقريباً وأسمر وأصفر وأسود تقريباً، وهي حينما تنقبض وتتقلص بشكل بيضاوي تكون أشبه بالحصوات المبتلة المختلفة الألوان، ثم إن حشرة من هذه سوداء كانت صفراء زيتية تحت ظاهرها، فلما تقلصت كان من العجب أنها أصبحت كحصاة سوداء من الصوان منشقة شقتين صفراء من الداخل، وهذه حال الحصا الصوّاني هناك تماماً، وهذه ربما يقال إنها حال خاصة، إذ لا برهان على دوامها، ولكن مرّ زمان تبعه زمان وأنا لم أعد أرى هذه الحشرات البتة بنظري ولا واسطة لذلك عندي، إلا أنني ألمس الحصوات المنثورة على الأرض بطبعها بالمبراة، ولا زلت ألمس حصاة بعد أخرى حتى عثرت بما لان منها.

هنالك أتاني اليقين أن هناك غاية مقصودة حقاً، والذي يغشني بأنه أحد الحصوات قادر أن يغش الطيور وغيرها التي تعيش على هذه الحشرة. أقول: حقاً إن هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧].

المثال الثاني: في المناطق الاستوائية الحارة كنت أضيف حاسة اللمس إلى حاسة النظر أيضاً، لأميز بين حشرة تسمى « حشرة العصا » وبين نفس العصا، فنتج من هذا أنه من المسلم به أن المماثلة تكون في بعض الحشرات لوقايتها لأنها تحميها من المهاجمة التي تنتابها من الطيور الآكلة للحشرات. وعليه تكون هذه الحشرة وهي « سلاق » قد حميت من الطيور الآكلة الحشرات بهذه المماثلة، وكذلك « حشرة العصا ».

المثال الثالث: الذي يحمي بعض السوس في بلاد الإنجليز أنه أعطي قوة الانكماش عند مسه، وهو إما أسمر وإما منقط، وهذه لها عادة أن تسقط على الأرض عند مسها أو إزعاجها بحال خاصة، وحينئذ لا يعرف الفرق بينها وبين كتل الطين والحجارة.

المثال الرابع: وهناك نوع آخر يوجد دائماً أخضر جميل ويجري ويطير حينما يمس.

المثال الخامس: هناك نوع غريب صغير من الخنافس أسمر يحفر في الأرض يصير أشبه بحبوب بعض النبات المسمى بالنبات الصيواني.

المثال السادس: الخنافس الجميلة الشكل المسماة « مسك بيتل » التي تقع دائماً على أوراق الصفصاف تكون خضراء.

المثال السابع: الحشرات المسميات « سبردس » والتي تسمى « رقيمس » التي تلازم الخشب أو الأعمدة تكون سمراء أو تميل إلى الصفرة.

المثال الثامن: إن أحسن مثل يضرب للحيوان الذي برز وظهر بلونه هو الفراش الذي لا وقاية له تقيه في بلادنا الإنجليزية.

المثال التاسع: الفراش المسمى « اقريوبس » الأخضر اللون والآخر المسمى « أكرونيكتابسي » الرمادي اللون يقعان على جذوع الأشجار نهاراً، ويختفيان اختفاء تاماً بمشابهتهما للنبات المسمى « ليتشب » الذي يحيط بهما.


(شكل ١٣ ـ صورة حشرة لبيتموث)

المثال العاشر: الفراش المسمى «لبيتموث» حينما يقع مظهراً جناحيه الأسمرين الكبيرين يشابه الورق الجاف في شكله ولونه. (انظر شكل ١٣).

المثال الحادي عشر: بينما « بف تب موث » أي فراشة « بف تب » تقبض أجنحتها حين تصير تماماً مثل قطعة من عصا مكسورة، وفي نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثاً. (انظر شكل ١٤).


(شكل ١٤ ـ صورة حشرة بف تب)

ولا جرم أن هذه الحال تبين لنا إذا نظرنا هذه الحشرة في خزانة كيف يستحيل علينا أن نتبين أهذا لون فراشة جاء لحمايتها أم لا ؟ فليت شعري من ذا الذي يجول بخاطره أن هذا الجمال ولون الفراشة الواضح قد جيء بهما مشابهين لقطعة من عصا مقطوعة ليغشى على أبصارنا فلا نعرف أن ذلك سبب في حفظ الفراشة من أعدائها. هذا قول المؤلف، وأنا أقول: يا ليت شعري هل يعلم المسلمون بعدنا أن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وأنهم بعد ما بينا في هذا التفسير يجب عليهم التبحر في هذه العلوم فهم أولى بها من الفرنجة.

المثال الثاني عشر: إنه من الأمور التي يكثر وقوعها في الأقطار الحارة أن تجد خنافس وفراشاً تشبه زرق الطيور، وهذا أيضاً يحصل في البلاد الإنجليزية كما قاله الأستاذ « سيد قويك »: لقد وقعت في الخطأ أكثر من مرة إذ كنت أرى فراشة ذات لون مختلط السواد بالبياض قد أشبهت زرق الطير واقعاً على الورق. وبعبارة أخرى: رأيت الفراشة تشبه زرق الطير.

المثال الثالث عشر: وهناك نوعان من الفراش يشبهان الحيطان المصنوعة من الطين التي يقعان عليها.

المثال الرابع عشر: وفي بلاد « السويزرلند » كنت أسلي النفس في بعض الأزمان بملاحظة فراش يقع قريباً مني، إذ يقع على حائط من الحجارة في ذلك الإقليم موافقاً لها وهو لا يتميز عندي على بعد بضعة « ياردات » مني.

المثال الخامس عشر: لقد لاحظ الناس أن اللون العام الخفيف الذي للفراش على أجنحته في الخريف وفي الشتاء يوافق لون الطبيعة العام في ذينك الفصلين، قال العلامة « يوسف جرين »: إن أكثر الفراش الخريفي مختلف لونه ما بين الصفرة والسمرة وذلك يشبه الأوراق الخريفية، بينما نجد الفراش الشتوي في نحو « هيبرنيا » و« كيمانوبيا » ذا لون لطيف أشيب فضي.

المثال السادس عشر: إن دود الفراش لونه الواضح قد أعد لحمايته على وجه العموم، ألا ترى رعاك الله أن الجم الغفير من هذه المخلوقات أعطي لون الخضرة مشاكلة للون الورق الذي هو يعيش عليه ويتغذى منه، ويعطى لون السمرة حينما يكون وقوعه على قشر جذوع الأشجار أو الأغصان، وكثير من هذه المخلوقات من أنواع أخرى مثل « جيومتريدا » أو « لوبرز » قد أعطي عادة أنه يغرس نفسه غرساً تاماً مثل ما تغرس العصا التي هو يشبهها في الشكل واللون.

المثال السابع عشر: كل امرئ يعلم أن هناك جماً غفيراً من دود الفراش، ولكنه يسأل قائلاً: لماذا رأينا بعض تلك الأنواع قد حميت من الهلاك؟ ولماذا نرى أنواعاً أخرى تحتاج إلى حماية؟ ذلك لأنها قد فقدت ما يحفظها، والجواب على ذلك سيكون بالاستدلال والاستنتاج البرهاني، ذلك أنه ثبت بالملاحظة والامتحان أن كل دود الفراش الأخضر والأسمر يكون طعاماً هنيئاً لذيذاً بلا استثناء للطير وللضفدع وللضب وللعنكبوت. فهذه تسعى لتختفي من جموع هذه الأعداء بأنها تأكل في الليل وحده أما في النهار فإنها لا تتحرك وتبقى على الأوراق والأغصان وقشور الجذوع التي شابهتها في الألوان،



(شكل ١٥)
صورة دود الفراش المحفوظ بكراهة طعمه

ومن جهة أخرى هناك نوع آخر منه لامع اللون يأنف من أكله الطير إذا عرض له، وكذلك الضبّ والضفدع والعنكبوت، فليس أحد هذه المخلوقات بقادر أن يلمس دود الفراش المذكور. (انظر شكل ١٥).

وقد يقتنص الطائر ونحوه ذلك الدود بفمه ولكنه حالاً يلقيه من فمه لما أحس منه بالطعم الكريه، وهذا القانون يسري على دود الفراش الذي له شعر يغطي جلده والذي نسج غزلاً يحيط به. والذي يزيد في العجب أن هذه المذكورات لها طبائع تخالف ما تقدّمها من تلك الفراش الخضر والسمر وهو أن هذه تأكل نهاراً ولا يخفين أنفسهن كالسابقات وتأكل علناً كأنها حفظتها حكومة نظامية وكأنها أعطيت علماً بنجاتها من سائر أعدائها، هذه هي الرابطة التي بين اللون المبهج السار وعادة الإقدام والشجاعة. الفراش تنثر لنا نوراً وتضيء لنا كثيراً من أحوال الضوء اللامع الذي إن لم يكن كذلك فإن وجوده يكون معارضاً لفكرة الحماية والحفظ، وعلى ذلك نقول: إن بين خنافسنا طائفة ساطعة اللون كالمسماة « الطيور السيدات » والجنود والسائحين بين الطائفة منها المسماة « ملكودرمس »، وهذه الأنواع المذكورات حشرات مكشوفة ظاهرة ولا وقاية تقيها، وهي لم تخف أنفسها يوماً ما ولم تبحث

عن ملجأ تلجأ إليه ولم تتظاهر بالموت كما تفعل الخنافس الأخرى. إن السبب في ذلك قد وجد الآن. ذلك أنها أشبه بدودة الفراش التي لوّنت تلويناً بغير إتقان وهي لا تصلح طعاماً لآكلات الحشرات.

المثال الثامن عشر: وهذا الإيضاح يصح أن يعطى للبياض الذي يظهر في فراش مخصوص. إن أحد ذلك الفراش المخصوص هو المسمى « سيلسما منشرستي » وهو فراش عادي جداً، ولما وضعه في طعام الفراخ الرومية الأستاذ « استانتون » في جملة مئات من الحشرات الأخرى التي لا قيمة لها رفضته ولم تأكله، وهكذا كل الطيور بالتعاقب التقطته ثم رمته لما رأته كريه الطعم، وهذا نفسه قد حصل مع حشرة أبي دقيق الزاهية اللون المزخرفة التي تكوّن الطائفة المسماة « دنسدا »، وقد لاحظ الأستاذ « بلت » الطيور الآكلات الحشرات في جنوب أمريكا إذ رآها قبضت حشرة أبي دقيق وأحضرتها إلى أعشاشها لتطعم بها أفراخها الصغار، وبعد نصف ساعة لم تحضر تلك الطيور أحد هذه الطائفة التي تطير في كسل بلا وجل مرات كثيرة.

المثال التاسع عشر: وهناك طرق أخرى للحماية غير كراهة الطعم وبها يكون الاختفاء غير ضروري. إن أسلحة الطير تقوم لها بحق الدفاع عنها متى كانت تامة في نوعها، لتجعل هذا النوع غير نافع لعدوه أو خطراً عليه إذا هو هجم عليه وأحسن مثال لأسلحة الحشرات « النحل والزنابير »، فإن بين هذه ألواناً زاهية عامة بينما هي تطير هنا وهناك لتبحث عن غذائها من غير أن تحاول الاختفاء. وهناك حشرات أخرى لها غطاء قويّ أو غزل متلبك بلا نظام وذلك وضع عليها لأجل أن لا تؤكل. إن من بين الحشرات التي في الأقطار الحارة كثيراً من هذه الحشرات الظاهرات اللون المزوقات تزويقاً غير منظم. خذ مثلاً من أمثلة هذه الطائفة وهو الزنبور الياقوتي الذيل الذي ليس له حمة تكون سلاحاً له، وإنّما أعطي قوة بها يدحرج نفسه فيصير كرة صلبة قوية، وهو ملون بلون زاه بهيج بهي حسن حتى يظهر أنه جوهرة غريبة نادرة الوجود. وهناك نوع آخر ينال الحماية بالطيران السريع بأقصى شدة ممكنة ثم يخفي نفسه في ثقب أو بين أزهار حينما يسكن، وهذه دائماً تظهر بلون لامع فتشبه « روز شعر » المعتاد. هذه الأمثلة القليلة تفيد أنه لا حجة تقاوم استعمال اللون للحماية في بعض الحيوان، مثل أن يقال: إن هناك حيوانات لها ألوان مضيئة وليست للحماية. هذه أحوال أفادت أن الحيوان أعطي عوضاً يجعله يعيش ويبقى نوعه. هذا العوض نقدر على فهمه في بعض الحيوان، وفي بعض آخر نحن جهلاء بالعادة وبما يحيط بالنوع لنحقق هل اللون يحمي أم هناك أمر آخر للحماية، وإذا لم يحم اللون فما هي الحال الخاصة التي تقوم بالحماية بدل اللون.

المثال العشرون: دود الفراش لإمبراطور الفراش « أي تبع ـ بتشديد الباء ـ الفراش » جسمه محلى بالخضرة مع نقط وردية اللون في جمال فائق منظم ويأكل في مرعى، ولونه متلائم تلاؤماً موسيقياً مع براعيمه الخضراء وأزهاره الوردية حتى إنه يصعب كشفه بين تلك المراعي.

المثال الحادي والعشرون: لننتقل للصحراء. هناك لا أشجار ولا مراعي تحمي الحيوان بمشاكلته لها. إذن نجد تغييراً في اللون ليشاكل الحيوان ما حوله. فترى القبر ـ بتشديد الباء ـ وأنواعاً أخرى من الطير وكل ما له فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد الحيات والضب، كل ذلك بلون الرمال. وليس هذا خاصاً بصحراء بل هكذا كل الصحاري، والجمل والأسد لهما لون لطيف رملي أو صخري رملي.

المثال الثاني والعشرون: لنبحث في الجهات التي في القطب الشمالي، فهناك اللون الأحمر المصفر اللطيف هو المطلوب، ولكن اللون الأبيض الصافي وفي بعض الأحيان الأسود الأسمر أو الأسود «حيثما يكون اللون الواضح اللامع يكون أكثر فائدة من لون الاختفاء». كل دب في الأرض أسمر أو أسود إلا دب القطب فهو أبيض، وكذلك أرنب القطب والصائد الثلجي والبومة الثلجية كل هذه بيضاء أو قريبة من البياض. والثعلب القطبي والأرنب الذي يسكن «جبال الألب» فهذان يتغيران إلى البياض زمن الشتاء. وهناك طائر يسمى «بستر ميحان» في الأراضي المرتفعة وهذا خير مثال للحماية بالألوان، فريشه في زمن الصيف موافق لألوان الأحجار التي يجب أن يقع عليها، ولا يقدر الإنسان أن يميز سرباً منها بدون أن يرى واحداً منه وهو يلوّن بالبياض زمن الشتاء لأجل حمايته بمشاكلة الثلوج هناك التي تغطي الجبال. يستثنى من البياض الشامل الحيوانات في المنطقة القطبية «غنم مسك» أو «ثيران مسك»، وهذه تسمية معتادة هناك خطأ، لونها أسمر مسود، ويرى في أثناء الثلج والجليد وليس سبب هذا صعباً، إنه يعيش أسراباً فحمايته باتكاله على الجماعة والحيوان المنفرد هو الفريسة للدب القطبي أو الثعلب القطبي، ويمكنها أن ترى جماعاتها فيلتحق الواحد منها بها على أي مسافة فهو خير من اختفائه من العدوّ. انظر إلى «السمور» فهو يحفظ فروته السمراء الثمينة في أثناء شتاء سبيريا القاسي، وفي أثناء ذلك الفصل يلازم الأشجار ويأكل من ثمارها وهو نشط فيقتنص الطيور من وسط الأشجار. والغراب يكون في أقصى الأقطار القطبية الشمالية لكنه دائماً أسود لأنه لا عدوّ له، وهو يأكل من الجيف وهي لا تحتاج إلى الاختفاء من فرائسها. هذه أسباب ثلاثة ـ غنم خاصة تكون سمراء لأنها تكون سرباً، والسمور لأنه يعيش وسط الأشجار، والغراب لأنه لا عدوّ له ـ ذات قيمة من أجل وجهة نظرية. لقد برهنت هذه الثلاثة على عدم صحة الفكرة العادية التي يقال فيها: إن الحيوان يتغير للبياض في الأقطار الشمالية إما من تأثير البرد المباشر أو من تأثير انعكاس البياض من الثلج. فهذه الثلاثة علمتنا أن البياض إنّما اختص بهذه الحيوانات البيضاء لأنه حافظ لها، بينما تلك التي إما لا تحتاج إلى الحماية وإما أن لون السواد نافع لحفظها لم تلون بالبياض. إذن سبب التغير لا يرجع عقلاً إلى الأمور الخارجية بل هو راجع إلى قوانين مختلفة مختارة بحيث تغير صفات الحيوان في طريق نافع لها.

المثال الثالث والعشرون: الحيوانات الليلية تبرهن على فكرة الحماية اللونية. خذ مثلاً لذلك الفيران الصغيرة والكبيرة والوطاويط والخلد كلها رمادية اللون أو سوداء اللون. إذن لا يمكن رؤيتها ليلاً إذ هي إذ ذاك تسعى لجلب الرزق وفي النهار تخفي أنفسها في منافذ أو تحت الأرض. وإذا كان لون الاختفاء لا بد منه مثل ما هو حاصل في «البوم» فإننا نجد لونه ترابياً ذا بقع ملونة كثيرة لوناً خفيفاً ليحصل التشابه بينه وبين قشر الشجر أو الأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل.

المثال الرابع والعشرون: بعض الحيوانات الليلية لها لون زاه وهو «سكانك» الذي هو في أمريكا الشمالية، وهو أبيض اللون وذيله طويل أبيض غاية البياض، ولكن هذا يملك رائحة مهولة كريهة تنتشر فتجعله مخوفاً مزعجاً، وذيله الزاهي إنّما هو علم مفرد لكل حيوان آكل اللحوم منذر له أن لا يفتك به كما يحصل في الفراش الذي تتحاماه الطيور لطعمه الكريه كما تقدم وهي تأكل غيره لا هو.

المثال الخامس والعشرون: (أ) ومثل ما تقدم في التأثير البرهاني أن اللون يحمي ما ذكرنا هنا وكذلك في وسط الغابات التي عمتها الخضرة بكثرة في المناطق الحارة وما يقرب منها، فإنا نرى هناك طيوراً لوّن ريشها بلون تلك الجهات فصار أخضر مثل «الببغاء» الذي يسكن تلك الأقطار فهو أخضر على وجه العموم مع بعض رقع ذات لون براق بهيج. (ب) وفي الجزائر الاستوائية الشرقية أنواع كثيرة من الحمام خضراء كالبيغاء وكثير أيضاً من أصناف غيرها بنفس هذا اللون. (ج) ومثل هذه فصيلة الطيور الآكلة الفاكهة وهي تكثر في الأغلب في الأقطار الاستوائية الآسيوية، وهناك طير: (١) أخضر يسمى بلبل. (٢) وآخر يسمى آكل النحل. (٣) والذي في أفريقيا الاستوائية. (٤) وذو العين البيضاء الصغيرة الذي في الأقطار الشرقية الاستوائية وأنواع أخرى كثيرة. كل هذه الأنواع تلازم الأفنان المورقة المشتبكة الأوراق المشاكلة للونها مشاكلة موسيقية منتظمة بحيث لا يقدر الإنسان أن يميز بين المساكن وساكنيها.

المثال السادس والعشرون: ولنوازن بين هذا وبين الألوان العادية في الطيور بالأقطار التي هي مثل بلادنا. ليس هناك لون يقرب من الأخضر فذلك ليس بموجود، بينما الزيتي والأسمر هما العامان في ريش الطيور. هذا لون خفيف وهو أقل مظاهر اللون بين الأشجار التي لا أوراق لها، والأدغال أو الشجيرات التي هي كثيرة في جزء كبير من السنة، وعند الاحتياج إلى الوقاية تكون الألوان أشد خضرة.

المثال السابع والعشرون: إن للزواحف ألواناً خفيفة واقية لها. فانظر إلى الضب والحية فإنهما يكونان أسمرين قليلاً أو كثيراً أو زيتيين خفيفي اللون، بينما هما في الأقطار الاستوائية وحدها يكونان شديدي الخضرة البراقة لامعين ليشاكلا النباتات في تلك الأقطار، وهناك نوع من الضباب مسطح مشاكل لجذوع الأشجار أو الأحجار التي يعيش عليها ولونه أخضر أو أشيب مشاكلة للسطح الذي يعيش منه.

المثال الثامن والعشرون: بعض الحيات الليلية هي وكل ما كان ليلياً من الحيوانات التي تحتاج إلى الاختفاء تكون ألوانها ذات سواد أو سمرة أو زيتية.

المثال التاسع والعشرون: كثير من السمك قد اتضح فيه الحفظ بواسطة اللون، فنرى الذي يسكن في قاع البحر له لون نفس القاع فهو منقوش نقشاً كثيراً ليوافق الرمال والحصى. فأما الذي يعيش قريباً من سطح الماء فإنه يكون من فوق أزرق مائلاً للخضرة، وهو من أسفل أبيض لأجل الفرار من العدو الذي في الهواء فوقه ومن العدو الذي في الماء تحته، والسمك اللامع في البحار الدافئة كثير منها تختفي حينما تكون محوطة بالأعشاب البحرية اللامعة والمرجان والشقائق وأنواع من الحيوانات البحرية التي تجعل قاع البحر في بعض الأوقات يشبه حديقة مزهرة خيالية، والسمك الذي كالأنابيب وخيل البحر هي أحسن أمثلة لأساليب اللون والاحتماء به فبعضها مخضر مشبهاً للحشائش البحرية العائمة، ولكن في أستراليا هناك نوع عظيم مغطى بطبقة ورقية وكلها ذات لون أحمر، وهذه تعيش وسط الأعشاب الحمراء البحرية وبهذا تختفي عن أعين الناظرين.

المثال الثلاثون: في الأقطار الاستوائية حشرات قد حفظت بصفات عجيبة غاية العجب من حيث ألوانها وخطوطها العجيبات، وأحسن ما علم منها حشرات الورق التي هي حشرات كبيرة عجيبة أجنحتها وأغطية أجنحتها عريضة مسطحة مشكلات بأوردة وعروق مثل ما للأوراق، وأرجلها ورؤوسها وصندوقها لها اتساع مسطح على هيئة ما حولها من النبات، وعلى هيئة كل موجود من النباتات ذات الأوراق الخضر خضرة لطيفة وهي التي تعيش عليها تلك الحشرة. إنه لا يمكن كشف تلك الحشرات وتمييزها عما حولها إذا لم تتحرك.

المثال الحادي والثلاثون: الحشرات العصوية فيها غرابة وهي أنها أشبه بأسطوانة طويلة والمخالب طويلة، وهي تماماً كقطعة من عصا سمراء أو مخضرة، فإذا كان لها جناحان فإنها تضمهما معاً وتختفي تحت غطاء أجنحتها كأنها عصا ممدودة، بينما الرأس والرجلان مصوّران إما مثل هيئة العصا أو كهيئة فرع غصن يتعلق على الشجيرات، وهذا المخلوق في الغابات لا يتميز من الفروع والأغصان التي تتدلى من الأشجار فوق رؤوسنا، وهذه لا تزال ساكنة لا حراك لها أثناء النهار، فإذا جاء الليل أخذت تأكل وهي تعلق أنفسها بأطراف أرجلها بغصنين أو بثلاث، وبقية الشجرة ملائمة لأبدانها، وعلى ذلك تظهر بمظهر غير متناسب كأنها أغصان مكسرة اتفاقاً، وبعض هذه الحشرات تحميها مادة خضراء عجيبة منتشرة على جميع جسمها، وإذن تظهر كأنما هي قطعة من غصن مغطاة بطحلب بضيّ لطيف أخضر قد عمه من جميع جوانبه، وهذا المنظر قد ظهر لكاتب هذه المقالة في الكتاب الإنجليزي في بلاد «بورنيو» فأيقن لما رآه أن الطحلب قد نما وترعرع على الحشرة وهي حية، ولكنه لما امتحن ذلك تبين له أن الذي ظنه طحلباً إنما هو من مظاهر نفس الحشرة.

المثال الثاني والثلاثون: ومن عجب حشرة أبي دقيق ذات المنظر الجميل الساحر الذي يجعل تلك الحشرة ظاهرة جلية. فانظر كيف كان نفس ما به ظهورها يكون به اختفاؤها، وأول من كشف ذلك الأستاذ «وود» فإنه قال: إن حشرة أبي دقيق الجميلة برتقالية الرأس، فإن هذه الحشرة وإن كانت ظاهرة وهي على الأغصان تختفي اختفاء تاماً وقت المساء إذا جثمت في مكانها الملائم لها وهو أطراف الأزهار في شجر البقدونس.

(شكل ١٦ ـ صورة حشرة أبي دقيق البقدونسي)

ألا ترى أن ما تحت ظاهر هذه الحشرة في غاية الجمال منقوش بخضرة مصحوبة ببياض لتماثل البياض والخضرة في أطراف زهر ذلك النبات. انتهى ما قصدته من ذلك الكتاب. (انظر شكل ١٦).

وهاهنا يتجلى أمران: الأول أن ما انتشر بين المتعلمين في مصر وسوريا والعراق وجميع بلاد المشرق وكثير من بلاد الغرب أن العلوم الطبيعية ومذهب «داروين» و«لامارك» تنافي وجود منظم الكون، إنّما هو من العلوم التي أذاعها القوم في القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر.

أما علماء أواخر القرن التاسع عشر وعلماء القرن العشرين في أوروبا فإنهم بما حققوه لم يصبحوا مؤمنين فحسب بل هم موقنون. فانظر إلى ما تقدّم في المثال الأول كيف يقول المؤلف: هنالك أتاني اليقين أن هناك غاية مقصودة حقاً، وأن الحشرة قد أدخلت الغفلة على هذا الكاتب فلم يميزها من الحصوات حولها، فهي على غش الطيور الآكلات لها أقدر. وهذه مسألة واحدة من الأمثلة الاثنتين والثلاثين المتقدّمة المملوءة من الحكمة والإيمان والعلم، وانظر ثم انظر في المثال الثاني والعشرين. انظر إلى الثعلب القطبي كيف يتغير إلى البياض زمن الشتاء، وإلى الطائر الذي يكون ريشه في الصيف موافقاً لألوان الأحجار التي يقع عليها ولألوان الثلوج زمن الشتاء، ثم تأمل كيف اهتدى العلماء في أوروبا للحقيقة إذ كذبت تلك النظرية العتيقة التي علقت بأذهان الطلاب في جميع مدارس العالم قاطبة وهي أن الألوان إنّما جاءت بتأثير البيئة والوسط. فاعجب كيف يقول في نفس هذا المثال: إن «السمور» و«الغراب» و«غنم مسك» هذه الثلاثة قد كذبت النظرية المعتادة القائلة: إن الحيوان يتغير للبياض في الأقطار الشمالية إما من تأثير البرد وإما من انعكاس البياض من الثلج، وأثبت أن البياض يوجد إذا كان نافعاً للحيوان وغيره يكون عند الحاجة أيضاً، وبعبارة أخرى: إن متأخري الفرنجة اليوم برهنوا على هذه الآية: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وأي برهان أعظم من هذا؟.

اللهم إنك قد أريتنا وعلمتنا الحكمة وأريتنا من أبدع العلوم والحكم. هذه هي العلوم والحقائق التي هي بعض ملكوت السماوات والأرض التي أراها الله لإبراهيم الخليل عليه السلام وبها أيقن بربه. وهاهي ذه أمامك في هذا المقام وهذا التفسير طافح بها، وقد حجبت هذه العلوم عن كثير من المتعلمين في بلادنا، يقرؤون العلوم واللغات ولكنهم لم يوفقوا للاطلاع على ما علمته أوروبا في هذا القرن وأواخر القرن الذي قبله. فهم يقرؤون صدى صوت علماء القرن الثامن عشر تقريباً ولم يصلوا لنهاية العلم في هذا القرن. فهاأنا ذا أريتك نهاية علم القوم حتى تعلم علماً ليس بالظن أن أولئك الذين يلحدون ويكفرون متظاهرين بأنهم تابعون لعلماء أوروبا قد غرّهم في عقلهم ما كانوا يكذبون. فهؤلاء جهلهم جهل مركب ولله في خلقه شؤون. هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني في هذا المقام: جمال العلم ومحاسن الطبيعة وموسيقاها

اعلم أن التوغل في معرفة هذه العوالم يريها كأنها جنة عالية، قطوفها دانية، لا تسمع فيها لاغية. انظر إلى ما سمعته الآن. انظر إلى هذا الجمال وأي جمال أبدع وأي حسن أبهج من هذا. يعيش الناس ويموتون وهم مغمورون في الجمال والموسيقى ولكنهم لا يعلمون أنهم في جمال وموسيقى. وما مثل الناس في هذه الحياة وقد غفلوا عن الجمال الذي رأيته الآن إلا كمثل العمي أمام الغانيات الفاتنات، أو كمثل الصم أمام المغنين والمغنيات، جملت هذه الدنيا وكملت وتعالى الله فطمس الحقائق وأبعدها عمن لا يستحقون وأبرزها لمن يفقهون.

حكاية من رسالة القشيري المؤلفة في القرن الرابع الهجري

حكي أن الجنيد رحمه الله جاءت له امرأة تشكو زوجها، فقالت: يا سيدي لماذا يتزوج زوجي عليّ ووالله لولا أن كشف الوجه حرام على الأجانب لأريتك وجهي حتى تعلم أنني جميلة. فلما سمع ذلك الشيخ أغشي عليه، فقيل له: لماذا؟ فقال: لأن الله يخاطبني على لسان هذه المرأة أنه لا يرى وجهي إلا المستحقون وهم المطيعون وسواهم محرومون. فهكذا هنا نقول: إن وجه هذه الدنيا كله جمال ولا يحظى به إلا المفكرون وسواهم غافلون.

انظر كيف رأيت أكثر المتعلمين في الشرق والغرب جهلوا هذا الجمال لأنهم لم يصلوا لغاية علم القوم الذين ادّعوا أنهم قلدوهم. ويجمع هذا المقام كله قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ٢٤].

ولعلك تقول: أين الموسيقى في هذا العالم ونحن لا نعرف الموسيقى إلا المسموعات من الأوتار والمغنين؟. أقول: إن الموسيقى على قسمين: قسم خاص وقسم عام.

أما القسم العام فهو ما يعلمه الجهلاء والعلماء على حد سواء من الحركات والسكنات التي تؤثر في الهواء فتصل للآذان، وهذا إنّما تسر القلوب لأنها على نسب هندسية، كما تقدم في سورة « يوسف » عند الكلام على جماله، وكما ذكرته في كتابي « الموسيقى »، وملخص ذلك أن الموسيقى ترجع إلى النظام والنسب الهندسية والحسابية.

يحكى أن الفيلسوف « فيثاغورس » مر بدكان حداد فسمع وقع أربع مطارق فأطربته لأنها موزونة، فوزنها إذا هي على نسبة ٦ إلى ٨ إلى ٩ إلى ١٢، فأتى بأوتار أربعة متساوية في الطول والثخن وربط بها أثقالاً على النسبة المتقدمة فنقرها، فكانت كتوقيع المطارق الأربع. واعلم أن جميع علم الموسيقى يرجع إلى سبب ووتد وفاصلة، وهكذا علم الشعر، والسبب مثل « من »، والوتد مثل « على » ومثل « بعد »، والفاصلة مثل « فعلت »، ومن هذه الثلاث تتركب جميع الألحان، وتلك الألحان يحملها الهواء فتدخل الآذان فيفرح الإنسان بها. ذلك لأنها على نسب هندسية مثل خفيف الثقيل الأول الذي على هذا النمط « فعولن مفاعيلن »، فهذا في الموسيقى أشبه ببحر الطويل في علم الشعر، وهذا الوزن نفسه هو الذي تصيح به الفاختة وهذا صورته: « ككوه كوه ككو كوكو »، فهذا الوزن نفسه هو في بحر الطويل إذا كررناه أربع مرات، وهو نفسه موسيقى وهو نفسه صياح الفاختة، وإنّما استلذها السمع لأن نسبتها مكررة هكذا ٧ متحركات إلى ٥ سواكن، كنسبة ١٤ متحركاً إلى ١٠ سواكن، كنسبة ٢١ متحركاً إلى ١٥ ساكن، كنسبة ٢٨ متحركاً إلى ٢٠ ساكناً، وهذا هو نفس بحر الطويل. ومعلوم أن هذه النسبة حاصل ضرب الطرفين فيها يساوي حاصل ضرب الوسطين، أي أن ٥ إذا ضربت في ١٤ فإنها تساوي ٧ مضروبة في ١٠، وعلى هذا أبداً فقس فيما لا يتناهى مهما تكررت هذه النسبة المتكررة المنتظمة، وهي التي عرفتها آذاننا وآذان الطير وآذان الجهال منا والعلماء. عرفت آذاننا هذه النسبة ففرحت بهذا الجمال، ولكن بعد هذا كله نقول: إن هذه الموسيقى عرفها الطير وكثير من الحيوان وجميع نوع الإنسان، ولكن هناك موسيقى أرفع مقاماً هي الموسيقى العلمية أي النظام والإبداع في هذه الدنيا، فهذه الموسيقى هي التي حجبها الله عن أكثر هذا النوع الإنساني، بل أكثر

المتعلمين في الأمم محرومون منها وهي الموسيقى التي تظهر في علم الفلك وعلم الطبيعة. انظر وتعجب إلى نظام الأفلاك وحسابه كما تقدم في هذا التفسير، وتقدم بعضه في سورة «يوسف» عند ذكر الجمال وأن هذه النسبة التي قرأتها في الشعر والموسيقى تقرؤها في حساب سير الشمس والقمر والكواكب وتعرفها في نظام العناصر عند تركيبها، وأبدع من ذلك ما رأيته الآن في هذا المقام الذي نحن بصدده. انظر ثم انظر إلى الغراب كيف خالف لونه لون الثلج في الأقطار القطبية، لماذا؟ لأن فريسته جيفة لا تفر منه. وانظر كيف ترى الله عز وجل جعل حماية الحيوان متنوعة الأشكال بهجة المناظر. فتارة يحميه بقذارة شكله ومشاكلته لزرق الطير الذي أكله. وتارة يحميه بمشاكلة لونه لما حوله. وتارة يحميه بالريح الكريهة التي يؤذي بها من يقصده. وتارة يحميه بشدة العدو. وتارة باختفائه ليلاً وتارة بسلاحه، وهكذا من ضروب الإبداع والإتقان. قل لي رعاك الله، ألم تكن هذه الأجسام كلها من عناصر معلومة، والعناصر كلها هي المواد الجامدة والغازية والسائلة، ثم بعد ذلك يكون الضوء والحرارة. فماذا جرى؟ جرى أن هذه المواد الثلاثة تنوعت أشكالها فكان منها صور حيوانية وأخرى نباتية، والحيوانية تنوعت الحماية فيها إلى صور بديعة مختلفة. فانظر. أليست الموسيقى ترجع إلى ما ذكرت لك من السبب والوتد والفاصلة.

فهذه الثلاث كان منها جميع الشعر وجميع الموسيقى في العالم. وما الشعر والموسيقى إلا حركات وسكنات هذه أصولها، إذن لا فرق بين الموسيقى العامة في أن لها أصولاً ثلاثة والموسيقى الخاصة في الطبيعة، فإن أصولها أقسام الأجسام المتقدمة؛ فكما تنوع الشعر والموسيقى إلى ما لا يتناهى من الصور المفرحة للعلماء في الهواء وللجهال على حد سواء هكذا تنوعت أقسام الأجسام الثلاثة إلى ما لا يتناهى من الجمال في هذا العالم، كما رأيت في أنواع حماية الحيوان، وهذا لا يكون في الهواء بل في العوالم الطبيعية كلها. يظهر أن هذا العالم مبني على أمرين: حركة مستمرة ونظام جميل. فالحركة في الموسيقى والشعر معروفة والحركة في الطبيعة لا يعقلها إلا المفكرون فيها.

ففز بعلم تعش حياً به أبداً   الناس موتى وأهل العلم أحياء

إيضاح ما تقدم: بعض أسرار القرآن تظهر في هذا الزمان

هذه الأسرار هنا ترجع إلى نظام الحيوان، ونظام الحساب العام.

أما نظام الحيوان الذي رأيته فهو السر المصون والجوهر المكنون والعرفان والنور. نعم هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨]، فهاهو ذا ذكر سبحانه اختلاف ألوان الثمرات وألوان أجزاء الجبال والدواب والأنعام، ثم ختم ذلك بأنه لا يخشى الله إلا العلماء.

الله أكبر. يا ليت شعري أي علماء هؤلاء؟ نعم هم علماء النبات والحيوان والجماد الذين يعقلون سر الألوان؟ وهل سر الألوان غير ما جاء في هذه المقالة ونحوها. أيها المسلمون، أليس هذا هو الذي جاء لأجله القرآن. جاء القرآن لهذا.

القرآن نزل وانتشر قروناً ثم خلف بعد ذلك خلف ورثوا الكتاب وحفظوه عن ظهر قلب ثم ناموا، فخلقنا الله اليوم فرأينا أنه وإن أنام المسلمين في القرون المتأخرة قد أيقظ أمماً أخرى فأظهرت ما أكنّ القرآن من أن لكل حيوان لوناً يخصه لنفعه أو لبقائه، إذن عرفنا الآن أن الألوان المذكورة في الآية ليست مظاهر جمالها بل منافعها الحقيقية المتقدمة، إذن هي تفسير للقرآن إذ أن الله الذي أنزل القرآن وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: ١٩]، وقال: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣] هو نفسه الذي أمر علماء أوروبا فاستخرجوا منافع الألوان، وهو الذي ألهم مؤلف هذا التفسير وأمثاله أن يصيحوا في المسلمين قائلين لهم: تعلموا هذه العلوم، فإن ألوان الحيوان مثلاً النافعة له هي المقصودة في الآية، والعلماء بها هم الذين يخشون الله، وهم الذين قال الله لأمثالهم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢] جمع عالم. الآيتان على نظام واحد. ذكر الله فيهما أن هذه الألوان لا يعقلها إلا العلماء، أي: العلماء بها، وبنظام هذه المخلوقات. إن هذا التفسير قد جاء قبيل ظهور حكماء في أمم الإسلام لم يحلم بهم الدهر. انظر إلى الآيتين السابقتين هل يعقل أن أحداً يقال له «عالم بنظام وبألوان المخلوقات» إلا من يبرعون في هذه العلوم، ومتى برعوا يعقلون بعض جمال ربهم ويكون العالم أمامهم جنة عرضها السماوات والأرض أو موسيقى تصدح لأولئك العلماء العاملين. انتهى الكلام على نظام الحيوان.

أما نظام الحساب العام فإن الله لم يقف نظامه عند حد الحيوان نفسه ومراعاة حياته وحفظه بل تعدى ذلك إلى أصواته فحسبها ونظمها، ولم يذر طيراً على شجر ولا إنساناً في بدو أو حضر إلا نظم أغانيه وموسيقاه. وهذا كله تفسير لقوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧] وعدم الغفلة يلزمها أن لا يضع سبحانه لوناً إلا لفائدة، وإلا لكان ذلك اللون عبثاً ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الروم: ٦-٧] إلى قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[الروم: ٨]، ومن الحق المذكور أن يكون لكل عرض ولون فائدة وإلا فكيف يسبح الناس ربهم ويقولون: «سبحان الله»، والتسبيح تنزيه عن كل ما لا فائدة فيه. إن الناس لا يصلون إلى المقام الأعلى إلا بعد فهم هذا الوجود حتى يعقلوا عمل ربهم. وكما أن عدم الغفلة عن الخلق يلزمه أن لا يكون لون بلا فائدة هكذا يلزمه أن تكون الأصوات أيضاً منظمة، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقال: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١] فخذ إيضاحاً لما تقدم، تقول الفاختة:

ككوه كوه ككو كوكو ككوه كوه ككو كوكو ككوه كوه ككو كوكو ككوه كوه ككو كوكو

والشاعر العربي يقول من بحر الطويل:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

والموسيقى خفيف الثقيل الأول:

	تنن تن تنن تن تن	تنن تن تنن تن تن	تنن تن تنن تن تن	تنن تن تنن تن تن
وزن الشعر:	فعولن مفاعيلن	فعولن مفاعيلن	فعولن مفاعيلن	فعولن مفاعيلن
الحساب:	٥ : ٧	١٠ : ١٤	١٥ : ٢١	٢٠ : ٢٨

ومثل بحر الطويل في هذا الحساب بحر البسيط وبحر المديد، إذا لم يدخلها علل أو زحافات كما هو مبين في محله، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩]، وقوله: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[الأنعام: ٦٢] لأنه أسرع في حساب نغمات الموسيقار وأصوات الفاختة والشاعر العربي، وجعلها كلها بحساب واحد بحيث يكون حاصل ضرب الطرفين في كل واحد يساوي حاصل ضرب الوسطين.

هذا هو أعظم سر من أسرار الإسلام ظهر الآن وسيظهر أسرار وأسرار بعد انتشار هذا التفسير. انتهى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾

لقد تقدم الكلام عليها في سورة «البقرة» فليرجع إليه من أراد.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾

لقد علمت أيها الذكي أن المواليد الثلاثة وهي النبات والحيوان والإنسان وكذا المعدن قد جاءت في القرآن مراراً، وما ذكرت مرة إلا تامة، وفي هذه السورة تامة أيضاً، فإنه ذكر الإنسان الذي هو آخر السلسلة ثم ابتدأ بالعلويات فالعناصر كالماء وذكر الأرض وفيها المعادن ثم النبات ثم الحيوان، وهذه السلسلة منتظمة كما ذكرته سابقاً في هذا التفسير.

وأذكر لك الآن أن هذه السلسلة نقلها الفرنجة عن آبائنا. أما قدماؤنا فكانوا يقولون هكذا: إن المعادن تليها النباتات فالحيوانات، وأعلاها ما هو كالقردة وكالفيل ونحوه من كل ما له صفة تشبه صفة الإنسان، وأعلى من هؤلاء الإنسان الذي في أطراف المسكونة. فلما نقل المذهب إلى أوروبا وشرحه «داروين» قال بما قاله آباؤنا تماماً، ولكنه قال: يحتمل أن يكون الأعلى مشتقاً من الأدنى، أي متولداً منه، ففتح باباً للقوم بأن الإنسان كان قرداً فترقى، فتعصب للمذهب من بعده العالم «برن» وأمثاله، وهناك عشرات بل مئات يقولون: إن هذه العوالم ليس لها موجد وإنّما وجدت بالمصادفة وبسبب أربعة أمور كما سيأتي، وهو تطور الحياة والوراثة وتنازع البقاء وكون الأقوى يميت الأضعف. فجاء علماء العصر الحاضر في القرن العشرين وقاموا قومة واحدة على هذا المذهب فنقضوه.

ويجدر بي أن أنقل لك كلامهم حتى تعرف أن قوله تعالى: ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾[المؤمنون: ١٨]، وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾[المؤمنون: ١٣] الخ وهكذا أصبح مبرهناً عليه في العلم الحديث.

وإني أعلم أن هذه الآراء لن تنتشر سريعاً في المدارس والكتب، ولكن المذهب الدرويني قبل تعديله سيبقى على حاله يدرس لصغار التلاميذ أمداً طويلاً. فهاأنا ذا أسمعك العلم الحديث، الذي قلبه وما قلبه وأبطله إلا علماء الألمان والنمسا والإنجليز.

فلأسمعك كلامهم لتكون على علم، حتى إذا قيل لك: مذهب «داروين»، كان عندك منه خبر، وأسمعتهم نقضه من فطاحل خلقهم الله بعده في أوروبا، فرجع الأمر للقرآن وثبت بالبرهان العقلي الحديث قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾[المؤمنون: ١٢] الخ.

فصل: في أصول مذهب داروين
وبيان أقوال العلماء في نقضه من أهل أوروبا، وأن أصوله أربعة

اعلم أن هذا المذهب لما انتشر في بلادنا المصرية فشا الإلحاد وعمت الرشوى وذاع الزيغ، وتفاخر كثير من العظماء وأرباب السطوة والنفوذ بخلع العذار وانتهاك الحرمات، وتبارى كثير منهم في شرب الخمر والقمار، ونبذوا الدين ظهرياً وذلك عقب ظهور مؤلف الدكتور « شبل شميل » الذي هو ترجمة كتاب « بخنر » الألماني، وكان المترجم والمترجم عنه يميلان إلى الإلحاد وإنكار الخالق، فكان ذلك داعياً لفشوّ ذلك وتقليدهما تقليداً بلا جدال. كل ذلك في أوائل هذا القرن العشرين، وبينما نحن كذلك في مصر وفي بعض بلاد الشرق كان علماء أوروبا قد نقضوا هذا المذهب، فخر على المؤمنين به السقف من فوقهم وانهارت دعائمه وأصبح هشيماً تذروه الرياح كأن لم يغن بالأمس. ولأذكر لك أصوله ثم بيان أقوال العلماء في نقضه.

فصل: في أصول هذا المذهب

بنى « داروين » هذا المذهب على أربعة أصول: الأصل الأول: أن الحياة ذات أطوار وتغيرات بها ترتقي من حال إلى حال. الثاني: أن هذه التطورات تنتقل بالوراثة إلى النسل. الثالث: أن الأحياء جميعها بينها تنازع في البقاء. الرابع: أن ما كان أتم وجوداً وأقوى وأكمل فهو الأصلح للبقاء، وأما الأضعف فإنه محكوم عليه بالفناء، فالحيوانات والنباتات كلها سلسلة واحدة أعلاها مشتق من أدناها بالارتقاء، ومن ذلك أن الإنسان مشتق من القرد وهو أعلى الحيوانات بمقتضى هذه القواعد، ولما كان الأكمل هو الباقي ظهر الشره والطمع في عالم السياسة، وأنشئت في أوروبا المهلكات الحربية بناء على هذه النظرية وسيادة القوة الأسدية ونقضت العهود وخربت الذمم بين الأفراد في بلادنا، وما عجبت لشيء عجبي منا معاشر الشرقيين كيف نقدس مذهباً نقضه أهل أوروبا، وسيعتريك العجب حين أتلو عليك من آراء حكمائهم وبراهين علمائهم ما يذيب هذا المذهب ويجعله هباء منثوراً. إني آسف أشد الأسف أن الغفلة مستحكمة في أنحاء الشرق عند المتعلمين منهم. آمنوا بالمذهب الدرويني كما شربوا الخمر اتباعاً لأهل أوروبا ولم يعلموا بأنباء العلماء هناك إذ أبطلوا ذلك المذهب بطلاناً تاماً، كما بينوا أن الخمر سم ناقع حتى حرمته دولة أمريكا وأنكرته بلاد السويد والنرويج. فالخمر لا يزالون يشربونه والإلحاد في الدين باق كأن المذهب لم ينقضه أولو الألباب.

فصل: في نبذ مما قاله العلماء في نقض هذا المذهب

(١) قال جوستاف لوبون: إن المادة ليست أبدية بل هي خاضعة للناموس الحتم الذي يقضي على جميع الكائنات بالفناء، هي مركبة من مجموعات شمسية مؤلفة من عناصر يدور بعضها حول بعض بسرعة عظيمة جداً، وهي لا ترى ثابتة في حسنا إلا بسبب تلك السرعة المفرطة. اهـ.

وأنت تعلم أن مذهب « داروين » مبني على المادة وهي أسه.

(٢) قال الأستاذ « هنري بوانكاريه » العضو بالمجمع العلمي الفرنسي: إذا نظرنا في ناموس خاص أياً كان فإنا نستطيع أن نؤكد أنه لا يمكن أن يكون إلا تقريبياً، لأنه مستنتج من تحقيقات تقريبية وهذه التحقيقات لم تكن ولا يمكن أن تكون إلا تقريبية. وقال الدكتور « ج. جيليه »: إن النواميس

يمكن أن تتغير بعارض من العوارض وأن يبطل عملها أيضاً . أقول : ولا جرم أن هذا من أكبر أساس مذهب « داروين » المبني على النواميس الطبيعية .

(٣) قال الأستاذ « جوستاف جوليه » : إن العوامل التي ذكرها « داروين » تعجز عن تعليل ذلك الثبات التام للصفات الأصلية للأنواع التي تتكون حديثاً ، وتعجز أيضاً عن تعليل نشوء الإلهامات الجديدة فيها . وقد أثبت أن أنواعاً جديدة لا تزال تخلق جديداً كما ستراه .

ثم قال الأستاذ « جوليه » : إن مذهب « لامارك » ومذهب « داروين » يستويان في القصور ، فإنهما لا يفسران التحول عن الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول عن الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية ، فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التي ليست له ، ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور؟ وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة؟ وأن مسألة الحشرة أشد استحالة . وهل هناك أي علاقة من جهة علم الحياة وبين الدودة وبين الحشرة الكاملة التي تنقلب إليها؟ إنها حشرة تعودت الحياة الدودية تحت الأرض أو في المياه ، فكيف تصل شيئاً فشيئاً إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة لها . انتهى باختصار .

(٤) قال العلامة « دوفري » : إن التحولات الفجائية هي القاعدة في عالمي الحيوان والنبات ، وقد أعلن هذه الحقيقة « جوفر » و« اسان هيلير » و« كوب » ، وثبت أن الظهور الفجائي للأنواع الكبيرة الرئيسية كالزواحف والطيور وذوات الثدي كان في الأراضي الجيولوجية ، ومتى ظهرت حصلت على صفاتها كاملة .

(٥) قال الدكتور « جوستاف جوليه » : إن الحشرة ظهرت من أقدم عهود الحياة الأرضية وثبتت أنواعها في جميع الأحوال ، فهي تناقض ما ذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة وتناقض التطور بفعل الفواعل الخارجية ، فإنها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية إلى حشرة طائرة ولا تأثير عليها من الخارج ، كما أن الهوة عميقة بين الحال الأولى وهي الدودية والحال الثانية وهي حال الحشرة ، وهي هوّة تضيع فيها كرامة جميع النظريات الدروينية واللاماركية ، فالحشرة أدت شهادة حسية ببطلان مذهب « داروين » كما أثبت عجزه عن تفسير غرائزها الأولية العجيبة المحيرة للعقل .

(٦) رأي « فون باير » في مذهب « داروين » : وهو العلامة الألماني الكبير مؤسس علم « الأميربولوجيا » علم الأجنة ومن أقطاب الفيزيولوجيين والحفريين قال : إن للرأي القائل بأن النوع الإنساني متولد من القردة السيمانية هو بلا شك أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الإنسان .

(٧) قال العلامة « فيركو » الألماني من علماء « الأنتروبولوجيا » ، أي : التاريخ الطبيعي للإنسان وكذلك العلامة « الأنتربولوجي » الفرنسي « دوكاتر فرفاج » يقولان : إن القرابة في التاريخ الطبيعي للإنسان من القرد منعدمة .

إن الإنسان في العهد الحفري الرابع وجد مشابهاً لنا كل المشابهة ، مع أنه كان يجب أن يكون أقرب إلى أسلافه القردة ، بل إن نقص الخلقة في رجال العصر الحاضر أوفر منها في تلك العصور . ثم قالا : إننا لا نستطيع أن نعتبر ولادة الإنسان من القرد أو من حيوان آخر من الأمور العلمية .

(٨) رأي العلامة «ايلي دوسيون»: ذكر في كتابه «الله والعلم» في الطبعة الصادرة سنة ١٩١٢م ما يأتي: إن الغرضين اللذين يقوم عليهما مذهب «داروين» هما الانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة، وقد أثبت «هربرت سبنسر» هدم الغرض الأول من أساسه. ونقض «ويسمان» إمكان انتقال الصفات بطريق الوراثة، وبرهن على أن هذه المشاهدات المزعومة لا تقوم إلا على حكايات مخترعة ولا تعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكايات المرضعات.

(٩) قال الأستاذ «جورج بوهن» مدير معمل البيولوجيا والبسيكولوجيا ما يأتي: إن نتائج كثير من المباحث البيولوجية والبسيكولوجية الحيوانية قد ظهر بطلانها بسبب القيمة العظيمة التي كان أصحاب هذه المباحث يعطونها لنظرية الانتخاب الطبيعي.

(١٠) كتب العلامة «ادمون بريبه» في مجلة «العالم الحي» سنة ١٩١٢ قال: إن ثقة الأستاذ «جينو» بتأثير البيئة «الوسط الخارجي» ضعيفة جداً، فإن هذه البيئات على ما يقول لا تصلح لإيجاد أي تغيير وراثي ثابت، فالبط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء، فيظن أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها، ولكن الأمر على العكس من ذلك في مذهب المسيو «جينو» فإنه يقول بأنها وجدت لها مقدماً بدون تأثير من الخارج، وأخذ البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلاً مغشاة تصلح للعوم. فهذه الحيوانات قد أعدت من قبل للعوم، أي أنها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها في العوم.

(١١) قال العلامة «بلوجر» الألماني: لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة.

(١٢) قال الفيزيولوجي الكبير «دوبوار يمند»: إذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلفت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها، وأنها هي نفسها من المفترضات الغامضة.

(١٣) رأي دائرة المعارف الكبرى الفرنسية في مذهب «داروين»: إن النظرية الدروينية لسوء الحظ مختلة من أساسها، لأنها تفرض أن جميع الصفات النافعة حدثت بالمصادفة، وبالتالي جميع الحيوانات حدثت على ما هي عليه اتفاقاً مصادفة، وهو فرض يلاشي المسألة نفسها.

(١٤) قال الدكتور «إدورد هارتمان»: إن وجود هذا الرأي عند الدروينيين ـ رأي عدم وجود القضاء ـ هو من المسلمات التي لا يقوم عليها دليل ومن الأوهام التي لا أساس لها. وعلل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكي ولا يمكن النظام بلا قصد كما لا يمكن القصد بلا نظام. وكل ما لا نظام له فهو مهمل في فوضى كالثيران الهائمة، والطبيعة التي يعللون بها ليست كذلك.

(١٥) قال العلامة «لويز بوردو» ما نصه: يجب أن يعترف بأن هنالك قصداً مقصوداً وروحاً مديرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها، فالقصد يظهر في تلازم الحوادث ويثبت به.

(١٦) رأي الأستاذ «فون باير» الألماني في القصد: قال: إذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهوري بأنه لا قصد في الطبيعة وأن الكون لا يعوزه إلا ضرورات عمياء؛ فأنا أعتقد أن من واجباتي أن أعلن عقيدتي في ذلك، وهي أني على العكس أرى جميع هذه الضرورات تؤدي إلى أغراض سامية.

(١٧) قال « كاميل فلامريون » : إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاماً مقرراً وغاية دفع بها إليها ، وأن المقصود بهما ساكن هذا الكوكب وحده ، وأنهما يتعاليان عن أن نلم بهما في حقارتنا . إن التبصر الذي يظهر في النباتات والحشرات والطيور الخ وهي غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتحان المشاهدات في التاريخ الطبيعي يستنتج منها أن في الطبيعة عقلاً مدبراً .

(١٨) قال العلامة « لوجيل » الفرنسي ما نصه : إنه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى صادرة من قوة أولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل .

(١٩) في دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية ما نصه : إن لكل من الكائنات المتنوعة للطبيعة الحية غاية وضع لأجلها ومركزاً يدور عليها .

(٢٠) قال الأستاذ « ميلن ادوارد » في جامعة السربون بفرنسا : إن الحيوان المسمى « اكسيلوكوب » من المحيرات للفكر .

إن هذا الحيوان يرى طائراً في الربيع منفرداً ويعيش ويموت بعد أن يبيض مباشرة ، فلم ير صغارها أمهاتها ، ولا تعيش حتى ترى أولادها اللاتي يخرجن دوداً ، يعيش سنة في مسكن مقفل وهدوء تام ، فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها سرداباً طويلاً ، فإذا أتمته على ما ينبغي أخذت في جلب ذخيرة تكفي صغارها سنة ، وهي طلع الأزهار وبعض الأوراق الكرية ، فتحشوها في قاع السرداب ، ثم تضع بيضة وتأتي بنشارة الخشب تكوّن منها عجينة تجعلها سقفاً على البيضة ، ثم تأتي بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى وهكذا ، فتبني بيتها مكوناً من جملة طبقات ، ثم تترك الجميع وتموت . ثم قال : يدهش الإنسان حين يرى جمال هذه المشاهدات المتكررة رجال يدعون لك أن هذه العجائب نتائج للمصادفة ، وأن إلهامات النمل مثل أسمى مدركات الإنسان نتيجة عمل الطبيعة من تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأجسام ، إن هذه الفروض الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية التي يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضاً تاماً ، فإن الطبيعي لا يستطيع أن يعتقدها أبداً . وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية . انتهى كلام العلامة « ادوارد » ملخصاً .

وهذا عجب عجاب ، كيف كان مذهب « داروين » في الغرب قد أصبح كثيباً مهيلاً وهباء منثوراً وقولاً هراء ولغو الحديث وكلام المرضعات وخرافات العجائز وأساطير الأولين ، كما عبر عنه علماؤهم بذلك ، وهو في بلادنا المصرية وفي البلاد الشرقية معتمد عليه موثوق به ، فهو الحجة القائمة عندهم على دحض جميع الإلهيات والنبوات . ترى الرجل يتيه عجباً أنه أعلم العلماء وأعظم المفكرين فإذا تحققته علمت أنه يدعي العلم بمذهب « داروين » على أن أكثر هؤلاء لا يعلمونه مع بطلانه . إن العلم الناقص ضلال مبين فإما علم تام وإلا فلا ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام : ١١٦] . فلما سمع ذلك صاحبي قال : لقد كثرت الدعاوي في المجالس فلا أسمع إلا أنهم يقولون : فلان فيلسوف يتعالى عن الديانات ويتعاظم على أداء الصلوات اكتفاء بما علم من الطبيعيات وما درس من الرياضيات .

أما الآن فإني إذا قابلت أحدهم أقول له :

* أطرق كرا إن النعام في القرى *

ثم أقول :

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ولقد تمادى الناس في تسمية كل متنطع في كلامه متفيهق في حديثه أنه فيلسوف ، فعرفت الآن أن هذا كله حديث خرافة ، ولقد تمادوا في طغيانهم يعمهون حتى سموا ضلالة وجهالة كل مكذب للديانات مكذب بالوحي فيلسوفاً ، حتى إن أحدهم سأل في « مجلة المقتطف » هذا السؤال : هل المعطل يسمى عبقرياً؟ فأجابه : كلا ، بل المدار على النبوغ العلمي ، فكأن هذا الجاهل ظن أن إنكار الأنبياء كاف في النبوغ أو الفلسفة ، وهذا غاية الحمق والجهالة ، وما أسهل الكفر وبالتالي ما أسهل الفلسفة ! فليجلس المرء على كرسيه وليقذف كلمات الاستهزاء والازدراء من لسانه ، وليصب جام غضبه على علماء الدين والأنبياء والمرسلين ، وليكررها صباحاً ومساء ، ثم ليبشر بأن اسمه يكتب في ديوان الحكماء المفكرين والأساتذة المحنكين والعقلاء المجربين والنظار العبقريين ، ولا مدرسة ولا تعلم بل يأتيه العلم هنيئاً مريئاً ، فيكون بطلاً وبالسماحة شجاعاً وبالغباوة نابغة ، فأف وتف لقوم لا يفقهون صم بكم عمي فهم لا يرجعون .

فصل : في ذم المتفلسفين والمتبذلين والمغفلين

ولما جاء صاحبي في اليوم التالي قال : هل كان المتقدمون في الأعصر الغابرة مبتلين بأمثال هؤلاء المتفلسفة؟ فقلت : نعم ، قال العلامة محمد بن عمر الرازي في شرحه على الإشارات للرئيس ابن سينا صفحة ٤٧٣ ما نصه :

العوام حمقى لجزمهم بالثبوت لا لدلالة ، وهؤلاء المتفلسفة حمقى أيضاً لجزمهم بالشيء لا لدلالة بل الحمق الأول أقرب إلى السلامة من الحمق الثاني ، لأن الأول يوجب الانقياد للأنبياء والشرائع وذلك سبب للنظام في الدنيا والسعادة بوجه ما في الآخرة . إلى أن قال : وأما الحمق الثاني فهو سبب الفساد والخلاعة والشر في الدنيا والشقاوة في الآخرة ، فالأحمق الأول جاهل سليم ، والأحمق الثاني شيطان رجيم ، ثم قال : والغرض من هذا الفصل منع إلقاء هذا الكتاب وما يجري مجراه من العلوم النفيسة في أيدي أقوام مخصوصين .

فالأول : الجاهل المتبذل المستخف بالعلم كما قيل :

* ومن منح الجهال علماً أضاعه *

والثاني : البليد الذي لا يفهم ، فإنه لا يقف على الحقيقة فربما صار سبباً لخروجه عن رتبة الشرائع وصار أشقى الأشقياء .

والثالث : المقلدة ، فإنهم لا ينتفعون بشيء من العلوم وإن كانوا في غاية الذكاء ، لأن حبهم المفرط لما عليهم من المذاهب يعميهم ويصمهم عن الوقوف على الحق ، وأخس الناس وأردؤهم هؤلاء المتفلسفة فإنهم ينظرون إلى أصحاب الشرائع والأديان بعين الاستخفاف مع كونهم أخس الناس درجة وأرذلهم مرتبة فاستحقوا اللعن في الدنيا والعذاب في الآخرة . انتهى .

هذا شرح الإمام الرازي لفقرتين من كلام الإمام الرئيس ابن سينا، وهما آخر الكتاب، موصياً قارئ كتابه أن يصون العلم عن هؤلاء، وهذا تفصيل ما أجمله الرئيس وهو منطبق على متفلسفة هذا الزمان. انتهى تفسير المقصد الأول من سورة «المؤمنون».

المقصد الثاني

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ وحدوا الله ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ما لكم معبود سواه ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي: أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره؟ ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يطلب الفضل عليكم ويسودكم ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن يرسل رسولاً ﴿ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ بإبلاغ الوحي ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي يدعونا إليه نوح ﴿ فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو؟ يعنون نوحاً ﴿ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ جنون ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ ﴾ انتظروا ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين يموت ﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي ﴾ أعني بالعذاب وإهلاكهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بالرسالة ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أرسلنا إليه جبريل ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ أي: أن خذ في صنع السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمنظر منا ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ بالركوب أو نزول العذاب ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ أي: طلع الفجر ونبع الماء من التنور وهو وجه الأرض أو أشرف موضع فيها ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا ﴾ فأدخل فيها من كل أمتي الذكر والأنثى واحدين مزدوجين، أو من كل ـ بالتنوين ـ أي من كل نوع زوجين، واثنين للتأكيد لأن زوجين مفرده زوج والزوج هو الفرد الذي له مقابل مقارن له. ويقال للزوج الذي هو ذكر فرد وللزوج الذي هو أنثى فردة، وهذا قوله: ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾. وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي: وأهل بيتك أو ومن آمن معك ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي: القول من الله بإهلاكه للكفرة. ويقال: سبق عليه في الشر وسبق له في الخير ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي ﴾ في السفينة أو في الأرض ﴿ مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ بالنجاة من الغرق وكثرة النسل ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ فإن الله يحفظ ويكلأ من ينزل عليه النعم، ولكن غيره ينزل النعم وليس قديراً على حفظ من أنزلها عليه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله ونجاة أوليائه ﴿ لَأَيَٰتٍ ﴾ دلالات على قدرتنا ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي: وإنه أي الحال والشأن كنا الخ، و« اللام » هي الفارقة، أي: وإننا كنا ممتحنين عبادنا بهذه الآيات ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ هم عاد وثمود ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني هوداً وصالحاً ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أي: قلنا لهم على لسان الرسول: « اعبدوا الله » الخ ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ الأشراف ﴿ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ ﴾ نعمناهم ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ أي: من مشربكم ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ ﴾ فيما يأمركم به ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ حيث أذللتم أنفسكم، وجواب القسم هو المذكور دل على جواب الشرط المحذوف ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ مجردة من اللحم والأعصاب ﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ من الأجداث أو من العدم إلى الوجود، وأنكم تكرير للأول تأكيداً ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ بعد التصديق، وقوله: ﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ اللام للبيان، كما تقول: هيت

لك، فـ« هيت » أي تهيأت، فيقال: لماذا؟ فيجاب: وهنا يقال: بعد بعد، فيقال: لماذا هذا؟ فيقال: لما توعدون، ويقال: هيهات، أي: بعد، وهو مبتدأ خبره « لما توعدون »، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أي: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا فـ« إن » بمعنى « ما »، ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يموت بعضنا ويولد بعضنا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد الموت ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بسبب تكذيبهم إياي ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ عن زمان قليل، و« ما » صلة لتأكيد معنى القلة ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العذاب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فيكون القوم قوم صالح. ويقال: المراد بالصيحة الهلاك فيكون ما قلناه هو ما يشمل قوم هود وقوم صالح ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان وشجر، والمعنى صيرناهم هلكى ﴿ فَبُعْدًا ﴾ مصدر « بعد »، أي: هلك، منصوب بفعل محذوف، و« اللام » لبيان من دعي عليه ﴿ لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ قوم لوط وشعيب وغيرهم ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الأجل ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ﴾ متواترين واحداً بعد آخر من الوتر وهو الفرد، والتاء بدل من الواو، وهو إما مصدر وقع حالاً أي متواترين، أو الألف للتأنيث، لأن الرسل جماعة ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ في الإهلاك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها وهم اسم جمع للحديث أو جمع لأحدوثة ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وحجة واضحة ملزمة للخصم، والآيات هي الحجج العقلية، والسلطان المبين هي العصا واليد ونحوها، والعصا انقلبت حية وبها انفلق البحر وتفجرت العيون وابتلعت سحر الساحرين حين صارت حية، وصارت أيضاً شمعة وشجرة مثمرة ورشاء ودلواً، وقد تقدم سر ذلك فلا تكن واقفاً عند هذا الحد ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الإيمان والمتابعة ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ثنى البشر لأنه يكون واحداً وجمعاً ﴿ وَقَوْمُهُمَا ﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿ لَنَا عَابِدُونَ ﴾ خاضعون مطيعون، وكل من دان للملك فهو عابد له ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ بالغرق ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لعل بني إسرائيل ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى المعارف والأحكام ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ أي: دلالة على قدرتنا لأنها ولدته من غير مسيس فالآية جاءت بهما معاً ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ الربوة: المكان المرتفع، ولا يعلم أيّ هو أفلسطين أم مصر أم أرض بيت المقدس؟ ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ مستقر من أرض منبسطة أو ذات ثمار وزروع لأن أهلها يستقرون فيها ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء معين ظاهر جار. يقال: معن الماء إذا جرى، فماؤها جامع لأسباب التنزه والتنعيم، ويقال: معين، أي: معيون، اسم مفعول من عانه إذا أدركه بعينه، لأنه لما ظهر على وجه الأرض أدركته العيون، فهو إما صفة مشبهة على الأول وإما اسم مفعول على الثاني، هذا هو آخر المقصد الثاني.

ولنلحق به من المقصد الثالث بعض آيات لإظهار نتيجة ما تقدم، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ هذا خطاب عام لجميع الرسل ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاطب كل نبي وحده بهذا الخطاب، وجاء لخاتمهم الذي أرسل لجميع أهل الأرض وقد دخل في دينه فعلاً من جميع الأديان من البوذيين والمسيحيين واليهود والمجوس فإذن هو يخاطب سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ونحن معه، والخطاب الآن لنا نحن أي أهل مصر وسوريا وبلاد الفرس والترك ومسلمي الصين والهند وجزائر الهند الشرقية، بل أقول: أيها المسلمون اسمعوا قد خاطبكم الله بما خاطب به الأنبياء، يقول لكم: أيها المسلمون في جميع الأقطار ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ أي: الحلال الصافي القوام. فالحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل ﴿ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ﴾ فإنه النافع عند ربكم ﴿ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ فأجازيكم ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ملتكم ملة واحدة، أي: متحدة في العقائد وأصول الشرائع، و« أمة » منصوب على الحال ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي: قطعوا أمر دينهم ﴿ زُبُرًا ﴾ قطعاً، جمع زبور، أي: تفرقوا وتحزبوا فرقاً، فالزبور بمعنى الفرقة. وقرئ « زُبَرًا » بضم ففتح، جمع زبرة، أي قطعوا أمرهم بينهم حال كونه قطعاً ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ معجبون معتقدون أنهم على الحق ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ في جهالتهم، شبهها بالماء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي: إلى أن يموتوا ولنقف هنا.

ولعلك تقول: كيف نقول: إن الله خاطبنا نحن الآن مع أنه خاطب الأنبياء. أقول لك: الأنبياء الآن عند ربهم، بل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بل أصحابه وتابعوه والقرآن يقرأ لنا، وما دام المسلم يقرأ قولاً ولا يجد أنه موجه له لا ينفعه، وإن أردت إلا نص النبوة فهاك الحديث. روي عن أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾[المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾[البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك » أخرجه مسلم. ولقد تقدم الكلام على هذه الآية قريباً في سورة « الأنبياء » وأن الله أعرض عنهم كأنه يخاطب غيرهم لما تفرقوا.

خاطب الله أمتنا بنص الحديث أن تأكل حلالاً، وخاطبها فوق ذلك أن تتحد وجهتها وأعرض عنها قائلاً: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾[المؤمنون: ٤٣] قطعاً وتفرقوا جماعات وأصبح كل فريق معجباً بنفسه فرحاً بما عنده من المال والرجال. خوطب الأنبياء بذلك وأخبرنا الحديث بأننا خوطبنا بما خوطب به الأنبياء، فأتباع الأنبياء تفرقوا مع أن الدين واحد، والله تعالى أرسل محمداً في آخر الزمان ينعي على القوم يقول: يا أتباع الأنبياء، أين عقولكم أين أخلاقكم يا أيها الجهال الغافلون، أنا أرسلت رسلي إليكم فمالكم لا تعقلون؟ أرسلت عيسى، أرسلت موسى، أرسلت فلاناً، أرسلت فلاناً وقصدت بذلك

هدايتكم، فرأيتكم جعلتم أنبياءكم محل الشقاق ومحل الخلاف ومثار النزاع. ولم هذا؟ وهل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول ينافي المودة والمحبة. ما أشأمكم يا بني آدم. ندع هذا وننظر فأنتم يا أتباع محمد ما لكم أيضاً كيف تفرقتم أحزاباً؟ وهل مذهب الشافعي ومالك وابن حنبل ومذهب الزيدية والشيعة والسنوسية وغيرهم وتفرق الطرق الصوفية وأتباع زيد وعمرو من هؤلاء الشيوخ أو أتباع بعض آل البيت من الرؤساء في الممالك المختلفة، هل شيء من هذا يفرق العقيدة؟ فيا للجهالة العمياء وكيف يكون هذا سبب التفرقة؟ وهل تغير الدين وهل تغير القرآن وهل تغيرت القبلة وهل تغير الرب وهل حصل إشراك؟ كلا، ثم كلا.

وإذا كنت أعيب على الأمم المختلفة الأديان أن تتنابذ، فهاأنا ذا أعيب عليكم أيها المسلمون تنابذكم وأنتم أهل دين واحد. نعم أيها المسلمون قل المصلحون بينكم وكثير من الرؤساء لا يريدون منكم إلا خبزكم وأكل أموالكم بلا مقابل. ليقم في الإسلام مرشدون. ليقم في الإسلام علماء مصلحون ليقم فيكم مجددون يقولون لكم: لماذا التخاذل؟ الدين واحد. هلا قرأتم أول هذه السورة. ألم تنظروا كيف ذكرنا فيها أولاً علم الأخلاق وعلم العبادات، ثم ثنينا بعلم التشريح وعلم النفس وعلوم الطبيعة. كل هذه تذكرة بأعمالي وجمالي وحكمتي في خليقتي. كل هذه تذكرة لكم أيها المسلمون، انظروا في هذه العوالم. انظروا في جمالها. انظروا في الشموس المشرقات والكواكب الساطعات والنجوم البازغات والطرائق المدورات والأقمار الباهرات، وتأملوا في الثوابت البديعة وكيف كانت المجرة والمجرات وراءها قد تجلت فيها آلاف الآلاف مما لا تحصونه عداً. كل هذا وضعته وزينت به سماءكم. وهلا نظرتم ذلك السحاب العجيب والهواء اللطيف وضوء الشمس الجميل ووجه الأرض المطيع الذي كسوته الجلابيب السندسية والأشجار العطرية والأزهار البهية والأثمار الجنية وجعلت من ذلك الغذاء، وخلقت منها الدواء، وكتبت في بعضه الفناء وفي بعضه الداء، ولونته ألواناً وجعلته أفناناً، وهكذا الحيوان اختلف صغراً وكبراً ولوناً وقدراً وشكلاً وبراً وبحراً وهواء.

هذا هو الذي أنزلته عليكم في هذه السورة وكررته لكم في أكثر من سورة. هذا هو النظر العقلي والعلم الإسلامي والعالم العقلي والحكمة الإشراقية والآيات الربانية والعبر الصمدانية والبدائع الإسلامية فهل أنتم ناظرون وهل أنتم تعقلون؟.

أيها المسلمون. أتدرون لم تخاذلتم ولم تقاتلتم ولم اجتمع الناس وافترقتم؟ لأنكم جهلاء جهلاء. حقاً جهلاء جهلاء جهلاً لا يطاق. أيها المسلمون، الجهل قد خيم فوق ربوعكم وضرب أطنابه بين ظهرانيكم وعشش في مصر والشام والحجاز والعراق واليمن والهند والصين وشمال أفريقيا، لماذا؟. لأنكم فرطتم في كتاب ربكم، فرطتم في دينكم. ظننتم أن الدين ليس فيه شيء سوى مسائل القضاء والعبادات فتركتم الأخلاق ظهرياً وعلوم هذه العوالم، فالأخلاق جعلتها في أكثر من ٧٥٠ آية، وهكذا علم التوحيد وعلم جلالي وجمالي جعلته في نحو ٧٥٠ آية، وبقية الكتاب وهو ستة آلاف آية ينحو منحى هذين القسمين، وأنتم ما فكرتم إلا في مائة وخمسين آية وهي آيات الأحكام، فنمتم نوم الجاهلية، وظن كل فريق أن الهبة اختصت به. أنتم حصرتم عقولكم في قليل من الدين، ولو أنكم قرأتم هذه العلوم العصرية والآيات الربانية لرأيتم أنكم على شريعة واحدة وآية قيمة، فقراءة السماوات

من دينكم، وقراءة الأرض من دينكم، وقراءة النبات والحيوان والتشريح من دينكم، وقراءة علوم النفس من دينكم، وقراءة سير الأمم وأخلاقها قديماً وحديثاً من دينكم. هذا هو دين الإسلام، فلم ينزل الله هذه السورة بلا فائدة وهي المسماة سورة «المؤمنون»، فلذلك جعل الإيمان فيها كاملاً.

فمتى عرفتم هذه العلوم تفتحت بصائركم فأيقنتم أنه دين واحد فتصافحتم. عجباً لكم يا أمة الإسلام بل ألف عجب لكم. كيف ترون الأمم المسيحية قد اتحدت عليكم والخلاف في دينهم ودنياهم شديد، ثم أنتم مع اقتراب دياركم واتحاد دينكم تتنابذون وتختصمون. أف لكم أفلا تعقلون؟ أف لعالم لا ينصح وجاهل لا يتعلم. حرام على علماء الإسلام أن يتركوا العلوم الكونية. حرام عليهم أن يحرموا الأمة من جمال دينها وأصول شرعها وعجائب ربها. حرام على أمة الإسلام أن تبقى متأخرة عن الأمم وهي التي جعلت رحمة للعالمين، وكيف تكون رحمة لهم وهم أعلم منها وهي الآن أجهل الأمم؟.

إن العذاب واقع على كل عالم وعلى كل أمير وعلى كل ذي جاه وعلى كل ذي قدرة إذا هم لم يذيعوا ما نقوله ويقوله أمثالنا في أمة الإسلام. فلينشروا هذه المبادئ وإلا فإن أوروبا لهم بالمرصاد وعين الله لا تنام، وسينتقم الله من المقصرين والغافلين، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[البقرة: ٧٤]، ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[يونس: ١٠٧]، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وهنا ثلاث جمل:

(١) في مناسبة هذه السورة لما قبلها.

(٢) وفي إيضاح الطرق التعليمية للأمم الإسلامية.

(٣) وفي تبيان قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾[المؤمنون: ٤٣].

(١) مناسبة هذه السورة لما قبلها

إن هذه السورة جاءت عقب سورة «الحج» لأن سورة «الحج» جاء فيها البعث والجهاد فجيء بهذه لتتميم القول، أي لذكر الخصال التي بها يكون الإنسان كاملاً منعوتاً بلفظ المؤمنين و«أل» للكمال وسميت السورة بـ«المؤمنون»، ثم وصفهم بصفات العبادة والأخلاق ودرس العلم والحكمة. وأيضاً ابتدأ سورة «الحج» بذكر علم التشريح استدلالاً على البعث، وذكره هنا لترقية العقول البشرية مع البعث، فهناك استدلال وهنا تكميل.

ذكر الله في أول السورة فلاح المؤمنين، وأتبعه بذكر الصلاة والخشوع فيها، ونرى الحديث يحثنا على أن لا ترفع أبصارنا في الصلاة وأن نعبد الله كأننا نراه وأن نفكر في القراءة. ويقول العلماء: ينبغي أن لا نفكر في شيء وقت الصلاة إلا في هذا، ثم نفكر في هذه الصلاة فماذا نجد؟ إنها أي الصلاة تفسير لسورة «المؤمنون» نعم تفسير لها.

ألم تر أولاً إلى قول القارئ: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] فإنه ذكر العالم مجملاً كله، وأنه وسعه كله بالرحمة، وإلى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾[الفاتحة: ٥-٦] الخ، فإننا نستعين بالله أن يهدينا الصراط الذي لا عوج فيه وهو صراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم.

ولما كان قوله: ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] مجملاً غير مفصل؛ شرع يفصله بعض التفصيل في الركوع فيقول المصلي: خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، أليس هذا التفصيل هو المذكور في هذه السورة؟أي أليس هذا هو علم التشريح الذي جاء فيها؟إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[المؤمنون: ١٢] الخ. يقول الله في هذه السورة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون: ١] وذكر خشوعهم في الصلاة وأتبعها بصفات، ثم ختم الصفات بنفس الصلاة بعد أن وصفهم بأنهم حافظون للفروج لبقاء النسل وكثرته وحفظ الأمانة ليعيشوا عيشة هنيئة ويحبوا بعضهم، وبأنهم ينفقون المال الفاضل عن حاجتهم كما يذيعون العلوم، فجعل الصلاة في أول الصفات، وفي الآخر إشارة إلى أن في الصلاة ما به يكون المؤمن كاملاً. وأعقب ذلك بعلم التشريح الذي يخاطب به المسلم ربه في ركوعه. وذكر بعد التشريح في هذه السورة علم الفلك كطرائق النجوم التي يعرفها علماء العصر الحاضر القائلون: إن العالم الذي نعيش فيه هو الأثير المالئ للفضاء وفيه طرائق للنجوم وهي المدارات، وهو تصريح بعلم كان مجهولاً عند الأمم قديماً فظهر في هذه السورة، كما ظهر في العالم الإنساني أن النجوم لها طرائق في بحر الأثير. وأبان سبحانه أنه غير غافل عن خلقه، وأتبعه بعلوم النبات والحيوان وهذا بعينه هو ما يقوله المسلم بعد الركوع، فهو في الركوع يدرس علم نفسه لأنه مطأطئ رأسه، فإذا رفعها إلى أعلى قال: ربنا لك الحمد فهو كما يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] في قراءة «الفاتحة» يقول هنا مفسراً لذلك: ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد. هذا هو الذي يقوله المسلم بعد الرفع من الركوع، أي يرفع رأسه فيخاطب ربه بأن حمدي لك على قدر علمي بالسماوات والأرض وما بينهما، وهذا هو الذي ذكر في هذه السورة بعد علم التشريح الذي يتبعه علم النفس، فالفلك والنبات والحيوان والأرض هي العلوم التي يخاطب المسلم بها ربه.

فأما الاكتفاء بالسماوات وبالأرض وبما بينهما بدون علم بها فهو كما يكتفي الحمار بنظره البصري، وكما يقول العامة هذه الطبيعة بعيونهم. وإذا أتبع الله ذلك كله بذكر قصص الأنبياء إجمالاً وذكر بعضهم تفصيلاً فذلك تفسير قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] ولا صراط مستقيماً إلا ما كان عليه نبينا والنبيون وهم المنعم عليهم. فيا عجباً. هل المنعم عليهم نعماً دنيوية وأخروية يكونون مجهولون عندنا ونحن نهتدي إليهم، والله لا هداية لطرقهم إلا بمعرفتها، فلم يقل المسلمون: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٧] لمجرد اللفظ. والنعم قسمان: دنيوية وأخروية، ولا أخروية إلا بعد الدنيوية. ومستحيل أن تكون آخرة إلا بعد الدنيا. وإن شئت برهاناً فلأسمعك ما جاء في تفسير سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة: ٢٠١]، إذ ورد أن هذا كان دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم، وأنه صلى الله عليه وسلم لما رأى رجلاً قد ضعف من المرض سأله قائلاً: هل كنت تدعو الله؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم إن كنت تريد معاقبتي في الآخرة فعاقبني في الدنيا، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾[البقرة: ٢٠١] الخ، فدعا الله فشفي من المرض. وقد فسر العلماء الحسنة في الدنيا بجميع النعم من صحة ومال وراحة قلب وولد، وهكذا حتى قالوا: إن الإنسان بلا طمأنينة في الدنيا لا عبادة له.

فمن هنا عرفنا النعم وأنها دنيوية وأخروية ولا آخروية إلا بعد الدنيوية . فإذا قال الله : ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة : ٧] فلندرس كل علم يوصل إلى دنيا ، وكل علم يوصل إلى الآخرة ، لذلك ذكر الله هنا الأنبياء . وقد تقدم تفصيل الأنبياء في سورة « الأنبياء » ، وقد عرفت هناك العلوم الدنيوية التي أنعم الله عليهم بها .

ولعمرك ما هذا إلا فتح باب لذكر النابغين والنابهين والكاشفين وعلماء الأمم أجمعين بحيث ندرسهم ، أي أننا ندرس كل نعمة دنيوية وكل نعمة أخروية . ندرسها لنتناول نفس النعمة الدنيوية والأخروية . فإذا قرأنا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[المؤمنون : ١٢] فمعناه أننا ندرس علم التشريح كما ندرس علم النفس ، وإذن نكون فهمنا : خشع لك سمعي وبصري ، في ركوعنا . وإذا قرأنا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾[المؤمنون : ١٧] فمعنى هذا دراسة العلوم المذكورة ، وإذن نكون درسنا قول المصلي : ربنا لك الحمد الخ ، وكان ذلك تفصيلاً لقولنا في الصلاة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة : ٢] وإذا قرأنا : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة : ٦] وذكرنا المنعم عليهم والمغضوب عليهم ، فمعناه دراسة الأنبياء الذين شرحنا علومهم في سورتهم ، ودراسة كل نعمة في الدنيا ونعمة علمية للعقول وارتقائها ، أي علوم الآخرة .

هذا هو المقصود من ذلك ، وإذن نكون درسنا بقية سورة « المؤمنون » التي ذكرت هؤلاء الأنبياء وشرحت المنعم عليهم والمغضوب عليهم المذكورين في « الفاتحة » ، هذا هو معنى « المؤمنون » ومعنى خشوعهم في الصلاة ؛ فخشوعهم في الصلاة ليتفكروا ، ومتى تفكروا عقلوا ما في الصلاة ، وما في الصلاة هو نفس ما في هذه السورة ، علوم تشريحية وعلوم نفسية وعلوم فلكية وعلوم نباتية وعلوم حيوانية وعلوم طبيعية وعلوم كيميائية وعلوم رياضية ، لأنه لا يمكن دراسة ما ذكر من هذه العلوم الطبيعية ولا الفلكية ولا علم التشريح الذي هو منها إلا بعد التضلع من العلوم الرياضية . هذا هو دين الإسلام وما عداه فجهل وغرور وندامة .

هاأنا ذا قد بينت ما وجب علي ، وأنت أيها الذكي مسؤول عن نفسك وعن أمتك . أنت مسؤول بين يدي الله تعالى . بيّن لأمتك ما سمعت وتصرف بعقلك وفكر في أمرهم ، فلا سعادة لك في دنياك ولا في آخرتك إلا بسعادتهم ، ولذلك أسمعك تقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[الفاتحة : ٥] ، فالعبادة مشتركة ونحن كلنا لا بد أن نعبد معاً ، وهكذا أسمعك تقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأسمعك تقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد الخ ، فأنت في صلاتك تدعو لنبينا صلى الله عليه وسلم ولأمته وتسلم عليه وعلى أمته ، وتضم الأمم التي تبعت إبراهيم . فأنت في صلاتك مع هؤلاء جميعاً ، بل أنت في صلاتك مع أعظم من ذلك فإنك تقول : وعلى عباد الله الصالحين ، والصالحون أعم من المسلمين ومن أمة إبراهيم ، بل هم كل صالح من كل أمة بل كل الملائكة بل وكل ملك في كل سماء أو أرض .

هذا هو الذي تدعو به في صلاتك ، فأنت لست وحدك لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فاسع لارتقاء أمة الإسلام على الأقل وبلغهم ما سمعت الآن ، واسلك طريقاً تراه لهم نافعاً ، والله هو الهادي إلى سواء الصراط .

(٢) طرق علم التوحيد

هاأنت ذا قرأت علوم الإسلام في سورة «المؤمنون» وفي الصلاة، وعرفت أن سورة «المؤمنون» قد فسرتها الصلاة وأدعيتها، وأن «الفاتحة» المجملة قد فصلت في الأدعية، وفسر الجميع بهذه السورة، وهذه السورة تكملها سورة «الأنبياء»، وقلت لك: إن المنعم عليهم في الدنيا كثيرون، فليدرس المسلمون علوم جميع الأمم ليعرفوا كيف حل غضب الله على الجاهلين وكيف أنعم على المتعلمين. كل هذا عرفته ولكن انظر أيها الذكي. انظر وتعجب معي. انظر لأسلافنا الكرام. انظر كيف كانوا رحمهم الله نبراس الأمم. ماذا فعلوا؟ رأوا قوماً درسوا شيئاً من علم الطبيعة شيئاً يسيراً حقيراً فافتخروا بأنهم قرؤوا الفلسفة وما هم بفلاسفة بل هم جهلاء، فشككوا الناس في الدين. فماذا جرى؟ قام هؤلاء الأكابر فألفوا علماً سموه «علم الكلام» لأن مسألة كلام الله اللفظي والنفسي كان آثارها المأمون ومن معه، وتمادى القوم فأتموا تأليف هذا العلم وتكوينه، فجمعوا العقائد في خمسين مسألة كصفات الله النفسية وصفات المعاني والصفات المعنوية وصفات التنزيه والتقديس وصفات الرسل وما يجب لهم من الأمانة والفطانة الخ، واليوم الآخر وما أشبه ذلك، وأمروا الناس أن يدرسوها، ولما شاع ذلك قام العلماء آباؤنا فحرم هذا العلم قوم لأنه يهوش على أذهان الطلبة، وقال قوم منهم: كلا بل نخصص به طائفة لإفحام الخصوم، وبقية الأمة لا تدرسه، ويشترط في الدارسين له أن يكونوا ذوي صفات حميدة، قالوا، لأنه ربما ضلوا السبيل بسبب الشكوك التي ترد في أثناء قراءة هذا العلم، وانتهى أمر الأمة بأن جعلته علماً عاماً يقرؤه كل طالب ويحفظ العقائد عن ظهر قلب أو بفهم، ويقول: الله قادر عالم حي الخ، والأنبياء كذا وكذا. هذا كل ما حصل في الإسلام، وبهذا انصرف المسلمون عن فهم أركان الصلاة وأدعيتها وانصرفوا عن دراسة جمال الله وعن تشريح أنفسهم وعن معرفة ما حولهم، وذلك لأنهم اكتفوا بتلك القشور، وظنوا أن هذا كاف إلى يوم النشور، وأن هذا هو النور والكتاب المسطور في الرق المنشور.

أليس هذا أشبه بما قصه الله إذ قال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. أليس كل حزب من المسلمين أصبح فرحاً بما عنده من العلم ونسي الناس علوم القرآن. أوليس هذا هو التقطيع، يا ويحنا إذا فرطنا في تعاليم ديننا وآبائنا. ألم يبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرنا بأننا سنتقطع هذا التقطع ونتمزق هذا التمزق، النبي صلى الله عليه وسلم نفسه هو الذي قال ذلك، فتمزقنا علماً وتمزقنا أمماً، فلنجتمع كما تفرقنا ولنتعلم كل العلوم كما مزقناها.

فانظر كيف انصرف الناس عن القرآن، انظر كيف كان أول هذا العلم لرد الشبه ثم اختصر وجعل كلمات يتلقفها التلاميذ ثم نام الناس عليها وعكفوا. انظر وابك على أمة الإسلام. ابك على أمة الإسلام، يكرر المسلم صفات الله فيقول: قادر مريد وعالم وحي، ويقول بعد تمام صفاته: إن كماله لا يتناهى.

يا عجباً، وما فائدة القدرة لنا بدون أن نقرأ آثارها الظاهرة؟ انظر كيف كان هذا العلم قد حجب الناس عن نفس القرآن مع أن القرآن ينظر في نفس العلوم التي هي آثار صفات الله. فانظر إلى أمة تحفظ الصفات ولا تقرأ آثارها. انظر إلى الكتب المصنفة كيف منعت الناس عن القرآن.

هاأنا ذا أبنت لك كيف كان آباؤنا يدفعون عن الدين بهذا العلم وحسناً فعلوا. ثم انظر كيف جاء الخلف فظنوا أنه هو المقصود وتركوا القرآن، وبعبارة أخرى: تركوا عجائب الله في الأرض وفي السماء، وبعبارة أصح: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[الحشر: ١٩]، فأذلهم الفرنجة وهم نائمون أو هائمون في أودية الجهالة، وسيؤيد الله هذه الأمة ويخرج فيها رجالاً يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الحديد: ١٩].

بالجهل تفرق المسلمون وبالعلم اجتمعت الأمم

(٣) تبيان قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

لقد تقدم تفسير هذه الآية وعرفت من نفس الحديث الشريف ومن كلام المفسرين أن هذا القول يقصد به أمة الإسلام، وأقول الآن: إن هذا معجزة، فإذا أورد بعض العلماء حديث افتراق الأمة نيفاً وسبعين فرقة وردّ الحديث بعضهم لعدم ثبوته فنقول: ولكن هذه الآية لا راد لها، فقد أخبر الله بتفرق أمة الإسلام وقد حصل هذا فعلاً، ولم يكن المقصود مجرد الإخبار إنّما المقصد أن يكون هذا القول موجهاً للاحتراس من التفرق، فقد أخبر بذلك وأراد أن نحترس من ذلك.

التفرق في العصر الأول، وكيف تلافاه الخلفاء الراشدون

لقد كانت الأمة العربية قبل مبعث الرسول صلوات الله عليه لا تعنى كثيراً بالقراءة والكتابة، وكان جلّ اعتمادهم في قيد أشعارهم وخطبهم ونحوها على حفظها في أوعية صدورهم، وكان الورق الذي بين أيدينا اليوم لم يشتهر بينهم، وصحائفهم إذ ذاك جلد أو حجارة رقيقة بيضاء، وكلمة «كتاب» تطلق على كل صحيفة مكتوبة من هذه الأنواع والكاتبون فيهم قليلون، فلما كان القرآن ينزل نجوماً وأقساماً كان النبي صلوات الله عليه يملي عليهم ما ينزل وقته، فيكتبونه على ما تيسر من جلد ونحوه، وخصص لذلك العمل من كان يحسن القراءة والكتابة، وأطلق عليهم كتاب الوحي.

أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر في الأمة فكرة حفظ القرآن واستظهاره فحضهم على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ورغبهم في حفظه ولم يترك وسيلة للوصول إلى ذلك إلا استعملها، فكانت عشرات الآيات والسور الطويلة بل والقرآن كله يحفظه كثير منهم. وأعانهم على حفظه سريعاً قوة حافظتهم وسرعة خاطرهم وصفاء ذاكرتهم. فالمعروف عنهم استظهار ما يطرق سمعهم بسرعة عجيبة مع الضبط، بل فيهم من إذا قرئت عليه القصيدة الطويلة حفظها من أول مرة، وفي أخبارهم شواهد على ذلك كثيرة لم يقف صلوات الله عليه عند هذا الحد في حفظه بل أمرهم بكتابته وتدوينه. ولذا رغبهم في تعلم القراءة والكتابة ومدحه وبالغ فيه، حتى إن الأسير الذي يأسرونه في حروبهم إذا عجز عن الافتداء بالمال وهو متعلم، جعل فداءه تعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، فتلاشت بينهم الأمية وتسارعوا إلى تسطير القرآن على ما تيسر مع ضبطه إذ كانوا يكتبونه عند سماع قراءة الرسول وهو يسمع منهم ما يكتبون. وممن اشتهر من كتاب الوحي «زيد بن ثابت»، فقد شهد عرض القرآن في المرة الأخيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبه له وقرأه عليه وأقرأ

الناس به، وذلك أن جبريل عليه السلام كان يلقى الرسول صلى الله عليه وسلم في كل سنة في ليالي رمضان يعرض عليه القرآن كله مرة، وفي العام الذي قبض فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، وما ذلك إلا ليعرضه كذلك على قومه حتى يحفظ مضبوطاً، ومن كتاب وحيه أيضاً «أبيّ ابن كعب» و«الزبير بن العوام» و«خالد وأبان ابنا سعيد بن العاصي بن أمية» و«حنظلة بن الربيع الأسيدي» و«معيقب بن أبي فاطمة» و«معاوية بن أبي سفيان» و«عليّ بن أبي طالب» وغيرهم، وأشهرهم «زيد بن ثابت»، فلم ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الحياة إلا والقرآن كله محفوظ في الصدور مكتوب على رقاع متنوعة من جلد وحجارة مع الضبط والتدقيق وإقرار الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كتب بعد تلاوته عليه.

ولما ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة أصيب الإسلام بارتداد بعض القبائل وإدعاء بضعة كذابين ودجالين كالأسود العنسي ومسيلمة وسجاح للنبوة، ولكن تداركت تلك الحوادث حكمة أبي بكر الصديق وتلاشت بسياسته وحزمه فبعث بالجيوش إلى المرتدين والمتنبئين، وأرسل إليهم كتباً يدعوهم إلى الهدى والرشاد وإن أبوا فالقتال، فما كان إلا القتال فظفرت جيوش المسلمين وثاب الناس إلى رشدهم وعاد المرتد واندحر المتنبئ، إلا أنه قتل جمع كبير من قراء القرآن وحفاظه في واقعة «اليمامة» إحدى هذه المعارك، فاستفزهم هذا الفزع إلى المبادرة والإسراع إلى جمع القرآن على الطريقة التي وجدوا عليها غيرهم من الأمم في تدوين معلوماتهم في صحف من نوع واحد، خشية أن يضيع القرآن ويندرس بقتل كثير من حفاظه ووجوده في رقاع منوعة سرعان ما تمتد إليها يد التبديد، فأرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت، فقال له: إن عمر بن الخطاب قد أشار علي بأن آمر بجمع القرآن، لأن القتل قد استحر يوم «اليمامة» بالقراء، ويخشى أن يستحر القتل بهم في مواطن أخرى فيذهب كثير من القرآن، فقال زيد لأبي بكر وعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله الرسول؟ فقالا: هذا والله خير، وما زالا يراجعانه حتى قر رأيهم على جمعه. فقال أبو بكر لزيد: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه، فتألفت لجنة من الحفاظ والقراء والكتاب يرأسها زيد بن ثابت، فأخذ يتتبع القرآن يجمعه من الجلد والحجارة التي كانت تكتب في عهد الرسول ومن صدور الرجال الذين تلقوه عن الرسول، وكانت اللجنة لا تكتفي بحفظها ولا بما وجدته مكتوباً عندها إلا إذا راجعوا ما عند الغير مما كتب بين يدي الرسول وبإملائه وإن وجد عند أكثر من واحد، أو يشهد عليه شاهدان عدلان منهم. وهكذا استمرت اللجنة تعمل وجميع أعضائها من أكبر الحفاظ وأدق القراء، وفيهم أشهر كتاب الوحي فسطروا القرآن جميعه في صحف من نوع واحد وقد أقرها وأجمع عليها جميع الصحابة لم يخالف واحد، ثم أودعت هذه الصحف عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر في حياته ثم عند حفصة بنت عمر بعد ذلك.

وفي خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قدم عليه حذيفة بن اليمان وكان يغازي أهل الشام في فتح «أرمينية» و«أذربيجان» مع أهل العراق، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. وسبب ذلك أن هذه الجيوش كانت من قبائل متعددة من أصقاع مختلفة فسمع حذيفة كل قبيلة تقرأ على وجه لم يسمعه هو من الرسول صلى الله عليه

وسلم، وظن أن القراءة التي سمعها وقرأ بها هي الوحيدة، وأن الرسول لم يقرئ جميع الوفود والقبائل بها، مع أن الرسول صلوات الله عليه كان يقرئ المسلمين على أحرف مختلفة حسب لهجة كل قبيلة من العرب، وكلها لا تخرج عن المقصود والإعجاز ولم يفعل ذلك إلا بإيحاء من الله تعالى، ففي صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: « أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف ».

وكان الكثير منهم لا يعرف إلا وجهاً واحداً من القراءة وهو الذي سمعه من الرسول حسب لغة السامع ولهجته، ويدل لذلك ما رواه البخاري في صحيحه من أن عمر بن الخطاب يقول: « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله، فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله، فقلت: كذبت فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة « الفرقان » على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله: أرسله، فلما جاء قال: اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال: كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه ». وهذا بعينه الذي حمل حذيفة وغيره على اتهام القراءات المتعددة من القبائل المختلفة في هذه الفتوحات والحروب، فلما أفضى إلى عثمان بمقالته خشي من اشتداد النزاع بين القبائل لهذا الخلاف اللغوي، فتشبّ بينهم نار الحرب والمخاصمة فتذهب ريحهم وتضعف شوكتهم وتتفرق كلمتهم، فرأى رضي الله عنه بعد مشورة من كان في عهده من الصحابة أن يجمع المسلمين على مصحف واحد مكتوب بقراءة قريش ورسمها الكتابي، فبعث إلى حفصة بنت عمر أن ترسل بالصحف التي كتبت في عهد أبي بكر فأرسلت بها، وجمع الحفاظ والقراء وكتاب الوحي الذين في خلافته من بينهم سعيد بن العاصي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فتألفت لجنة رئيسها زيد بن ثابت، وقال لهم عثمان: إذا اختلفتم عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، أراد بذلك أن يجمعهم على وجه واحد فلا يجد الخلاف إليهم سبيلاً، فسارت اللجنة في عملها بالتحري والتدقيق كما في خلافة أبي بكر، سيما أن رئيس اللجنتين في العهدين واحد، فنسخوا منه عدة مصاحف أرسلت إلى الأمصار ورد مصحف حفصة إليها، وأمر بإحراق ما عدا ذلك، وأجمع جميع المسلمين من قراء وكتاب وحفاظ على اعتماد هذا المصحف، وأنه كما تلقوه عن الصادق الأمين فصار هو المعول عليه والمعمول به في جميع الأقطار، ولم يطل بهم العهد في ذلك الحين على انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبهذا العمل الجليل قد انحسم ما كان متوقعاً من النزاع. وبهذا حفظ الله كتابه من الضياع والتحريف والتبديل، وتحقق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]. هذا والواقف على طباع العرب من شدة تمسكهم بدينهم وحرصهم على ضبط ما ينقلونه عن الرسول وغضبهم وسخطهم لأقل شيء يخالف ما كان عليه الرسول، ولو أمر به أعظم عظيم، والعارف بما جبل عليه الخلفاء الراشدون من الخلق الكريم وعدم الاستبداد بالرأي وسرعة تنزلهم على ما تجمع

عليه الأمة . إن العالم بذلك كله يجزم بأنه لو اختلف حرف واحد من القرآن عما تلقوه من رسول الله لاشتعلت بينهم نار الحروب وثاروا على الخليفتين، بل لارتدت شعوب بعملهما ولطعن عليهم أعداؤهم وعابوا كتابهم وهم مخالطون لهم يرقبون أي عيب يشنون به الغارة عليهم، ولاختلفوا هم أيضاً في قبول هذه المصاحف، ولظهرت عدة مصاحف متغايرة متناقضة، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن وإن ذلك ليدل دلالة واضحة، ويقطع قطعاً يقيناً أن هذه المصاحف هي عين ما تلقوه عن رسول الله والذي نطق به ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم: ٣-٤].

لبث القرآن عهداً كبيراً تتناقله الأمم والأجيال بالكتابة اليدوية من هذه المصاحف العثمانية المجمع عليها في خلافة سيدنا عثمان، وكانت الكتابة تزداد تحسيناً شيئاً فشيئاً على مقتضى تطورات العصور إلى عصر اختراع آلات الطباعة، فكانت عاملاً قوياً في نشر المعلومات وبث المؤلفات، وأول مصحف طبع سنة ١٦٩٤ ميلادية بمدينة «همبورغ» بألمانيا، ثم انتشرت بعد ذلك انتشارها المشهود. هذا ما فعله الخلفاء رضي الله عنهم فتلافوا الأمر ولم يفرطوا، فبقي القرآن محفوظاً إلى الآن.

كيف يتحد المسلمون الآن

لقد عرفت أيها الذكي أن انحصار العقول الإسلامية في ألفاظ علم التوحيد وفي العلوم الفقهية هو الذي أدّى إلى التخاذل. إن انطلاق العقول إلى علم ما في السماوات والأرض يفتح لهم بابين:

الباب الأول: باب نظام هذا العالم ومنه يعرفون جمال الله وحكمته.

الباب الثاني: أنهم يرون أن علم الفقه وعلم التوحيد المصطلح عليه ليسا إلا شيئاً يسيراً جداً من دين الإسلام، ويرون أن الإسلام هو كل هذه العلوم.

فيرى المسلم الشيعي والسني أن الخلاف بينهما شيء يسير جداً، لأنهما لا يختلفان في علم التشريح ولا علم النفس ولا علم النبات ولا علم الحيوان ولا علم الكيمياء ولا علم المعادن ولا علم طبقات الأرض، ولكن الخلاف جزئي يسير، وإذن يتعارفون ويتقابلون ويرون أنهم إخوان على سرر متقابلين، وأن انحصار الأفكار هو الذي منعهم وأضل الأمم الإسلامية. وإن شئت بياناً أكثر فقل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها: لماذا نرى ألمانيا أمماً كثيرة وممالك تعد بالعشرات ومع ذلك تكونت منها أمة واحدة؟ ونرى الولايات المتحدة تكونت منها أمم تبلغ فوق مائة مليون ومع ذلك هم من أمم مختلفة وعقائد متباينة، حتى إنهم فيهم اليهودي والمسلم والنصراني والدرزي وكلهم يعيشون عيشاً هنيئاً. وكيف كان الإنجليز أمماً مختلفة وقد اتحدوا، وهاهم أولاء يضربوننا في الشرق.

أيها الذكي. إن المسلمين ما فرقهم إلا الجهل. إن هذه الأمم لما قرأت العلوم وعلمت كل واحد من أبناء البلاد مبادئ العلوم واتقى أغنياؤها في العلم عرفوا أن الفارق بينهم في الديانات قليل بالنسبة لما اتحدوا فيه من العلوم والحياة. إذا كان ذلك في أمم مختلفة فكيف يكون أمر أمة الإسلام. هذه الأمة المتحدة التي ما فرقها إلا الجهل وسوء سلوك الرؤساء والأمراء. أفلا ترى أن قراءة العلوم بين الأمم الإسلامية تجمعهم كما جمعت الأمم المختلفة. ولعمري إن أهل دين واحد أقرب إلى الاتحاد من الأمم المختلفة. فكيف إذن بدين الإسلام الذي هو دين علم وحكمة. يا حسرتا على ما فرط المسلمون. إني ليحزنني وأيم الله أن أقول انظروا إلى أوروبا ولكن ما العمل وهم سبقونا. هلا قام قائم بين المسلمين

وجدد عهد عثمان وأبي بكر رضي الله عنهما وقال: أيها المسلمون ادرسوا العلوم كما درسها الغربيون لتعرفوا دينكم وربكم وسر صلاتكم وتكونوا مؤمنين حقيقيين. يا ليت شعري متى يقوم فيكم ذلك القائم، متى يقوم فيكم من يقول لكم كفى كفى؟ لقد شبعنا جهالة فأين العلم أين العلم؟.

أيها المسلمون انظروا كيف ترون التفرق والتخاذل، لا تفرق ولا تخاذل إلا بالجهالة، فبلاد العرب على قلة عددها فيها ممالك متفرقة تتقاتل وتتحارب، وليس يدير أمرها إلا الفرنجة، لماذا؟ لأنهم جهلاء لا يعرفون أمور الدنيا فيصلحونها ولا المودة بينهم التي لا تكون إلا بالعلم ولا علم اليوم. فالعلم في أوروبا وحدها.

وأما أمة الإسلام فإنها أصبحت في براثن أوروبا. فبالعلم ملكونا وبجهلنا بديننا تفرقنا، أي: بعلوم ديننا، أي: بجمال الله وآياته وحكمه ونظامه، نسينا الله فنسينا. أفليس هذا هو الفسق؟ أفليس الفسق أن تكون مصر وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وسوريا والعراق كل هؤلاء أمة عربية لغتها واحدة ودينها واحد وأصلها واحد ومع ذلك لا يعرف بعضهم بعضاً؟ أليس ذلك إلا لأنهم جهلاء، جهلاء جداً لا يعرفون ماذا يصنعون. أليس ذلك حاصلاً في الإسلام لأننا جعلنا كتابنا بيننا زبراً ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣].

حكاية

قال لي يوماً الأستاذ المستشرق الإنجليزي «ادوارد براون»: إنني قابلت تلميذاً من تلاميذ الفرس وقد كنت موفداً من قبل أمتنا الإنجليزية لأعرف طبائع هذه الأمم. أيتحد المسلمون أم هم في المستقبل لا يتحدون، قال: فدرست الأمم التركية والفارسية والعربية، وعلمت من أمة الفرس أنهم يستحيل أن يتحدوا مع أهل السنة، فقد قال لي ذلك التلميذ الذي قابلته: إنني حاربت الترك مع الروس لما كانوا يحاربونهم لأنني أعتقد أن الكلب أفضل من المسلم السني، فلذلك فضلت أن أحارب الترك مع الروس. قال الأستاذ «براون»: وأنا عالم علم اليقين أن هذا التلميذ لم يذبح دجاجة مدة حياته لجبنه ولكن عرفت أن تعاليم هذه الأمم قد قضت عليهم ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[الأعراف: ٧٨]. انتهت الحكاية.

أقول: وكان ذلك منذ نحو ٢٠ سنة. أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فإن الفرس والترك اقتربوا وتحابوا وظهر خطأ نظرية الأستاذ «براون» وأن الأمور قد تغيرت، وأقول الآن: كل هذا كان للجهالة العمياء العامة في الإسلام.

سورة «المؤمنون» وعلوم الحكمة ونشرها في الإسلام

هل أحدثك عن تقسيم الحكمة عند أسلافنا؟ وهل تحب أن أقول لك: إن الحكمة كلها قد نقلت إلى أوروبا وجاء «بيكون» الإنجليزي ورتبها ترتيباً آخر ونشرها في أوروبا؟ وكل ذلك ملخص هذه السورة.

فانظر الآن لما قاله «بيكون» المذكور الذي كان في حدود المائة السادسة عشرة من التاريخ المسيحي فإنه عمد إلى ما رأيت من العلوم المذكورة في هذه السورة التي سطرها آباؤنا باسم الفلسفة، وقسمها على أهم القوى التي في الدماغ وهي ثلاثة: القوة المتخيلة، والقوة المفكرة، والقوة الذاكرة.

فللقوة المتخيلة التي مقرها في مقدم الدماغ عند القدماء علم الشعر، ويقسمه إلى ثلاثة أقسام: الشعر الوصفي، والشعر الذي تذكر فيه الروايات، والشعر للأمثال.

وللقوة الذاكرة علم التاريخ، والتاريخ قسمان: طبيعي وبشري.

والطبيعي يشمل علوم الطبيعة كلها من العلويات والسفليات كالجيلوجيا والجغرافيا والسماء والعالم والكون والفساد إلى آخر ما تقدم.

والتاريخ البشري يشمل التاريخ الديني والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأدب والفنون.

وللقوة المفكرة علوم الفلسفة، وهي ثلاثة أقسام: فن معرفة الله، وفن معرفة نظام الطبيعة، وفن معرفة نظام الإنسان كعلم النفس وعلم المنطق وعلم الأخلاق وعلم النظام الاجتماعي وعلم الجمال. وقد اعتادوا أن يقرؤوا مع ذلك المذاهب الفلسفية. فهذا هو تقسيم المحدثين. فانظر الآن، أليس معرفة الله هي المذكورة في أول سورة «المؤمنون». أليس علم النفس هو الملازم لعلم التشريح المذكور في أول هذه السورة، أليس علم نظام الطبيعة هو مجموع تلك العلوم التشريحية والفلكية والحيوانية والنباتية في أول السورة.

أليس علم النفس يتفرع عنه علم المنطق وعلم الأخلاق وعلم الجمال وعلم النظام الاجتماعي فهذه فروع له.

فأما المنطق فما هو إلا ميزان والميزان لا يصح شيء بدونه.

وأما علم الأخلاق فهو مفهوم من أول السورة في الوفاء بالعهود والزكاة ونحوهما.

وأما علم الجمال فهو ملخص نظام الطبيعة وحسنها وجمالها وبهاؤها.

وأما علم الاجتماع فيشار إليه بقصص الأنبياء في هذه السورة وأمثالها وأن ندرس نظام الأمم ونحللها ونأخذ بأحسنها.

الدروس التي تلقى إلى المسلمين

(١) دروس العبادة والأخلاق للأطفال عملاً لا مجرد علم كما في أول سورة «المؤمنون».

(٢) دروس علم الأشياء بحيث يذكر فيه أحاسن الجمال في الطبيعة والبدائع والنظم المتقنة في هذا الوجود وغرائبه ليعشق التلميذ درسه وربه. كل هذا في التعليم الأولي مع ذكر الله وصفاته.

(٣) درس العلوم الطبيعية في التجهيزي درساً منظماً، فيقرأ الحيوان والنبات والتشريح وطبقات الأرض والفلك، وتلك القراءة المقصد منها الإلمام بهذه العلوم بهيئة منظمة كما في هذه السورة.

(٤) ذكر سير الملوك والأمراء والعلماء وأخلاقهم وأعمالهم وما يتبع ذلك، ليكون في الأمة مصلحون كما جاء في هذه السورة من ذكر المنعم عليهم من الأنبياء، ويكون ذلك نبذاً صالحة جميلة في كتب متقنة جميلة شارحة للصدور مهيئة الطفل لدراسة العلوم بانشراح صدره لدينه ولأمة الإسلام.

ليقم في الإسلام مجددون فلينشروا هذا في مختلف الأصقاع، فإذا درسوا ذلك فليدرسوا معه ما يلزم من علوم الدين، ثم ليخصصوا في القسم العالي كلاً فيما هو أهل له، فهذا للعلوم العربية، وهذا للحديث والتفسير، وهذا للكيمياء والطبيعة، وهذا للهندسة، وهذا للطب الخ.

هذا هو الذي يجب أن يكون عليه المسلمون في مستقبل الزمان، وأن الله سبحانه هو الذي ألهم بكتابة هذا في التفسير، وسيلهم كثيراً من المسلمين بنشر هذه الآراء وهو الذي سيهدي المسلمين فيسيرون على صراط مستقيم، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾

لقد تقدم في هذا التفسير في موضع غير هذا أن التثليث عند الأمم السابقة قبل المسيح لم يكن بالمعنى الذي يتعارفه المسيحيون، إذ نقلت عنهم أنه كان هكذا: الله والمادة والعقل المدبر لها بإذن الله، والمادة والعقل يدلان على الله. ومعنى هذا أن الإنسان إذا نظر في هذه الدنيا لا يرى إلا مادة، وهذه المادة يراها في غاية الانتظام، وهذا الانتظام يدل على عقل نظمه وهو المعبر عنه عندنا بالملائكة الذين يدبرون العوالم، وهؤلاء الملائكة الذين عرفناهم بآثارهم في السماوات والأرض يدلون على أن لهم إلهاً خلقهم. إذن المادة والقوة المدبرة يدلان على الله. إذن الوجود إما مادة محسوسة وإما عقول مرتبطة بها وإما موجود مجرد من المادة مدبر للقسمين، أي: الوجود إما مادة وإما مختلط بها وإما مجرد عنها مدبر للقسمين. هذا ما كان يقوله فلاسفة الأمم لهم، ثم تمادى الزمان فصار الثلاثة آلهة وقد جعلت لهم أصنام في الهند وعند البابليين والآشوريين وقدماء المصريين.

ولما نقل النصارى هذا التثليث عن الأمم لم يحسنوا النقل، فبدل أن يقولوا: الله والمادة والعقل، المعبر عنها بالأب والأم والابن، قالوا: الأب والابن والروح القدس، وجعلوهم جميعاً آلهة وكلهم إله واحد.

أفلا تعجب لما أسمعك الآن وكيف يظهر الله عز وجل الأسرار في كلام المسيحيين أنفسهم. فانظر لما جاء في مجلة «البريد المصري» في أكتوبر سنة ١٩٢٨، وهي المجلة الشهرية الدينية الأدبية في سنتها الخامسة عشرة عدد ٩ صفحة ١٣٩، وهي التي يديرها المسيحيون بمصر؛ فقد جاء فيها ما نصه: ولولا تجسده ما عرفنا الأب بالابن كما في متى ١١ : ٢٧، ويوحنا ١ : ١٨(٢٥). اهـ.

أفلا تعجب معي. فجلّ الله، أليس هذا هو عين ما أسلفته نقلاً عن أصول ديانات القدماء، وهو عين هذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، إذ يقولون: لولا تجسد المسيح ما عرفنا الأب. إذن الأمر ظهر وهو أنه لولا العالم ما عرفنا الله، والعالم هو المادة والقوة العاقلة المنظمة لها، فهذه لولاها لم يعرف الناس ربهم فجاء المسيحيون وحصروا معرفة الله في ظهور جسم المسيح ونور عقله.

وبعبارة أخرى: إن الرجل العالم يدرك جمال الله من كل حشرة وكل كوكب وكل نبات وهكذا، ولكن طائفة من الناس اكتفوا برجل صالح ذي نور من الله فدلهم على الله تعالى. فجسم المسيح بعض جسم الأرض، وعقله بعض العقل العام الذي خلقه الله في العوالم كلها. ففي هذا اكتفاء بالبعض عن الجميع، وما المسيح إلا آية واحدة من آيات الله التي منها الشمس والقمر وحيوان الأرض وغيرها. أفلا تعجب أن ترى المسيحيين ينطقون بالسر وإن كان أكثرهم لا يعترفون به؟ إذ يقول إنجيل متى وإنجيل يوحنا المتقدمين: إن تجسد المسيح يدل على الله. أليس هذا هو عين التوحيد وعين قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[المؤمنون: ٥٠]، فعيسى آية لا غير في القرآن، وعيسى يدل

على الله في إنجيل متى وإنجيل يوحنا، والمادة والعقل والعالم يدلان على الله في أديان القدماء. إذن اتفق القرآن وإنجيل متى وأصول الأديان القديمة على شيء واحد وهو أنه لا تثليث بل هو توحيد، حتى دين المسيح عند متى ويوحنا اللذين جعلا وجود المسيح يدل على الله، وإذن أصل التثليث استدلال بمقدمتين على نتيجة المقدمتين: الجسد والروح. والنتيجة أنه لا بد من موجود أوجد الروح وأوجد الجسم وضمهما إلى بعضهما ونظمهما.

هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[المؤمنون: ٥٠]، وذلك كما تقول: إن البرهان يحتاج إلى مقدمتين وتكون لهما نتيجة، فكما نقول: العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث، نقول هنا: العالم مادة وهي مدبرة بعقل منظم، وهذان لا بد لهما من موجود منزه عن المادة منظم لهما معاً، لأن الموجود إما مادة وإما منزه عنها وإما ملتبس بها لا غير، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة.

تذكرة في أن ألوهية المسيح منقولة عن الأمم السابقة التي خلت

جاء في كتاب المذهب الروحاني صفحة ٤٢٢ ما نصه:

ولا تتوهمن أن النصرانية وحدها اخترعت أن الإله صار بشراً، فإن الهنود نسبوا إلى «فشنو» وهو الأقنوم الثاني من ثالوثهم تسعة تجسدات، وفي ثامنها ظهر باسم «خريستا» وكذلك «أبولونيوس التياني» ظنه معاصروه إلهاً لأنه علم ما علمه «يسوع» وعمل أعمالاً عظيمة. وروي عن أمه أنها لما كانت حاملاً به ظهر لها في الرؤيا «بروتيو» أحد آلهة المصريين وقال لها إنه حل في أحشائها. ومثله «ليوتسو» الصيني ظنوه إلهاً صار إنساناً وقد حملت به أمه بنظرها إلى رجوم ساقطة من السماء. وأما ألوهية المسيح فلم تنشأ إلا بعد خراب «أورشليم» وتشتت اليهود في مصر والفرس والهند، وبعد أن استتب الأمن عاد هؤلاء إلى وطنهم وهم متشربون مبادئ أديان الشعوب الذين عاشوا بينهم بضع سنين، فقامت عندها بين عامة النصارى الجادلات والمنازعات إلى أن قرر المجمع النيقاوي هذه العقيدة بحكم سلطان أجنبي هو الملك «قسطنطين» الذي عضد المجمع المذكور لأغراض سياسية، ثم قال: ومن العجب أن أرباب النصرانية تنازعوا حتى سفكوا الدماء في مسائل وهمية لا طائل تحتها، وقد تناسوا الشيء الجوهري الوحيد الذي جاء المسيح لأجله وهو محبة الله والقريب، هذه هي المحبة التي قال عنها عليه السلام: إنها الناموس كله، وجاء من بعده فاستبدلوا بها اللعنات والحرمان وإحراق بعضهم، حتى أصبحت النصرانية بعد عشرين جيلاً في حالها الحاضرة مشتملة على عقائد تافهة ينكرها العقل ويأباها العلم.

وجاء في صفحة ٤٢٠ من هذا الكتاب أيضاً ما نصه:

جاء في إنجيل مرقس أنه لما أتى يسوع إلى مدينته احتقره آله، فقال: لا يكون نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقاربه وفي بيته. ولم يستطع أن يصنع هناك شيئاً من القوات «مرقس ٦».

فيسوع يقر هاهنا عن نفسه بأنه نبي بسيط وأنه عجز عن صنيع آية، فكيف يتأتى منه العجز وهو «الله رب العالمين»؟ وسأل يوماً تلاميذه قائلاً: وأنتم من تقولون أني هو؟ فأجاب بطرس: أنت المسيح. «مرقس ٨».

ومعنى المسيح رسول ممسوح بالدهن كما كان اللاويون وملوك إسرائيل، فلم يقل له هاهنا بطرس: أنت هو الله، ولا نبهه يسوع على غلطه بقوله له: أنا الله بالذات انحدرت من السماء، متجسداً بينكم، لأنقذكم من خطيئة آدم، وأعوض عن الإهانة العظيمة التي لا تتناهى التي لحقت بعزتي الإلهية، بل قال فقط عن نفسه: إني رسول يعمل بإرادة مرسلة. انتهى المقصود منه.

وقال في صفحة ٣٥٥ وما قبلها ما يأتي:

لقد تفرغ علماء أجلاء من أوروبا للبحث عن أصل الأناجيل وأدوار تقلباتها، فقالوا: إن المسيح اختار رسله من الشعب البسيط وكانوا صيادي سمك من بحيرة طبريا، وأراد بذلك أن تعاليمه لا تحتاج إلى ذكاء خارق للعادة. قال: وبعد رفعه إلى السماء أخذ الرسل يشيرون بما رأوا، يقولون بوحدة الله ومحبته لعباده، ووجوب ارتباط الناس بالمحبة لأنهم إخوة وربهم واحد، وقالوا بالتوبة والتكفير عن ذنب الإنسان نفسه لا ذنب أبيه آدم، ورمزوا للتوبة بماء المعمودية الذي أخذوه عن «الأسوتيين» بواسطة «يوحنا المعمدان» الذي كان من مصافهم. والقصد منه التنبيه به على التوبة من الذنوب، ويقولون بخلود النفس والقيامة، فدخل الناس في الدين أفواجاً، ولكن بعد ذلك جاء رجل يسمى «بولص» وهو فريسي ومعلم بالناموس وباللغة اليونانية، فاحتقر الرسل أولاً، وهو مع أنه ما عرف المسيح ولا رآه قط ولا سمع كلامه ادعى بأنه رسول، وبه وحده خصت معرفة الحقائق وإعلانها «غلاطيه ١»، وأخذ يخاصم بطرس ويوبخه «غلاطيه ٢»، فتألف عندها، أي: بعد رفع المسيح بعشر سنين صنفان من النصارى: الأول: تابع لمن بقي من الرسل في أورشليم. والثاني: تابع لبشارة «بولص» الذي ادعى بأنه أخذها عن إيحاء المسيح نفسه، وبعد حين تمرد اليهود على «نيرون» فانتشب الحرب في اليهودية بقيادة «فسبسيانوس» الروماني ثم ابنه «طيطس»، وانتهت بافتتاح أورشليم عام ٧٠ وخرب الهيكل وتفرق اليهود أشتاتاً.

انتهى الكلام على المقصد الثاني من سورة «المؤمنون».

المقصد الثالث

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا
تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟
رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم
بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ
ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ
وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ
يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ
أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ
إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن
يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا

تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ تقدم تفسير هذه الآيات في آخر المقصد الثاني.

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: نعطيهم ونجعله مدداً لهم، وقوله: ﴿مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لـ «ما»، أي: أيحسبون أن الذي نمدهم به ﴿نُسَارِعُ﴾ به ﴿لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بل هم كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخير، والمسارعة: التعجيل. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فلا يقبل منهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون في الأعمال الصالحة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ وهم سابقون بالخيرات، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين، فظنوا أن ذلك إكرام ظناً غير حق، فالمال والبنون ليس إعطاؤهما والإمداد بهما مما يؤهل للمسارعة بالخيرات. فأما خشية الله والإيمان بالله وعدم الإشراك به والتصدق مع الخوف من الله فإن ذلك هو السبق للخيرات. وملخص ذلك أن النعم ليست هي السعادة وإنّما النعم راجعة إلى العلم والعمل؛ فالعلم رمز إليه بالإيمان بالله، والعمل رمز له بالصدقة، وأحاطهما معاً بالخشية والخوف. وهل لك أن أسمعك ما أرسله «أرسطاطاليس» إلى الإسكندر في رسالته السياسية لترى كيف نطق بهذه الآية قبل القرآن بنحو تسعة قرون. أذكر لك جملاً تناسب المقام فأقول:

أرسطاطاليس، والإسكندر، والسياسة

قال: يظن الناس أن الاستمتاع بالخيرات منهل عذب سهل سائغ شرابه، وأن مقاساة الشدائد لا يقوى عليها أحد. ولست أرى هذا صواباً بل الصواب عندي خلافه، وذلك أن الناس إذا جربتهم

الشدائد تحنكوا لما فيه مصلحتهم، فإذا أظلتهم الأحوال وتحركوا فيما يدفع ذلك عنهم، وإذا صاروا إلى الأمن والدعة مالوا إلى الشره والفساد وخلعوا عذار التحفظ. وما أعسر أن تكون مع رخاء البال صيانة العقول بل قد يذهب ذلك بالعقل كثيراً ويذهله. فأحوج ما يكون الناس إلى التأديب إذا صاروا إلى الخفض والدعة، فإنه إن كانت الحروب قد تحدث فيها الأحداث فإن ذلك يحدث والناس متحفظون حذرون. فأما في حال الخفض فتحدث أحداث كثيرة والناس قارون مهملون لأمرهم، وعند ذلك يحتاج العامة إلى الأدب والسنة.

ثم قال: وليس الاستمتاع بالهدوء والخفض مما يحتمله كل أحد كما ظن هؤلاء، ولو أنه كان ذلك كذلك لوجب على الآباء أن يملكوا أبناءهم أموالهم من أول نشئهم. فكما أنه لا ينبغي أن تفوض الأموال إلى الصبيان كذلك لا ينبغي أن تفوض الأمور إلى العامة، فإن أخلاق العوام أشبه بأخلاق الصبيان وكلا الصنفين يحتاج إلى الرقباء والمدبرين، والعبرة في ذلك أيضاً قد ترى من تصرف الأحوال وتنقل الدول، فما بال الرياسات لا تثبت ولا تدوم على حال لصنف واحد وفي مدينة واحدة كالذي رأينا من نقلها في بلاد آسيا وفي بلاد أوروبا وفي غيرها من المدن، فقد ملك «أشور» حيناً لأهل الشام وسوريا، ثم خلف بعدهم أهل «ماه»، ثم خلف بعد هؤلاء أهل فارس، وكذلك نجده في سائر الأمم، فالقلعة في هذا كله واحدة هي التي ذكرنا من أن التقلب في الخيرات أصعب من مقاسات الشرور، وكذلك نجد الذين نالوا الرياسة بنصب ومشقة ثم زيدوا فيها شيئاً بعد شيء، قد حنكتهم وثقفتهم التجارب أكثر ذلك ما تطول مدتهم ويؤول إلى السعادة وحسن العاقبة أمرهم. ونجد الذين نشؤوا في الخفض ووافتهم الأمور عفوا فلم تصبهم شدة ولم يمسهم خوف يصيرون إلى ضد ذلك.

وكذلك ترى المدائن تعمر وتعظم بالمشقة والنصب وتصير إلى الخراب بالرفاهية والخفض داعية إلى البطالة، والناس في أكثر ذلك مائلون إلى البطالة مستلذون بها، وذلك أنهم يكرهون الأدب والسيرة الحسنة هرباً من المشقة ويؤثرون الفراغ والبطالة طلباً للتودع، ويفنون أعمارهم في طلب اللعب واللهو صائرون إلى الشقوة. وليس يكون مع البطالة وتعطيل الأدب بقاء ملك ولا ذبّ عن حريم ولا صلاح عامة.

ومما قاله أيضاً: وكذلك المدائن التي دخلها الخلل والفساد إنّما أتيت من سوء أثر الرؤساء والمدبرين فصرفوا همتهم إلى اللذات الزمنية، فأهملوا التدبير الباقي أثره وذكره على وجه الأرض أبد الدهر، فقد ينبغي للمدبر أن لا يتخذ الرعية مالاً ولا مأكلاً ولا قنية، ولكن يتخذهم أهلاً وإخواناً، وألا يرغب في الكرامة التي من العامة كرهاً ولكن في التي يستحقها بحسن الأدب وصواب التدبير.

ثم قال بعد كلام: واعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلق الأفعال وتمحو الآثار وتميت الذكر، إلا ما رسخ في قلوب الناس محبة تتوارثها الأعقاب، فاجتهد بالظفر بالذكر الجميل الذي لا يموت.

واعلم أن المدائن التي دخلها الخلل والانتشار أتى ذلك إليها من سوء رسوم الرؤساء والمدبرين، وذلك أنهم آثروا جرّ المنافع إلى أنفسهم على تفقد أمور العامة وتقويم سنن المدن، وصرفوا هممهم في تعجيل اللذات الزمنية، وأهملوا التدبير الباقي أثره وذكره على وجه الأرض والدهر. وقد رجوت أن

تكون عواقب أمورك إلى سعادة، وأن تجتمع لك الخصال المحمودة عند اليونانيين لأنك حقيق بها، واجتهد أن تظفر بالذكر الذي لا يموت، بأن تودع قلوب الناس محبة تبقي بها ذكر مناقبك، وتشرف بها مساعيك على الأبد، والسجود لذكرك والنجوع لفضلك والسلام إليك وعليك. اهـ.

أيها الذكي انظر في كلام «أرسطاطاليس» وانظر إلى «الإسكندر» كيف سار على هذه الطريقة وانظر فيما هو أهم من ذلك كيف جاء هذا كله مختصراً في الآية. يقول الله: إن إمدادكم بالمال والولد ليس مسارعة بالخيرات بل أنتم لا تشعرون. والتعبير بعدم الشعور قد أطال في وصفه «أرسطاطاليس» فقد جعل النعمة والمال والولد والخفض والدعة وما أشبه ذلك من أبواب الشقاء، جعلها مدعاة للبطالة مدعاة لخراب البلاد، مدعاة للذم، مدعاة لتنقل الدول، مدعاة لتنقل الرياسة، مدعاة للذل الأبدي، فواهاً للعلم وواهاً للحكمة.

انظر أيها الذكي وتعجب. يقول الله هنا: المال والولد ليسا خيراً، ويقول: إنّما الخير أن تعطوا المال لمستحقيه، هكذا يقول الله في هذه الآية، ثم نرى أن هذا القول قد شرح قبل القرآن بنحو ٩٠٠ سنة، وأين شرح؟ في «رسالة السياسة» من أكبر فيلسوف إلى أكبر ملك، فأصبحنا ونحن نفسر في القرآن لا ندري أنحن في دين يقرؤه العامة والجهلاء كما هو شأن سائر الديانات؟ أم في حكمة وفلسفة وسياسة وعمارة مدن.

اللهم إن هذه المعاني تتعالى عن أنظار العامة ولا يتطاول إليها إلا المتعلمون. اللهم إن العامة يسمعون مثل هذا الكلام، فيقولون: إن القرآن يصبرنا، وينكرون ذلك في قلوبهم وعلى ألسنتهم، ويقولون كل ذلك ليسلونا نحن الجهلاء والحقيقة غير ذلك. وأرى الطبقة المتعلمة بعضهم ينفر من مثل هذا ويعده كما يعده العامة. فمن لي بأن يعرف الناس مرامي دينهم ويفقهوه ويرقوا شعبهم، ويفهموا قوله تعالى أيضاً: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[العلق: ٦-٧]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾[الفجر: ١٥-١٦]. ثم بعد ذلك أخذ يذم الإنسان بأنه إذا أخذ في النزع اعتراه الذم بأنه لا تصدق ولا صلى، كأنه ظن أنه خلق ليهمل في الوجود وهو جاهل نشأته، فعاش مهملاً الأخلاق والعلوم، فحبس المال وجهل تركيب جسمه، ويفهموا أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾[الحديد: ٢٠] الخ، وقوله: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[التوبة: ٥٥] وهكذا من الآيات التي شرح معناها «أرسطاطاليس». فانظر كيف جعل الله المال والولد عذاباً وجعله «أرسطاطاليس» لا يحتمل، أي أن الناس يتحملون النقم ولا يتحملون النعم، فكأن النعم ترديهم إلى مهاوي الخسران والحروب ترفعهم إلى العلا. ومقالة «أرسطاطاليس» قد ذكرت في غير هذا المكان وأعدناها هنا لمناسبة الآية وللشرح الذي رأيته. وبهذا نفهم هذه الآيات، ونعرف أن المسلمين لم يفطنوا لهذا الكتاب ولم يذيعوا معانيه حتى تفهمه الأمة وحتى يتأدب الخاصة به، ولم يرد الله أن يكلفنا ما لا نطيق بهذه العلوم. كلا فقد قال: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، فإذا حرّض على إنفاق المال فلم يرد أننا نعيش فقراء كلا. بل الله يعلم ما في كل نفس من نية الخير والإصلاح وغير ذلك

﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا زيادة في عقاب ولا نقص في ثواب ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قلوب الكفرة ﴿ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ في غفلة مما وصف به هؤلاء المؤمنين، وهكذا كثير من المؤمنين غافلون مثلهم لا يعرفون ولا يعقلون. إن المتصدق الذي أبقى له ذكراً في الدنيا وثواباً في الآخرة سعيد، وإن الغني المترف المنعم بالمال والولد وهو غافل شقي في هذه الدنيا معرض لزوال النعمة، كما شرحه «أرسطاطاليس». ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ خبيثة ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ متخطية متجاوزة ما وصف به هؤلاء المؤمنين ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ معتادون فعلها، فيجعلون المال للهو واللعب والتعاظم على الأقران، فتشب ذريتهم على لعب القمار والجهالة والبطالة، فتخرب الديار وتزول الممالك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ ﴾ عذاب الأنفس وعذاب المدن وخراب القرى ويحتل البلاد غير أهلها، كما حصل في مصر لما أسرف القوم وعاشوا عيشة البذخ في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ودخل الفرنجة البلاد، وكما كان عليه ملوك الإسلام كخلفاء الترك الذين أوردوا الأمم الإسلامية موارد التهلكة، وكما كان عليه كثير من شيوخ الطرق الصوفية من جمع المال وكنزه وادخاره، وهم قد احتالوا بأخذه من الأمة جهاراً نهاراً، وقد ظهروا لهم بمظهر الصلاح فانقلب ذلك في أعقابهم إلى الأثرة بالأمر وهم أذلاء للفرنجة. والله لا يهدي القوم الفاسقين.

فهاأنت ذا ترى كثيراً من الممالك الإسلامية طعمة للفرنجة، كما حصل لأهل مكة إذ شدد الله عليهم لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة. وهاأنت ذا ترى الأمم الإسلامية التي دخلها الفرنجة لا يعيشون إلا عيشة البهائم، فالفرنجة يسومونهم سوء العذاب ويأخذون أموالهم ويذلونهم ويمنعون العلم عنهم. كل ذلك لضلال الأمراء الذين كانوا يدبرون شؤونهم، وأول مصيبة تنزل من الفرنجة تنصب على أولئك الرؤساء فيقيدون أعمالهم في الأمة ويذلونهم في قصورهم ويدسون لهم الدسائس ومن لم يوافقهم في أعمالهم ورغباتهم طردوه. فمن هؤلاء المترفين من يصرخ بالاستغاثة ولا مغيث، بل يقال له بلسان الحال أو بلسان المقال: قد فرطت، والعبرة تتلو العبرة والآية تتلو الآية فكنت تعرض مدبراً. فلم لم تتدبر القرآن؟.

ثم قال تعالى: ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يصيحون مستغيثين، قيل لهم: ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ فإنه لا ينفعكم ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي: لا تمنعون منا أو لا يلحقكم نصر من جهتنا، لأننا جعلنا التنعم والبطالة حاطاً بالإنسانية ومرجعها إلى الحيوانية، وهذا تعليل لما قبله، لقد علمناكم فلم تسمعوا ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: القرآن ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي: ترجعون القهقرى وتعرضون عن الإيمان ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ أي: بالبيت الحرام، أي: مستعظمين بالبيت الحرام، إذ كانوا يقولون: نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحداً، فيأمنون فيه، وسائر الناس في الخوف. يقول الله تعالى: مستكبرين بالبيت الحرام مستعظمين حال كونكم تسمرون ﴿ سَٰمِرًا ﴾ هو مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، أي: حال كونكم سامرين متحدثين حول البيت مجتمعين، وكان عامة سمركم في القرآن، فتقولون: هو سحر أو شعر ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ بذلك السمر أي: حديث الليل من الهجر ـ بضم الهاء ـ وهو الهذيان، أو من الهجر ـ بفتحها ـ أي: القطيعة.

يقول الله : كنتم حين سماع الآيات تعرضون عنها مستعظمين بأن البيت الحرام لكم وأنتم جيرانه فلا تضامون، وأنتم تتحدثون ليلاً في أمر القرآن وذمه قاطعين الرحم، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ أي : القرآن، ليعلموا أنه الحق من ربهم وقد أتى لهم بحكمة عالية وسياسة منظمة ﴿ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الأمن من العذاب، فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيل وأعقابه فقد خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسله ولم تبطرهم النعم كما أبطرت هؤلاء، فالقانون المسنون واحد. إن ترادف النعم والناس آمنون العواقب يعقبها الخطر والهلاك، فهؤلاء قد جهلوا ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أي : أليس عرفوا محمداً صلى الله عليه وسلم صغيراً وكبيراً وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود، وهذا توبيخ لهم على الإعراض عنه بعد ما عرفوا من صدقه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي : بل أيقولون وهكذا ما قبله، وجنة : أي : جنون، وليس كذلك ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ بأن كان هناك آلهة شتى ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ فالعالم قائم بالحق وهم يكرهونه والحق يكون من جهة الألوهية، فإذن يكون الإله واحداً ومن جهة النظام وحسن النسق، فهو إذن منتظم، فلو كان الإله متعدداً لم يكمل النظام وتشتت، ولو كان العالم على غير نظام لم يثبت ولم تقم له قائمة، ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ صيتهم وهو القرآن، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف : ٤٤] أو وعظهم ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يلتفتون إليه ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ أي : بل أتسألهم أجراً على أداء الرسالة ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ ﴾ رزقه في الدنيا وثوابه في الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ لسعته ودوامه. والخراج يغلب في الضرائب على الأرض وهو عادة يكون كثيراً ولازماً. أما الخرج فهو مقابل الدخل وهو كل ما تخرجه لغيرك، وليس ما تخرجه لغيرك في اللزوم والدوام كالخراج. ولذلك عبر به وقواه بقوله : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾، فهذا تقوية لكون خراج الله خيراً. وإنما كان الله خير الرازقين لما نراه في عمله في هذه الأرض. ولقد تقدم في سورة « آل عمران » عند قوله تعالى : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الآية : ٢٧].

ولقد مر في هذا التفسير من حسن التلطف في تربية الطير والوحش والحشرات والأنعام وما أفادها من غرائز وعواطف وحسن سعي في سبل المعاش، ولو أنك قرأت كل ما مضى في هذا التفسير مما أشبعنا به العقول فيه لفهمت قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾، إلى قوله : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾[لقمان : ٢٧]، وكيف تنفد؟ وأنت لو درست حشرة واحدة لاستنفدت الحياة فضلاً عن آلاف بل مئات الآلاف.

ولقد يدهشك عين أصغر حشرة إذ تجد لها ـ أي للعين الواحدة ـ جملة عيون كل عين مستقلة ترى وحدها مستقلة عن عيون التي حولها، أي أن عين النملة أو النحلة ليست كأعيننا، فعين أحدنا واحدة ولكن عين النملة مثلاً مركبة من عيون كعيون الغربال كل عين لها أعضاء خاصة بحيث تستقل بالمنظر عن جاراتها ولو فقئت واحدة لبقيت اللاتي حولها ينظرن وهن كثيرات نحو مائتين، ومنها ما تحتوي على أكثر، وذلك سيتضح لك في سورة « النمل » فإذا كانت العين الواحدة لحشرة صغيرة على هذا النمط والعين لم تخلق إلا لهدايتها لطعامها وشرابها فما بالك ببقية ما يلزم لحياتها من أعضاء داخلة

وخارجة وما أعد لها من رزق تحصله في هذه الأرض ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]. فهذه نبذة صغيرة من كونه تعالى خير الرازقين. لعمري إنّما المجد والحكمة هذه الحكمة. إنه لا حكيم إلا الله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٣٠].

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ولما نفى تدبرهم القول ومنافاة القول لما جاء به الأولون وأن رسولهم غير معروف لهم وجنون رسولهم وسؤالهم الأجر. لما نفى هذا كله لم يبق إلا أنهم هم غير فطنين وقد دعاهم إلى صراط مستقيم ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ السوي ﴿ لَنَـٰكِبُونَ ﴾ لعادلون عنه. ومعلوم أن خوف الآخرة أدعى إلى عدم العدول عنه ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ ﴾ لثبتوا، واللجاج: التمادي ﴿ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ عن الهدى. ولقد جرت عادة المفسرين في مثل هذه الآية أن يذكروا أن أهل مكة قحطوا حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنشدك الله والرحم. ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ أي: القتل يوم بدر ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ بل أقاموا على العتو وتمادوا على الباطل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني الجوع، فإنه أشد من القتل والأسر، أو القتل والأسر يوم بدر أو الموت أو قيام الساعة ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير.

واعلم أني لم أجد لذلك أثراً في كتب الصحاح الستة عند تفسيرهم هذه الآية. فهاهو ذا أمامي كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» فلم أجده ذكر شيئاً من ذلك في تفسير هذه السورة، وأيضاً هذه السورة مكية والنبي صلى الله عليه وسلم في مكة كان بين ظهرانيهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[الأنفال: ٣٣]، فإذن كان العذاب بعد خروجه من مكة، وبعد الخروج من مكة كيف تكون السورة مكية؟ وأيضاً كيف يؤمن أبو سفيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم مقبول عند الله فيستجاب دعاؤه فيأتي إليه فيستغيث به؟ كل ذلك في حاجة إلى تمحيص.

ولما فرغ من الآيات التي تخيف العباد شرع فيما هو أهم وهو ما يقنعهم من طريق العقل، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي: لم تشكروا هذه النعم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تبعثون ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ تدبير اختلافهما فيزيد في أحدهما ما نقصه من الآخر بنظام كما تقدم في سورة «الحج» و«البقرة»، وهو فيها أظهر وكذا في غيرهما من السور ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالنظر والتأمل، ولكم أفئدة وأسماع وأبصار وما خلقناها لكم إلا لتستبصروا وتتفكروا في خلقكم وتصويركم ورزقكم وإحيائكم وإماتتكم ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي: قال كفار مكة كما قال آباؤهم الأولون ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ محشورون. قالوا ذلك على وجه الاستبعاد، ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: وعد قوم آباءنا هذا وذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أكاذيب الأولين ﴿ قُل ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم من أهل العلم

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن العقل يأبى غير ذلك ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلموا أن من خلق هذه العوالم العجيبة لا يخلقها سدى بل إنّما يخلقها لغاية، ولا غاية إلا بقاؤها بعد هذه الحياة، وإلا كان عمله بلا فائدة، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عقابه وكيف تشركون به شيئاً، وهو باعترافكم خالق تلك العوالم العظيمة، أم كيف تنكرون بعثه للمخلوقين؟ وذلك يستوجب أن يكون عمله عبثاً فهل صاحب هذه العوالم العجيبة العظيمة يفعل العبث ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: خزائنه وملكه غاية ما يمكن. وهذه درجات ثلاث للملك: (١) الأرض ومن فيها. (٢) والسماوات السبع والأرض الخ. (٣) وملكوت كل شيء، أي: ما هو أعم من السماوات والأرض. فلذلك ناسب أن يقول: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي: يغيث من يشاء ويحرسه، ولا يغاث أحد ولا يمنع منه، وذلك لأنه ليس في العوالم كلها ما هو خارج عن قبضته فهو يغيث، وليس أحد في ذلك كله بقادر أن يمنع منه ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فأجيبوا ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته، فإذا كان هذا معتقدكم ورأيكم فلماذا تشركون به بعض الأوثان؟ أم كيف تقفون عقولكم على مخلوق عاقل أو غير عاقل؟ وهو قد دبر الجميع، فإذن يكون المعرضون عنه المغرمون ببعض البشر، أو بعض الأصنام، قد سحرت عقولهم كأنها قد نوّمت ذلك التنويم المغناطيسي فغاب عنها عقلها، وتصورت الشيء على خلاف ما هو عليه كما يعطى المنوم ـ بفتح الواو ـ السكر ويقال له: هذا حنظل فيلفظه حالاً. فهاهو ذا قد سحر وأخذ عقله ولوي عن مراده وضل، وهذا شيء أصبح مشاهداً كما ذكرته في سورة «البقرة»، فإن التنويم المغناطيسي المذكور سار في جميع الأمم.

ومعنى هذا أن القول وتكراره على الأفئدة يخدع العقل والحواس حتى تنصرف النفوس عما تعرفه وتتوهم صدق ما يقال لها، ولذلك كثرت الفرق في الأمم الإسلامية وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب ما خدعوا به عقول الشعوب، ومن الخدع كثرة التكرار على العقول والحث والحض، فإن ذلك يخدع الناس ويصرفهم عن الحقائق، وأوروبا قد استعملت ذلك فتخدع أبناء العرب الذين فتحوا العالم قديماً، وتوهمهم أنها تفعل لخيرهم، وهي تقتلهم وتغيب عنهم شمس العلوم، وتقول لهم: أنتم لا تصلحون للحياة الحرة، ودينكم لم يكن دين مدنية، ولغتكم لا تصلح للعلوم، وجنسكم لا يصلح للرقيّ وهكذا، ونحن آباؤكم الرحماء، وما أشبه ذلك. فهذا وتكراره على الأذهان سنة فسنة وجيلاً فجيلاً يصرف الناس عن عقولهم وعن مجدهم ويسحرهم.

هذا سر من أسرار القرآن إذ عبر السحر في مقام الانصراف عن الحقائق الملموسة، فإن قوماً يعترفون بإله خالق العالم كله، وبعد الاعتراف يقولون: إن له شريكاً، فلا معنى لهذا إلا أن العقول مسحورة والعالم كله اليوم قد قام بنظرية السحر. فأمم أوروبا الساحرة وأمم الشرق مسحورة إلا من فطنوا وقام فيهم مجددون فإنهم نهضوا بقومهم. ولفظ السحر هنا قد جمع علوم السياسة الأوروبية الاستعمارية وأنزلها في القرآن ليتدبرها المسلمون وليعلموا أن الناس قد تكون لهم أسماع وأبصار أفئدة ولكنهم يتركونها مكتفين بما سمعوا، والمسلمون اليوم مسحورون إلا من رحم ربك. مسحورون عن علوم الدنيا. لماذا؟ لأن الأستاذ قال في الدرس: لا يجب عليك إلا علم الفقه وعلم التوحيد.

فإذا نظر التلميذ المسكين العوالم المحيطة بنا من شمس وقمر وكواكب ومعادن ونبات وحيوان وقال: أي أستاذ هذه مخلوقات ربي، أفلا أدرسها؟ يجيبه: هل تعرف صفات الله وصفات الأنبياء؟ فيقول: نعم. فيقول له: كفى لا يجب عليك شيء. فيقول: يا أستاذي إن الله ذكر هذه العلوم كثيراً في القرآن. فيجيبه: نعم، ولكن المدار على أنك تعرف الله بالأدلة التي في كتب التوحيد، فيكرر هذا القول على مسامع التلاميذ فيسحرون ويذهب الدين والمواهب التي وهبها الله لهم، هكذا الأوروبيون يأتون بلاد الشرق فيسحرون أعين الناس ويسترهبونهم ويجيئون بسحر عظيم، وذلك بالمدافع والرشاشات فيدهشون الشرقيين، ويقولون لهم: نعطيكم الشهادة الثانوية في علوم ليس فيها شيء من العلوم التي حولنا، فلا نبات ولا حيوان ولا تشريح ولا فلك، ويوهمونهم أنهم علماء فيصبحون مسحورين. وهذا هو السحر الحقيقي الدائم الذي يصرف العقول عن المواهب والأبصار والأسماع. والله لقد تعاون بعض رجال الدين قديماً وأهل أوروبا حديثاً على سحر الأعين فسحروها. فمن للمسلمين اليوم إلا نصر الله؟ ألا أن نصر الله قريب.

هذا هو السحر الذي سحر به المسلمون. فلئن سحر الكفار بعبادة الأصنام فقد سحرت أبصارنا نحن المسلمين عما أبدعه الله وزين لنا الجهل في صورة العلم والخيبة في صورة النجاح. هذا هو الذي فهمته في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فلم ينزل الله مثل هذا القول لنسمعه فنقول: هذا أمر مضى وانقضى، وأنا الآن لست أعبد الأصنام وأنا خير من أبي جهل وأمثاله فقد عرفت وهم جهلوا، نعم نحن خير لأنا آمنا ولكن المؤمن الجاهل معذب في الدنيا والآخرة، وعبر الله بالسحر ليفتح لنا باب التفكر في ضحك الغرب على الشرق سياسة. وضحك رؤساء الطرق على تابعيهم نذالة وجبناً، وضحك العلماء الرسميين في كل أمة على تلاميذهم ليصرفوهم عن عجائب الله تعالى وجماله وبهائه وبهجة صنعه وإتقانه وحكمته، فيقولون لهم: كفاكم الإيمان أو الكتب التي وضعها فلان وفلان أو التسابيح والذكر والتلاوة البليدة الغافلة ونحو ذلك فكل هذا من السحر وكل هذا من مقصود قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعد بالنشور ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لإنكارهم ذلك لأنهم سحرت عقولهم بخدع الآباء وتكرار القول والعادة التي هي طبيعة خامسة ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وكيف ذلك وهو لا مثل له ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في ألوهيته ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون لذهب كل إله بما خلقه وحارب الإله الآخر وتغالبوا، كما نرى في ملوك الدنيا، فلم يكن إذن بيده ملكوت كل شيء وقد أقررتم بذلك ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك. ثم وصف نفسه تعالى بصفة العلم بعد القدرة العامة فيما تقدم للاستدلال على الوحدة فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهم موافقون على ذلك لأنهم أقروا بأنه له ملكوت كل شيء، إذن فهو عالم بما غاب وما شوهد ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولما كان ذلك يوجب وقوع العذاب في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ما وعدتهم به من العذاب في الدارين ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قريناً لهم في العذاب فإن شؤم العذاب قد يعم، كما نرى النار قد تحرق ثوب الناسك الذي لا ذنب له. قال الحسن: «أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن له في أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمر بهذا الدعاء».

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾ وإنما نؤخره عنهم لأنا نعلم أن بعض أعقابهم وبعضهم سيؤمن ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي: ادفع السيئة بالإحسان في مقابلتها واصفح عنها، وإنّما يكون ذلك إذا لم يظن ذلك وهنا في الدين، نحن أعلم بما يصفونك به فنجازيهم عليه فكل أمرهم إلينا ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ وساوسهم ونزعاتهم ونفخهم ونفثهم ودفعهم بالإغواء إلى المعاصي، والهمز: النخس، ومنه: مهماز الرائض، فرسه. شبه حثهم الناس على المعاصي بهمز الراضة الدواب على المشي، والجمع للمرات ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ ويحوموا حولي في شيء من أموري، لأن الشيطان إذا حضره يوسوس له، وأهم ما يطلب ذلك في حال الصلاة وقراءة القرآن وحضور الأجل، فإن الشياطين تلهي القارئ عن المعاني وتلهي المحتضر عن تذكر ربه وتلهي المصلي عن التفرغ لتذكر ربه، يقول الله: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي: فهم لا يزالون يشركون، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ ﴾ تحسراً ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ ردوني في الدنيا، و« الواو » لتعظيم المخاطب، وجملة قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَحْضُرُونِ ﴾ اعتراض لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله. ﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أي: في الإيمان الذي تركت وفي المال وفي جميع أحوال الدنيا ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ ﴾ أي: قوله: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ الخ. والكلمة الطائفة من القول المنتظم بعضها مع بعض ﴿ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ ﴾ أي: ومن أمامهم ومن بين أيديهم حاجز عن الرجعة وهو القبر ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ منه وهو إقناط لهم عن الرجوع إلى الدنيا وإنّما يرجعون إلى حياة أخرى غير حياة الدنيا. ثم أخذ يشرح تلك الحياة الجديدة وأحوالها فقال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ جمع صورة. وقرئ « الصُّوَر » بضم ففتح، وهو ظاهر في هذا المعنى ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ تنفعهم، فإن التعاطف زال للدهشة والحيرة ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً كما يكون ذلك في الدنيا إذ ينفع الأرحام بعضهم بعضاً ويسأل بعضهم بعضاً.

فأما كون بعضهم يقبل على الآخر فيسأله فذلك بعد الاستقرار في الجنة واستقرار أهل النار، ويكون ذلك بعد النفخة الأولى وبعد النفخة الثانية أيضاً إذ يؤخذ بيد العبد، ويقال: من كان له حق فليأت إلى حقه، فيفرح المؤمن أن يكون له الحق على أقرب الناس إليه فيأخذه منه، فأصبح النسب غير مانع من ذلك، وأيضاً لا يتفاخرون ولا يتساءلون سؤال تواصل، لأن الأنساب إذن لا تفيد وإنّما تفيد الأعمال ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ موزونات عقائده وأعماله وأخلاقه ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالنجاة ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي: ومن لم يكن له أعمال وآراء تستحق الاعتبار فتوزن ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ غبنوها فأضاعوها كمالها الذي كانت مستعدة له ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ ﴾ تحرق ﴿ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ عابسون أو متقلصو الشفتين عن الأسنان من شدة الاحتراق، ويقال لهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ أو شقاوتنا، على وزن سعادة ووزن كتابة، أي: ملكتنا الأخلاق والعادات فحبستنا في سجنها المظلم فلم نر النور ولم نعرف الحقائق ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ عن الحق، ذلك لأن الخلق متى ثبت في الإنسان وأحاط به منعه التجاوز عنه كما يرى في شاربي التبغ والخمر والمواد المخدرة والمولعين بالعظمة والكبرياء والمغرمين بالإسراف، فهؤلاء قد يعرفون الحقائق، ولكن

الاعتياد والرياء وخشية الناس ملكتهم فلا يقدرون على التخلص من ذلك ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى التكذيب ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ لأنفسنا ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا ﴾ اسكتوا سكوت ذلة وهوان، أو ابعدوا كما يقال للكلب إذا طرد: اخسأ، ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي: في رفع العذاب، أو لا تكلمون أصلاً، وذلك لأنه لا مناسبة بيني وبينكم لأنكم ماديّون وأنا فوق المادة، وإنّما يكلمني من صفى نفسه من المادة وتقرب مني باحتقارها والتبحر في العلم والحكمة. ويقال: إن هذا آخر كلام يتكلمه أهل النار ثم لا يكون منهم بعدها إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، فإنهم أوّلاً يدعون مالكاً خازن النار: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[الزخرف: ٧٧] فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[الزخرف: ٧٧] ثم ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ إلى آخر ما تقدم، وهذه ليست في الصحاح. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى ﴾ أي: المؤمنين كأهل الصفة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ تسخرون منهم وتستهزئون ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ قد كان كفار قريش يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كبلال وعمار وصهيب وخباب ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ على أذاكم واستهزائكم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي: فوزهم بمجامع ما يطلبون ﴿ قَٰلَ ﴾ الملك المأمور بسؤال الكفار لهم يوم البعث ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في الدنيا وفي القبور ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم نسوا مدة لبثهم في الدنيا من الهول والشدائد ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أي: الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم وهم خالصون أصالة من المادة فلا عذاب عليهم ينسيهم الحساب ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: ما لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون قدر لبثكم في الدنيا، فهذا تصديق لهم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أي: عابثين، فنحن لم نخلقكم تلهياً بكم وإنّما خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم فترتقوا بأنفسكم وبمجرد اختياركم مع سابق علمنا وبتربيتنا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه فلم نخلقكم عابثين. وقوله: ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾، ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: التام الملك لا ملوك الأرض الذين ملكهم معرض للزوال ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ الحسن، وتقدم معنى العرش في «هود» و«يونس»، ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ يعبده ﴿ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ أي: لا حجة ولا بينه له به لأن ذلك مستحيل ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ فهو يجازيه وهذا جواب الشرط ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إنه أي الشأن. ابتدأ الله السورة بفلاح المؤمنين وختمها بعدم فلاح الكافرين، ثم علمنا كيف نسأل المغفرة والرحمة، فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فرحمة الله تغني عن رحمة غيره.

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون: ١] حتى ختم العشر». انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثالث من السورة. وهنا أربع جواهر:

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝ ﴾[الآية: ٥١-٥٢].

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[الآية: ٥٣].

الجوهرة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ﴾[الآية: ٧٨].

الجوهرة الرابعة: وهي جوهرة في نور الأنوار وسر الأسرار في قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[الآية: ١٠٢].

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝ ﴾

قد تقدم الكلام على اتحاد الأمم المنتظرة في أول سورة «الحج»، وتقدم أيضاً في سورة «الكهف» كلام عام في الذي حل بالمسلمين من الخلاف في الخلافة، وكيف تقطعوا فرقاً وذاق بعضهم بأس بعض، وهاأنا ذا الآن أشرح هذا المقام بشرح أوسع وأبهج وأجمل.

فاعلم يا صاح أن هذا التفسير جاء في زمان ظهور الحقائق وانتشار الروح السعيدة في هذا النوع الإنساني، ولقد كنت ألفت كتاب «أين الإنسان» قبل الحرب العظمى بأربع سنين، ونشر إذ ذاك وما كنت أعلم أن ما أكتبه إذ ذاك أي منذ ثماني عشر سنة وذلك سنة ١٩١٠م سيصبح فكرة عامة عند الأمم الشرقية والغربية، إذن أنا أحمد الله عز وجل حمداً كثيراً على ما ألهم وعلم وزرع في الأفئدة الشرقية والغربية الآن فكرة كانت ضئيلة قبل الحرب العظمى، فسأذكر لك الآن ملخصاً من كتاب «أين الإنسان» ثم أتبعه بما ألقاه محافظ «كابول» ببلاد أفغانستان في شهر يونية سنة ١٩٢٨. ثم ما تلاه بعد ذلك في شهر أغسطس من هذه السنة أيضاً بعنوان «ميثاق المسلم ونبذ الحرب بين الأمم»، ثم أتبعه بفكرة عامة في الموضوع. فهنا أربعة فصول:

الفصل الأول: فيما جاء في كتابي «أين الإنسان».

الفصل الثاني: في خطاب محافظ كابول بمصر.

الفصل الثالث: ميثاق السلم ونبذ الحرب.

الفصل الرابع: فكرة عامة في هذا الموضوع.

الفصل الأول: في ملخص مما جاء في كتابي أين الإنسان

ألخص لك أيها الذكي هنا الفصل العشرين من كتاب «أين الإنسان» ففيه استخراج السلام العام في الأمم من النواميس الطبيعية والنظم الفلكية والفطر الإنسانية وبنيان السياسة على أساس الطبيعة وأن مدنية اليوم حيوانية ودعوة الناس للإنسان حقيقية. وبيان أن الإنسان لم يفهم إنسانيته، وخطاب موجه لفلاسفة الأمم ثم نوابها وملوكها يدعو الأولين لبحث هذا الموضوع والآخرين للتعاون على العمل. وهناك جاء ما ملخصه:

(١) إن عدد الذكران والنساء في المواليد على سطح الكرة الأرضية يكادون يتساوون وهذه قاعدة لم تخطئ إلا نادراً لعارض.

(٢) وكما حصل ذلك في الذكورة والأنوثة حصل في القوى والملكات فلا يكون الجمال المفرط ولا الذكاء المفرط ولا القوة المدهشة إلا نادراً على مقدار الحاجة لذلك.

(٣) الأمم الوحشية لم تفقد الذكران أو الإناث حتى تقترضهم من أمم أخرى فهكذا هي لا تفقد العقول الكبيرة المستعدة لإدارة شؤونها وارتقائها علماً وعملاً.

(٤) إذا تركت تلك العقول في الأمم الضعيفة خسر الإنسان العام خيرات من الأرض ومن الهواء والماء على مقدار تلك العقول المتروكة.

(٥) الأمم القوية خسرت من ربح الأرض على مقدار ما خسرت من عقول الأمم الضعيفة.

وفي صفحة ٢٣٢ و٢٣٣ من الكتاب في الفصل العشرين المذكور ما نصه: هذه أهم مباحث هذا المقام:

(١) هل قوى نوع الإنسان موزعة عليه توزيعاً حسب الحاجة كما في الذكورة والأنوثة؟.

(٢) هل المنافع موزعة على سطح الكرة الأرضية توزيعها على العقول؟.

(٣) أيهما أنفع للأمم الرشيدة أتسير على منوالها المرسوم ولا تتجاوز في سياستها أصغر الحيوانات كالنمل أم تعدل عنها إلى شرفها وإسعادها وصداقتها؟.

(٤) إذا كثر تعداد أمة أفلا تعطى أرضاً من بلاد أخرى بمقدار نموها؟.

(٥) أيحسن أن تحصى أراضي الأمم العامرة والغامرة؟.

(٦) أوَليس من الجهل الفاضح أن تصرف قوى الأمم إلى قتال أنفسهم ويذرون محاربة الطبيعة لإخضاعها؟ أوَليس من الواجب أن يوضع ناموس عام لإصلاح الأرض في كل أمة، وتمدين الشعوب التي هي نصف رشيدة، والتضافر بعد ذلك على إصلاح الباقي من الأمم طوعاً أو كرهاً، ثم يبين مقادير ثمرات العقول الخامدة إن أوقظت من غفلتها، وما فوائد الأمم الرشيدة منها؟.

(٧) أليس سعادة الإنسان في أن يكون ذا ملكة في فن خاص تضارع غرائز الحيوان كنسج العنكبوت وهندسة النحل. فإذا وصل النوع الإنساني إلى هذه الملكات فما مقدار الفوائد إذ ذاك؟.

(٨) الدور اللاتي تربح من إضعاف غيرها وجهله، فما الذي يجب أن يستعيضوا به عن الربح بدل ما فقدوه؟ هذا هو الذي أردت تلخيصه من هذا الفصل في كتاب «أين الإنسان» الذي نشر قبل الحرب العظمى. وبه انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني

في خطاب مُحافظ كابول في فندق الكنتنتال بمصر في شهر يونية سنة ١٩٢٨

ألست تعجب أيها الذكي أن ما كنت أكتبه منذ ثماني عشرة سنة بصفة رأي خاص لي أصبح الآن يخطب به على المنابر في بلاد الغرب وفي بلاد الشرق على رؤوس الأشهاد. اللهم إني أحمدك على نعمة التوفيق وعلى نعمة العلم وعلى أنك أنت أبقيت حياتي حتى رأيت أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة يجهرون بمثل ما كنت أستنبطه استنباطاً عقلياً. فانظر إلى انتشار هذه الآراء بين الأمم بعد الحرب العظمى وانتقالها من أمة إلى أمة. فهاك صورة الخطبة التي ألقاها علي أحمد خان محافظ كابول بذلك الفندق بمناسبة إبرام معاهدة الصداقة بين مصر وأفغانستان، فمنها قوله: إن يقظة الشرق

ووحدة مشاعره ليست وليدة المصادفة بل إنها ثمرة الصبر الطويل والتفكير، وقد شملت الشرق جميعه من جبال طوروس إلى أرز لبنان فجبال البامير بالهند إلى سهول أفغانستان فالبوادي العربية فالعراق ففارس فالهند فالصين فسيبريا فاليابان. إن ممالك الشرق القديم قد استفاقت اليوم من رقادها الطويل فنهضت وتقدمت طالبة اللحاق بمن تقدمها يقودها زعماؤها الذين بثوا في سواد شعوبها مشاعر الإخاء والائتلاف والتعاون على الاتحاد، ولا مطمح لهذه الشعوب غير عقد روابط الصداقة والولاء ونشر السلام العام وشعارها: الناس إخوة.

إن الأمم كالأفراد يسودها الشعور بحاجتها أينما حلت وكيف وجدت تحدوها إلى نشدان الاتحاد والائتلاف بقطع النظر عن الجنس والمذهب، ومتى توفرت لها البواعث للروابط والانضمام أمكنها إذ ذاك بلوغ مقاصد النجاح والهناء، فتصل إلى درجة من التمدن الصحيح الذي يبعثها على الوحدة التي تدرك بها القوة، ومتى أدركتها تسنى لها أن تحمل راية السلام التي ينطوي فيها الهناء ونعومة البال، وبها تتمكن من إدراك وحدة التصورات والأفكار وبلوغ المطالب الرفيعة، وتلك هي غرض شعوب الشرق كيفما تنوعت المقاصد. فلولا تلك الحمية المضرمة في صدور تلكم الشعوب المتباينة أجناساً المقيمة في متعدد البلدان والأوطان لم تكن لتوجد تلك المشابهة التامة والعلاقة في ميولها ومشاعرها، باجتذابها الأمم المتباعدة والأقوام المتنائية وتقريب مجموعها بعضها إلى بعض بعاطفة القربى والإخاء.

وليكن معلوماً أنه ليس لممالك الشرق في تحالفها واتحادها وجهادها في سبيل السلم ونشدان الحرية من غرض وقصد سوى الاتصال والتقرب إلى أمم الغرب كي يتمكن الطرفان المتباعدان من الاشتغال وبذل الجهود في توفير الخير والهناء والسلام لبني الإنسان. وأقوى برهان نقيمه على ما قدمناه من الكلام في هذا الصدد شعورنا بالمسرة والارتياح، وهما دليلا التضامن والإخاء اللذين جمعا شعب هذه البلاد في دائرة واحدة بفضل زعمائها القديرين، وهي لا ترجو من وراء ذلك التضامن والإخاء سوى الاستمتاع بثمرات السلم ونعومة البال، ومتى أدركتها بلغت إلى إتمام التفاهم مع الأمم التي تتواصل وإياها في المعاملات ومبادلات الأفكار. ومما يؤسفني أن أجد رجال جمعية الأمم على خلاف ما ينبغي أن يكونوا عليه لأنني رأيتهم مختلفين فيما يجب اتخاذه من خير الوسائل والطرق لتوطيد السلام العام بين الأمم، وأراهم إلى الساعة لم ينجزوا شطراً واحداً من مهمته العظمى لخير البشرية.

وأحب أن أكون متفائلاً لو قلت: إن جمعية الأمم الشرقية المنتظرة تكون يوماً خير معوان لجمعية الأمم الأوروبية، لأنها تشد أزرها في إكمال تلك المهمة الكبرى، وإني قوي الرجاء في أنه لا يمضي زمن طويل حتى أسمع صوتاً من جمعية الأمم الشرقية منادياً بلزوم إكمال تلك المهمة الإنسانية العظمى الساعية لإتمامها جمعية الأمم الأوروبية، ويطربني أن أقول: إنه كان من أثر زيارة جلالة الملك أمان الله خان لهذه الديار انعقاد روابط الود والتعارف مع حكومات بلجيكا وبولندا وجمهورية سويسرا، وعقدنا معاهدات صداقة ووداد مع حكومة بريطانيا العظمى وجمهورية السوفيت وحكومة إيطاليا وجمهوريات فرنسا وألمانيا وتركيا وحكومة إيران. نعم ليس لنا في القارة الأفريقية أصدقاء

وليست لنا فيها علاقات. وإن كان من حسن حظي أنني ندبت إلى مهمة عقد معاهدة ود وولاء مع حكومة مصر. ويسرني أنها عقدت وأمضيت على أحسن ما يكون.

ثم قال: وإني لأرجو أن تعقد معاهدة صداقة بيننا وبين جمهورية الولايات المتحدة وأود أن لا يفوتني مطلب جدير بالنظر إلا وهو أن قصد عقدنا تلك المعاهدات مع الحكومة المصرية هو ضرورة توثيق صلات الود والتعاون بين شعوب قارتي أفريقية وآسيا.

يا حضرات الأصدقاء، تعرفون أنه ليس في وسع شرقي يحترم ذاته أو يكرم وطنه أن يكتم سروره أو يضمر شعوره حتى يذكر له تقدم اليابان ووثبة الترك ونهضة أفغانستان ويقظة إيران وتقدم مصر، وما أصابته من العزة والنجاح، أو لا يذكر ثورة سورية؟ أو لا تمر بمخيلته نهضة الشرقيين بالإجماع. كيف لا يفرح الشرقي ويهتز طرباً حين يتلى على سمعه ما تقدم من البيانات. الباعث الذي يحسه ويتأكده من أن الشرق أصبح قوياً لأنه عرف بأن جاءت الساعة التي أمكنت شعوب الشرق أن تقف وجهاً لوجه أمام أمم الغرب فتطارحها القول مخاطبة إياها قائلة: إن ليس من همي وقصدي التنافس والسباق ولكن مقصدي أن أنقل عنك كل ما يحسن اقتباسه من مدنيتك ولا أترك شيئاً مفيداً. وهذا ما يجب أن يكون صالحاً لكلتا القارتين العظيمتين ليس ما شمل الأمم الشرقية من عوامل الجذل والسرور إلا لكونها مزقت غواشي الجهالة والتعصب وانقبضت أيدي أهلها عن التذابح والتقتيل، وأدركوا الواجبات المفروضة نحو أوطانهم وإخوانهم في الإنسانية، ذلك لأن مشاعر التعاطف والإخاء قد أوجبت عليهم هذه الفريضة نحو شركائهم في البشرية. هلا كان ذلك لداعي أنهم نبذوا الخلاف والشقاق واطرحوا النزاع، أو لأن كل أمة منهم كفت عن محاربة جارتها. كلا. ولكن لأنهم اتحدوا واجتمعوا أمة واحدة، وبهذا الاتحاد أمكنهم أن يقوموا بنصيبهم من العمل ويستعدوا لخير الإنسانية جمعاء، ناظرين إلى جميع الأمم بأوطانها قاصيها ودانيها كأحلاف وإخوان صدق، بقطع النظر عن اختلاف اللسان وتباين العقيدة.

ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إن مصر جادة في هذا السبيل، فإننا نراها باذلة منتهى الجهد في توثيق عرى الصداقة والسعي إلى محالفة أكبر الدول، وهو مأخذ لا ينشده إلا أعاظم الرجال والأمم، وهو الغرض الأسمى الذي تسعى إليه بلادي المحبوبة، وهي بلا ريب ستدرك ضالتها المنشودة. إن بلاد أفغانستان تبذل أقصى جهدها لتحقق روابط الصداقة مع شعوب العالم أجمع وتفرغ مجهودها لتوطيد قواعد السلام العام والاتحاد بين أبناء البشرية. إنني في هذه اللحظة أطير في سماء الخيال وأرى بعين البصيرة كما لو أن أجدادنا الذين رحلوا عن هذا العالم منذ مئات وآلاف السنين يخاطبوننا فتصل إلينا أصواتهم عن طريق اللاسلكي منادية إيانا قائلة: إن أرواحنا تخاطبكم بلهجة الصدق والإخلاص وإنها لتهزأ بكم وتسخر من مدنيتكم الكاذبة المصطنعة، فإنكم وسمتمونا بالخشونة والبربرية، ولكن واحر قلوبنا منكم فإنها لتهمة كاذبة وهي مردودة عليكم ولا يلحقنا شيء من عارها. هم يقولون لنا: إننا كنا محددين لذة العلوم الحديثة والمخترعات الجديدة والعلماء المتبحرين، ولم يكن لدينا شيء من جمال وكمال الأشياء والمواد التي هي اليوم بين أيديكم ولم يكن عندنا تليفون ولا تلغراف ولا لاسلكي ومع ذلك تعودنا على أن يقتل الواحد منا الآخر. إنما كان يحدث ذلك نادراً عند توارث

الطبع وفي أحوال الجوع أو الغضب أو في أحوال كان الإنسان لا يملك شعوره. وجهد ما كنا نعرفه من أساليب القتل هو استعمال أداة من شجر أو خنجر من حجر. ولكنكم أنتم قد لطختم جمال مدنيتكم وعطلتم كمال مخترعاتكم. فبدلاً من أن تكون هذه المخترعات وسائل خير وفضل صارت سبة وعاراً على العصر الذي وجدتم فيه. لقد تعمدتم القتل على أهون سبيل بلا اكتراث ولا اهتمام، واخترتم الغازات السامة للهلاك واستئصال بني الإنسان، واستخدمتم الكهربائية وطرق الاختراعات لتقصير الأبعاد وتقريب المواصلات، لا حباً بنفع بني النوع الإنساني، بل لفنائهم وقطع دابرهم من على وجه البسيطة. أما نحن فلم يكن في وسعنا القتل فوق الأرض وتحت سطحها وفوق صفحة البحر وفي أعماقه وفوق صفحة السحب وفي جلد السماء.

وقد يأخذنا الإشفاق عليكم لأنكم أجهدتم أدمغتكم وقواكم العقلية وتفكيراتكم وبذلتم المال والملايين من الأصفر الرنان لاستزادة مخترعات الهلاك واستئصال النفوس البشرية التي حرم الله قتلها إلا بالحق ولم يخلقها إلا لاستمتاع الحياة وخدمة الآخرين. نعم إنكم لا تقتلون أفراداً ولكنكم تفرغون جهودكم في استئصال بني نوعكم وإخوانكم في البشرية. إننا وغرة جبين الحق نهزأ بمخترعاتكم ونسخر بأفعالكم، ويحزننا أن نقول لكم: أبقوا على حياة إخوانكم، لا تثيروا النزاع، ولا تقووا أسباب الخصام والصراع، دعوا إخوانكم في البشرية يعيشون في سلام ويهنؤون بدعة الحياة، دعوهم يشتغلون لخير أنفسهم ولخير البشرية ولنفع أوطانهم. نعم إننا ارتكبنا ذنوباً ولكننا تبنا إلى الله عنها وسألناه رحمة ومغفرة. أما أنتم فتصوروا كيف تكون حالكم وبأي شيء تمثل مشاعركم عواطفكم حينما تسألون لتعطوا جواباً عن كبائركم وشروركم التي استفحل أمرها واستطار ضررها. فكيف إذن يقارن موقفكم بموقفنا والفرق بيننا وبينكم عظيم. إن جمعية الأمم التي نظمتموها لم تنجز شيئاً كما كان يجب أن تفعله على الحقيقة. ومن الواجب أن ترتبط بجمعية الأمم الشرقية وكلتا الجمعيتين تعملان يداً واحدة لخير وتقدم بني النوع الإنساني، وكان حقاً لزاماً على جمعية الأمم أن تصدر الأوامر التي كان يجب على دول الأرض المتعددة أن تمتثل أوامرها وتقوم بإتمامها. ما فائدة مصافحة إخوانكم في الإنسانية بينما قلوبكم بعيدة عن استشعار أضعف العواطف اعتداداً بأن السياسة تقضي بذلك. ألا تعلمون أنه يجب علينا أن نكون مخلصين وصادقين في جميع مشاعرنا وعواطفنا حتى في السياسة فلا نستخدمها بطرق عوجاء لتكون سياسة المداهنة والتدليس. إن بعضاً منكم يوافقني والبعض الآخر يخالفني ولكني أرجو أن يحمل نفر منكم أقوالي وأفكاري على محمل العطف بحسن النية والقصد، ويقيني أنكم توافقون على مبادئ وتعاليم السلم والإخاء البشري فتمثلوا مقالي هذا بقصيدة من الشعر أو مقال من النثر يبدو فيه جمال المطلع ولطف الأسلوب والقصد من سلامة الذوق.

وإني لأناشدكم السعي إلى وجدان الوسائل لبث الدعاية لذلك الغرض الأسمى الذي أعتقد أنكم توافقون على الغاية المنشودة من ورائه بروح الإخاء العام. وإنه ليسرني ويطربني أن أقول: إن مليكنا المحبوب جلالة «أمان الله خان» وجميع مواطني وشخصي الضعيف لا شأن لهم ولا غاية في مشايعة أو مناصرة دين على دين أو طائفة على أخرى، بل إننا ويمين الحق نرعى ذمة كل فرد من الناس ويسرنا أن نكون أصدقاء وإخوان جميع الأمم والأشخاص، ونعد أنفسنا إخواناً لكل دولة وأمة تحت

أديم السماء مصافحين أولئك الإخوان بيد الصداقة الخالصة ، وشعارنا يفصح عن قصدنا بهذا القول : كونوا خلصاء وأمناء لجميع إخوانكم . انتهى .

الفصل الثالث : في ميثاق السلم ونبذ الحروب الذي أرسلته الحكومة الأمريكية إلى الأمم كلها ونشر في مصر يوم الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٨

فمما جاء فيه ما نصه : إن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ورئيس الجمهورية الفرنسية وجلالة ملك بلجيكا ورئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا وجلالة ملك بريطانيا العظمى وأرلندا والأملاك البريطانية فيما يلي البحار وإمبراطور الهند ورئيس جمهورية الريخ الألماني وجلالة ملك إيطاليا وجلالة إمبراطور اليابان ورئيس جمهورية بولونيا نظراً لما يشعرون به من الواجب الملقى على عاتقهم لزيادة خير الإنسانية . ونظراً إلى إيقانهم بأن الوقت قد آن للعمل على نبذ الحرب نبذاً صريحاً باعتبارها أداة لسياسة قومية توسلاً لدوام بقاء العلاقات السلمية القائمة الآن بين شعوبهم .

ونظراً إلى اقتناعهم بأن كل تغيير في علاقاتهم بعضهم ببعض يجب أن لا يعمل إلا بالطرق السلمية ولا يتحقق إلا بوسائل السلم والنظام وبأن كل دولة من دول الموقعة تسعى من الآن فصاعداً لتنمية مصالحها القومية يجب حرمانها الانتفاع بمزايا هذه المعاهدة « كذا » ، ونظراً إلى أنهم يرجون أن جميع الدول الأخرى محتذية مثالهم لا تلبث أن تشترك في هذه الجهود الإنسانية ، وأن تلك الدول بانضمامها إلى هذه المعاهدة بمجرّد العمل بها تمهد لشعوبها سبيل الاستفادة بما احتوته نصوصها من المزايا ، فتجتمع بذلك كلمة شعوب العالم المتمدين على نبذ الحرب باعتبارها أداة لسياستها القومية نبذاً عاماً ، قد قرروا فيما بينهم إبرام معاهدة وعينوا لهذا الغرض المفوضين اللازمين . وبعد أن تبادل هؤلاء المفوضون وثائق تفويضهم التام وبعد أن تبينوا صحتها اتفقوا فيما بينهم على المواد الآتية :

المادة الأولى : تعلن الدول المتعاقدة في صراحة وتأكيد باسم شعوبها المختلفة أشدّ استنكارها للالتجاء إلى الحرب لتسوية الخلافات الدولية ، كما تعلن نبذها إياها في علاقاتها المتبادلة باعتبارها أداة سياسية قومية .

المادة الثانية : تقرر الدول المتعاقدة بأن تسوية أو حل المشاكل والمنازعات أياً كان نوعها أو سببها يجب أن لا يعالج أبداً إلا بالوسائل السلمية .

المادة الثالثة : تصدق الدول المتعاقدة المبينة أسماؤها في الديباجة على هذه المعاهدة وفقاً لمقتضيات دساتيرها ، وتصبح المعاهدة نافذة بينها متى أودعت جميع وثائق التصديق في وشنجطون .

وعندما تصبح هذه المعاهدة معمولاً بها على الوجه المشار إليه في الفقرة السابقة يباح لسائر دول العالم الانضمام إليها طوال الزمن اللازم لذلك ، وتودع الوثيقة الدالة على انضمام كل دولة في « وشنجطون » ، وبمجرد هذا الإيداع تصبح المعاهدة نافذة بين هذه الدولة وبين الدول الأخرى المتعاقدة . وعلى حكومة الولايات المتحدة أن تقدم إلى كل من الحكومات المبينة في الديباجة ولكل حكومة تنضم إلى هذه المعاهدة فيما بعد صورة طبق الأصل من المعاهدة المشار إليها ومن كل وثيقة من وثائق التصديق أو الانضمام . وعلى حكومة الولايات المتحدة أيضاً أن تخطر تلغرافياً تلك الحكومات بكل وثيقة من وثائق التصديق أو الانضمام بمجرّد إيداعها . وإشهاداً بما تقدم وقع المفوّضون ووضعوا أختامهم على

هذه المعاهدة باللغتين الفرنسية والإنجليزية على أن يعتبر كلا النصين مرجعاً يعتمد عليه. وقد صدر بباريس في اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ألف وتسعمائة وثمانين وعشرين:

كل ما يتعلق بالتصديق على هذه المعاهدة والانضمام إليها من الأحكام مبين كما تلاحظون معاليكم في المادة الثالثة الأخيرة. فهذه المادة تنص على أن المعاهدة تصبح نافذة بمجرد إيداع تصديق جميع الدول المبينة أسماؤها في الديباجة في وشنجطون، وعلى أن باب الانضمام إليها سيظل مفتوحاً لجميع دول العالم، كما أن وثائق الانضمام تودع أيضاً في وشنجطون. وكل دولة ترغب في الاشتراك في هذه المعاهدة لها حق الانضمام إليها. وعلى ذلك فإن حكومتي تكون سعيدة بأن تتلقى في أي وقت مناسب إعلان الانضمام من الحكومات التي ترغب في الاشتراك في نجاح هذه الحركة الجديدة لسلم العالم بإدخال شعوبها في دائرتها المباركة. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن هذه المعاهدة تنص بكل وضوح على أنها عندما يعمل بها تصبح نافذة بين الدولة المنضمة وبين باقي الدول المتعاقدة على وجه السواء، وعلى ذلك فمن الواضح أن كل حكومة منضمة ستشترك اشتراكاً كاملاً في المزايا منذ الوقت الذي تصبح المعاهدة فيه نافذة. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: فكرة عامة في هذا الموضوع

سبحانك اللهم تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، أنت الذي خلقت هذا الإنسان وقلت له بعد أن قطع آجالاً طويلة تبلغ آلافاً مؤلفة: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ثم ذكرت أنهم أعرضوا ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. اللهم إنك عاملت هذا الإنسان معاملة الرفق والتربية الحسنة. فأولاً قلت له: إني ربيتك، والتربية تشمل جميع العلوم المجملة في «الفاتحة» في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وهي تشمل العوالم كلها، ثم أمرته بالعبادة، والعبادة ترجع إلى أمرين: العلاقة بين العبد وربه، وبينه وبين نفسه وبني الإنسان. فالأولى يرمز لها بنحو الصلاة لأنها صلة بين العبد وربه. والثانية يرمز لها بنو علم الأخلاق وبنحو الزكاة.

فعلم الأخلاق يطهر النفس والزكاة وأمثالها لتحاب نوع الإنسان والمودة معهم. أما هذا الإنسان فإنه قد سها كثير من نوعه عن العلوم التي أمر بها في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] مثلاً وكثير منهم أيضاً ضلوا السبيل في معاملة بعضهم بعضاً، فهم في حرب وضرب أمد الحياة. أمركم «كونفوشيوس» في الشرق الأقصى قديماً بالمحبة العامة والمودة، وكذلك المصلحون من الهند مثل «خريستا» ومثل «بوذا»، ثم جاء المسيح ابن مريم وأمر بالحب العام. كل ذلك جاء لنصح الناس أن يكونوا أمة واحدة. وجاء القرآن الشريف بالسلم وأن يكون الناس أمة واحدة بالدخول في الإسلام، وهناك لا يكون حرب فلم يمكن ذلك.

ألا تعجبوا أن القرآن الذي جاء فيه محاربة الكافرين هو الذي جاء فيه آية تفيد أن الحرب ستنتهي يوماً ما، إذ قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]، وقال علماؤنا: ذلك يوم لا يبقى في الأرض إلا مسلم أو مسالم. فانظر ماذا فعل الله لذلك اليوم أي يوم السلام العام. ألهم علماء الكيمياء والهندسة ذوي العقول العبقرية، فاخترعوا آلات الحرب والدمار وكثر الاستعداد

للحرب وآلات الهدم والتخريب. سبحانك اللهم أنت الذي سلطت على قطن الولايات المتحدة كما تقدم في سورة « الأنبياء » عند قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الآية: ٣٥] دودة اللوز، ففتكت بنفس القطن داخل غلافه الذي يسمى باللوز. فهذه الدودة التي أرسلتها إليهم ففتكت بقطنهم هي التي علمتهم كيف يقتصدون في زراعته وكيف ينتفعون بأرضهم في زروع أخرى، وكان ذلك الشر الناجم من الدود هو عين الخير الذي نصحت به الحكومة هناك والعلماء والخطباء، فلم يفد يا الله نصح الناصحين هناك ولا خطب الخطباء، ولكن الذي أفادهم إنما هي دودتك التي وعظتهم بالعمل لا بالقول فنعم الخطيب خطيبك ونعم المعلم معلمك. فهكذا يا رب عاملت الأمم كلها معاملتك لأهل أمريكا في قطنها. أرسلت الأنبياء وألهمت الحكماء فقالوا للناس: عيشوا بسلام، فأبوا وتحاربوا وتقاتلوا، ولم نجد في التاريخ الحديث ولا القديم أمة من أمم الأرض إلا وقد افتخرت بالحرب والفتك وجعلته أهم فضائلها ومناقبها. هنالك أرسلت لهم خطباء غير الخطباء السابقين وما هم إلا تلك المدمرات، وهاك أيها الذكي ما قالته جريدة « منشستر جارديان » تحت عنوان « الحرب المقبلة »:

تبين من التمرينات الحربية الجوية الأخيرة أن الدفاع عن لندن غير مستطاع حتى في رابعة النهار من هجمات الطيارات الحربية. فما نقول عن سائر المدن الإنجليزية الأخرى. ماذا نقول عن « برمنجهام » و« منشستر » و« ليدس » و« لفربول » والجهات الشمالية و« اسكوتلنده »؟ ولرب معترض يقول: إن لندن يمكن إخلاؤها، ولكن أين تذهب ملايين السكان وإلى أين يلجؤون. أإلى المعسكرات والمضارب حيث يكونون أكثر استهدافاً للمخاطر مما لو كانوا في مدينة ذات مبان عالية تقيهم شر الغازات السامة وأقبية أرضية تخفف عنهم فتك القنابل الهائلة الانفجار. ربما كان هناك بعض الأنصاف فيما طرأ على حالة الحروب الحديثة من التغيير والتبديل، فالملكيون لا الجنود هم الذين يصنعون الحرب، فمسئولية الحروب ليست على الجيش بل على الحكومات والبرلمانات والناخبين، وكان الجنود فيما مضى هم الذين يقاسون ويلات الحرب. نعم إن الملكيين قد قاسوا وبال الحرب العالمية الأخيرة أيضاً، ولكن ذلك كان في إنكلترا أقل منه في فرنسا، وفي فرنسا أقل منه في ألمانيا، وفي ألمانيا أقل منه في روسيا. ففي روسيا عانى الجميع أهوال الحرب سواسية فقد سقطت قنابل من الجو على لندن وباريس ومدن ألمانيا الغربية وفتكت بالرجال والنساء والأولاد. وقد شعر جميع السكان بهول الهجمات الجوية وتولاهم الرعب، ولكن سرعان ما نسي الناس المخاوف.

وقد كان عدد الذين قتلوا وأصيبوا في الحرب العالمية كبيراً جداً، ومع هذا كان باعتبار البشر من الأمور الطفيفة وكاد يصبح نسياً منسياً، ولكن كل أوروبا الوسطى حوصرت، وكاد الناس في ألمانيا والنمسا يموتون جوعاً، ولم تكن حالة الملكيين غير المحاربين أفضل كثيراً من حالة الجنود المحاربين في الصفوف الأمامية. ولهذا السبب بات الألمان والنمساويون يكرهون الحرب أكثر مما نكرهها نحن في إنكلترا. ولكن في الحرب المقبلة سينال الملكيون في إنكلترا نصيبهم من الأهوال إذ من المؤكد أن الجنود في الصفوف الأمامية ـ إن كان هناك صفوف أمامية ـ والبحارة في السفن الحربية والطيارين في الجو سيكونون أكثر طمأنينة من أهالي لندن أو منشستر أو غيرهما من المدن عندما تكون طيارات العدو في جوّها. وقد بدأ الإنكليز يدركون الآن أهوال الحرب الجوية ويعلمون أن مخاطرها فوق ما يتسنى

للعقل البشري تصورّه، والفضل في معرفة ذلك للتمرنات الحربيـة الجوية. فهل تفهم الحكومات هذا الفهم. ففي اليوم العشرين من شهر يونيو عام ١٩١٨ وقف المستر «بلفور» وقال في مجلس العموم البريطاني ما يلي:

من يشعر بأهوال الحرب أكثر من الذين كانوا السبب في إضرام نارها وعلى من تقع تبعة الدماء المسفوكة والأموال الضائعة؟ ومن الذي يرزح تحت عبئها. وكيف يمكن أن يشعر رجل أو طائفة من الرجال أكثر مما يشعر بها الجالسون على هذه المقاعد؟.

إن أقوالاً كهذه جعلت الجنود في الخنادق يدركون بعد الشقة السحيقة بينهم وبين الحكومات التي في أيديها مصيرهم، ولكن في الحرب المقبلة سيكون الأهالي في مدنهم وولاة الأمور في دواوينهم والجنود في خنادقهم رفاق حرب سواسية أكثر مما كانوا في الحرب الأخيرة. ولكن هل يزيد التقارب بينهم إلى حدّ التفاهم المتبادل.

لا ريب أن الأهالي الملكيين والجنود سيتفاهمون ولكن أعضاء الحكومة يتسنى لهم أن يلتجؤوا إلى أماكن بعيدة ويتحصنوا في معاقل مأمونة. ولكن في الحرب المقبلة سوف لا تكون هناك أماكن بعيدة أو ملاجئ منيعة. ورب معترض يقول: إنه مع هذا تكون الحكومات أقلّ استهدافاً للمخاطر من الأهالي والجنود. فهل هذه الفكرة أو الافتقار إلى سعة التصور ما حدا بالحكومات ولا سيما حكومتي إنكلترا وفرنسا إلى التلكؤ في الموافقة على تحريم الحرب والتخوف منه. إن ميثاق تحريم الحرب الذي هو أفضل مشروع قام به البشر حتى الآن قد أضعف وحطّ من شأنه بالتحفظات والتعابير حتى بات شبحاً مما كان يقصد منه. إن الدوائر المتعلقة ذات الروية والتفكير العميق في إنكلترا غير مرتاحة إلى ما حل بميثاق تحريم الحرب من البتر والانتهاك، ولا يتسنى لأية حكومة أن تزدري آراء هذه الطبقة ولا سيما عندما نرى مساعي أمريكا السلمية ونشاهد ألمانيا تقبل الميثاق بلا قيد ولا شرط. أليس في ذلك ما يخجل حكومتنا وحكومة فرنسا حليفتنا السابقة.

كان من الواجب على إنكلترا أن تكون هي الساعية إلى تحريم الحرب ليس لما لها من النفوذ العظيم والمكانة العالية في المدنية فحسب بل لأن عليها أن تهتم براحة رعاياها ومستقبلهم. لقد كان أهالي إنكلترا في القرون الغابرة مطمئنين إلى سكنى هذه الجزيرة آمنين هجمات الأعداء بفضل أساطير دولتهم الضخمة وحصونها المنيعة. أما الآن فإنهم معرضون للمخاطر كغيرهم بل أكثر من غيرهم. نعم إن طيارات إنكلترا يتسنى لها مهاجمة «باريس» و«كولون»، ولكن الدفاع الجوي عن لندن غير مستطاع إلا بطريقة واحدة وهي صد الطيارات قبل وصولها إلى جو لندن، ولكن لندن أكبر المدن وأقربها إلى معظم قواعد الطيران الأجنبية، فهي والحالة هذه أسهل تدميراً من سواها، وباريس وكولون معرضتان لهجوم الطيارات مثل «منشستر»، وليتصور القارئ كيف يكون منظر «ميدان البرت» لو ألقيت فيه قنبلة واحدة من القنابل الضخمة، وهي تعدّ جسيمة جداً إذا قورنت بالقنابل التي استعملت في الحرب العظمى، التي ستستعمل في الحرب المقبلة. إن «ميدان البرت» يصبح إذ ذاك حفرة هائلة محوطة بأطلال المنازل المدمرة تغطيها أشلاء الناس الممزقة، ثم تصورّ أيها القارئ ماذا تكون حالة لندن إذا ألقيت عليها مائة قنبلة من هذا النوع وليس ذلك بالعدد المستحيل، وانظر إلى ذلك الدمار الهائل

وأنصت إلى صياح المصابين من الآدميين الذي لا يعرفه إلا من خاض غمار الحرب . إنه أفظع صوت يصدر من أي حيوان . إذا كابرت إحدى الحكومات ولم تشأ أن تفهم ماذا يفكر الناس وماذا يخافون فيجدر بها أن ترجع بذاكرتها إلى الحوادث التي نجمت عن الحرب العالمية منذ عشر سنوات . ولتعتبر بما أصاب حكومات روسيا وألمانيا والنمسا وبلغاريا ، وكيف قلبت واستهدفت لمخاطر الثورات والفتن ، حتى إن روح الثورة لم يقصر على الدول المقهورة بل تعداها إلى غيرها .

فهل غاب عنا أن فرقة فرنسوية ولت ظهورها للميدان وشرعت في الزحف على باريس عام ١٩١٧م وهي تهتف بسقوط الحكومة وإقامة حكومة جديدة ذات نظام جديد . ففي الحرب المقبلة سيقاسي الغالب أكثر مما قاسى المغلوب في الحرب الماضية . وقد لا يتسنى للحكومات المنتصرة التخلص من انتقام رعاياها . نعم يجب على حكومات هذا العصر أن لا يعزب عن بالها ما حدث في الحرب الأخيرة ، فإن ما حدث في روسيا لا يبعد أن يحدث في كل مكان . فتحريم الحرب والحالة هذه هو أول واجبات الحكومات . ويجب أن يكون محكاً لتأييدها أو إسقاطها وأن يكون أساس جميع أعماله وزارات الخارجية وأهم برامج مرشحي الانتخابات . اهـ .

حكمة إلهية ونور على نور وتبصرة وذكرى وشكر لله تعالى

هاهو ذا خطاب محافظ كابول . فهو يقول : إن أوروبا لم تقم بالأمر حق القيام ، ويقول : إن الشرق سيقوم بأمر السلام العام .

وأنا أقول : أليس هذا من العجب ؟ . لقد كتبت في سورة « الأنفال » حين طبعها منذ سنتين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الآية : ١] ما نصه :

الأمم الإسلامية وجمعية الأمم : انظر رعاك الله نحن أولاء في عصرنا الحاضر كيف نسمع أن أوروبا لها جمعية أمم وإن لم تقم بواجبها بل ظهر أنها تريد ابتلاع الشرق وهضمه ، وأهم بلاد الشرق بلاد الإسلام ، فلماذا نرى أمم الإسلام لا رابطة بينها ولا قوة تحفظ توازنها ولو صورية كجمعية الأمم الصورية فإن هذه الجمعية وكذلك محكمة لاهاي ربما تأتيان بالغرض على طول الزمان ، وهم الآن يلجؤون إليها عند الخصام . فلماذا نرى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات .

ثم قلت ما ملخصه : إن قوله تعالى في سورة « الحجرات » : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الآية : ١٠] الخ ، وقوله فيها أيضاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الآية : ١٣] ويضم لهاتين الآيتين آية : ﴿ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الآية : ١] في « الأنفال » ، فينتج من ذلك صلح بين المسلمين وتعارف بينهم وبين غيرهم . وقد قدم الله الصلح بينهم في الذكر على التعارف مع الأمم كترتيب العمل ، إذ لا يتعارفون مع الأمم إلا إذا اصطلحوا فيما بينهم .

هذا ملخص ما ذكرته هناك أنه لم يمض على كتابة هذا وطبعه سنتان اثنتان . أفلا تعجب أننا الآن نسمع محافظ كابول جاء من أقصى البلاد في الشرق إلى مصر وهو يخطب قائلاً : نحن الذين نقوم بالسلام العام وأظهر تباطؤ أوروبا . اللهم إنك أنت المعلم الملهم الحكيم العليم . لقد وضح واستبان السبيل وظهر لي أن هذا زمان الإصلاح وإلا فما هذا الإسراع في ظهور الحقائق .

أتلهف على « جمعية أمم شرقية » فلا يمضي زمن حتى أسمعه من أفواه رجال السياسة في الشرق الذين كانوا عندما كتبت الموضوع السابق لا يسمع لهم صوت. صدق الله إذ قال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[الحديد: ١٧]. إن نهضة الشرق اليوم مجدة في الإسراع حثيثاً ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]. اهـ.

هذا الذي ذكر قبل الحكمة الإلهية المذكورة هنا هو ما جاء في تلك الجريدة الإفرنجية وهو يبين صفحة من أحوال الأمم التي نعيش معها اليوم وأن الله فعل معهم ما يفعله الأب الشفيق بأولاده والأستاذ الصالح بتلاميذه، فأولاً يأمرهم وينهاهم ثم بعد ذلك يعاقبهم لا انتقاماً بل تعليماً.

فهنا علم الله الأمم السلام العام الذي أشار له بقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤] بإلهام المفكرين اختراع آلات جهنمية، فأجفلت الأمم من الحرب وقالوا: كلا. كلا. نصطلح يا الله. نصطلح ونسمع قولك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣].

فهانحن يا رب جئنا لنتعارف بصوت الرهبة لا الرغبة لأننا بالرغبة ما أطعناك ولكننا بالرهبة اتبعناك. هذا هو الذي ظهر في الأمم الآن من الآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[المؤمنون: ٥٢]. فقد قلنا: إن السلام العام من أحد شقي العبادة، وكما فعل الله عز وجل مع الأمم في أمر السلام العام هكذا فعل معهم في أمر العلم الذي تضمنه قوله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ ﴾[المؤمنون: ٥٢]، فإن الناس لما قصروا فيه لا سيما المسلمون منهم سلط عليهم أنواع المؤذيات ومنها الحشرات لتسوقهم إلى العلم، لأنهم إذا رأوا أنهم تتابعهم الحمى بلا سبب يعرفونه إلا حشرة صغيرة تسمى « الكولاكس » فهذه هي التي تضع في أجسامهم الحمى، فإنهم لا محالة يجدون في علم الطب، وعلم الطب يحتاج إلى أكثر علوم الحيوان والنبات والمعادن والهواء والماء وأضواء الكواكب والحرارة والبرودة وما أشبه ذلك.

إذن هذه الحشرة وأمثالها أرسلها الله لأمرين: تعليم الناس جميع العلوم، واتحاد الأمم العام في مطاردتها. إذن المدمرات على قسمين: مدمرات طبيعية تحرض على معرفة العلوم وعلى الاتحاد العام في مطاردتها، فلما لم يفهم النوع الإنساني ذلك سلط عليه المدمرات الصناعية المتقدم ذكرها. ولعلك تقول: في أي وقت جاءت هذه الحشرة؟ أقول: قد جاء ذكرها في آخر شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ فإن المرض تفشى في اليونان فمات كثير من الأطفال والشيوخ، وأصيب به مائتا ألف، وقال الأطباء: إن هذه الناموسة هي التي تنقل هذا المرض وليس ينتقل بالملامسة، إن الله لم يرسل لنا ذلك إلا للحض على علم الطب كما قدمنا، والطب لا تقوم به إلا طائفة في الأمة وبقيتها لهم أعمال أخرى، والأمم متجاورة وكلهم يجب أن يتعاونوا على درء هذا الخطر وكل وباء عام. إذن هي تعليم من الله لا غير، وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[المؤمنون: ٥٢-٥٤].

ثم أشار سبحانه إلى أن ما يمدهم به من المال والبنين ليس مسارعة لهم في الخيرات بل هم ممتحنون.

هذا ما فتح الله به في تفسير هذه الآية ومصداقها في زماننا، ولست أقول: إن ما ذكرته الآن سيمنع

الحرب حتماً، ولكني أقول: إن العجب أن يكون ما ذكرته قبل الحرب فكراً أصبح اليوم منتشراً بين أمم الأرض، والمستقبل لله وحده هو علام الغيوب، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

الفيل والعميان الست

اعلم أن هذا النوع الإنساني مجبول على الخلاف. مقصور على الشقاق. تنوعت البصائر فاختلفت الآراء، الحقيقة واحدة والآراء شتى ولا محيص عنها ولا فرار منها. وهل أتاك نبأ العميان الست في كتب الإنجليز الذين يقال إنهم كانوا في بلاد الهند وقد أغرموا بالعلم والبحث غراماً وأولعوا به هياماً، فأجمعوا أمرهم بينهم أن يدرسوا الفيل دراسة تامة. فقام أولهم وتقدم إلى الفيل فاصطدم به حتى كاد يسقط على الأرض لأنه قابله من جانبه، فصاح قائلاً: أيها الأخوان إن الفيل أشبه بالحائط. (الأعمى الثاني) فاقترب الثاني منه وقد عثر بنابه إذا هو مدوّر وناعم وحاد، فصاح قائلاً: إن الفيل أشبه بالحربة. (الأعمى الثالث) فاقترب الثالث منه وقد عثر على خرطومه، فصاح قائلاً: إن الفيل أشبه بحية تسعى. (الأعمى الرابع) فاقترب الرابع منه وقد عثر بركبته، فصاح قائلاً: ما أقوى هذا الحيوان إنه كالشجرة. (الأعمى الخامس) فاقترب الخامس منه وقد عثر بأذنه، فصاح قائلاً: ما أشد عماكم أيها القائلون. وكيف تقولون ما لا تعقلون. إنّما الفيل أشبه بالمروحة. (الأعمى السادس) فاقترب الأعمى السادس منه وقد أمسك بذنبه، فقال: إنّما الفيل كالحبل، وهذا قول الحق الذي فيه تختلفون. إن هؤلاء العميان الست الهنديين قد تناقشوا وكل أدلى برأيه وكل منهم مصيب في رأيه من وجه ومخطئ من وجه آخر. هذا تمام الحكاية الإنجليزية.

ولقد رأيت نفس هذا المثال في كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي. وليس المقام مقام البحث عن أصل هذا المثل من الذي قاله، ولكن إذا كان الإنجليز قد كتبوه في كتبهم ونقلتها الآن عنهم وقبلهم الغزالي في الإحياء، دلنا ذلك على أن هذا المثل من وضع الهند، لأن الكتاب الإنجليزية يقول إنهم من الهند، واتفق الغزالي وعلماء الإنجليز على أن موضوع المثل هو الفيل والفيل يعظمه الهنود. إذن فلنشرح فوائد هذا المثل.

إن هذا المثل ينطبق على أحوال هذه الدنيا، فالناس في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم وملذاتهم ودياناتهم وعلومهم يختلفون، ويجمع هذا كله من أول هذا المثال إلى الآن: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣]. فالذي ربي في قرية لا يحب أكثر منها، وعالم الرياضة يألفها، وعالم النبات مغرم به، وهكذا الحيوان والسياسة وعالم اللغة، وهكذا نجد الذي قرأ اللغة الإنجليزية من المسلمين أو الفرنسية أو الألمانية وقد درس تاريخ القوم فإنه لا محالة يحبهم، وهكذا الشافعية والحنفية والمالكية والشيعة، وهكذا الزراع والصناع والتجار كل له غرض بهواه بحسب ما نشأ عليه وما اعتاده، فقوله تعالى: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣] قد فسره المثل المضروب بالفيل في الشرق والغرب معاً.

الله أكبر القرآن كتاب عام والمثل المذكور عام، ولكن الحكمة القرآنية أبهى وأجمل وأبهر وبهذا تظهر البلاغة، والحمد لله رب العالمين.

هذه مسألة « الفيل والعميان » تمثل لنا اختلاف العقول وأحوال الأمم والحكماء، وأذكر لك نبأهم في هذا المقام فأقول:

اعلم أن كل حكيم من حكماء الأرض وعالم يلقي للناس من العلم ما يراه سعادة لهم في أمورهم المادية والمعنوية، وجميعهم كهؤلاء العميان يدورون حول الحقائق وكل يقول ما يفهمه، والله يقول لهم جميعاً: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[الإسراء: ٨٥]. فانظر إلى:

(١) آراء سقراط

كيف استخلص الباحثون من آرائه القواعد الآتي بيانها:

أولاً: أن الإنسان في ميوله وأحواله يقصد السعادة.

ثانياً: أن الخير والمنفعة مترادفان.

ثالثاً: أن العلم هو أس الفضيلة.

رابعاً: إن الخير العام مقدم على الخير الخاص.

خامساً: إن الجمال شطر من الأخلاق.

سادساً: إن الشرائع الوضعية مستمدة من الشرائع السماوية.

ويقولون بأنه يرى أن حياة الفيلسوف هي أسمى ضروب الحياة لأنها مؤسسة على الحكمة والتمييز، ولأنها تجلب لصاحبها أكثر ما يتيسر نيله من السعادة والمسرة الخاليتين من شوائب الأكدار، وأن حياته هي الحياة المثلى لأن رائده فيها البصيرة ورعاية المصلحة.

ومما يستخلص من آراء « أفلاطون » أن الناس ليسوا سواسية في المدارك والأخلاق، وإنه من الخرق أن الجاهل يحكم العاقل والسفلة تحكم العلية، لأن العامة في رأيه ليس عندهم من البصيرة ما به يدركون الخير لهم، فهم يعجزون لذلك عن إدراك ما هو خير لغيرهم، وكذلك لا مناص لهم من أن يجتنبوا التعرض لشؤون الأمة بل أن يلقوا مقاليدهم لمن أوتوا الفطنة والبصيرة وحسن الإدارة وهم الفلاسفة، فإذا أصبح الفلاسفة حكاماً سلكوا بالناس سبيل السداد ورفعوا عنهم أذى الفوضى والاستبداد، ويوجب « أفلاطون » أن يجعل وصف العقلاء مقتصراً على الفضيلة كالشجاعة والعفة وينفر من الرذيلة كالخيانة والفجور، وأن تحظر الأشياء الغرامية التي تحدث خوراً في العزائم ووهناً في القلوب. وكذلك يجب على الحكومة أن تحمل الناس على دينها فلا تدعهم يعبثون بالعقائد ويدينون بما يشاؤون. اهـ.

(٢) آراء الفارابي

ويقول الفارابي من علماء الإسلام في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » ما ملخصه: إن الأمم تجتمع إما باللغة وإما بالدين وإما بالقرابة والنسب وإما بالمصاهرة وإما بالوطن وإما بالمعاهدات وإما بالملك الذي يجمع الجميع وإما بأن تستعبد الأمة جماعة، وهؤلاء وعبيدهم يستعبدون غيرهم وهكذا.

ويقول: إن هذه كلها مدن فاسقة، وليس عنده مدينة فاضلة إلا في أن تكون الأمة كلها هيئة مركبة من جماعات كل منهم يعمل فيما يناسبه، بحيث يكون فيهم من هم كالقلب ومن هم كالرأس ومنهم من هم كالمعدة ومن هم كالعظام، ففيهم الخادم والمخدوم ولكل منهم حظ مما يناسبه من العمل

ورئيس المدينة إما واحد إن اجتمعت فيه صفات الكمال، وإما جماعة بحيث يكون لكل واحد صفات تغاير غيره، وصفات الجماعة كلها تكون قائمة مقام صفات رئيس المدينة الفاضلة، وتكون الممالك كالمملكة الواحدة فتكون الأرض كلها كرة فاضلة. هذا ملخص ما قاله الفارابي.

(٣) آراء أرسطو

ويقول «أرسطو» من حكماء اليونان ما نصه: إن الفضائل وسط بين طرفين. فالحكمة وسط بين السفه والبله. والشجاعة وسط بين الجبن والجور وهكذا، والفضائل العقلية تكتسب بطرق تهذيب النفوس. وأوجب أن تعتني الحكومة بالطفل قبل خلقه بأن تسن للزواج قوانين خاصة لرعاية صحة الأجنة والأطفال. وأوجب الاعتناء بتغذية الطفل وملبسه وتمرينه كتمرين تلاميذ المدارس الآن. وإذا كبر تهيمن الحكومة على تربيته. وعنده أن الموالي والصناع لا حاجة إلى العناية بهم وهكذا النساء، فخالف بذلك «سقراط» القائل بأنهن يربين كما يربى الرجال، وأوجب الموسيقى، وقال: إن الأعمال البدنية يجب أن تكون غايتها ضبط النفس وكبح جماح الشهوات وتجميل صورة الجسم وتكوين العادات الفاضلة، لا مجرد القوة الجثمانية التي بها يتباهى المغرمون بالألعاب البدنية، ولا الضراوة والقساوة اللتين يفتخر بهما الجنود في الحروب، فإنها إن قصد منها القوة الجثمانية فحسب كانت متعبة للأجسام شاقة على النفس، وإن قصد منها الضراوة وتقسية القلوب كانت مظهراً من مظاهر الوحشية القاسية. ويجب أن تتدرج هذه الألعاب في صعوبتها، وأن لا تبتدئ التمرينات العنيفة أو الخشنة إلا بعد هذه السن. وأوجب الموضوعات الأدبية وهي تشمل القراءة والكتابة والرسم. وأوجب أن لا تعلم من أجل منافعها المادية فحسب وإنّما تعلم لأسباب نفسية أسمى وأعلى. فالقراءة والكتابة وسيلتان لتزويد الفكر بأنواع المعارف، والرسم يربي قوة الذوق ويساعد على تعرف الجمال، والموسيقى عنده العدة في تثقيف العقول وتعليل النفوس المكدودة وإثارة العواطف الكامنة وشغل أوقات الفراغ بأفضل أنواع المسرات. وبعد أن أفاض «أرسطو» في فوائد الموسيقى شرح أنواعها وما يسوغ منها تعلمه والأناشيد التي يحسن إنشادها، وفضل أن يتعلم الأطفال الإيقاع على المزاهر حتى تكون لهم ملكة الذوق والنقد، ولكن يجب أن لا يغالي في ذلك حتى يصلوا إلى المهارة الفنية لأن ذلك لا يليق بالرجل المهذب، وأوجب أيضاً التربية الفكرية، ويوافق أرسطو أفلاطون في دراسة العلوم الرياضية في هذه المرحلة دراسة عالية ولا سيما العلوم الهندسية والطبيعية والفلكية، وينصح بدراسة المنطق وعلوم الحياة. ويرى مع هذه التربية النظرية العالية أن تسير إلى جانبها التربية العملية فيأخذ الشبان بتمرينات في الأعمال والواجبات الوطنية كالأعمال الإدارية والتشريعية والقضائية. اهـ.

(٤) آراء ابن سينا

ذكر في «كتاب القانون» في علم الطب بأنه تجب العناية بتدبير الحوامل واللاتي قارين الولادة بأن يتناولن الغذاء الجيد ويأخذن نصيبهن من الرياضة البدنية ويجتنبن الإجهاد في العمل ويتحرين جودة الغذاء ونظافته الخ. ثم ذكر في هذا الفصل واجب المولدة والأم لينشئا طفلاً يقاوم الأمراض موفور الصحة حسن الأعضاء والشكل. وذكر أن يرضع ما أمكن بلبن أمه، فإن منع مانع من إرضاعه لبن أمه من ضعف أو فساد أو ميل إلى الرفه فينبغي أن تختار له مرضع على الشرائط التي نصفها، بأن تكون

سنها بين ٢٥ إلى ٣٠، لأن هذه سن الصحة والكمال، وأن تكون حسنة اللون قوية العنق والصدر واسعة اللحم، حسنة الأخلاق بعيدة عن الانفعالات النفسية، لأن سوء الخلق يؤثر في تربية الطفل، وأن يكون لبنها معتدل القوام والمقدار ولونه إلى البياض ورائحته طيبة وطعمه إلى الحلاوة وأجزاؤه متشابهة. فإذا توافرت هذه الشروط في المرضع قبلت وتجب العناية بغذائها طول المدة أيضاً حتى يكون اللبن الذي تنتجه جيداً، فإذا طرأ عليها مرض منع من إرضاعها. ثم ذكر كيفية التحريك العلمي الذي يهيئ الأعضاء ولا يضرها، وضرورة الموسيقى والتلحين الذي جرت به العادة لتنويم الأطفال.

وأوجب أن يكون أوكد العناية مصروفاً إلى مراعاة أخلاق الصبي فيعدل، وذلك بأن يحفظ كيلا يعرض له غضب شديد أو غم أو سهر، وذلك بأن يتأمل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحن إليه فيقرب إليه، وما الذي يكرهه فينحى عن وجهه ـ ويشبه مذهبه هذا مذهب روسو ـ وفي ذلك منفعتان: إحداهما في نفسه بأن ينشأ من الطفولة حسن الأخلاق، ويصير ذلك له ملكة لازمة. والثانية لبدنه لأن الأخلاق الرديئة تؤثر في مزاج الجسم، فإن الغضب يسخن جداً والغم يجفف جداً. ففي تعديل الأخلاق حفظ الصحة للنفس والبدن جميعاً.

ثم ذكر نظاماً يتبع في حياة الطفل، فقال: وإذا تنبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة، ثم يطعم شيئاً يسيراً، ثم يترك إلى اللعب الأطول، ثم يستحم ثم يغذى، وإذا أتى عليه من عمره ست سنين فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم، ويتدرج في ذلك أيضاً، ولا يحكم عليه بملازمة الكتاب كرة واحدة.

وذكر فصلاً في التدبير المشترك للبالغين وهو ١٧ فصلاً، قال في الفصل الأول: إن قوام الصحة على ثلاثة أشياء: الرياضة والغذاء والنوم.

ثم بسط الكلام على الرياضة بسطاً لا نهاية بعده، وذكر من أنواعها المنازعة والملاكمة وسرعة المشي والرمي عن القوس والقفز والحجل وركوب الخيل وشد الحبل الخ.

ثم ذكر رياضة كل عضو وزمن الرياضة. وتناول في الفصول الأخرى الاستحمام وأنواعه وفوائدها للجسم، وتقوية الأعضاء الضعيفة وتسمينها وتعظيم حجمها والإعياء الذي يتبع الرياضات وعلاج الإعياء الرياضي وتدبير الشيوخ. اهـ.

(٥) آراء العالم الهندي السر «جاجاديس بوز» النابغة في علم حياة النبات الذي تقدم ذكره، وآراء غاندي الزعيم الهندي

أما آراء غاندي فقد تقدمت في آخر سورة «آل عمران» وذلك أنه يحرض الناس على الصناعة ويمنع الاتكال على صناعة الفرنجة. وأما آراء السر «جاجاديس» فإنه أوصى التلاميذ الهنود بهذه الوصايا في زماننا، وهي خمسة، وقد خاطبهم بها قائلاً في هذه السنة ١٩٢٨ ما يلي:

(١) الثقة بالنفس وهي التي يعبر عنها الإنسان بقوله: أنا أريد، فهذه الكلمة يجب أن تفهموها جيداً كثيراً ما أسمع الناس يقولون إذا طلب منهم عمل ما: سنجتهد في عمله، وإني لا أشتم شيئاً من رائحة التواضع في هذه العبارة بل أراها عنوان الجبن. هل تحت السماء أمر لا تستطيعون أن تجعلوه طوع إرادتكم إن أردتم ذلك بكل قوتكم العقلية والروحية. أنا أقول لكم: إن الذين لا يقفون أمام

الصعوبات والمشكلات خوفاً منها ليسوا إلا جبناء ضعفاء بل هم عار على الإنسانية التي يتصفون بها وينتمون إليها. ليس للإنسان أن يتجنب الصعوبات أو يفر منها أو يشكو أمرها، بل عليه أن يذللها ما دام فيه رمق من الحياة. اعلموا أنه ليس على وجه الأرض قوة تستطيع الوقوف في سبيلكم إن أردتم المضي فيه، وجميع العقبات تتنحي بنفسها عن طريقكم، وما يظل معترضاً لكم منها تدرسونه وتطحنونه بأقدامكم القوية، هكذا يصبح كل عسير أمامكم يسيراً وكل صعب سهلاً.

(٢) اختيار طريق الحق والصدق والمضي فيها بأقدام ثابتة، فلا تضيعوا أوقاتكم في بيان الفضائل ومحاسن الخير، بل انتهجوها وسيروا عليها. هذا هو الأساس المقدس الذي قامت عليه الإنسانية الطاهرة.

(٣) الاتحاد الوطني: اتركوا التعصب للولايات وللأديان والمذاهب والطوائف، وكونوا جميعاً أبناء الهند الحنونة البارة. كونوا هنوداً أولاً وآخراً.

(٤) اعتقدوا أن أساس الدين هو التسامح، فلا يحملنكم اختلاف عقائدكم الدينية على الاعتداء بل ليكن الدين بينكم عنوان المحبة والوداد والوئام.

(٥) لا تتركوا مدنيتكم القديمة تموت بغفلتكم وضعفكم، بل كونوا رجالاً ونساء أقوياء مخلصين غيورين، لتتمكنوا من إنشاء مجد جديد لوطنكم ووطني العظيم.

(٦) وهاهنا جاء دوري أنا فأقول «سادس» الجماعة أدلي دلوي في الدلاء.

فهاهو ذا «سقراط» وهاهو ذا «أرسطاطاليس» والفارابي وابن سينا وعالمان هنديان يطلبان الصناعة والإقدام والأخلاق والاتحاد.

فأما أنا فقد ألفت كتاب «أين الإنسان»، وقد لخصت بعضه في هذا التفسير، وذكرته في مواضع كثيرة فيه. وملخصه أن جميع هذه المجالس النيابية في العالم الإنساني تخدم شهوات المنتخبين ـ أولئك النواب ـ وهذه الإنسانية يجب أن تكون كل أمة منها قائمة بتعليم جميع الذكور والإناث، وأن تستخرج مواهب أرضها وعقولها وكل شيء فيها، وكل الأمم يجب أن يكونوا متضامنين في الشرق والغرب، وعلى مقدار نقص أمة يكون فقد ثمرات لأمم أخرى، ولكن الله يقول: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣]، ويقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥].

إذن كل هؤلاء المفكرين يبحثون عن سعادة الإنسان كما بحث العميان عن الفيل فأمسك كل بطرف وعرفه، والفيل أوسع من علمهم، هكذا هنا الإنسانية وسعادتها أوسع من علم العلماء وحكمة الحكماء. فلا سعادة للناس إلا إذا جدت الأمم كلها في التفكير لسعادة المجموع بإخلاص، والإخلاص يكون من قوم اختصوا بمواهب عالية ومدارك عظيمة، وهؤلاء قليل ولكنهم مفرقون في الأمم كلها، فمتى عم التعليم الأمم فهناك يظهر أرباب المواهب من كل أمة ويسعدون نوع الإنسان.

ولقد رأيت في كتاب «أين الإنسان» أن موافقة تعداد الذكور للإناث غالباً في هذا العالم دليل على أن فيه نظاماً ثابتاً يشمل كل شيء. فأهل الحكمة أو الصناعة أو السياسة لكل طائفة قوم خلقوا في الأرض هكذا خلق في هذه الأرض عقول خاصة لإرشادهم، فيجب البحث عنهم في جميع الأمم، وهم الذين يديرون دفة العالم كله، وغير هذا عندي باطل.

ولقد اطلعت على مقال للعلامة « هولدين » من أشهر كتاب الإنجليز وكبار مفكريهم ومن أشهر علماء البيولوجيا في عصرنا ، قال فيه ما نصه : إن نظرنا إلى صحة الأجسام بقطع النظر عن سواها يوجب بلا مراء أن يعنى الناس جميعاً بعضهم ببعض ، لأن مرض فرد يعدي الآخر وينتقل إلى أمة أخرى ويقول : إذا نظرنا إلى علم الاقتصاد والسياسة فإننا نجد سوء طالع زيد يكون حسن طالع لعمرو ، وخراب أمة ربما كان نعمة على أخرى ، ولكن في علم الصحة تنعكس الحال ، فإن الدساكر في وسط المدن والمحافر التي ينتشر فيها الغبار في الجو أوساط حسنة يربى فيها مكروب السل الذي يصيب الفقير والغني على حد سواء . وهذه مسألة لا تقتصر على شعب واحد بل إن الطفل الروماني المصاب بالفالج والهندي المصاب بالجدري والجرذ الذي يحمل الطاعون كل هؤلاء يؤثرون في الأعمار وينقصونها ، إذن تجب العناية بكل فرد وبكل أمة ، لا سيما أن طرق النقل الآن صارت أسرع منها قبل الآن .

ومن قوله أيضاً : إن قحطاً قد وقع في بلاد الصين منذ قرنين مضيا لم يكن ليضع الرجل الإنجليزي أو الأمريكي إزاء أية مسؤولية لأنه ليس لديه وسائط النقل ، أما اليوم فإن استخدام البخاري في السفن والكهربائية في نقل الأخبار كلاهما جعل القيام بمثل هذا الواجب مستطاعاً . فهذا العالم ينحو نحو كتابي « أين الإنسان » ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثالثة : في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

لقد تقدم الكلام على السمع والبصر في سورة « آل عمران » وهناك صورتاهما مرسومتان وموضحتان إيضاحاً تاماً ومشروحتان شرحاً كافياً . ولكن هنا وجدت صورتين أخريين مرسومتين في كتاب « قانون الصحة » وهما واضحتان ظاهرتان يراهما الإنسان أمامه كأنهما آلتان من الآلات المشاهدات في عصرنا ، وفيهما من دقة الصنع وإتقان القطع المختلفة الأحجام والأقدار والصور ما يبهر العقلاء ، إذ يرون عناية صانع هذا العالم بمخلوقاته ، فهما أوضح من تينك الصورتين وأقرب إلى الفهم والإيضاح التام .

ولا جرم أن السمع والبصر والفؤاد عادة لا يفكر فيها الناس ولا في حسن إتقانها لأنها مبذولات لكل حي فغفل الناس عنها ، لذلك كررها الله في القرآن وحث على النظر والتفكر فيها ، حتى تخرج هذه النفوس البشرية من عالم الحيوانية إلى عالم الحكمة والعقل والرقي العلمي .

أما الفؤاد فارجع إلى ما تقدم في سورة « الإسراء » عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[الآية : ٨٥] .

وأما السمع والبصر فهاك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ٢٣ و٢٤ وهذا نصه :

حاسة السمع

عضو السمع هو الأذن وينقسم إلى أذن ظاهرة وأذن متوسطة وأذن باطنة . الأذن الباطنة هي التي تحتوي على أعضاء أي أعصاب السمع . فالأذن الظاهرة تتركب من الصيوان والقناة السمعية الظاهرة ، ويوجد بها شعر وغدد تفرز مادة شمعية تسمى بـ« الصملاخ » ، وهي تتراكم إذا لم تنظف وتضعف السمع . والأذن المتوسطة تتكون من الطبلة وغشائها وثلاث عظام صغيرة . والأذن الباطنة

مكونة من تجويف في عظم الصدغ مبطن بغشاء ينتهي فيه أطراف العصب السمعي . وإذا حدث صوت بجوار الأذن يخترق الأذن الظاهرة ثم الأذن المتوسطة ثم الباطنة فيتنبه العصب السمعي فينقل الصوت إلى مركزه في المخ فيوجه المخ الإحساس إلى الأذن فيجعلنا نشعر كأن الأذن هي التي أحست بالسمع . (انظر شكل ١٧) .


(شكل ١٧ ـ صورة الأذن)

أرقام شكل١٧ : (١) الأذن الظاهرة «صيوان الأذن» (٢) قناة السمع الظاهرة . (٣) طبلة الأذن . (٤) صندوق الطبلة . (٥) قناة استاك بوس . (٦) المطرقة . (٧) السندان . (٨) الركاب . (٩) التيه . (١٠) مدخل القوقعة . (١١) القوقعة . (١٢) القنوات النصف الهلالية . (١٣) العصب السمعي .

الصوت والكلام

تحدث نغمات الصوت الأساسية باهتزاز الحبال الصوتية للحنجرة بواسطة هواء الزفير، ويتنوع الصوت باللسان والأسنان والشفتين، والكلام يحصل بتغيير نغمات الصوت في التجاويف التي فوق الحبال الصوتية، فمثلاً تغيير حجم وشكل البلعوم والفم والأنف يحدث نغمات مختلفة تكون حروف النطق .

حاسة الإبصار

مركزها العين وتوجد هذه في تجويف الحجاج ومعها الأوعية والأعصاب التي تغذيها، وفي مقدمتها الجفون والجهاز الدمعي . والجفون في حافتها الأهداب وهي تقي العين ليلاً ونهاراً من الأجسام الغريبة التي تصادفها، والجهاز الدمعي في الجهة الوحشية للحجاج ويفرز الدمع منعاً لجفاف الملتحمة . (انظر شكل ١٨) .


(شكل ١٨)
رسم قطاع من مقلة العين

أرقام شكل ١٨:(١) القرنية . (٢) الصلبة . (٣) المشيمة . (٤) القزحية . (٥) الحدقة . (٦) الشبكية . (٧) العصب البصري . (٨) الشريان المركزي للشبكية . (٩) قطاع العصب البصري . (١٠) البقعة الصفراء . (١١) الخزانة المقدمة . (١٢) الخزانة الخلفية . (١٣) البلورية . (١٤) العضلة الهدبية . (١٥) الجسم الزجاجي . (١٦) العضلات المحركة للعين . (١٧) الجفنان . (١٨) الأهداب . (١٩) الغدد الدمعية .

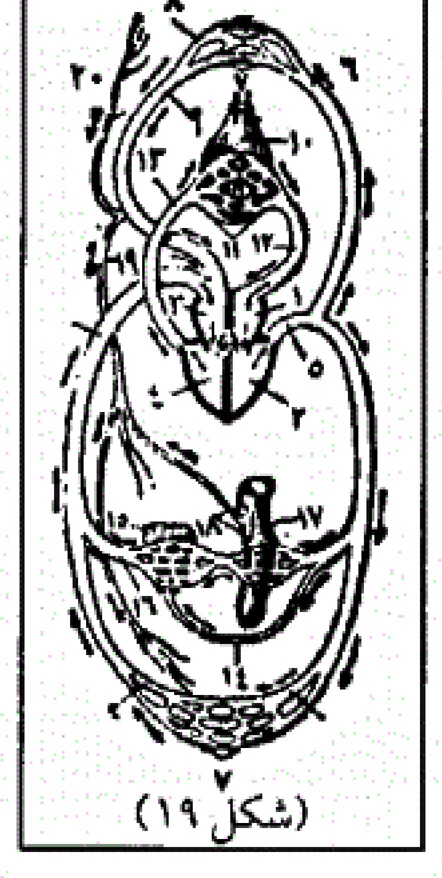
والعين مكونة على التوالي من الطبقات الآتية، وهي : الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية . والعين مملوءة بالرطوبة المائية والجسم الزجاجي والبلورية وتجويفها تنقسم بالقزحية إلى قسمين، وهي ستار قابل للانقباض والانبساط ومثقوبة في وسطها بالحدقة التي وظيفتها تنظيم كمية الضوء الداخل في العين، وتوجد القزحية عند ملتقى الصلبة بالقرنية ووظيفتها إعداد العين للرؤية، وهي تؤثر في تحديب البلورية بانقباضها وانبساطها فترى الأشياء على أبعاد مختلفة، وفي الشبكية ينتهي العصب البصري .

إن شرح العين والأذن في « آل عمران » أوسع جداً . والعين تماثل صندوق التصوير الشمسي ، فأشعة الشيء المرئي تمر بالقرنية والبلورية والرطوبة المائية والجسم الزجاجي فتنطبع صورته معكوسة على الشبكية التي تشبه زجاجة التصوير ، فينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل إلى المخ فيردها هذا إلى العين غير معكوسة ، فنشعر برؤية الشيء ونحكم على شكله ولونه وحجمه .

القلب والأوعية الدموية وسير الدورة فيها

القلب هو عضو عضلي لا حكم للإرادة عليه ، فينقبض وينبسط بنظام خاص ، وله أوعية خاصة وهو مخروطي الشكل ومغلف بغشاء ، وينقسم إلى أربعة تجاويف العلويان منها يسميان بالأذينين والسفليان يسميان بالبطينين . ففي الجهة اليمنى أذين وبطين وفي اليسرى مثلهما ، ولا تتصل تجاويف جهة بالجهة الأخرى بل يفصل الجهة اليمنى عن اليسرى حاجز عضلي ، ولكل بطين فتحة لها صمام يسمح بمرور الدم من الأذين للبطين لا العكس ، ويذهب الدم إلى أجزاء الجسم من البطين بواسطة عروق تسمى بالشرايين .

الدورة الدموية


(شكل ١٩)

يمر الدم مرتين في القلب ليتم دورته . ففي المرة الأولى يذهب من البطين الأيسر إلى جميع أجزاء الجسم ثم يعود إلى البطين الأيمن وهذه تسمى بالدورة الكبرى ، وفي الثانية يذهب من هذا البطين إلى الرئتين ثم يعود إلى البطين الأيسر وهذه تسمى بالدورة الصغرى . (انظر شكل ١٩) .

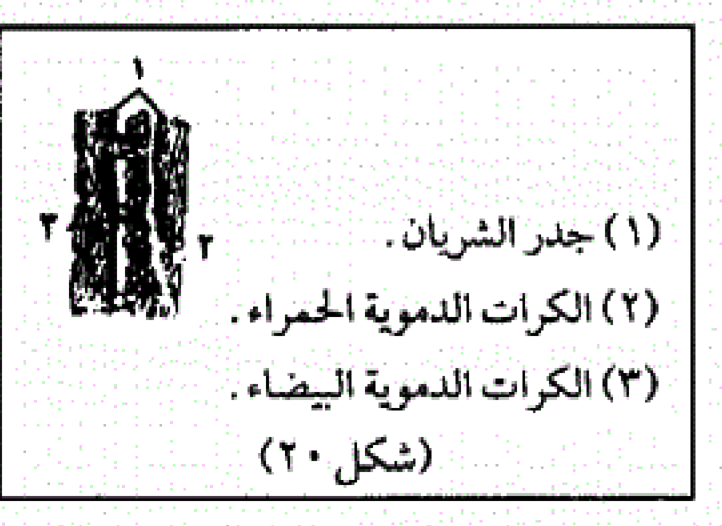
أرقام شكل ١٩ : (١) الأذين الأيسر . (٢) البطين الأيسر . (٣) الأذين الأيمن . (٤) البطين الأيمن . (٥) الأبهر أو الأورطي . (٦) فروع من الأورطي . (٧) الأوعية الشعرية . (٨) أوعية شعرية موصلة للأوردة . (٩) وريد . (١٠) الرئتان . (١١) الأوعية الشعرية الرئوية . (١٢) الوريد الرئوي . (١٣) الشريان الرئوي . (١٤) الشريان الكبدي . (١٥) الكبد . (١٦) الوريد الكبدي . (١٧) القناة الهضمية . (١٨) و(١٩) القناة الصدرية . (٢٠) الأوعية اللنفاوية .

فتبتدئ الدورة بمرور الدم من البطين الأيسر إلى أكبر شريان « الأورطي » ثم إلى فروعه الكبيرة فالصغيرة فالشعرية التي هي أدق أوعية الجسم ووظيفتها تغذية خلايا الجسم وأنسجته ، ثم يرجع الدم بعد تغذيتها إلى القلب بواسطة الأوردة الصغيرة التي تصب في وريدين كبيرين يسميان بالوريدين الأجوفين السفلي والعلوي ، وهذان يصبان في الأذين الأيمن حيث يمر الدم منه إلى البطين الأيمن ثم منه إلى الرئة ، وذلك بمروره في الشريان الرئوي وفروعه ، ثم يصل بعد انصلاحه بواسطة الهواء إلى الوريد الرئوي ومنه إلى الأذين الأيسر ثم البطين ، أعني حيث تبتدئ الدورة ، وهناك فرع آخر للدورة يسمى بالدورة الكبدية وهي أن الدم بعد مروره بفروع الأورطي البطني لتغذية الأعضاء يجتمع في أوعية وريدية تصب في وريد أغلظ ، ولكن بعض الأوردة الآتية من المعدة والأمعاء والطحال والبنكرياس تجتمع وتصب في وريد واحد يسمى بالوريد الباب الذي يذهب إلى الكبد ويتفرع فيها إلى

أوعية شعرية، وهي التي يتكون من اتحادها بأوعية الكبد الأصلية الوريد الكبدي الذي يصب في الوريد الأجوف السفلي.

كرات الدم في الأوعية أي العروق

الدم مكون من سائل شفاف مصلي يسمى بـ«البلاسما» سابح فيه كرات صغيرة تسمى بالكرات الدموية، وهي نوعان: حمراء وبيضاء. وعدد الحمراء خمسة ملايين عادة في المليمتر المكعب من الدم، والبيضاء من خمسة إلى ثمانية آلاف، والحمراء تحتوي على الأكسي هيموجلوبين الذي يحتوي على الأوكسجين. والبيضاء أكبر بكثير من الحمراء ولها أشكال مختلفة. (انظر شكل ٢٠).



(١) جدر الشريان.
(٢) الكرات الدموية الحمراء.
(٣) الكرات الدموية البيضاء.
(شكل ٢٠)

والدم إذا سال خارج الجسم يتجمد ويكون جلطاً دموية مركبة من الكرات الحمراء والبيضاء في شبكة من ليفية الدم، وهذه الجلط مغمورة في سائل شفاف يسمى بمصل الدم.

الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية

الأوعية هي التي تحمل الدم وهي على ثلاثة أنواع: الشرايين والأوعية الشعرية والأوردة، فالشرايين أنابيب مرنة تنقبض وتنبسط بمرور الدم فيها، وبذلك يحدث النبض، وتنقسم الشرايين إلى شرايين شعرية دقيقة تغذي الجسم بما احتوته من الدم الأحمر، وهذا الدم يتحول بعد الغذاء إلى دم أسود اللون يتجمع فيما يسمى بالأوردة الشعرية ويمر منها إلى أوردة كبيرة. ولهذه الأوردة الأخيرة صمامات تمنع رجوع الدم إلى الوراء. (انظر شكل ٢١).

(١) أوعية شعرية شريانية.
(٢) شريان متفرع إلى أوعية شعرية شريانية.
(٣) أوعية شعرية وريدية متصلة لتكوين وريد.
(٤) وريد صغير.
(شكل ٢١)

بيان السمع والبصر والفؤاد بالقول بعد ظهور رسمها بالمصور الشمسي الذي ظهر في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[فصلت: ٥٣]

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٩]

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣]

وأن هذه الصور المرسومة هي مصداق هذه الآيات

اعلم أن الفؤاد هو القلب، والقلب يطلق على اللحم الصنوبري المرسوم هنا الموضحة أجزاؤه المنظم. وفي الإنسان قوة عظيمة، فمن حيث تصريفها للبدن تسمى روحاً، ومن حيث إنها تشتهي تسمى نفساً، ومن حيث إنها تدرك المعاني يقال لها عقل، ومن حيث إنها تسري في بخار الدم الساري في الجسم الذي ينظمه ذلك اللحم الصنوبري الشكل يقال له قلب. والفؤاد هنا يراد به العقل.

ولما كانت هذه المعاني لها به ارتباط وجب أن أوضح هذا القلب المرسوم أمامك لتعجب من الحكمة والعلم وتدرك من البهجة والبهاء والحسن والإشراق والجمال ما يبهر العقول ويسر أولي الألباب.

حدثني الحارث بن همام قال: أخذتني سنة من النوم أو كأني بين اليقظة والمنام، إذا أمامي أرض قفراء واسعة الأطراف مترامية الأكناف لا أنيس بها ولا جليس حتى اليعافير وحتى العيس. فأخذت أتأمل أكنافها وأسرح طرفي في أرجائها وأقول: ما الحكمة في هذا الخلاء وما المقصد من هذه الأرض القفراء؟ فلا جمال ولا كمال ولا حسن ولا بهاء ولا شجرة خضراء ولا معالم بها يهتدي السائرون ولا مظال يستظل بها الغادون والرائحون. وبينما أنا على هذه الحال إذ رأيت شبحاً ظهر كأنه بخار ثم أخذ يلتئم شيئاً فشيئاً حتى استقام بشراً سوياً، ورأيت معه بذوراً عجيبة مختلفة الألوان والأقدار والصفات قد مزجها بماء وهواء وأنواع من الأرض وسحقها كلها سحقاً تاماً ثم صارت كهيئة اللبن، ثم أخذ ينثر هذه القطرات في تلك الأرض القفراء، فأولاً نثر قطرة ثم اثنتين ثم أربعاً ثم ثمانياً ثم ١٦ ثم ٣٢ وهكذا إلى أن وصل عشرات الألوف ومئات الألوف وآلاف الألوف. فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى رأيت الأرض القفراء مجللة بتلك القطرات، ولكن وجدتها أخذت تتكاثف بهيئات مختلفة. وعجبت كل العجب إذ رأيت ما لا يصفه الواصفون ولا يدركه العاقلون. ذلك أني رأيت هذه الأرض صارت حقولاً وحدائق وجنات ورياضاً، وهذه الحقول قسمت أصنافاً وأنواعاً. فمنها حقول القمح وحقول الفول والبرسيم وأنواع الخضر. ومنها ما رأيته حدائق غناء، ثم الحدائق الغناء رأيتها أسرع من لمح البصر قد قسمت أصنافاً وأنواعاً. فمنها ما صفت فيها أشجار الفاكهة الزيتية والفاكهة السكرية والفاكهة العطرية والفاكهة الحمضية والفاكهة النشوية والفاكهة المائية كالزيتون والتمر والتفاح والليمون والبرتقال والكمثرى والبطيخ والشمام.

ومن عجب أنها صفوف وصفوف منتظمات لا خطأ فيها ولا خطل. ووجدت الحديقة قد صفت بالنخل الباسقات المصفوفات حولها وقد هبت النسمات وفاءت الأفياء. فصرت أعجب وأقول هذه أرض قفراء، وهذا الرجل كان معه حبوب ومواد مائية وأرضية وهوائية فمزجها وأخذ يرميها على قاعدة الحساب «المتوالية الهندسية»، فما للحساب وما لهذا النظام؟ وما الذي جعل كل طائفة في موضعها؟ ثم نظرت فوجدت أنواع الرياحين قد صفت لها دوائر إهليلجية كدوائر الكواكب الجاريات حول الشمس فعجبت إذ أرى الدائرة ترسم أمامي شيئاً فشيئاً ولا راسم لها. فأنا أرى الرسم ولا أرى راسمه، فيا ليت أرضنا على هذا المنوال تنظم وتزرع بساتينها وتنظم حقولها وحدائقها ونحن نجنيها بلا تعب ولا نصب. ثم نظرت فوجدت هذه الرياض نبتت فيها الرياحين مختلفة الألوان: أحمر وأصفر وأزرق وياقوتياً وألماسياً، وأنا في غاية العجب من أن كل روضة من الرياض مختصة بنوع لا يختلط بسواه. ثم قلت في نفسي: من أين تسقى هذه الحقول وهذه الحدائق الغناء؟ فنظرت إذا آلة بخارية كبيرة منظمة امتدت أنابيبها في كل حقل وفي كل حديقة وفي كل روضة، وتلك الأنابيب كلها ترجع إلى أنبوبتين عظيمتين ممتدتين من تلك الآلة البخارية وجهازها العظيم المنظم البديع، وهذه الأنابيب كلما طال امتدادها دقت ورقت حتى صارت كالشعرات عند أطراف الحدائق والبساتين

والروضات، ثم نظرت إذا قصور شامخات بديعات مزينات بأجمل الصور وفيها المناظير المعظمات وأدوات السمع وهي المسرات المسميات « التليفون »، فأخذ مني العجب كل مأخذ، وقلت: أأنا في يقظة أم في منام؟ لعلي نائم ولعل هذه أضغاث أحلام.

فبينما أنا على هذه الحال إذ تبدى أمامي ذلك الذي كان أولاً قد بذر تلك القطرات في الأرض القفراء، وهو جميل المحيا بهج الطلعة حسن الشكل معتدل القوام باسم الثغر ظريف الشمائل حكيم عليم، فسلم عليّ وحياني وأخذ يجاذبني أطراف الحديث من قديم وحديث. ولما أيقن أني استأنست بمرآه أخذ يسألني عما يدور بخلدي وما حار فيه لبي. فقلت له: هذه حدائق وهذه بساتين لا زارع لها لا منظم، فكيف رأيت فيها ما لا تراه العيون ولا تتخيله الظنون؟ فقال: اسمع يا صاح وبلغ الناس عني. اعلم أن هذه حال تمثل خلق جسم الإنسان، فالقطرات التي رميت بها في الأرض القفراء منظمة العدد على مقتضى المتوالية الهندسية ٢ و٤ و٨ و١٦ و٣٢ وهكذا فهي بيضة الجنين في الرحم تنقسم على هذا المنوال، وفي أثناء ذلك يمدّها الدم الجاري إلى الرحم من جسم الأم. فالدم يمد البيضات، والبيضات تنقسم على هذا المنوال، ثم هذه الخلايا المتكاثرة تنضم كل جماعة منها من طبع واحد وتتحد بنظام غائب عنكم لا تعرفونه، فمنها ما يصير عظاماً، ومنها ما يصير عضلات، ومنها ما يصير عروقاً، ومنها ما يصير حواساً وهكذا، ثم اعلم أن الأجسام على ثلاثة أقسام: مضيئة كالشمس والكواكب والنار والكهرباء في حالة خاصة. ومعتمة كالأجسام الحجرية والطينية. ومنها شفافة كالهواء وكالماء وكالزجاج. وهذه الأجزاء كلها داخلة في الغذاء مع الدم الساري في جسم الإنسان، وأيضاً المادة إما غازية كالهواء وإما صلبة كالحجر وإما سائلة كالماء، وهذه الأنواع كلها يحتوي عليها الدم. وإنّما اشتمل الدم على هذا كله لتستمد منه الأعضاء المختلفة ما يصلح لها. إنك لما نظرت البساتين والحقول والرياض تنظم بلا عمل تمنيت أن لو كانت هذه حالكم على وجه الأرض. فاعلم أن هذا الإحكام وهذا النظام الجميل الذي رأيته يعقل به أمران: الأول: تمثيل لما يقع عندكم في كل حين، فما من نبات أو حيوان أو إنسان إلا وهذه حاله من نظام سريع وشكل بديع منظم ولا عمل لكم فيه. الأمر الثاني: إن الله لو جعل هذه حال مزارعكم أنتم وصناعاتكم لأورث خللاً في نظامكم ولأصبحتم دوداً أو حشرات لأنكم لا عمل لكم ولا عقول. وهل تخلق العقول إلا للفكر أو الأيدي إلا للعمل أو الأعين إلا للبصر؟ فإذا كان كل شيء حاضراً عندكم فما الداعي إذن لأسماعكم وأبصاركم؟ الأسماع والأبصار والعقول إنّما خلقت لكم لتشكروا الله بها، ولا معنى للشكر إلا صرف هذه الأعضاء والجوارح فيما خلقت له. فإذا زرع الله لكم نخيلكم وبساتينكم وقطنكم وقمحكم وشعيركم وفعل في حقولكم وجناتكم ما فعله في داخل أجسامكم من خلق الأعضاء وترتيبها ونظامها بلا عمل منكم ولا علم فمعناه أنه أهملكم إهمالاً كلياً وقطع عنكم مدده. قال الحارث بن همام: هل لهذا ما يستأنس به من القرآن؟ قال: نعم. انظر إلى أهل مكة طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء وهكذا، فقال لهم: هل كنت أنا إلا بشراً رسولاً؟ فما هو إلا رسول لأمم تتعلم وتعمل لا أنها يؤتى لها بالثمرات بلا عمل.

قال الحارث بن همام: فلما سمعت ذلك منه قلت له: فماذا تقصد من هذه الروضات والحدائق المختلفات؟ فقال: الأعضاء المختلفات في الجسم. فقلت له: وماذا تقصد بالمسرّة «التلفون» أي آلة السمع، وماذا تقصد بالمناظير المعظمة، وماذا تقصد بهذه الأنابيب الممتدة؟ فقال: هذا هو تفسير آية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٨]. ألا ترى أن الأذن في الرسم الذي أمامك عبارة عن عظمات صلبة متينة قوية وضعت وراء طبلة والطبلة أمامها فتحة والفتحة انتهت بالأذن البارزة خارجاً، وهذه العظمات المسميات بالمطرقة والسندان والركاب لها رنين خفي، وهذا الرنين ينتقل إلى ما وراءها ويصل إلى الدماغ فيعلم ما يقال له. فلماذا وضعت هذه العظمات في هذا المكان؟. ولماذا اتجهت إلى جهتي الرأس؟. ولماذا جعلت بنظام وحساب بحيث لو صغرت أو كبرت أو لم تكن في موضعها أو زحزحت قيد شعرة واحدة لم يمكن السمع؟. فهذا هو معنى المثل الذي مثل به آلة السمع. وأما المناظير المعظمة في القصر فلم أرد بها إلا أن أمثل لك البصر. ذكرت لك أن المواد منها الجامدة ومنها السائلة الخ، ومنها الشفافة وهكذا.

أليس من العجب أننا رأينا البيضة في رحم المرأة أخذت تنقسم على طريق المتوالية الهندسية، وفي الوقت نفسه حصل حساب ونظام في الوضع. الشمس والقمر والكواكب مضيئات أشرق منها النور على الجوّ ووصل إلى الإنسان، فكانت طبقات العين المنظمات البديعات الجميلات شفافات كما أن الهواء شفاف. فما هذا الحساب الذي خص حجاج العين بتلك المواد الشفافة؟. ولمَ جعل الشفاف في موضع العين وجعل الصلب في موضع الأذن؟. هذا يوجب الشكر ولن يكون الشكر إلا بالمعرفة، لأن من لا يعرف حق النعمة لا يشكرها ولا يحب المحسن، لأن المحسن لا يشكر إلا إذا عرف قدر إحسانه، وهل يعرف إحسانه إلا بالدراسة؟. هذا هو السبب في قوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

ثم قال الطيف للحارث بن همام: وأما الذي أقصده بالأنابيب الممتدة في الحديقة فهو القلب الذي رسم أمامك، فإنك تراه مقسماً أربع أقسام؛ فالبطين الأيسر الذي أمامك في الرسم قد خرج منه «الأورطي» وقد تفرع فرعين، والفرعان تفرعا فروعاً كثيرة، ولما تغذى الجسم بالدم رجع ثانياً بواسطة الأوردة إلى القلب إلى آخر ما هو مشروح فاقرأه.

ثم قال هذا الطيف للحارث بن همام: انظر هذه الأعضاء الثلاثة السمع والبصر والقلب، واعجب من تركيبها المنظم وعملها المتقن. فالقلب جعلت بنيته بأجهزة تقبل التمدد قوية متينة لمناسبة عملها، والأذن جعلت أجهزتها تناسب الصوت، والعين أجهزتها تناسب الهواء الشفاف. فهل يعرف ذلك من الناس إلا قليل. هذا معنى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٨].

قال: فقلت للطيف: هل الجهل بهذا يضر المسلمين في حياتهم الدنيا أم الضرر اللاحق بهم يرجع إلى جهلهم بنعم ربهم؟. قال: الضرر اللاحق بالمسلمين يرجع لهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى معاً. فأما الضرر الأخروي فإن الرجل القادر على فهم علم التشريح مثلاً وقد غفل عنه وتركه هو وأمثاله من عجائب صنع الله، فهذا قد أعرض عن آيات الله، والمعرض عن آيات الله مقصر فكان خيراً له أن يملأ قلبه حكمة وعلماً، وأيضاً هذه علوم من فروض الكفايات والأمة كلها تعذب

بترك فروض الكفايات. فقلت للطيف: فاذكر لي مثلاً مما أضر المسلمين بسبب جهل هذه العلوم حتى يظهر معنى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٨]، وإذن تكون قلة الشكر صارت سبباً في العذاب في الدنيا. قال: إن الدنيا كلها اليوم قد عمها العلم، والمسلمون نائمون، وأضرب لك مثلاً فأقول: إن الناس قد أظهروا علوم جسم الإنسان بطريق الصور المتحركة «السينما»، فالسينما الآن قد أظهرت أحشاء الإنسان وأعضاءه الظاهرة والباطنة. ولقد ظهر للعيان الآن في الشرق والغرب كيف يربى الطفل في بطن أمه، أنا مثلت لك ذلك مثالاً بالحدائق والجنات، ولكن الناس الآن أصبحوا يرون نمو الطفل في بطن أمه وتدرجه، وكيف تكون البيضة في الرحم واحدة فتنقسم اثنتين وتتضاعف ولا يزال ينمو حتى تتم أعضاؤه. كل ذلك يرونه بالصور المتحركة في بضع دقائق ويكمل الجنين، وفوق ذلك يرون بتلك الصور نمو الأمراض كالزهري. ألم تر أنك أنت في ليلة الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٨ قد شاهدت بنفسك تكوين الجنين، وكيف تنمو حيوانات المرض المسمى بالزهري، وكيف يلتهب الجسم مرضاً ويمتلئ حبوباً وقروحاً ويسودّ الجلد وتتناثر الأعضاء. وهذه الحشرات المتكاثرات تنمو كما ينمو الجنين ويظهر في الرجل وفي المرأة وفي طفلهما الذي تربى في رحم المرأة المريضة بهذا الداء. وقد يولد الطفل أعمى مقرح الوجه والجسم. كل ذلك أنت شاهدته، وهذه المشاهد أبلغ من المثل الذي ضربته لك، وإنّما أبنت لك هذا لتعلم أن الله عز وجل لم يكن غافلاً عن الخلق، لأنه خلق الأعضاء والسمع والبصر والجسم للمنافع. فإذا صرف الإنسان قواه للشهوات التي جعلت مقدمة للمنافع وغفل عن المقاصد شوه الله هذه الأعضاء وجعل الذنب على قدر المرض جزاء وفاقاً. فقلت للطيف: ما معنى هذا؟ فقال: معنى هذا أن الشهوة البهيمية في الإنسان تأخذ بمجامع قلبه، وهي ألذ شيء عنده، وهي لم تجعل فيه إلا لأجل الذرية. فإذا جعلها مقصودة لذاتها سلط عليه أمراض الزهري وغيرها فشوهت نفس الأعضاء، وجعلته منبوذاً محقوراً، فهو قصد أن يكون دائماً فاسقاً معتزاً بصولة قوته وجماله، فقال له: كلا. أعضاؤك أشوهها وجمالك أذهبه وأجعلك بهيئة منفرة بحيث إذا قرب منك أحد يقول له الناس لا مساس، لأنهم إذا مسوك أصيبوا بمرضك كالسامري الذي عبد العجل. فهذا الذي عبد شهوته أصيب بالحقارة، فهو يريد الشهوة والتمتع لذاتهما والشهوة البهيمية مع النساء، فقيل له: كل من قرب منك يصاب بمرضك فاعتزل فأنت محقور منبوذ. هذا في عذاب الفرد من نوع الإنسان على ترك الشكر، وقلته في قوله تعالى هنا: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٨].

أما عذاب الأمة فهاك مثلاً لذلك. أما قرأت ما جاء في خطبة السر «صموئيل هور» في الجمعية الجغرافية الملكية المذكور في التلغرافات العامة الواردة إلى مصر بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٨، إذ قال ما يأتي: إن اختراع الطيران أوجد مشكلة خطيرة في الإمبراطورية البريطانية، فقد دخلنا الحرب العظمى كدولة تقطن في جزيرة آمنة من المهاجمة، وخرجنا من تلك الحرب ظافرين، ولكن باتت عاصمتنا بسبب اختراع الطيران مستهدفة للمهاجمة من الخارج أكثر من أية عاصمة أخرى من عواصم غربي أوروبا، وقد اضطررنا وسنظل مضطرين سنة فسنة إلى بذل مجهوداتنا العقلية وأموالنا لإنشاء قوات جوية كافية لصد هجمات أي عدوّ يخطر له أن يغير على بلادنا. ويسرني بأن أقول: إننا قبل خمس سنوات لم يكن لدينا من قوّات الطيران للدفاع عن البلاد ما يستحق الذكر. أما الآن فلدينا ثلاثون

سرباً من طيارات الدفاع وهي التي أنجزت حتى الآن من الاثنين والخمسين سرباً التي تقرر إنشاؤها.
نعم إن الطيران قد أضاف عبئاً جديداً على عاتق دافعي الضرائب البريطانيين. وباباً للنفقة على التسلح في العصر الذي كنا نود فيه تخفيف أعباء التسلح في جميع العام، فكيف يتسنى لنا أن ننال فائدة من الطيران لقاء هذه النفقات الجديدة. وقد دلني اختبار خمس سنين قضيتها في هذه الوزارة، على أن الطريقة الوحيدة التي يتسنى بها تعويض هذه النفقات هي استخدام قوات الطيران استخداماً يؤدّي إلى الاقتصاد في نفقات الدفاع عن الإمبراطورية، وتحسين المواصلات والموارد في أجزائها المتفرقة. وقد تبين لنا أن هناك مناطق معلومة للدفاع الإمبراطوري يتسنى للطيارات أن تقوم فيها مقام القوات الحربية القديمة لا أن تكون إضافية إليها. وأهم شاهد على صحة هذه السياسة هو «العراق» حيث استطعنا أن نخفض قوات الحامية التي كانت في سنة ١٩٢١ ثلاثة وثلاثين أورطة من جنود الإمبراطورية، تكلفنا أكثر من عشرين مليوناً من الجنيهات سنوياً إلى خمسة أسراب من سلاح الطيران الملكي، ولم يبق ولا أورطة واحدة من الجيش الإمبراطوري لمساعدة قوات الطيران، وكل ما ينفق الآن على هذه الأسراب هو دون مليوني جنيه في العام، وسرب واحد من الطيارات كان كافياً لإرغام إمام اليمن الذي ظل عدة سنين يهاجم «عدن» على الإقلاع عنها، وأطلق سراح بعض مشايخ مصادقين لبريطانيا كان قد اختطفهم، وكذلك كان للطيران فضل عظيم في تهدئة رجال الدين في بلاد الصومال وعلى حدود الهند الغربية، وكانت أعمالها خالية من القتل وسفك الدماء تقريباً في كلا الجانبين. وقد أخضعت الطيارات عدة قبائل كان إخضاعها قبل اختراع الطيران مستحيلاً. اهـ.

هذه هي خطبة السر «صموئيل هور». أفلست ترى أن المسلمين الآن في العراق و اليمن هم محل التجربة والقتل. أليس هذا الذل الذي حل بالمسلمين لجهلهم؟ نعم هذه الدنيا وعلومها والأمم كلها اغترفت من نعم الله وهم لم يغترفوا. أليس هذا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٩]، فهل يسوي الله بين من علموا علم الطيران في الجو ومن جهلوه. ألم يكن هذا العذاب الذي حل بالمسلمين الذين ضرب بهم المثل السر «صموئيل» كالعذاب الذي حل بالرجل والمرأة اللذين أصابهما داء الزهري فشوه جسميهما وأعمى أولادهما. ألست ترى أن هذا الجيل من أمة الإسلام إذا لم يتعلم فترك ذريته جهلاء فأصابتهم نار الطيارات كما أصابت اليمن يكون هذا الجيل أشبه بالرجل المشوه الجسم بالزهري الذي خلف ذرية أصيبت مثله بالزهري، لأن الأب والأم لما جهلا نعمة الصحة والحياة وصرفاهما في لذاتهما وفسوقهما عاقبهما الله ونقل المرض إلى نسلهما، كما قال تعالى في قوم نوح: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧]. فهكذا هذا الجيل من الأمم الإسلامية إذا فرط في معرفة العلوم فلم يدرس جمال الله وحكمته فإن عدوى الجهالة تنتقل إلى ذريته حالاً، ويكون الأبناء كالآباء جهالة. إذن لا فرق بين الرجل المصاب بالزهري مع ذريته الذين يصابون بمرضه وبين الجيل الجاهل الذي يجهل نعمة ولا يدركها ولا ينتفع بها، فيورث الأجيال الآتية جهالته ويكون مثلاً للشر وسوء الملكة والجهل العظيم.

قال الحارث بن همام: فقلت للطيف: إن هذا التشبيه قاس شديد الوقع. فقال: هذا حق والحق أحق أن يتبع. إن العرب القدماء هم الذين عمموا العلم في العالم، وهم آباء أهل اليمن والحجاز والعراق

ومصر وسكان شمال أفريقيا والسودان والصحراء الكبرى. فآباء هؤلاء هم الذين نقل عنهم العلم أهل أوروبا فقد استفاد اللاتينيون المعلومات من العرب أي آباء هؤلاء الذين يضربون بالطيارات.

(١) فإن جوبرت الذي كان بابا رومة الملقب بـ« سلوستر » الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب أسبانيا.

(٢) و« اهيلارد » الإنكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من أسبانيا ووادي مصر وترجم مبادئ « إقليدس » من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية.

(٣) وترجم أفلاطون المنسوب لـ« طيغوليا » وهي مدينة قرب روسيا من العربية الرياضيات الكروية المنسوبة إلى « تيودوز »، كما أن الأستاذ « رودلف » أحد أهالي « بروجس البلجيقية » ترجم مسائل بطليموس المتعلقة بالكرة الأرضية والسماوية مبسوطة على خريطة، وهكذا الخ. انظر ما تقدم في سورة « إبراهيم » فهذا المقام هناك واضح.

ثم قال الطيف: فهؤلاء الإنجليز لم يتعلموا الهندسة إلا في القرن الثاني عشر من أهل مصر والأندلس، فليس بدعا إذا جاؤوا في القرن العشرين، أي: بعد تعلمهم بنحو تسع قرون، وضربوا أبناء أساتذتهم في العراق واليمن وغيرهما بالطيارات، فإن الله خلق الناس كلهم جسماً واحداً كجسم الإنسان، والإنسان رأيناه إذا أهمل أعضاءه وفرط فيها وشغلها باللذات عاقبه بإدخال حيوانات تشوه خلقته وتجعله ذليلاً محقوراً. فهل يكون بدعاً إذا سلط هؤلاء الفرنجة على المسلمين لما أصبحوا جاهلين بنعم الله وبالعلوم، ويكون مثل القنابل الملقاة من الطيارات على أولئك العرب الآمنين أشبه بحيوانات المرض الزهري التي تنتشر في الجسم بعد انهماكه في الشهوات. فهنا ترك العرب وأبناء الإسلام العلوم النافعة، وبعبارة أخرى: تركوا مواهب العقول ومواهب النعم في هذا العالم فسلطت عليهم الطيارات.

ولا جرم أن العقل أرقى من عضو التناسل. فعضو التناسل لما فسق أصيب نفس العضو بمرض الزهري، فابتعد الناس عنه، ولكن العقل الذي هو أرقى وأعظم لما عطله المسلم فلم يشغله بالعلوم كان العقاب أشد، فبدل أن يكون المرض بثوراً وقروحاً أصبح المرض ناراً تنزل من الطيارات تهلك الحرث والنسل، جزاء وفاقاً لما كانوا يجهلون. فعقاب الله الناس على ترك عقولهم بالمهلكات لمدنهم وأجسامهم أشد من عقابه لهم بالزهري على استعمال أعضاء تناسلهم في غير ما وضعت له. ولما كان العقل يعم أثره البلاد والعباد كان العقاب المرتب على إغفاله يعم البلاد والعباد، ولما كانت أعضاء التناسل جعلت للذرية وقد استعملت في اللذات لذاتها شوهت أجسام الآباء وأجسام الأبناء جزاء وفاقاً، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]. هذا بعض سر قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٨].

تذكرتان: التذكرة الأولى

اعلم أنه لا فرق بين تلك النيران المقذوفة من طيارات الإنجليز على اليمن والعراق وغيرهما وبين تلك الحيوانات الذرية « المكروبات » في داء الزهري الذي يعيش في أجسام أرباب الشهوات، المقبح لأجسامهم ولكل من يصاحبهم ويلامسهم، فأهل أوروبا الذين تعلموا من آبائنا العرب كما

قدمناه هنا هم أنفسهم يقذفون النار على إخواننا وعلينا من طياراتهم، فكما حذقوا بعلم العرب القدماء تغذت الحيوانات الذرية من دم الفساق في الداء الزهري. وكما أن هؤلاء الأوروبيين المتعلمين عن آبائنا قذفونا بالنار احتقاراً لشأننا فشوهوا الأجسام وأهلكوا الحرث والنسل وهدموا الدور والقصور، هكذا نرى تلك الحيوانات الذرية في داء الزهري شوهت محاسن أولئك الفساق. فحيوانات الزهري من أجسامهم تغذت ولجمالهم قبحت ولأعضاء تناسلهم مزقت ولمحاسن وجوههم شوهت، كذلك هؤلاء الأوروبيون لعلوم آبائنا نقلوا ولأجسام أبنائهم شوهوا ولدورهم خربوا، وكما أن الفساق لما عطلوا مواهبهم وأناموا قواهم وعكفوا على عبادة شهواتهم وتركوا نعم الله في سمائه وأرضه، أصابهم بحيوان يخلقه في أجسامهم ويغذيه من لحومهم ويسقيه من دمائهم، ويقول لهم: أيها الناس خير لكم أن تكونوا مرعى لأسفل الحيوان ومأكلاً لأدنى المخلوقات. كنت اصطفيتكم لعبادتي وخلقتكم وأعددتكم لإدراك نظامي، فقعدتم عن المعالي فأنزلتكم إلى أسفل سافلين جزاء وفاقاً، فالغنم بالغرم والجزاء على مقدار الذنب. هكذا أنتم أيها المسلمون قلت لكم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وأرسلت لكم خير الأنبياء وهو آخرهم، وفتحت لكم البلاد فغفلتم عن العلوم وجهلتم المنطوق والمفهوم، ولم تعقلوا ما بأرضكم من كنوز، ولا ما في سمائكم من جمال، ولا ما لديكم من نبات وجماد وحيوان، فغضبت عليكم غضبة لن أرجع عنها إلا بإيقاظكم، فأرسلت لكم أمماً تعلمت علوم آبائكم وقلت لها: خربي دورهم وهدمي مساكنهم وشوهي محاسنهم حتى يستيقظوا ويدرسوا. فوعزتي وجلالي لا يسكن أرضي بعد اليوم بعزة إلا المفكرون ولا يعيش فيها بهناء إلا العاقلون، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[ص: ٨٨].

فصل

ألم يعلم أبناء العرب خصوصاً والمسلمون عموماً أن بلاد العراق وبلاد اليمن كانت لهما مدنية عظيمة؟ وكان في الأولى مدنية الآشوريين والبابليين ذوي العلم والحكمة والملك العظيم أيام الجاهلية. وكان في أيام الإسلام لهم ملك دولة العباسيين، تلك الدولة التي ملكت أعظم الممالك، فكان له ملك في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهي التي دوخت أمماً وأزالت عروشاً. وكان للثانية وهي اليمن في الجاهلية عرش عظيم وذكرت لها سورة في القرآن سميت باسم «سبأ» فيها سد العرم وفيها بلدة طيبة ولها رب غفور. فهاتان الأمتان العراقية واليمنية هذه سيرتهما وممالكهما، فهل يفعل الله بهما ذلك في الإسلام ويقلب لهما ظهر المجن إلا لما اتصف به رجال الأمتين هم وأكثر المسلمين من الجهل والأعراض عن آيات الله، وشوهت محاسن دورهم وقصورهم، وقتلت رجالهم بالطيارات، كما شوهت أجسام الفساق بمرض الزهري. اللهم إنك أنت المعلم والملهم الحكيم العليم. لك الحمد على نعمة العلم. شوهت محاسن الفساق بمرض الزهري ومحاسن هذه الأمم الإسلامية بالمقذوفات من الطيارات لأن القبيلين غفلا عن نعم الله في أنفسهما فعوقبا، ولكن لله رحمة عامة على الأمم وعلى الأفراد. اللهم إنك رحيم وإنك حكيم. أنت القائل في كتابك: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد: ١٦]. إن فسوق الأفراد بالشهوات البهيمية عقابه الزهري، وفسوق الأمم بالغباوة عقابه المدافع والطيارات.

وأنت قلت في الكتاب بعد تلك الآيات : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ ﴾[الحديد : ١٧] مريداً بذلك فتح الباب للمغفرة والرحمة الشاملة للأمم والأفراد . أما رحمتك يا الله للفساق من الأفراد فهي ظاهرة واضحة اليوم ، فإن طبيباً أوروبياً كان له تلميذ ياباني في زماننا قد عملا تجارب بلغت ٦٠٦ وهذه التجارب جعلوها العقاقير وأدوية ركّبوها وأخذوا يجربونها واحداً بعد الآخر لشفاء مرض الزهري ، فلم يتهيأ لهما ذلك إلا بعد ٦٠٦ تجربة . فأطلقوا على الدواء ذلك الاسم وشفي به قوم ولم يشف آخرون . فهل هناك دواء للأمم الإسلامية التي حادت عن جادة الصراط المستقيم كدواء ٦٠٦ ؟ الحمد لله نعم ، ولعل هذا التفسير وأمثاله الذي هو مزيج مركب من علوم قديمة شرقية ومن علوم أوروبية عصرية مع الآيات القرآنية هو وأمثاله دواء الأمم الإسلامية في هذه الأيام . فكما ركب دواء ٦٠٦ للزهري بمعرفة طبيب شرقي وطبيب غربي هكذا هنا صار الدواء مركباً من علوم شرقية وعلوم غربية ، وزاد دواؤنا الآيات القرآنية ، والله يقول : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ ﴾ [فصلت : ٤٤] ويقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس : ٥٨] .

التذكرة الثانية

لما اطلع على هذا بعض الأصدقاء من العلماء . قال : ألا جل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون : ٧٨] . تكون هذه الإنذارات للمسلمين بالزهري والطيارات؟ . قلت : نعم ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأحقاف : ٢٦] . فقال : وهل المسلمون جحدوا بآيات الله؟ . قلت : الإعراض عن النعم فيه معنى الجحود ومعنى الاستهزاء عملاً . نعم لا مسلم في الأرض يجحد هذه النعم ، ولكنه من جهة أخرى أشبه بمن كفر النعمة ، ومن كفر النعمة لم يقبلها ، ومن لم يقبل النعمة لا يعقلها ، ومن لا يعقلها لا يشكرها ، وما الشكر إلا صرفها فيما خلقت له ، فإذا لم تصرف فيما خلقت له من العلوم والصناعات سببت الذل ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأحقاف : ٢٦] ولست أقصد أن هذا هو معنى الآية نصاً بل أقصد أنه يراد به الاعتبار وكأنه كناية ، والكناية لفظ لا يمنع المعنى الأصلي ويقصد منه المعنى العارض . فقال : هذا حسن .

الجوهرة الرابعة

في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾[الأعراف : ٨] المناسب لما هنا

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[المؤمنون : ١٠٢-١٠٣]

مع قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء : ٤٧]

لما كتبت هذا العنوان حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : ماذا تريد أن تكتب هنا بعدما كتبت في سور كثيرة عجائب العدد والوزن والنظام الخ ، وهل هذا إلا تكرار؟ .

فقلت له: لا تعجل ولا تحملني أن أقول لك: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[الكهف: ٦٧-٦٨]. قال: يا عجباً، أنا لم أسمع منك هذا الاقتباس إلا الآن فعسى أن يكون هنا كنز عثرت عليه حتى اقتبست الآية من قصة موسى والخضر عليهما السلام. قلت: نعم هنا كنز الكنوز وسر الأسرار وعلم الحكماء قد خبأه الله في هذا الزمان ليبرزه للأجيال المقبلة في هذه الآيات. علم نفيس شريف لم يظهره الله إلا للأمم الخالية تشريفاً للأمم الإسلامية. ومتى اطلع عليه أبناؤنا طاروا فرحاً وشوقاً إلى العلوم، واستيقظوا من رقدتهم وقاموا من نومتهم، وسيكون لقراء هذا التفسير نهضة لم ينلها قبلهم أحد من العالمين. فقال:

أسرع برد جواب ما أنا باحث ... عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨]، فلم ذكر الله لفظ الحق هنا؟ قال: هذه عادة القرآن والله يسمى الحق وأعماله كلها حق. فهذه ليست تحتاج إلى علم ولا حكمة. فقلت: هذه الإجابة منك تدلني أنك تنظر لهذا القرآن ولهذه الدنيا نظرة بغير عناية. إن لفظ الحق هنا لها معنى لا يتم إلا بعلوم كثيرة سأظهرها لك الآن.

علم الله قبل أن ينزل القرآن أن بعض الناس لا يهتم، فلفظة مثل هذه يجعلها أمراً عادياً، فأشار إلى دفع هذا بقوله بعد آيات: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾[المؤمنون: ١١٥]، فعادة الناس أن يظنوا أن مثل هذه الكلمة جاءت عفواً لا معنى يخصها، وهذا لعدم التدبر والفطنة، كما لا يتدبر أكثر الناس في أعضائهم وحواسهم وتركيبها العجيب. فقال: إنها لفظة مفهومة بذاتها لا تحتاج إلى شرح. قلت: لا وأزيدك على ذلك أن قوله تعالى بعد آيات: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾[المؤمنون: ١١٦] يعطي هذه الكلمة صبغة خاصة. ألا ترى رعاك الله أنه كما أن الملك قسمان: قسم هو حق لا يموت ولا يفوته شيء ولا ينازعه أحد ولا ولد له يرثه ولا أخ ولا شريك ولا ضعف يعتريه، وقسم هو باطل لأنه يمرض ويموت ويشاركه سواه ويغلبه الغالبون ويعزلونه الخ، فهذه المعاني وأمثالها تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾[المؤمنون: ١١٦]، وإنّما تعالى لأن الملك الباطل وهم ملوك الأرض قاطبة لا يتعالون بل هم الحضيض.

قال: هذا حسن ثم ماذا؟ قلت: إذا صح هذا في قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾[المؤمنون: ١١٦]، فإنه يصح نظيره في قوله: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨]. فقال: إن هذه الجملة حاصرة، فكأن الدنيا لا وزن فيها بحق، وليس هناك حق في الوزن إلا يوم القيامة وهذا غير معقول، فإن في الدنيا من الوزن ما هو حق ومنه ما هو باطل، فقياسك الحق الأول على الحق الثاني قياس مع الفارق. فقلت: كلا. إن وزن الدنيا كله ليس محققاً ولا وزن مع التحقيق إلا عند الله تعالى، وهذا الحكم مستحيل أن يعرفه الناس إلا بعلم الفلك والطبيعة.

فقال: أريد أولاً أن أعرف الوزن في هذه الحياة الدنيا، ثم بعد ذلك أعرف كيف يكون غير حق بحيث يكون ذلك مبرهناً عليه، فإنني ما سمعت أن موازين الأمم كلها ناقصة غير تامة إلا منك.

فقلت: الجواب عن الأول. اعلم أن أصل الموازين الجاذبية التي جعلها الله من صفات المادة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾[فاطر: ٤١]، فهذا الإمساك هو المسمى جاذبية

فكل حجر أو شجر منجذب إلى الأرض ولولا تلك الجاذبية لأصبحنا جميعاً بعيداً عن هذه الأرض، وبهذه الجاذبية يكون :

(١) الحجر ينزل من أعلى إلى أسفل بقانون، فينزل في باريس في الثانية الأولى (٤,٩) أربعة أمتار وتسعاً من عشر، أي : وتسع ديسات، وفي مصر أقل ضرورة لقربها من خط الاستواء، ولا يجوز التطويل في هذا لأنه مشروح شرحاً تاماً في أول سورة «آل عمران»، فارجع إليه هناك.

(٢) إذا كان جسمان خفيفان يقتربان من بعضهما على وجه الماء كالفلين مثلاً فإن المسافة إذا كانت بينهما متراً مثلاً كانت السرعة بينهما أكثر منها، والمسافة بينهما متران بمقدار أربعة أمتار، أي : على حسب عكس المربع، إذ مربع المتر الواحد متر واحد، وإذا كان بينهما متران كانت السرعة بعكس المربع فأعطي تربيع الثاني للأول وتربيع الأول للثاني وقس عليه ما إذا كان بينهما ثلاثة أمتار وهكذا.

(٣) البندول وهو عبارة عن خيط أو حبل أو معدن طويل في آخره قطعة من الرصاص أو غيره تعلق في مكان بشروط مخصوصة ويترك ويذهب ويجيء من نفسه متذبذباً مضطرباً فإن هذا له حركات منظمة في أوقات معينة.

(أ) فإذا نظرنا إلى بندولين يتحركان في مكان واحد نجد زمان حركاتهما واحد إذا كانا متساويين فإن اختلفا كانت ذبذبتهما على حسب جذر طولهما، فإذا كان أحدهما طوله ٤ والآخر ٩ تذبذب الأول في ٢ والثاني في ٣، والمعنى أن الحركات المتساوية عداً كخمسة مثلاً تقع من الأول في (٢ من ٣) من الثاني.

(ب) وإذا أخذنا بندولاً واحداً في أماكن مختلفة كانت سرعته على حسب عكس الجذر التربيعي لشدة الثقل، إذ معلوم أن الثقل يكون أكثر كلما قربنا من القطبين وأقل كلما قربنا من خط الاستواء، فإذا كان البندول في النوبة قوة ثقله ١ وفي بلاد الروسيا قوته في الثقل ٤ تحرك في الأولى حركات مضروبة في ٢ الذي هو الجذر التربيعي لأربعة، وتحرك في الثانية تلك الحركات بعينها مضروبة في ١ الذي هو الجذر التربيعي لواحد. والنتيجة أن البندول الواحد في الأماكن المختلفة تكون سرعته على حسب عكس الجذر التربيعي لشدة الثقل. وبعبارة أخرى : يكون في الجهات القطبية وما والاها لشدة ثقله مناسباً للجذر التربيعي في الجهات الاستوائية وهكذا بالعكس.

(٤) ثم انظر إلى الموازين التي يزن بها نوع الإنسان أمتعته، فإنها تابعة للميزان العمومي وهذا وضح في كتابي «ميزان الجواهر» وكتابي «نظام العالم والأمم»، وملخص ذلك أن لكل ميزان من موازين القبان جهتين : جهة صغرى تسمى ذراع القوة، وجهة كبرى تسمى ذراع المقاومة، وعلاقة في الوسط فيها لسان دال على الاعتدال وعلى ضده. وإذا تساوى ذراع القوة وذراع المقاومة كان الرطل الموزون يعادل رطلاً نظيره من حديد مثلاً موضوع في الكفة الثانية وهذا متداول بين صغار الباعة. فأما إذا طالت إحدى الجهتين وقصرت الأخرى كميزان القبان المذكور فإن القوة التي هي عبارة عن الشيء الموزون كالقطن مثلاً، والمقاومة التي هي عبارة عما يعادله من المعدن لهما قانون خاص. ذلك أن المقاومة دائماً عكس ذراعها، فإذا كان ذراعها قدر ذراع القوة عشر مرات كانت هي أقل من القوة عشر مرات، وإن كان ذراعها أكبر مائة مرة كانت أقل من القوة مائة مرة. فإذا كانت هي عشرة أرطال

كانت القوة ألف رطل وهكذا . فانظر كيف أمكن الإنسان وزن أشياء كثيرة بمعادل قليل مع ناموس حق لا يتغير .

فهذه المسائل نظر فيها إلى اعتبار طول الروافع ومربع المسافة في الحجر النازل وعكس المربع في الجسمين المتجاذبين والجذر في البنادل المختلفة في المكان الواحد وعكس الجذر في البندول الواحد في الأماكن المختلفة هكذا : (١) الطول . (٢) المربع . (٣) عكس المربع . (٤) الجذر . (٥) عكس الجذر . هذا هو الجمال في أرضنا هذا هو الميزان في دنيانا التي نعيش فيها .

جهل أكثر الناس

الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يفكرون ، أما الجهلة فلا يعقلون من هذا شيئاً ، وأما الذين درسوا هذه العلوم فإن أكثرهم يمرون على هذا وهم لا يذكرون ، وإنّما ينظرون إليها نظر الزارع لزرعه والموظف لمرتبه الذي يتقاضاه من صاحب العمل ، وهناك مستبصرون في النوع الإنساني وهم في الأرض قليل ، خلقهم الله وبثهم مع قلتهم في الأقطار ليبينوا للناس هذا المجال ، وليقولوا لهم : أيها الناس إذا كان البندول في الساعة يعرفكم زمانها والقبان يعرفكم مقدار المبيع لتبادل المنافع فما ذلك إلا متاع لأجسامكم . أما عقولكم فغذاؤها هو هذا الجمال . والتأمل في وضع هذا الوجود وكيف ظهر الجمال فيه والميزان والعدل وتبدى لعقولكم جمال الوضع والإتقان فاعتبرت جميع الأوضاع من طول ومربع وعكسه وجذر وعكسه دلالة على حكمة بالغة وآية باهرة ظاهرة ، وأن هذا العقل الإنساني الذي أدرك هذا أجمل وأجمل وأبدع وأبدع ، لأن فرح بهذه المعاني المخبوءة في المادة حين اقتنصها منها .

فهذا الاقتناص دلالة على أن القنيصة غذاء المقتنص ، وأن هذا الجوهر العقلي الذي هو سر الإنسانية مناسب لتلك الأسرار في الطبيعة . هذه الموازين والأسرار المخبوءة في الطبيعة إنّما هي مما يليق للعقل لأنها لطيفة وهو لطيف فتجاذب اللطيفان وتعانق الجميلان . إن العقل المخبوء في الإنسان هو الذي غاص على هذه الجواهر في المادة ليتحلى بها . فخلاصة الإنسان وهو العقل غذاؤه خلاصة الطبيعة وسرها وهي القوانين ؛ كما أن جرم المادة غذاء لجرم الإنسان فالمادة للمادة والمعنى للمعنى .

إن اختفاء معاني المادة واحتجابها وجمالها وعدم ظهورها إلا للعقل وحده تارة ولغريزة بعض الحيوانات تارة أخرى دليل أن هناك عالمين : عالماً لطيفاً روحياً ، وعالماً كثيفاً مادياً ، وأن العالم الكثيف المادي أشبه باللوح الذي يقرأ فيه العالم اللطيف المادي علومه . إن الدنيا كلها لوح لنفس كلية مشرقة على هذا العالم ، تلك النفس تنوعت في الأحياء كما تنوعت المادة إلى صور وأشكال ، تنوعت المادة وتنوعت العقول والغرائز وربك على كل شيء حفيظ .

(٥) المسألة الخامسة : وهي ارتفاع الجو : يرتفع الجو عن سطح الأرض ٤٨٠٠٠ متر ، وحرارة الطبقات الجوية تنقص درجة في كل ١٥٠ متراً أو ٢٠٠ متراً من الارتفاع لغاية ٧٠٠٠ متر تقريباً ، ويظن أن التناقص بعد هذا الارتفاع أقل من ذلك ، وأن الطبقات الأخيرة ذات حرارة لا تنخفض عن ستين درجة . وثقل الجو يزن عموداً من الزئبق ارتفاعه ٧٦ سنتيمتراً أو عمود من الماء ارتفاعه ١٠,٣٣٤ متراً ، فالضغط الكلي على سطح الأرض يعادل ثقل عمود من الماء قاعدته سطح الأرض وارتفاعه ١٠,٣٣٤ متراً ، وهذا يعادل ثقل ٥٨٥٠٠٠ مكعب من النحاس ، كل مكعب ضلعه كيلو متر واحد .

فهذا من الموازين التي وضعها الله في الأرض ليزن بها هذا الوجود، وإنّما قلنا إنه من الموازين لأن الشمس إذا أرسلت أشعتها إلى أرضنا وهي تحت الأفق صباحاً ومساء أو فوقه نهاراً فإن هذا الضوء إنّما يتفرق عليها بنسبة محفوظة بواسطة الهواء في جميع الجهات، وهذا يسمى الضوء المنتشر أو المتفرق. فلو فرضنا أنه لم يكن هناك هواء فوق أرضنا فإنه لا يتم شيء في هذا الوجود، فلا نبات ولا حيوان ولا ماء، لأن الماء لا يكون إلا بجري الرياح وهذه تحمل السحاب وهنا لا هواء فلا سحاب، وأيضاً لا يستضيء من الأرض إلا الجزء المقابل للشمس وحده وما عداه لا يصل له الضوء، وكيف يصل له وهو إنّما يأتي به بواسطة الهواء الذي ينشر الأشعة المنعكسة من المادة الأرضية، وهنا لا هواء فلا انتشار لتلك الأشعة المنعكسة. ثم إننا الآن نرى لون السماء الزرقة، وهذه الزرقة لون الهواء نفسه لأن سمكه العظيم الذي يبلغ عشرات آلاف الأمتار هذا شأنه كلون ماء البحر العميق. فهذا اللون إذا لم يكن هواء لا يكون، وإنّما ترى السماء حالكة السواد. ويرى جميع الناس الكواكب السيارة والثابتة وقت الظهر وينتقل الناس من النهار إلى الليل دفعة واحدة ومن الليل إلى النهار دفعة واحدة. فانظر إلى ميزان الهواء الذي قدر بمقدار يحمل السحب ويأتي بلون الزرقة وينشر النور، وله درجات من الحرارة متدرجة من أسفل إلى أعلى.

(٦) المسألة السادسة: هذا الهواء نفسه هو الذي فيه يطير الطير، وقد طار فيه الإنسان في أيامنا هذه. وقد تقدم في سورة «المائدة» عند قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٣١] الخ، كيف كان طيران الإنسان في الجو على ضربين: ضرب على هيئة سير السفن والسمك في البحر، وضرب على هيئة طيران الطير في السماء، فاقرأه هناك ولا نعيده. وإنّما هنا نأتي بفائدتين: الفائدة الأولى: أن الناس إذا طاروا في الجو فإنهم إلى الآن لم يصلوا إلى أكثر من عشرة آلاف متر بالطيارات ولا إلى أكثر من ١٥ ألف متر بالمنطاد. وقد علمت في سورة «المائدة» أن المنطاد يرتفع بخفة حجمه. فأما الطيارة المسماة باللغة الفرنجية «ايروبلن» فإنها إنّما ترتفع بقوة تحريكها مع ثقل جسمها كثقل جسم الطائر بالنسبة للهواء. الفائدة الثانية: إن الطيارة إنّما تجري بقوة تحريك أو أكثر في مقدمها، وهذه الآلة تتحرك بقوة ناتجة من المادة المسماة «البنزين» التي يستخرجونها من الفحم الحجري، وهذه الحركة تطرد الهواء أمامها فيخلو لها الجو من الهواء فتندفع وتأخذ في العلو أيضاً، لأن اللوحين الأماميين اللذين في الطيارة مرتفعان إلى أعلى ارتفاعاً منظماً فيضربهما الهواء إلى أعلى فيحصل أمران: اندفاع إلى الأمام بخلو الهواء. وارتفاع إلى أعلى بدفع الهواء إلى أعلى لمقدم الطيارة.

(٧) المسألة السابعة: بيان المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الآية: ٨] في سورة «الأعراف» المناسب لما هنا. اعلم أن هذه الموازين المتقدمة التي وضعها الله في الأرض سواء أكانت موازين طبيعية أو صناعية ليست في إتقانها كموازين الله يوم القيامة، فإن عالمنا الذي نعيش فيه أقل نظاماً من العالم الأعلى حينما تخرج من الأرض إلى عالم أجمل من هذا وألطف منه. والبرهان على ذلك أن سرعة دوران الأرض في الثانية الواحدة ٤٦٥ متراً في خط الاستواء و٤١٩ متراً في عرض مصر و٣٠٥ متراً في باريس، ولا تزال قوة السرعة تقل إلى القطبين. ثم إنه كلما كانت السرعة أشد كان الجسم أخفّ، كما نرى أن الجسم فوق الرحى وهي مسرعة الدوران يكون أخف منه لو كانت الرحى

ساكنة السرعة . فإن الأجسام تكون أخف في خط الاستواء منها في القطبين، فأما ما بينهما فإنه يكون بالنسبة لذلك، وعليه استنتج العلماء أن الكيلوجرام ينقص وزنه في خط الاستواء بقدر ٣,٥ ثلاث جرامات ونصف جرام، أي: مقدار جزء من ٢٨٩ جزءاً، ومعلوم أن الكيلوجرام ألف جرام، فإذن كل ألف جرام تنقص نحو ٣,٥ في الوزن في هذه الدنيا. ويقول العلماء: لو أن الأرض كانت أسرع دوراناً مما هي عليه ١٧ مرة فقط لانعدم وزن الأجسام في خط الاستواء، بحيث يصير الجسم هناك لا وزن له لشدة الحركة، ويكون أقل من وزنه كثيراً جداً في غير خط الاستواء.

هذا هو تفسير الآية التي نحن بصددها. يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨] ويقول: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[طه: ١١٤]، أما كونه ملكاً حقاً فهو ظاهر، لأن ملوك الأرض تحت تصرفه هو، فهذا ظاهر، أي: أن ملكهم باطل زائل. أما كون وزن يوم القيامة حقاً ووزن هذه الدنيا غير حق فهو غير معلوم، وإنّما يعلم بطريق العلوم التي ظهرت في الدنيا والمسلمون عنها نائمون.

لقد استبان هنا أن جميع الأجسام التي تزنها في هذه الأرض ليس وزنها جارياً على الحقيقة تماماً لأن أرضنا تجري جرياً سريعاً، وإذا كان كذلك فسرعتها تنقص وزن الأجسام التي عليها، فالجسم الذي ينقص في خط الاستواء جزء من ٢٨٩ ينقص في مصر وفي غيرها جزءاً أقل من ذلك، فتكون الأوزان غير حقة عندنا، لأن عالمنا عالم ثقيل ليس نورياً بل هو مظلم، فلذلك كانت موازينه غير حقة ولا صادقة، هذا هو تفسير القرآن. القرآن أظهر لنا أن الوزن يوم القيامة حق، أما وزن الدنيا فإنه ناقص ولو جزءاً قليلاً جداً، وهذا ظهر لنا من العلوم المنتشرة في ربوع الشرق والغرب الآن، ومن قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾[طه: ١١٤]، وفهم معنى الحق في المقامين، ومن قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾[المؤمنون: ١١٥] الخ، الذي يشير إلى أن أي كلمة في الكتاب ليست عبثاً بل لها مقصود خاص، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨]، أي: أما في الدنيا فإن الوزن عندكم فيه تقريب لا تحقيق. فيا ليت شعري كيف يعرف المسلمون معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨]، إلا بمثل ما بيناه؟ وكيف وافق نظام هذا الكون سر القرآن؟ وكيف أصبح العلم الحديث والقديم سرين من أسرار القرآن؟ فيا أسفاً على أمة مات علماؤها وضاع مجدها وطاح قوادها وذهبت كأمس الدابر، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[الرعد: ١١]. اللهم إن المسلمين غيروا ما بأنفسهم من حب العلم والمعرفة فأصبحوا طحين الرحى أذلاء ضعفاء جهلاء. وعسى الله أن ينقذهم برجال يقرؤون أمثال هذا التفسير ويكونون قادة للأمم الإسلامية، والحمد لله رب العالمين.

(٨) المسألة الثامنة: قال ذلك الصالح لما سمع هذا: إذن جميع الموازين على الأرض غير موصلة لحقيقة الموزون بسبب حركة الأرض الدورية، وهذا أمر لا يعرفه إلا الدارسون لهذه العلوم، فهل تذكر لي مثالاً آخر أعرف به أن موازين هذه الأرض لا توصل إلى الحقيقة حتى يتبين لي معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨] التي نحن بصدد الكلام عليها. فقلت: مسألة «أرشميدس». قال: وما هي؟ قلت: إن «أرشميدس» الفيلسوف كان ملك زمانه قد أعطى للصائغ ذهباً يصنعه له تاجاً، فلما وقع في يد الملك شك في أمره وقال: لا بد أن يكون هذا الذهب قد خلط بفضة، وأحضر

« أرشميدس » وقال له : أريد أن تبحث لي في ذلك ، ففكر أياماً وبينما هو يستحم إذ أحس بأن جسمه في الماء أخف منه وهو فوق الماء ، فأدرك حالاً أن جميع الأجسام تخف في الماء ، فأسرع بالخروج من الحمام من غير أن يستتر بلباس وقال : عرفتها عرفتها ، ثم صنع تاجاً بوزن هذا التاج من الذهب وتاجاً آخر بوزنه من الفضة ، فوضع تاج الذهب في إناء فيه ماء فارتفع الماء في الإناء فجعل هناك علامة ، ثم وضع تاج الفضة في الماء فارتفع الماء طبعاً فوق علامة ارتفاعه للذهب ، لأن الذهب أثقل والفضة أخف فتأخذ حجماً أكبر مما يأخذ الذهب ، ثم أتى بالتاج المطلوب معرفته فارتفع الماء إلى علامة بين العلامتين فعرف يقيناً أن هذا التاج مخلوط فيه ذهبه بالفضة ، ولولا ذلك لم يرتفع الماء في الإناء عن ارتفاعه في تاج الذهب ، فسر ملكه بذلك وظهر أن ظن الملك كان صادقاً وأن الصائغ غاش . وهذه القاعدة هي أس لسير السفن في البحر والسمك في الماء والمنطاد في الهواء .

إن السفينة في البحر لا تطفو على الماء إلا إذا كانت أخف من الماء الذي أزاحته ، وهكذا السمك لا يطفو إلا إذا نفخ المنفاخ الهوائي الذي في جسمه فكبر حجمه فصار أخف من الماء الذي يزيحه ، وهكذا المنطاد في الجو يسرع في الارتفاع بمقدار خفته ، فتبين من ذلك أن الجسم في الماء أخف منه وهو في الهواء ثم الجسم الذي في الهواء فوق سطح الأرض أقل من حقيقته بجزء قليل كما تقدم . هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف : ٨] ، وقوله : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء : ٤٧] . فقوله : ﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ قيد لدقة الوزن ، أما في الدنيا فإن الوزن لا يكون تماماً أو لا يأتي بمثقال حبة من خردل ، لأنك علمت أن كل ألف جرام في خط الاستواء تنقص ثلاثة ونصفاً ، وهذه فيها حبات خردل لا حبة واحدة بل فيها عشرات بل فيها مئات الحبات . هذا هو سر القرآن ظهر في هذا الزمان .

قال : فهل هناك موازين من هذا الباب عامة ؟ فقلت : نعم الهواء جعله الله أخف من الماء ٨٠٠ مرة ، والبخار أخف من الماء ١٧٢٨ مرة ، ولذلك الميزان ترى الهواء فوق الماء وترى البخار يعلو سحاباً ويرتفع في طبقات الجو .

(٩) المسألة التاسعة : قال صاحبي : هذا حسن جداً وبيان عجيب ونور مبين لم يظهر إلا في هذا الزمان ، فهل هذا الوزن المذكور في القرآن جاء في ديانات الأمم السابقة ؟ فقلت : نعم ولدينا دليل مشاهد ظاهر واضح لم يظهر إلا في هذا الزمان . فقال : وما هو ؟ قلت : قد عرف الناس أن دين قدماء المصريين مأخوذ عن النبي إدريس عليه السلام المسمى « هرمس » ويسمى « اخنوخ » كما يسمى بهذين الاسمين أيضاً كوكب الشعرى الذي بني الهرم لاجتلاء نوره ، ويسمى أيضاً « توت » . فهؤلاء قد صوروا لأممهم ميزان الله يوم القيامة بصورة تمثل لهم العدل يوم القيامة . وقد تقدم الكلام على دين قدماء المصريين في سورة « يونس » عند قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[الآية : ٩٢] ، وأن تلك الجثث إنما بقيت بمصر ليبين الله للناس ما كان عليه القوم من علم ومن جهل وضلال وهدى . وأزيد الآن عليه ما نقله أستاذنا أحمد أفندي نجيب مفتش وأمين دار عموم الآثار المصرية ، إذ نقل في كتابه « الأثر الجليل » في صفحة ٩٣ وما بعدها عن « هيرودوت » أن أهل « طيبة » كانوا يعبدون الله وحده ، ويقولون : هو الأول والآخر الحي الأبدي السرمدي .

ونقل عن « جامبليك » أنه سمع من كهنة المصريين أنفسهم أنهم يعبدون الله وحده، ويقولون: إنه فاطر السماوات والأرض ورب كل شيء، وهو المالك لكل شيء، الخالق لكل شيء الذي لم يخلق ولم يتجزأ ولا تراه العيون، يعلم ما تكنه الضمائر وما تخفيه الصدور، وهو الفاعل المختار لكل شيء وفي كل شيء، إلى أن قال: وأما ما نراه من كثرة المعبودات فجميعها رمز إلى صفاته تعالى، وهذا هو اعتقاد كهنة المصريين المدون في كتبهم المقدسة. اهـ.

ثم نقل أستاذنا المذكور عن المؤرخ « شمبليون فيجاك » ما يفيد أن المصريين كانوا أمة واحدة يعبدون الله تعالى، ولكن لما أظهروا صفاته العالية مشخصة للعيان وقد غرقوا في التوحيد تشبعت طرقهم.

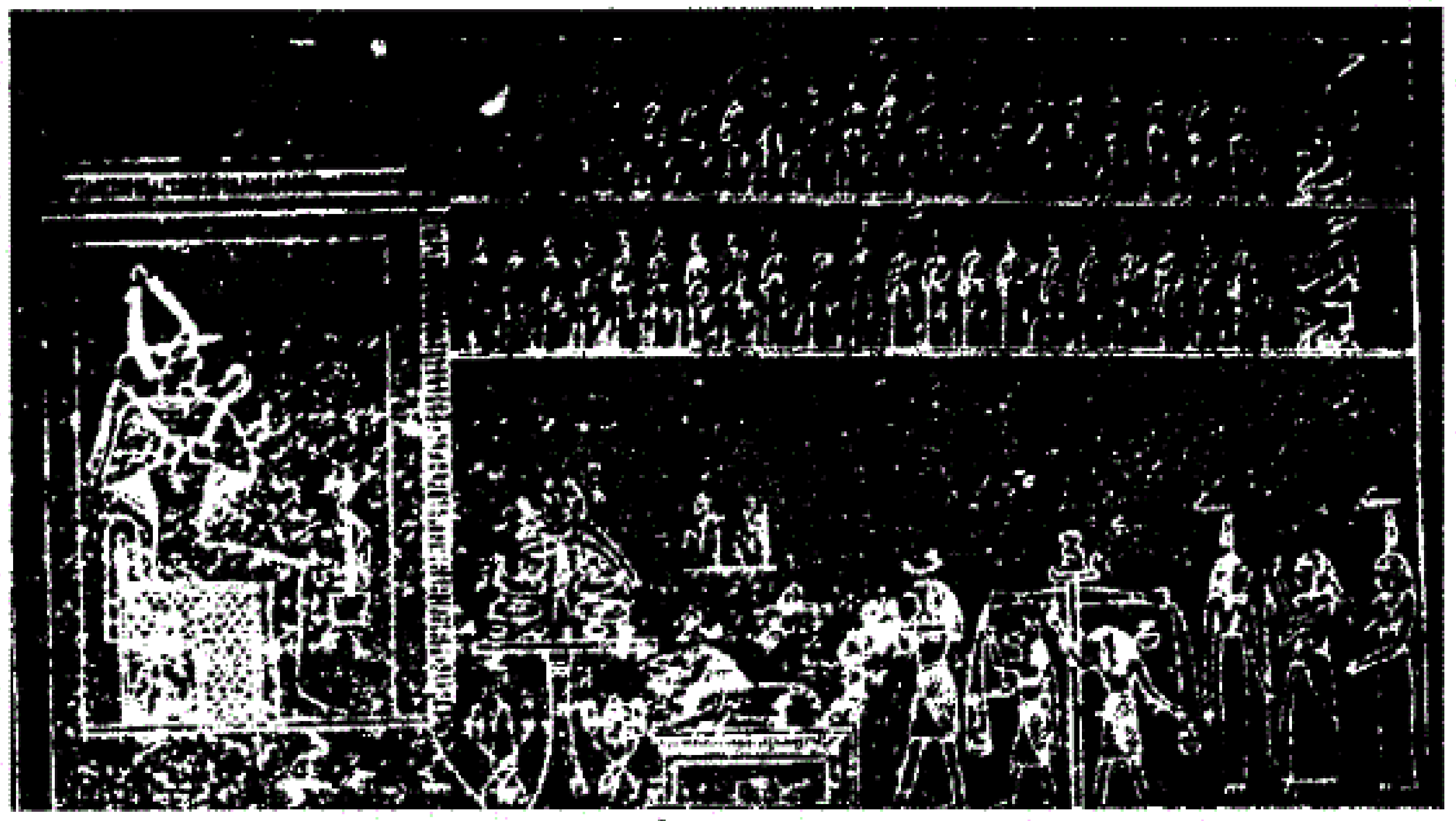
ونقل في صفحة ٩٤ نقلاً عن « مسبرو » ما ملخصه: أن الأمة المصرية مخلصة لله في العبادة فكانوا يرون أن الله في كل مكان، فهامت قلوبهم في حبه وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله، ثم عددوا صفاته وجعلوها صوراً محسوسة وصوروا لها كل شيء نافع، فاشتهرت تلك الصور حتى ملأت المدن، فنشأ عن ذلك جملة معبودات متباينة في الشكل والهيئة، دخلت فيها الحيوانات والطيور والسمك والحشرات، ولكل واحد وظيفة خاصة مثل « أمون » الله ومثل « فتاح » الذي أتقن كل شيء ومثل « أوزيريس » الله الرحيم فاعل الخير.

ونقل عن بعض المؤرخين صفحة ٩٥ ما نصه: كان مكتوباً في أحد الأسفار المصرية المنسوبة إلى « هرمس » إدريس عليه السلام ما صورته: يا مصر يا مصر يأتي عليك يوم يتغير فيه دينك القويم ومنهجك القديم، فتظهر الخرافات وتعم الضلالات وتنحصر أخبارك في أحجارك. لكن نقل بعد ذلك عن « ماريت باشا » أنه قال: لم نجد إلى الآن على الآثار أدنى شاهد على ذلك التوحيد بل هم عبدوا كل شيء إلا الرب جل جلاله. ثم قال: وهذا هو الذي عرف عن نفس الأمة، أما التوحيد فهو خاص بعلماء الدين وهم الكهنة.

هذا ملخص ما نقله، فهؤلاء صوروا العدل بصورة مجسمة فيها ٤٢ قاضياً لهم رئيس هو « اوزيريس » رئيس القضاة، والروح تحاسب بين يدي القضاة وعلى رؤوسهم ريشة العدل، وهناك ملك العذاب و« توت » كاتب الأعمال يسجل ما ظهر له، والميزان له كفتان، ففي اليمنى قلب الميت، وفي اليسرى معيار الحق، وهناك ملك يسمى « هوروس » ينظر كم بلغت الحسنات والسيئات، وآخر يراقب كفة معيار الحق، وآخر في يده قضيب الملك وأمامه روح الميت مصورة تتبرأ من كل ذنب.

وهذا كله ينطق بقوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وإنما نقلت لك هذا لتعجب من دين الإسلام كيف كان هو الدين الذي كأنه صورة لجميع الديانات، وكيف كان الوزن فيه وارداً ومرسوماً في ديانة قدماء المصريين بنفسه، فهو في القرآن جاء بالقول، وفي ذلك الدين جاء بالرسم والتصوير، وهذا صورته. (انظر شكل ٢٢ في الصفحة التالية).



(شكل ٢٢ ـ صورة محكمة أوزوريس الجهنمية)

أ ـ « أوزيريس » رئيس القضاة جالس على منصة الحكم.

ب بَ ـ الاثنان والأربعون قاضياً من الملائكة المكلفين بحساب الروح وعلى رؤوسهم ريشة العدل.

ج جَ ـ الروح تحاسب بين يدي القضاة.

د ـ مائدة عليها بعض أرواح الموتى وقليل من القرابين.

هـ ـ ملك العذاب.

و ـ « توت » كاتب الأعمال يسجل ما ظهر له.

ز ـ علامة العدل ثم الميزان في كتفه اليمنى قلب الميت وفي اليسرى معيار الحق كما تقدم.

ح ـ الملك « هوروس » ينظر كم بلغت الحسنات والسيئات.

ط ـ « أنونيس » يراقب كفة معيار الحق.

ي يَ ـ ملك العدل له صورتان بيد إحداهما قضيب الملك وبوسطهما روح الميت تتبرأ من كل ذنب. انتهى.

الجوهرة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤) ﴾

اللهم إنك قد حكمت بحبس أرواحنا في هذه الأجسام المظلمة وحجبتها عن الاطلاع على سر التكوين وأسرار الوجود، ولكنك لم تفعل ذلك بخلاً، كلا والله ولا حبساً للعطاء، ولكنك سبحانك لا تعطي إلا على مقدار قوة المعطى وذلك بالوزن، ولقد شاهدنا الوزن في هذه الدنيا. شاهدناه يا الله حتى أصبحنا به موقنين إيقاناً تاماً، وقرأنا كتب علماء الأرواح الذين نوّموا أنفسهم وقالوا: إنا شاهدنا بعض عالم الأرواح فرأينا النظام هناك كالنظام هنا، من حيث إن كل روح قد وضعت في المركز اللائق به في أعلى عليين أو في أسفل سافلين، فالعوالم هناك على وزان العوالم هناك، وأصحاب النار هناك قد استحقوها بما غلب على عقولهم في الدنيا.

ولما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد الأصدقاء الفضلاء . قال لي : كيف تقول إنك شاهدت الوزن في الدنيا ، وكيف تستدل بقول علماء الأرواح ؟ فأما في الأولى فلا يخلو إما أن تكون من أهل الكشف أو من أهل العلم ، فإن كنت من أهل الكشف فإنك لا تفيدنا علماً ، لأن كشفك خاص بك لا يتعداك كما لم يتعد كشف أولياء المسلمين ، ولا كشف نساك الهنود أشخاصهم إلى أممهم ، بدليل ضعف الأمتين معاً .

وإن كنت من أهل العلم فما أحراك أن تذكر لنا البراهين التي جعلتك موقناً بالوزن حتى ننظر فيها بعقولنا كما نظرت . وأما في الثانية وهي استدلالك بأقوال علماء الأرواح فإن قولهم ليس برهاناً .

فقلت : سأوضح هذا المقام بفصلين :

الفصل الأول : فيما هو مشاهد في الدنيا من الوزن .

الفصل الثاني : في أن كلام علماء الأرواح الذين شاهدوها وقالوا إنهم قد اطلعوا على مراتبها موافق كل الموافقة لما نشاهد في الدنيا سواء بسواء ، مما يفهمنا قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك : ٣] ، ويوافق قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[الحجر : ٤٧] ، أن كلام هؤلاء العلماء موافق للآية كل الموافقة وهذا عجب عجاب . ثم قلت :

الفصل الأول : فيما هو مشاهد في الدنيا من الوزن

اللهم إنك ـ وإن حبستنا في الدنيا وأغرقت أرواحنا في هذه الأجسام المظلمة والعوالم التي أحيطت بسلاسل وأغلال من الشهوات أحكمت وثاقها علينا فلم نستطع التخلص منها ـ قد أنرت لنا السبل وفتحت بصائرنا وكتبت بيدك على قرطاس الطبيعة كتاباً منشوراً رأيناه مسطوراً فيها فقرأناه ، فألفينا فيه أنك خصصت لكل حي من الأحياء عملاً لا يتعداه ، وعلماً لا يتخطاه . ذلك أنك سبحانك لم تدع كوكباً يجري بلا نظام وحكمت عليه أن لا يترك فلكه ومداره ، وأمرته أن يجري بحساب لا يخطئ فيه ثانية واحدة .

هذا رأيناه مطرداً في الكوكب السيارة والثابتة لا تشذ قاعدته ولا يخطئ قانونه ، ومن عجب أنك لم تقتصر في تلك القوانين على الأجرام العظيمة ، بل رأينا السنن جارية في أصغر الحشرات وأدنى المخلوقات بحيث لا تخالف ما رسم لها ولا يشابه واحد منها الآخر في سننه كما لم يشابه كوكب كوكباً آخر في نظامه وقوانينه المحكمة . ولقد وجدنا الإنسان جرى على هذه السنن عينها فألفينا كل واحد من الناس سار على منهج يخالف سواه مخالفة ما ، فإنا نفرق بين لون زيد وعقله ومذهبه في الحياة كما نفرق بين الكوكب والكوكب والحشرة والحشرة ، فلكل عمل خاص يشارك غيره في بعض الصفات ويخالفه في بعضها .

فهذا هو الميزان المنصوب في الأرض ، ومن ذلك ما سأذكره من اثني عشر مثالاً الآن في عوالم الحيوان ، أذكرها هنا لأقيس عليها عوالم الإنسان في الدنيا والآخرة حتى يلتئم عالمنا ، فيكون آخره كأوله وغائبه كشاهده وآخرته كأولاه ليكون ذلك دليلاً لنا على ما سنلقاه بعد الموت ، ويوقن كل منا بمستقبله هناك متى عرف ما ركز في نفسه وفهم ما توجهت إليه هي في الحياة من المناهج والسيرة والأحوال ، فيعلم علماً ليس بالظن ما حاله وما درجته ، وهل أخلاقه وذنوبه تلازمه هناك كما تلازمه

هنا، أم هناك حال خاصة ينزع فيها من الفاضل رذائله، ومن الشرير فضائله، حتى يتجرد كل لما غلب على عقله، كما نرى في الحيوانات في الدنيا، إذ كل سار فيما رسم له من الصفات. كل هذا سيفصل في الفصل الثاني. أما هذا الفصل فإنّما أذكر فيه الأحد عشر مثالاً.

المثال الأول

إنك يا الله سبحانك خلقت السلحفاة البحرية وقد سبق علمك أنها تكون باردة الدم فلا حرارة فيها كافية لتدفئة البيض، فاقتضت حكمتك أن تبتدع لها ضرباً من التدبير يناسبها، فعلمتها علماً يخصها إذ أمرتها أن تبحث في طبقات الرمل على شاطئ البحر لا ينفذ إليها الماء، وذلك البحث في ظلمات الليالي الحوالك والناس لا يشعرون، ولا تزال تبحث عن تلك الطبقات بعد خروجها من البحر حتى تظفر بها، ومتى ظفرت بها وضعت نحو ١٢٠ بيضة ثم تغطيها بالرمل بغاية العناية وتعود إلى البحر ولا يشعر بها أحد، وكما ألهمت الأم ذلك وعلمتها أن تبحث على المكان المناسب علمت أفراخها إذا خرجن من البيض أن يرجعن إلى البحر ولا مرشد لها ولا معين. فلا أب يعرفنه ولا أم مشفقة، بل هي لو رأتهن لم تعرفهن فتراهن قد خرجن من تحت الرمل وقاسين الشدائد وسرن في الوهاد والرمال والحواجز العظيمة التي تكون بالنسبة لها كأنها الجبال الشامخات حتى ترجع البحر ولا تعود، وتعيش هناك وهي لا تعلم آباءها ولا أمهاتها. إنك أنت المعلم لها والمرشد، وقد وزنت أحوالها وزناً حقاً وجعلت الآخرين في الميزان كالأولين. ومثل السلحفاة البحرية في ذلك جميع الحيوانات الزاحفة، وهكذا التماسيح لأنهن ليس عندهن من الحرارة ما يدفئ البيض فجعلت يا الله حرارة الرمل لهن بدل الحرارة الطبيعية. انتهى المثال الأول.

المثال الثاني

إن بعض التماسيح ـ وإن فعل مثل الزواحف في كيفية التناسل ـ يراقب بيضه في الرمل آناً فآناً، حتى إذا تم تكوين أفراخه أخذ يكسر لأبنائه الصغار البيض إذا سمع أصواتهن من وراء قشور البيض، فهو إذ ذاك يساعدهن كما تفعل القابلات في مساعدة الوالدات وأولادهن، وكما تفعل القابلات من النمل من مساعدة النملات الصغيرات المكبلات في خيوطهن وهن ضعيفات ليخرجن حشرات كاملات. انتهى المثال الثاني.

المثال الثالث والرابع

إن أكثر الثعابين جارية على القاعدة العامة في الحيوانات الزاحفة، ولكن بعضها ابتليت بأعداء يؤذونها ويتربصون بها وبأولادها الدوائر، فأنت يا الله للطفك بها وحكمتك خصصت هذا النوع بأن يرقد على بيضه بضع أسابيع كما يرقد الدجاج سواء بسواء، وذلك هو الميزان لأن هذه الأنواع لما احتاجت إلى دفع أعدائها أعطيت قوة المحافظة على بيضها وإلا فلا.

المثال الخامس

إن جميع الطيور ترقد على بيضها بعكس الثعابين، وقليل منها تترك أفراخها لغيرها، وذلك أن طائراً يسمى «الكمكم» وهو طير كالباشق لا يبني له عشاً، وإنّما يضع بيضه في عش طائر غيره، وذلك الطائر يخالفه كل المخالفة وهو لا يخص نوعاً دون نوع، بل وجدوا أنه قد وضع بيضه في أعشاش

ثمانين نوعاً من الطيور وهذه الطيور التي تودع « الكماكم » عندها بيضها تربيها بكل حنان وشفقة، ومتى كبرت طارت إلى مواطن أنواعها الساكنات في أفريقيا بلا هاد يهديها ولا مرشد يرشدها، وهي تقطع المسافات تلو المسافات والسباسب وراء السباسب، ثم تلد كما ولدت أمهاتها وكل لا يعرف والداً ولا مولوداً. وهذه صورة فرخ من أفراخها. (انظر شكل ٢٣).



(شكل ٢٣)
صورة فرخ صغير من طائر الكمكم يطلب من حاضنته أن تغذيه مع أنها من نوع آخر

المثال السادس

إن الدجاج الأسترالي يصنع كما تقدم في الحيوانات الزاحفة، ولكن هذه لها طريقة خاصة، فإن دجاجتين أو ثلاثاً تصنع حظيرة بأرجلها يبلغ قطرها نحو ١٥ قدماً، ثم تضع كل واحدة منهن بيضها منظماً ويغطين البيض بغطاء منظم محكم، ومن العجب أن درجة الحرارة في تلك الحظيرة أعلى من الحرارة العادية عشر درجات، ومتى قفس البيض خرجت الأفراخ وحفرت لها نفقاً في تلك الحظيرة وخرجت تجري ثم تعيش في مكان يصلح لحياتها.

المثال السابع

وهو ما تقدم في سورة « طه » من أن السمك تنزل ذكوره على بيض أنثاه فيتربى الصغار ولا علم للأبوين بما حل بالذرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠].

المثال الثامن

ما قد تقدم في سورة كثيرة كسورة « البقرة » و« الأنعام » و« الحجر »، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة: ١٦٤] إلى آخره في الأولى، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[الأنعام: ٩٩] في الثانية، وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الحجر: ٢٢] في الثالثة من أن الحشرات زينت لها الأزهار فكانت تلك الزينة سبباً لتهافت الحشرات عليها لتأكل منها رزقها وهو العسل وتكون سبباً في إلقاح النبات إناثه من ذكرانه، وبعض الحشرات تبحث بعد الجهد والعناء على أوراق خاصة صالحة لأن تتربى عليها صغارها فتضع عليها بيضها بحيث تكون تلك الأوراق بعد الفقس صالحة للتغذية منها. (انظر شكل ٢٤).



(شكل ٢٤ ـ رسم بعض أنواع بيض الفراش)

المثال التاسع

الدود المتقدم ذكره في آخر سورة « الحج » ينقلب إلى صور بديعة جميلة من حشرات لامعات مرقشات منقوشات ببدائع الألوان وغريب الأشكال مع أنها كلها دودات حقيرات مخلوقات في أماكن قذرات ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤] .

المثال العاشر

إن جمهوريات النحل والنمل والزنابير المعروفة تسير على النمط المعروف، من حيث إن الأبناء يكونون معروفين عند الآباء. ولكن المدهش العجيب أن الأنواع الوحشية من هذه تضع بيضها في أماكن مختلفة، كل بيضة في مكان خاص، وتضع معها غذاء خاصاً، كما تفعل المرأة إذا حملت من السفاح ورمت ولدها، فإنها قد تضع معه نقوداً ليصرفها عليه من يجده في الطريق.

المثال الحادي عشر: الزنابير الوحشية

إن الإناث منها تفعل ما تقدم هنا من وضع كل بيضة منفردة وحدها وتضع بجانبها الديدان أو الخنافس أو العناكب، ولا تريد إماتتها لئلا تفسد، وإنّما تحقنها في مركز مجموعها العصبي بسائل مخدر لتبقى لا هي حية تسعى فتذهب ولا هي ميتة فتفسد جثتها، حتى إذا خرجت ذريتها من البيض أكلت من تلك الجثث التي أحضرها الوالد للولد، كما قال تعالى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾[البلد: ٣]، أقسم الله بالوالد والولد تذكيراً بهذه العجائب المدهشة والرحمات المتنوعة البديعة. انتهى. وبهذا تم الفصل الأول فيما هو مشاهد في الدنيا من الوزن بمناسبة آية: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾[المؤمنون: ١٠٢].

الفصل الثاني

في أن كلام علماء الأرواح الذين شاهدوا الأرواح وقالوا إنهم قد اطلعوا على مراتبها موافق كل الموافقة لما نشاهد في الدنيا سواء بسواء مما يفهمنا قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، إذن لا تفاوت بين نظامه في الدنيا ونظامه في الآخرة فكلاهما على صراط مستقيم ويفهمنا قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[الحجر: ٤٧] وبيان أن كلام هؤلاء العلماء موافق لهذه الآيات كل الموافقة.

ذلك أنك يا الله سبحانك كما أريتنا ما تقدم في الفصل الأول فعرفناه وتحققناه لا سيما في زماننا هذا الذي أبدعت وأبرزت فيه هذه العلوم للمسلمين، وشرحت قلبي لهذا التفسير وأبرزت فيه من العجائب ما أعرض عنه الكثير إما غروراً وإما جهلاً وإما ضعفاً في بصائرهم وخوراً في عزائمهم، فكبرت تلك العجائب في أعين المسلمين في زماننا فارتقت نفوسهم إليك وعرفوك معرفة أعظم من معرفة المتأخرين من أسلافنا، هكذا أسمعتنا عجباً من كلام أحد علماء الأرواح المذكور سابقاً في هذا التفسير في مواضع كثيرة المسمى « عمانوئيل سودنبرج » الذي يقول: إنه شاهد الأرواح وخاطبها، ولذلك نراه ليس متعصباً للمسيحيين بل ذم أكثرهم، ومدح كثيراً من المسلمين وحكم بدخولهم الجنة، وقد تقدم بعض كلامه في سورة « التوبة » مع تاريخ حياته، فهذا العالم يقول:

(١) إن الإنسان بعد الموت ليس له من السعادة أو الشقاء إلا ما فكر فيه أولاً وعمله ثانياً، والفكر بلا عمل كبذر طرحناه في الرمل فذلك لا ينبت، والفكر مع العمل كالبذر إذا نبت وأزهر وأثمر. ولقد

جعل المدار في الحياة الأخرى على ما غلب على طبع الإنسان واستولى على نفسه وملك قيادها، وصار لها أشبه بغرائز الزنابير المتقدمة والنحل والنمل والدجاج الأسترالي، بحيث يفعل الإنسان فعله بناء على حب قلبي، فيكون إذن أشبه من بعض الوجوه بتلك الحيوانات في الأمثال التي قدمناها. فكما نرى الحيوانات الزاحفة تعطف على صغارها قبل خلقها وتهيئ لها الأماكن التي تلائمها لا تطلب جزاء ولا شكوراً إلا أداء الواجب طاعة لضمائرها، هكذا لا يرى الناس لهم بعد الموت منزلة إلا مع قوم تجمعهم وإياهم رابطة فكرية عملية بحيث يلتئمون في آرائهم التئاماً قلبياً حقيقياً. أما ما ليس له أصل في القلب من الأعمال ولا له منزلة من المحبة في نفس الإنسان فهذا ملغى لا عمل له. فإذا رأينا رجلاً مغرماً بإيذاء جيرانه أو مقاضاة أعدائه أو الحسد والمحاربة وقلبه فرح بهذه الأعمال وغلبت عليه غلبة حقيقة ومع ذلك يعمل أعمالاً صالحة فهذا بعد الموت ينظر في أمره وهو نفسه لا يستحلي إلا ما غلب عليه في الدنيا من هذه الأمور الشيطانية، ولا سبيل للنفاق والخداع هناك. فهذا يستحيل عليه أن يدخل مع الأبرار بل يدخل مع أمثاله الذين هم إخوان الشياطين في جهنم. وبالعكس ذلك الذي عشق الفضيلة ومنفعة الناس وصار ذلك ديدناً له أو أحب العلم وكان أكثر غرامة، فهذا بعد الموت ينطلق إلى أمثاله ولا يعرف كيف يعاشر إلا أولئك الذين أحبهم ولا يألف سواهم. وهناك لا أحد يحجز أحداً عن مرتبته، فمتى استحق مرتبة دخلها ومن لا يستحق ولا استعداد عنده فإنه لا يقدر هو نفسه أن يعيش بين أهلها بل يفرّ منهم فرار الغنم من الذئاب.

وقد وضح في صفحة ٢٨٩ من كتابه هذا الموضوع إيضاحاً لم أجد له نظيراً إلا في بعض كتب محيي الدين ابن عربي وفي إشارة قرآنية. ذلك أنه قال: إن الروح الصالحة تسلب منها جميع ما لا يتفق مع صلاحها ثم تدخل مع الصالحين، ويفعل نظير هذا الفعل مع الروح الشريرة فتسلب الفضائل لغلبة الرذائل عليها وحبها لها، حتى يمكنها أن تعيش مع الأشرار مشاكلة لهم، فتجد الروح هي نفسها تحول وجهها إلى الوجهة التي غلبت عليها من تلقاء نفسها، ولن تقدر الروح أن تقاوم ما غلب على طبعها فتكون الروح إذ ذاك أشبه بمن غلب عليه في الدنيا شرب الخمر فلم يقدر على التخلص من ذلك، أو غلب عليه الإحسان للناس، فكل منهما لا يقدر على تغيير طبعه، هكذا هناك وتصير تلك الأخلاق أشبه بالجاذبية بين الأرض وما عليها، وإذن تكون الرذائل القليلة وسط الفضائل الكثيرة أشبه بالحشائش النابتة في وسط الذرة المزروعة زرعاً متقناً في أرض طيبة قد سمدت تسميداً جيداً، فهذه تهلك حشائشها في وسط تلك الذرة، وتكون الفضائل القليلة وسط الرذائل الكثيرة كالذرة النابتة وسط الحشائش في أرض غير طيبة التربة ولم تسمد تسميداً جيداً ولم يقم عليها الزراع حق القيام، فإن الحشائش إذ ذاك تغلب على الذرة فلا تثمر. فهذا هو المثل الذي اخترته لغلبة الخير على الشر. اللهم إن هذا القول عينه ينطبق على ما يقوله المؤلف المذكور وترجع سجايا الإنسان الغالبة عليه أشبه بما أودع في غرائز الحشرات من العطف على ذريتها، فيكون عالم الآخرة كعالم الدنيا نظاماً واحداً ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، وبهذا يظهر قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، ويظهر أيضاً ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الساعة؟ فقال للسائل: ما أعددت لها؟

قال: حب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت. وهذا عجب فهو موافق لقول هذا العالم الروحي. ويشهد لنزع الرذائل من نفوس الأبرار الذين لم تغلب عليهم شقوتهم قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[الحجر: ٤٧]. أقول: وإذا لم يكن الأمر كذلك ولم يكن هناك نزع بل تبقى جميع الصفات ملازمة للناس بعد الموت، فإن هذه الصفات نفسها عذاب أليم. فالحقد والبغضاء والخوف والجبن وأمثالها هي نفسها عذاب، وأكثر الناس قد لزمتهم بعض العادات فلا يقدرون على التملص منها.

فهل الفضلاء الذين على هذه الصفة تلازمهم ولا تفارقهم صفاتهم، وإذن يكونون إلى الأبد في عذاب أليم، فهذا النزع يكون فرجاً لهم، ومن قرأ كتاب «إحياء علوم الدين» لا سيما الجزء الثالث منه واطلع على المهلكات فيه لم يدخل في قلبه شك أن صفات الشر لا تفارق الإنسان بعد الموت وهذا غالباً يورث اليأس، فأما هنا فإنه يقول: إن مئات من غلبت عليهم الفضائل تفصل عنهم وإذن يدخلون الجنة مع أحبابهم. وقد جاء في هذه السورة: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾[المؤمنون: ١٠٦]، وهذه الآية موافقة لما قالته الروح كل الموافقة. فغلبة الشقوة كافية في إدخال جهنم كما أن طالب العلم الذي غلبت عليه اللصوصية تراه يترك العلماء ويعيش مع اللصوص كأن الشقوة غلبت فمحت العلم وآثار العلم، ويقول الله تعالى هنا: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

أليس هذا من العجب؟ إن القرآن يصرح بثقل الموازين وخفتها، أي: إن المدار على الغلبة. ويرجع الأمر لما يشبه الغرائز الحيوانية المتقدمة في الفصل السابق ويطابق قول الأرواح معاني القرآن.

رب إن الهـــدى هـــداك وآياتك نور تهدي بها من تشاء

هديتني فرأيت كتاب العالم الروحي ورأيته من كل وجه يشبه الذرة والحشائش، ورأيته يوافق القرآن. ثم أطلعتني على ما كان يعتقده قدماء المصريين، إذا هو أشبه بما في القرآن وكلام الأرواح، ومثل النبات المتقدم وغرائز الحيوان كما تقدم في وزن الأعمال عندهم. فالحمد لله على نعمة العلم وبدائع الحكمة وعجائب الفرقان.

(١) وقد قال «عمانوئيل»: إن روحاً صالحة معلومة أرادت أن تعلم شريرة فهربت بعيداً، فلما وصلت إلى أمثالها سرت بهم وعاشت معهم.

(٢) وقال أيضاً: إنه رأى روحاً صالحة تعلم قوماً صالحين فأصغوا إليها إصغاء تاماً، وأما الأشرار فإنهم لم يصغوا كأنهم لا يسمعون.

(٣) ومن عجب أنه في صفحة ٢٩٢ من كتاب «السماء وجهنم» للمؤلف المذكور يقول: قالت الملائكة إن حياة المحبة السائدة لا تتغير مطلقاً مع أحد إلى الأبد، لأن كل واحد هو محبته الخاصة به، فإذا أريد تغيير هذه المحبة في روح فذلك يوجب حرمانها من حياتها وإعدامها، وقالوا: إن سبب ذلك أن الإنسان بعد الموت لا يمكن فيما بعد إصلاحه بالتعليم كما في العالم. ثم قال: فالعواطف القلبية والآراء العقلية أشبه بأساس البيت، وهم يتعجبون من الناس كيف لا يفهمون أن رحمة الله ما هي إلا واسطة فقط وسخروا ممن يعتقدون أن الرحمة وحدها تخلصهم من الإيمان، وهذا القول ناطق بقوله

تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾[العنكبوت: ٢]، وناطق بقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[المائدة: ٣٧].

(٤) وجاء في صفحة ٣٣٠ من الكتاب المذكور ما ملخصه: أن أناساً من الأشرار لما ماتوا ظنوا أنهم يقبلون التعاليم النافعة لدخول الجنة، ولكنهم لما سمعوها من الملائكة قبلوها أولاً، ولكنهم لم يقدروا أن يعيشوا بها ويستمروا عليها، وإنّما أبيح لهم ذلك ليكونوا على بينة من أمرهم، وأن تلك الحال لا يكون أساسها إلا في الدنيا، فأما بعد الموت فإن الباب أقفل. وهذا نفسه قول الله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾[الأنعام: ١٥٨] الخ، وقوله تعالى: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾[يونس: ٩١]، وقوله تعالى هنا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ثم قال المؤلف من نفس الصفحة: (أ) إن بعض الأرواح لما سمعوا تعاليم الملائكة المذكورة رفضوها حالاً ولم يحبوا سماعها. (ب) وبعضهم قالوا: إذا كانت أخلاقنا وعواطفنا الشريرة قد منعتنا من دخول جهنم فنحن نحب أن تؤخذ منا هذه العواطف والأميال، فأجيبوا إلى طلبهم، ولكن أصبحت تلك الأرواح بعد أخذ أخلاقها وعواطفها منها مطروحة كالموتى ولم تبق لهم حواس. ثم قالت الملائكة: إن تغيير الروح بعد الموت أشبه بتغيير البوم الذي يعيش في الليل إلى حمام يعيش في النهار. انتهى ما أردت نقله من ذلك الكتاب. أنا أحمدك يا الله إذ وفقتني لنقل هذا وفهمه. لقد تبين من هذا أيها الذكي أن أرواحنا بعد الموت تصبح حياتها موقوفة على صفاتها التي كسبتها في الدنيا.

وهنا ظهر فيما تقدم أمران عجيبان:

الأمر الأول: أن الروح الصالحة التي أحبت الأعمال الفاضلة تنزع منها الشرور حتى يمكنها أن تعيش مع الفضلاء الذين هم في درجتها، وقد تقدم هذا هنا أولاً، وأن الروح الشريرة التي غلبت عليها شقوتها تنزع منها فضائلها لقلتها لتكون موافقة لأصحابها وأمثالها.

الأمر الثاني: أن الروح الشريرة التي غلب عليها الشر إذا أخذ الشر منها وسلبت تلك الصفات تكون معدومة الحس والحركة، فهنا لا يسلب شرها. لماذا هذا؟ لأن روحها ليس لها قوة سوى قوة الشر، ولو كانت لها قوة خيرية لاعتمدت عليها في الحياة والبقاء.

فهاهنا لا بد من رجوع شرورها لها حتى يمكنها أن تعيش، فإذن تصير الأرواح الشريرة أشبه بالفيران التي تعيش في المراحيض وكالحيات والعقارب، فإن هذه إذا نزعت منها أوصاف الفيران وأوصاف الحيات والعقارب لم تعش يوماً واحداً. ولو أننا وضعنا حماماً مع البواشق والشواهين لم تستقم حياته. وهكذا لا تعيش الأرضة في أماكن النمل ولا النمل في أماكن الأرضة، انظر في سورة «النمل» إذ ظهر الآن سرٌّ عظيم، وذلك السر أن الله لا يعدم أهل جهنم كما لا يعدم الحيات، لأن الحيات تكره الموت لأنها ترى لها حياة وهي عزيزة عليها. هكذا أهل جهنم إذ يرون أنهم في حياة كما ترى الحية ولا يحبون زوالها، فلما أخذت منهم الصفات التي بها حياتهم صاروا أشبه بالأموات فرجعت إليهم الحياة لأنهم يقولون: شيء خير من لا شيء، فلا فرق بينهم وبين المسجونين، فالمسجونون

يحبون الحياة وإن كانوا أذلاء . إذن حياة أهل جهنم مع عذابهم لطف من الله بهم وكان ذلك من الرحمة العامة ، إذ قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف : ١٥٦] .

مذكرة

لا تظنن أيها الذكي أني وإن كنت أوضحت هذا المقام إيضاحاً أني أقطع بـه . كلا . وإنّما أقول إن هذا قول علماء الأرواح وقد نقلته من كتاب المؤلف المذكور وعلقت عليه ، فإذا صح قوله فهذا توجيهه . ومعنى هذا أن تكون مشكلة جهنم قد انحلت في هذا التعبير انحلالاً تاماً ، فإنه إذا قال قائل : لماذا يعذب الله الناس إلى الأبد وما ذنوبهم ، وهل هذا إلا الظلم المبين ، وهلا هداهم؟ فقال : إن الله فعل الممكن وليس من الإمكان أن تحول العقارب إلى عصافير ولا العصافير إلى عقارب ، ومتى حول أحدهما إلى الآخر مات فلا سبيل للحياة التي هي مستمدة من الرحمة إلا ببقاء المخلوق على ما كان عليه ، ونقله من هذه الصفات معناه إهلاكه ، وهذا ينافي الرحمة . ومتى أمكن بقاء الروح مع حذف بعض الصفات بقيت الروح وحذفت تلك الصفات كالروح الصالحة التي لها من الصلاح ما به تقدر أن تعيش ويكون لها به قوام ، فإن الملائكة إذ ذاك تنزع منها الشر فيبقى الخير الذي غلب حافظاً للروح فتعيش ، ولا يكون أخذ الشر منها مضراً لها ، غاية الأمر أنها ضعفت بعض الضعف كما يضعف الذي تعاطى المسهل .

الله أكبر . أليس هذا إن صح يفسر كثيراً من آيات القرآن وكلام السنة . فقد ورد في الحديث « لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن هذه النفوس قوية جداً وليست تذنب إلا أصغر الذنوب ، وهذه لا تؤثر فيها لأن محبتها للخير تامة ، وقد قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[النجم : ٣٢] .

وإن صح ما جاء في كلام هذا المؤلف يدخل في أحاديث الشفاعة ، فإذن تكون الشفاعة بالغفران لأرواح قويت في الخير حتى يمكن أن تعيش هناك ، فلو أن الأرواح صارت كالحيات والعقارب في الشر فكيف تصير أشبه بطيور أو طواويس . وهكذا تعرف قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام : ٢٨] ، لماذا ذلك ؟ لأنهم لا يعيشون إلا على أخلاق خاصة ولا معنى لأخذهم منها إلا هلاكهم ، فالرحمة تقتضي أن يعيشوا ، إذن الروح تأتي إلى أرضنا وهي خالية فتعطى من القوى ما به تعيش ، والقوة إما قوة شر كاللصوصية وإما قوة خير كالإحسان ، فلن يعيش الأول ولن يعيش الأخير في الجنة أو النار إلا بقوته التي كسبها . انتهى ما أردت ذكره في هذا المقام ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم في آيتين من هذه السورة :

آية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الآية : ٧٣]

وآية : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الآية : ١٠٢]

هاأنت ذا أيها الذكي شاهدت الميزان الذي رسمه قدماء المصريين إظهاراً للمعقول في هيئة المحسوس وتبياناً للمعاني بالأمثال . فاعجب من تتابع الديانات وتلاحقها وتشابهها . ففي القرآن ميزان وفي الكتب قبله ميزان .

وهنا أريد أن أبين لك ما فتح الله به ليلة الأربعاء ٧ نوفمبر سنة ١٩٢١م في معنى هاتين الآيتين، ذلك أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المؤمنون: ٧٣] قد ثبت بها أن لله صراطاً وآية الوزن أثبتت أن له ميزاناً. ويقول في سورة أخرى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٢ـ٥٣]، وفي سورة «إبراهيم» يقول: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الآيتان: ١ـ٢]، وفي سورة «هود» يقول: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الآية: ٥٦]، وفي «الفاتحة» يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] الخ.

فهاهو ذا الصراط جاء في هذه السور الخمس، ففي هذه السورة ذكر مطلقاً غير موصوف منكراً، ولكنه في السورتين الثانية والثالثة وصف الصراط بأنه صراط الله، وفي الرابعة أشار إلى أنه خلق الحيوان ونظمه وأحكم أمره وجعله على هذا الصراط، وفي «الفاتحة» جعله صراط الذين أنعم عليهم من بني آدم.

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق. لقد مننت يا الله بالحكمة وأنعمت بالعلم فلأشرح ما شرحت به صدري في هذه الأيام لتبتهج النفوس وتنشرح الصدور بما مننت من العلم وما ألهمت من العرفان. سبحانك اللهم، لقد ذكرت الصراط نكرة في هذه السورة ثم أبنت في السورتين الأخريين أنه ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٣] فعرفنا أن الصراط في هذه السورة وفي السورتين الأخريين إنما نعرفه بما في السماوات والأرض، ولا معنى لهذه المعرفة إلا بالعلم، والعلم يرجع إلى علم الفلك ونظام الطبيعة. نظرنا في علم الفلك فألفيناك قد عدّلت وقومت وهندست وزوقت ونظمت وأحكمت. كيف لا ونحن نعلم:

(١) أن الشهور العربية مثلاً لها موازين معلومة وحساب لا يتغير، حتى إن السنين الكبيسة والسنين البسيطة لا تتغير ولا تتبدل بحيث يكون في كل ٣٠ سنة ١١ سنة كبيسة و ١٩ سنة بسيطة، وذلك في الدور الأصغر، وتكرر الثلاثون سبع مرات فيكون الدور الأكبر ٢١٠ ويعود ذلك ويكرر أمد الدهر، فالسنة الكبيسة ٣٥٥ يوماً والبسيطة ٣٥٤، وقد مرّ شرح هذا مراراً في هذا التفسير. وكأنما هذا الحساب موسيقى تصدح فإن نسبة ١١ إلى ١٩ كنسبة ٢٢ إلى ٣٨ وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين، وهكذا يستمر هذا النظام مهما تكرر إلى ما لا يتناهى. فهذا مثال واحد من أمثلة نظامك في سماواتك.

(٢) وهذه الشهور العربية لن تعرف حق معرفتها عند علماء الفلك وتوزن حق وزنها إلا بأن يحسبوا ما بين كل كسوفين للشمس ويقسموه على عدد الأشهر، فيخرج لهم الحساب بالدقة بالدقائق والثواني وما هو أقل من ذلك. إذن حدوث الكسوف والخسوف بحيث يكون القمر بين الأرض والشمس في الكسوف في أواخر الشهور، وتكون الأرض بين الشمس والقمر في أنصاف الشهور في الخسوف، ويكون الثلاثة في الحالين في عقدة واحدة، لم يكن رمية من غير رام ولا مصادفة واتفاقاً، بل لها منافع كثيرة ومنها هذه، فإن اللحظة التي يقف فيها القمر بين الأرض والشمس وقد منع عن

أبصارنا ضوء الشمس بها ندرك أن هذه اللحظة هي نهاية الشهر، فيكون ما بين هذه الحادثة والتي قبلها معلوماً عندنا ونقسمه على عدد الشهور. فهذا ضبط الحساب لنا في معاملتنا وأعمالنا في الأرض. وفوق ذلك قد عرفنا أن عدد مرات الكسوف والخسوف في كل مدة تبلغ نحو ١٨ سنة محدوداً لن يتغير أمد الدهر، فالخسوف والكسوف محدود العدد والأشهر التي يحصرانهما تضبط بهما.

بيان تام لهاتين المسألتين

اعلم أن الأقدمين قد سموا مدة قدرها ١٨ سنة و١١ يوماً باسم مخصوص وهو «ساروس»، وهذه المدة تحتوي على ٧٠ خسوفاً وكسوفاً، منها ٢٩ خسوفاً و ٤١ كسوفاً، والخسوفات والكسوفات التي تشاهد في غضون هذه المدة تحصل في المدة التالية لها بعينه وفي التواريخ بعينها. وبذلك توصلوا إلى القول بالخسوف والكسوف مقدماً كما يتوصلون إلى معرفة الظهر والمغرب قبل حصولها.

ثم إنهم اعتادوا أن يعينوا خسوفين اثنين منفصلين بعدد عظيم من الدورات الاقترانية المسماة «الحركات الدورية» أيضاً، أي: دورات القمر حول الأرض، ويقسمون المدة الكلية بينهما على عدد الدورات فتحصل المدة المتوسطة وهي ٢٩,٥٣٠٥٨٨ يوماً أو (يوم ٢٩، س ١٢، د ٤٤، ث ٢,٩)، وهل تم هذا الحساب الذي عرفنا به مدة الأشهر إلا بفضل الخسوف. فالخسوف إذن أشبه بمدفع الظهر بمصر الذي نضبط الساعات عليه، فهو ضابط أزمان الأشهر العربية ومددها ولولاه لم تتم هذه الحكمة.

هذان مثلان لما فعلته يا الله في الفلك ودبرته في الحساب. فهذا صراطك الذي سلكته في سماواتك، فقول الله لنا في سورة «إبراهيم»: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١-٢]، وقوله في سورة أخرى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، يذكرانا بهذا الصراط المستقيم الذي اتضح لنا بحسابه ونظامه وبأدنى تأمل في نظام الأرض والسماوات في هذا التفسير نعرف صراطه فيهما، ألم تر إلى ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الآية: ٨] في سورة «الرعد» فهناك تجد مقادير حركات الأحجار الساقطة وحسابها المنظم وبدائع الحكمة في السماوات والأرض، بحيث ترى أن أبعاد الكواكب عن الشمس جارية على مقتضى المتوالية الهندسية «٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٩٦»، وهكذا أمر الثلج ونظامه فهو مرسوم هناك مبين حسابه وبهجته. فهذا وأمثاله كثير في هذا التفسير. صراط الله هذا هو الذي هدانا إليه قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، فهو بذكر السماوات والأرض أفهمنا أن نبحث عن صراطه فيهما، ولا سبيل للبحث فيهما على ذلك الصراط إلا بعلم الطبيعة وعلم الفلك. فقارئ القرآن حين يسمع قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣] يريد أن يعرف أي صراط هذا. فيقال له: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، فيدرس هذه العلوم فيعرف صراط الله المستقيم، ثم يسمع قوله تعالى أيضاً في سورة «هود»: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية: ٥٦]، هنالك يدرس الحيوان بعد أن درس نظام السماوات ونظام الأرض على وجه عام، أما الحيوان فإن له حالاً خاصة فيدرسه أيضاً ليعرف صراط الله فيه، فيرى أن الجرذان عاشت تحت الأرض والظباء في الأدواح والنمل اتخذت البيوت والكستور يتخذ له من

أغصان الأشجار جسراً متيناً على هيئة سدّ يمنع عنه قوة السيل، وذلك بهندسة لا تنقص عن هندسة الإنسان، بل الإنسان تعلم منه. والدب في المنطقة الشمالية يسافر في البحر على قطع من الثلج إلى حيث يقصد. والسنجاب يركب خشبة في البحر بدل الثلج ويجعل ذنبه قائماً مقام القلع وقائماً مقام «السكان»، وهي الدفة عند العامة التي بها يدير هذه السفينة يمنة ويسرة. والطواف وهو نوع من ذوات الأصداف يركب صدفته ويرفع مرساته وينشر أغشية للريح ويسافر من مكان إلى مكان وهكذا. والديمورا أعطيت قوة بأن تذلل أي حيوان بحري لتركبه بهيئة خاصة.

وهذه المسائل تقدمت بعينها في سورة «طه» ذكرت قليلاً منها هنا لتكون مثالاً لصراط الله المستقيم في الحيوان، لأننا رأيناه كما أن صراطه مستقيم في حساب الكواكب وشهورها وسنيها وفي حساب العوالم الأرضية رأيناه أيضاً يعطي كل ذي حق حقه من الحيوانات وينوع في الإعطاء بحسب حال الحيوان ذاته، ويجعل ألوانه مناسبة لحال معيشته، وهذا الأخير تقدم في أول السورة فارجع إليه تجده هناك موضحاً. فالصراط في هذه السور الثلاث أفهمنا قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٦-٧] فالمنعم عليهم من الناس ينهجون نهج الله في صراطه المستقيم، وصراطهم المستقيم هو التوسط بين الإفراط والتفريط. ولا جرم أن هذا يفتح لنا باب فهم الميزان الذي أصل كلامنا فيه.

الميزان

جاء الميزان في سورة «الرحمن» إذ يقول تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الآية: ٧] والميزان في السماوات هو جعلها منظمة كما رأيت في الأمثلة المتقدمة.

فالله حسب حركات الأفلاك أولاً ثم أدارها على مقتضى ذلك الحساب، فالحساب يعبر عنه بالميزان، وجريها على مقتضى الحساب يعبر عنه بالصراط، فهو يزن الأمور ويجعل العمل على مقتضى الوزن، وهذا ينطبقان على لفظتي القضاء والقدر، فالقضاء التقدير أزلاً، والقدر هو سير الحوادث على مقتضى القضاء. وأفضل أحوال العبد أن ينهج نهج ربه، فالله على صراط مستقيم، فليكن العبد على صراط مستقيم. فإذا كان الصراط المستقيم الإلهي في السماوات بحسب حالها وفي الأرض بحساب حالها وفي الحيوان بحسب حاله هكذا فليكن الصراط المستقيم عند الإنسان هو صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم.

ولقد أشار الله إلى ذلك في سورة «إبراهيم» إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر الناس بأيام الله ووقائعه في الأمم، وجعل أن في ذلك آيات للصابرين الشاكرين، فينهجون نهج الخيرات في الخير ويجتنبون الشرور في الشرّ بحسب ما ذكروا به من وقائع الأمم، وذلك نفسه هو المذكور في «الفاتحة» إذ يقول تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الآية: ٧]، ومعلوم أن المنعم عليهم والضالين والمغضوب عليهم لا يعرفون إلا بالتاريخ، ولا معنى للتاريخ إلا وقائع الأمم المذكورة في سورة «إبراهيم» يقول الله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥]، إذن يجب أن يقوم جماعات في الأمم الإسلامية فيؤلفوا كتباً فيها شذرات جميلات من التاريخ العام والتاريخ الخاص بالإسلام وبالأوطان التي يراد انتظامها ليكون ذلك صراطاً ينهجه المجدّدون لهذه

الأمم الإسلامية، ويناسب ذلك كله قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧-٩].

وأنت أيها الذكي تعرف هذا مما تقدم في أول سورة «يونس» عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[الآية: ٥]، وكيف كان هرم قدماء المصرين مبنياً على مقتضى مقدار مدار الأرض حول الشمس، فمحيط الهرم منسوب لمدار الأرض وارتفاعه لبعد ما بيننا وبين الشمس، والضلع الواحد من الهرم جعل أذرعاً معلومة، والذراع جعل مقياساً للأطوال وللسطوح، وجعل مكعبه مكاييل مصرية من حيث الحجم وموازين مصرية من حيث الثقل، وكل ذلك مستعمل إلى الآن في بلادنا المصرية كما مر هناك موضحاً إيضاحاً تاماً. فالله يقول لنا: هذا هو ميزاني في عوالمي فزنوا على مقتضاه، واجعلوا نموذج ميزانكم من نموذج ميزاني كما هو واضح في البلاد المصرية. إذن عدلنا في الأرض على نسق عدل الله في السماوات، وإذا قرأنا تاريخ الأمم ظهر لنا جمال العدل وقبح الظلم في أفعالها فنرجع لسنة الله. فإذا رأينا قوم شعيب عليه السلام يطففون المكيال والميزان وقد حادوا عن سنة الله في ذلك احترسنا من فعلهم ورجعنا للعدل الذي سنه الله في عوالمه. فليكن تاريخ الأمم الحاضرة للعبرة والذكرى كما بينه الله في القرآن.

تذكرة

لقد كنت قرأت من ٤٠ سنة في بعض كتب الإمام الغزالي أن الميزان لا يعرفه إلا من درس سائر العلوم. ولما اطلعت على شذرات منها في «دار العلوم» وفي دراستي الخاصة ألفت كتاباً صغيراً بعد ذلك سميته «ميزان الجواهر» وهو ثاني كتاب ألفته في هذه العلوم: فأنا الآن أحمد الله عز وجل إذ علمني ما لم أكن أعمل، وأنعم عليّ وعلى الناس بهذا التفسير، فانظر أيها الذكي كيف كان دين الإسلام شائقاً لكل علم؟ وكيف غفل بعض صغار المتعلمين في عصرنا فظنوا أنه دين لا يألف العلم ولا العقل. انتهى والحمد لله رب العالمين.

تبيان

هل التبحر في العلوم الطبيعية والرياضية الذي يقتضيه الميزان المذكور في القرآن والصراط كما ذكرناه مرقّ للأخلاق الإنسانية؟ أم نرى أولئك المتبحرين تضل أعمالهم في هذه الحياة الدنيا؟

الجواب: اعلم أن العلم والجمال والمال والصيت والسلطان كل أولئك صالحات للخير وللشر سواسية تصلح للشر وللخير. وآية ذلك أن كثيراً من هؤلاء يسارعون إلى الشرور والموبقات والاحتيال ويهيمون على وجوههم في المخازي والعار، كما أن كثيراً منهم رفعوا أممهم إلى المستوى الرفيع والمجد الباذخ. فالمال سلاح، والعلم صراط مستقيم، والجاه والسلطان أجنحة، ومن لا مال له قل عمله، ومن لا علم عنده ضل وغوى، ومن لا سلطان له أصبح كطائر لا أجنحة له ولا قوة.

ولقد حضّ «سقراط» في تعاليمه على فتح عين البصيرة لأولي العلم، وأبان أن هذه الطائفة إن لم تكن عاشقة له ساء مصيرها وضل سعيها، مبرهناً بما يأتي:

إن للإنسان ثلاث قوى: الشهوية للغذاء والتناسل واللباس والمساكن، والغضبية للاستعلاء والاستيلاء والمدافعة، والعقلية للعلم والحكمة.

فإذا كان القائمون بأمر المدن لم تفتح بصائرهم فتعشق العلم عشقاً مفرطاً بحيث تضارع في عشقها له وحبها القوتين الأخريين الشهوية والغضبية فإن صاحبها لا يرى أمامه إلا بابين من اللذات: باب الانتقام بالقوة الغضبية، وباب الشهوات في المال والنساء، وإذن يقول في نفسه: ما فائدتي من علوي على الناس أآكل مما يأكلون وأقتصر من الشهوة البهيمية على القليل؟ كلا. فلأشارك الناس في أموالهم بالرشا وفي أعراضهم بالزنا وإلا كنت غير رابح من هذه الحياة ربحاً يناسب علوي على الناس. فأما ذلك الذي فتحت عين بصيرته وعشق العلم واستنارت بصيرته فإنه بينما تراه يحكم بين الناس بالعدل يكون غرامه موجهاً إلى إدراك الحقائق باحثاً عن عجائب هذا الوجود مبتهجاً ببهجة لا يحس بها غيره، وإذ ذاك يعلم علماً ليس بالظن أن بينه وبين صانع هذا العالم محبة فائقة، وعلى مقدار ارتقائه في تلك المدارك تكون لذته بها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ويرى الناس أبناءه وكأنما هو خليفة عليهم أو أم لهم، وتتمثل له هذه الدنيا والعدل فيها بهيئة قناطر بناها المهندسون، فإذا غفلوا عن إحكامها وانتظامها وحسن إتقانها اعتراها الاختلال فجرى الماء وأغرق البلاد وأهلك العباد. فالوزن والنظام في القناطر والجسور يضارعه الوزن والنظام في الأخلاق والحساب في المعاملات، ونظام البنيان يضارعه قراءة التاريخ وسير الرجال في علم الأخلاق، فالتاريخ والحوادث وعلم الأخلاق والقانون والفقه كل هذه موازين لأعمال الناس وأحكامهم ومعاملاتهم وقضائهم، كما كان علم الهندسة والحساب والجبر وأمثالها موازين توزن بها أعمال دواوينهم ونظام مدنهم وهندسة مبانيهم، وكما كان رقاص الساعة تبياناً لأوقاتهم ومواعيد أعمالهم، وخسوف القمر مبيناً مقادير شهورهم كما تقدم موضحاً، وهكذا مقاييسهم وموازينهم المرتبة على النظام العام، كما في ضلع الهرم المبني على مقتضى مدار الأرض حول الشمس، إذ كان محيط الهرم جزءاً من مليار منه، والارتفاع جزء من البعد بين الأرض والشمس، وضلع الهرم المذكور أصل كل مقياس في مصر. هكذا «المتر» لم يصنعه الفرنسيون إلا على مقتضى محيط الأرض، و«الياردة» عند الإنجليز ترجع للمعدن في رقاص الساعة الذي يدق في الثانية مرة واحدة، فهو إذن رجع للنظام العام. وهكذا نرى في هذا العصر أن الماء يعرف مقداره بآلة تعدّه. وهكذا بخار القطار له جهاز يعرف به عده كما يعرف الزمن بالساعات. وتقاس الحرارة بالمقياس المتيني «سنتجراد» أو بمقياس «فارنهيف» الإنجليزي أو بالمقياس التلياني وهو الثمانيني، كل تلك المقاييس تنبه على الطبائع الثابتة. فقوى الحرارة لا خطأ فيها كما لا خطأ في سير الكواكب وفي الجاذبية، وهكذا مقاييس الكهرباء. فهذا كله من الميزان الذي قامت به السماوات والأرض، وكلما كثرت موازين الأمة زاد ارتقاؤها وعقولها، وبنقص الموازين تنقص العقول والنعم وموارد الرزق، ويجمع هذا كله قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فالله يشهد بوحدانيته مع القيام بالقسط وهو ما شرحناه، ويليه الملائكة ويعدهم أولو العلم وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، فظهر أن هؤلاء هم الذين يخشون الله، ومتى عمت

هذه الآراء في أمم الإسلام ظهر فيهم حكماء مجددون بهم يدوم مجد هذه الأمة الإسلامية، كما دام مجد قدماء المصريين آلافاً وآلافاً قبل أن يحل بهم الفساد والفسوق والترف، فإن هذه المباحث قد أشربت بها نفوسهم وحببت إلى قلوبهم حتى كتبوها على صناديق موتاهم للتبرك بالبروج السماوية والكواكب الدرية المرسومة كما رأيته في الكتب المنشورة حديثاً.

ونظير صراط الله في السماوات والأرض صراط الإنسان بالعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، لأنها وسط بين الإفراط والتفريط. وخير معرف لمحاسن الأخلاق تاريخ الأمم، والله يقول في ذلك: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٦-٧]، وهم الذين يقرأ الناس سيرهم في التاريخ. ويقول أيضاً: ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥] ومن ذلك علم التاريخ والوقائع.

هذا ما فتح الله به صباح يوم السبت ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨م، وبه تم تفسير سورة «المؤمنون»، والحمد لله رب العالمين.

تذكرة

قد اطلع أحد الإخوان على ما كتبته هنا في أقوال «عمانوئيل» في صفحة ٢٢٢ وما بعدها فقال: إن هذا الكلام معناه أنه لا تغيير للأخلاق بعد الموت وكان هذا يأس للنفوس، فهل أنت واثق بأقواله؟ قلت: هذه أمور غيبية، والغيب لله، ولكن هذا القول أشبه بما جاء في علم الأعداد، فإن علماء خواص الأعداد يقولون: إن لكل عدد خاصة لا يشركه فيها سواه، فالاثنان أول الأعداد، أما الواحد فليس منها لأنه لا تعدد فيه، والثلاثة أول عدد فردي، والأربعة أول عدد زوجي، والخمسة عدد كروي أي أنه متى ضرب في نفسه مرة أو مرتين أو آلافاً فإن ٢٥ يكون محفوظاً دائماً، ولم يجدوا عدداً مثله، وهكذا ٦ مثله في أنه يحفظ عدد ٦ في جميع مضروباته لا غير، وليس مثل ٥ في حفظه الآحاد والعشرات. فالعالم الذي نعيش فيه كأنه أعداد وكل عدد لا يشارك سواه، فكل فرد لا يشارك سواه في خواصه. هذا من جهة يوافق حديث: «كل ميسر لما خلق له»، ومن جهة أخرى نقول: نحن نجهل خواص النفوس والله هو العليم وحده بها. فإذا قرأنا حديثه صلى الله عليه وسلم في الشفاعة وأن الله لا يزال يخرج العاصين من النار حتى يخرج من قلبه مثقال ذرة من إيمان، ثم هو نفسه ـ وهو أرحم الراحمين ـ يخرج أناساً منها برحمته لم يفعلوا خيراً قط، رأيناه ينطبق على الرحمة التي شاهدناها له في الدنيا وهو الذي يليق بجماله وجلاله. وأما مشاهدات «عمانوئيل» إن صح ما نقلناه عنه فهي جزئية لا كلية، والله وسعت رحمته كل شيء ومع هذا علينا أن نحترس من الذنوب حتى لا يحجبنا عن مشاهدته وعن النظر لوجهه وعن دخول جنته. وينبغي أن نزداد علماً حتى نخشاه، وكلما قل علم الإنسان قلت خشيته من ربه، وكلما كثر علماً زادت خشيته، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء الحادي عشر من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء الثاني عشر

وأوله: تفسير سورة «النور»

فهرس الجزء الحادي عشر

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم